سلسلة دراسات
في المجتمع العربي السعودي
الكتاب التاسع

علم الاجتماع الديني

تأليف
دكتور عبدالله الخريجي
أستاذ علم الاجتماع
جامعة الملك عبدالعزيز - جدة

الطبعة الثانية
١٤١٠هـ - ١٩٩٠م

ملتزم التوزيع
رامتان - جدة
المملكة العربية السعودية
ص.ب : ٨٩٥٠ / ٢١٤٩٢

وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِاللَّهِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى في سورة « الكافرون » :

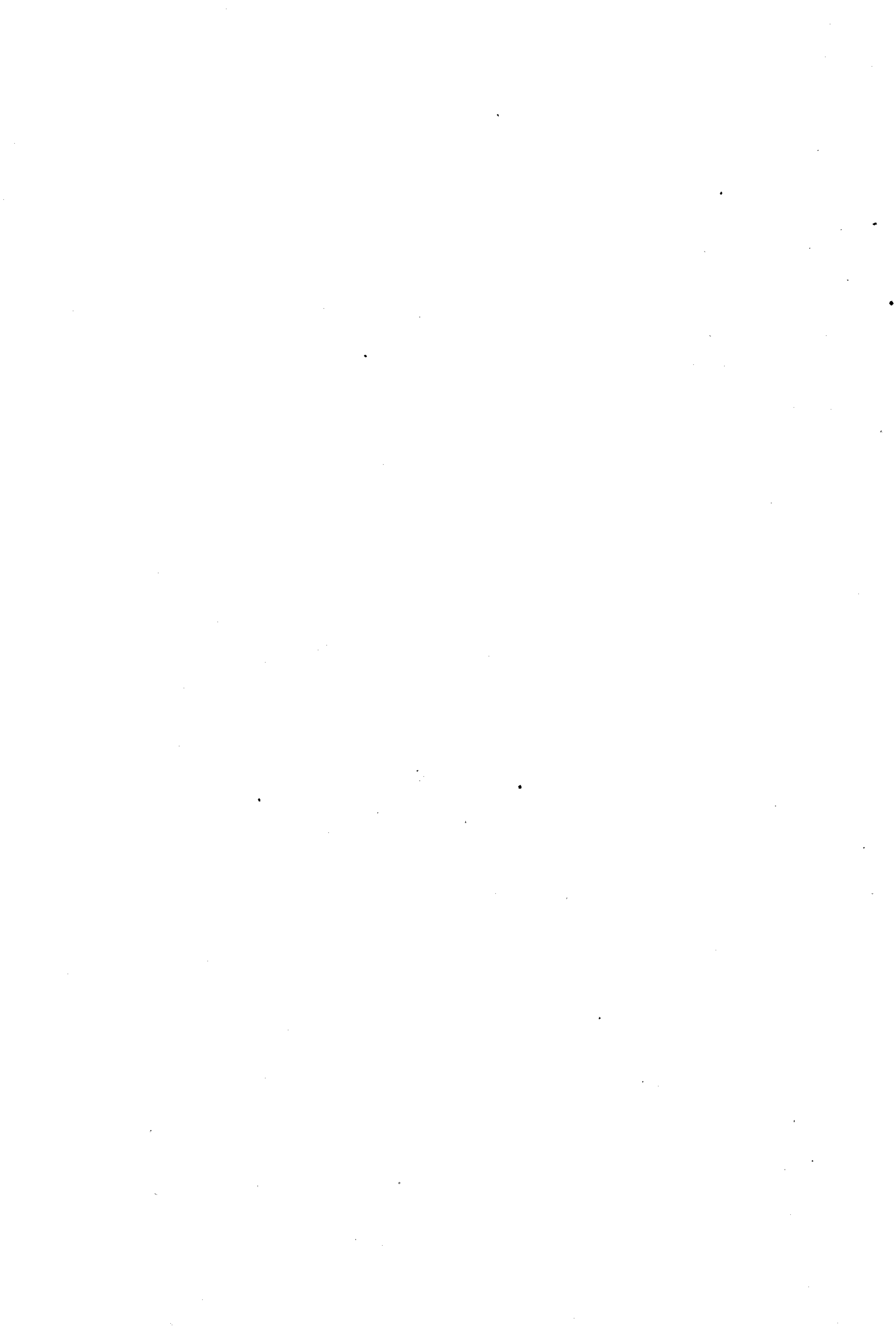
﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾

صدق الله العظيم

الإهداء

وهذا كتابي الجديد أعود فأهديه إلى
أمي العزيزة - يرحمها الله -
ويسعدني أن يجد الناس فيه خيراً، وأن يكون لها
عند الله خيراً وأعظم أجراً.

عبدالله الخزرجي



محتويات الكتاب

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

الباب الثانى

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

الباب الرابع

الانثروبولوجيا الدينية ٢٨٥

الباب الخامس

الدين والتنمية الاجتماعية والاقتصادية ٤٤٩

صفحة



مقـــــدمة الكتـــــاب

ولقد حاولت أن أقدم فى هذا الكتاب عرضا لاهم موضـــوعات الدراســـة فى علم الاجتماع الدينى ، الذى يعد أحـــد الفروع الرئيسية والبارزة لعلم الاجتماع العـــام .

ولم أقصر معالجتى على الأديان الســـماوية محسب ، فقد يرى البعض أننا نعيش فى مجتمع اسلامى ، ولا حاجة لنا الى الخوض فى شئون مجتمعات لا تدين بالاديان السماوية ، لانها تعتنق أديانا ذات طبيعة خاصة وضعية ، ومختلفة اختلافا كبيرا سواء فى الكليات والمبادىء العامة ، أو فى التفاصيل والجزئيات الدقيقة عن الاديان المنزلة . ولكننا لسنا بصدد تأليف كتاب فى الدين ، وانما نحن نحاول الكتابة عن فرع من فروع علم الاجتماع ، هو الذى يختص بابراز العلاقة المتشابكة المعقدة بين الدين وبين سائر نظم المجتمع .

معنى هـــذا أن بيان تلك العلاقة بين الدين والنظم الاجتماعيـــة لا يصح أن يقتصر على الكلام عن دين دون دين ، وانما هو يبرر — فى رأينا — الكلام عن أى دين تبدو لنا فيه هـــذه العلاقة بين الدين والمجتمع واضحة جلية . ثم أن مدار الحديث ليس هو ما نعتقده نحن عن صواب دين دون آخر ، ولكن مدار الحديث فى دراسة أى فـــرع من فروع الدراسة الاجتماعية هو ما يعتقده الناس الذين يعيشـــون فى المجتمع ، وما يعتبرونه هم دينا ، وليس ما يعتبره مؤلف الكتاب .

وتأكيدنا لكلامنا هـــذا سوف يلاحظ القارىء لهذا الكتاب ، أن العلاقة بين الدين والمجتمع لا تقتصر على شـــئون الحياة فى المجتمعات

التى تدين بالأديان المنزلة ، ولكنها تبدو جلية واضحة — ربما بدرجة أكبر — فى المجتمعات البدائية والمتخلفة ، والتى يدين أغلبها بديانات وضعية • ففى هــذه الحالة تكون العقيدة الدينية من صنع (أو بالأصح من وضع) أبنــاء ذلك المجتمع ، ومن ثم يكون الدين الوضعى دائمــا أكثر تعبيرا عن طبيعة البناء الاجتماعى والنظم الاجتماعية فى المجتمع الذى يظهر فيه ، أو ينتشر فيه • كما أن هــذا الدين الوضعى يكون أكثر عرضة للتبدل والتطور والتعديل ، لأنه ليس مرتبط بمصدر سماوى علوى ، ولا يشعر الناس بحرج فى الحذف منه والاضافة اليه • فتتطور العقيدة فى الدين الوضعى ،كما تتطور الشعائر والممارسات ، بتطــور المجتمع • ولذلك نقول ان تأثير المجتمع فى الدين يبدو أقوى ما يكون ، ويظهر بأجلى صوره ، فى حالة الديانات الوضعية •

ولكن من المعروف أن أى علاقة تفاعلية لها دائمــا طرفان ، هما هنا الدين من ناحية والمجتمع من ناحية أخرى • وعلى ذلك يصبح الوجه الآخر والاحتمال الثانى للعلاقة هو تأثير الدين نفســه فى المجتمع ، وابراز الدور الذى تلعبه العقيدة الدينية فى صياغة النظم الاجتماعية • وهــذا الدور يبدو بأجلى صوره وأقواها فى حالة الديانات الســماوية المنزلة التى تجعل الدين ضرورة اجتماعية • وهو ما سوف يتضح لنا من فصول هــذا الكتاب •

ومن هنا يبدو مدى حاجتنا الى أن تغطى أى دراســة شاملة فى علم الاجتماع الدينى الديانات المنزلة والديانات الوضعية أيضا •

وقد بدأت الكتاب بالباب الأول الذى يحتوى على ست فصول تقدم لنا أهم الاتجاهات النظرية والمنهجية فى دراسة الدين من وجهة نظــر علم الاجتماع • فيقدم الفصــل الأول منه الاتجــاه الأنثروبولوجى

التقليدى ، بينما يعرض الفصل الثانى الاتجاه البنائى الوظيفى •
أما الفصل الثالث فيتناول بالمعالجة الاتجاه التيولوجى السياسى •

وبعد استعراض هذه الاتجاهات الرئيسية تقدم عرضا مفصلا ومعاصرا بقدر الامكان لأهم اتجاهات البحث وموضوعات الدراسة فى هذا العلم فى أهم بيئتين تطورت فيهما دراساته • فنقدم فى الفصل الرابع عرضا مفصلا لدراسات علم الاجتماع الدينى فى فرنسا ، بادئين من عرض وجهة نظر دوركايم ، ومنتهين الى استعراض أهم البحوث المعاصرة التى تهتم اهتماما خاصة بالوصف الاجتماعى (السوسيوجرافى) للسلوك الدينى •

ويحتوى الفصل الخامس عرضا لاتجاهات البحث وموضوعات الدراسة فى علم الاجتماع الدينى فى الولايات المتحدة الأمريكية ، على اعتبار أن البحث السوسيولوجى فى أمريكا يمثل أعلى مستوى بلغته الدراسات السوسيولوجية على الاطلاق • وهو فى نفس الوقت يمثل استفادة كاملة من منجزات البحث فى هذا الميدان فى كافة البلاد الصناعية المتقدمة واضافة لها وزنها وخطورتها الى هذا الميدان •

وقد حاولت أن أقدم فى الفصل السادس آخر فصول هذا الباب، محاولة متواضعة لبلورة وتحديد موضوع علم الاجتماع الدينى المعاصر ، من أجل تلخيص الموقف وتركيز الرؤية على بؤرة الاهتمام ، حتى لا يتشتت القارىء من كثرة الأسماء وتعدد الموضوعات وتباين الاتجاهات وكثرة الدراسات •

كان من الطبيعى بعد تلك المقدمة العامة عن موضوع العلم ومجالات الدراسة فيه واتجاهات البحث ونظرياته أن نقدم بصورة موجزة لأهم المعالم الموضوعية للأديان المختلفة • فالتعريف بالدين نفسه هو الذى

يقدم لنا المناسبة لمعالجة هذا الموضوع أو ذاك ، وفهم القضايا التــى يطرقها علماء تاريخ الاديان وعلم الاجتماع الدينى ، والتى نتطرق الى عرضها فى ثنايا هذا الكتاب •

ولهــذا السبب خصصت البابين الثانى والثالث من كتابنا هــذا لمعالجة الديانات الوضعية فى الباب الثانى ، والديانات المنزلة فى الباب الثالث • ومن الطبيعى أننى وان استطعت أن أقدم كــافة الديانات السماوية المنزلة ، الا أنه من المستحيل على أى كاتب ، مهما أوتى من مهارة ، أن يجمع بين دفتى كتاب واحد كافة الديانات الوضعية،فما بالك أن يجمعها كلها فى باب واحد • لذلك لم يكن هناك بد من أن أقوم بعمليــة اختيار متعمد وأن أحدد موضوعات هــذا الباب (الثانى) عن الديانات الوضعية •

وسوف يلاحظ القارىء أننى قد ركزت على ديانة واحــدة فقط مما يعرف باسم ديانات الشعوب البدائية ، أى تلك الشعوب الأمية ، أو التى كانت أمية حتى وقت قريب ، ولم يكن لها حظ وافر من التاريخ المدون ، كشعوب الهند والصين والعراق ومصر ••• الخ • فاخترت الكلام عن الديانة التوتمية كدين منتشر — بشكل كلى أو جزئى لدى عدد من الشعوب البدائية •

أما الأديان الوضعية الأخــرى التى اخترتها للعرض فى هــذا الفصل فاحداها من ديانات الشعب الصينى القديم ، والثلاثة الباقيات نشأت اثنتان منهما فى الهند ، ولكنهما أصبحتا تراثا آسيويا مشتركا • والديانة الرابعة والاخيرة نشأت ، وازدهرت ، وأفل نجمها علــى أرض ايران •

ولكن التمثيل الجغرافى لم يكن بطبيعة الحال هو العنصر المحدد فى اختيار هـذه الديانات للدراسة • وانما كان القصد أن أبرز الجوانب الاجتماعيـة لتلك الديانات ، أى الارتباط الوثيق بين النظـام الدينى وبقية النظم الاجتماعية القائمة فى المجتمع • وقد لاحظت فى أكثر من موضع فى هـذا الكتاب أن أغلب تلك الديانات الوضعية كانت تعبيرا عن بنـاء وظروف ومتغيرات المجتمع الذى نشأت فيه ، وكان تطورها مرتبط أوثق الارتباط بتطور المجتمع نفسه •

ومن الطبيعى أن أغلب تلك الديانات الوضعية قد نشأت فى بيئات شرقية دخل اليها الاسلام (أو المسيحية) فيما بعد ، وكانت لها علاقات مع الدين الجديد الوافد عليها ، وتأثرت به فى بعض الأحيان ، ولكنها أدت فى أحيان أخرى الى تحريف العقيدة السماوية وتحريفها بما يتلاءم فى بعض النقاط مع الدين الوضعى القديم • كل تلك ظواهر اجتماعية دينية ، ودينية اجتماعية تستأهل النظر وتتطلب العلاج والمواجهة الصريحة من جانب المسلمين لتنقية ديننا الحنيف من أى زيف أو ادعاء •

وقدمت فى الباب الثالث بفصوله الثانى عشر والثالث عشر والرابع عشر معالجة لكل من اليهودية ، والمسيحية ، والاسلام على التوالى • ومن الطبيعى أن أركز فى عرضى لكل دين منها على ابراز الجوانب المختلفة والتعاليم الواردة بشأن تنظيم مختلف جوانب المجتمع وشـئون الناس على الأرض • وحاولت قدر الطاقة أن أبرز كيف أن الأديان السماوية لا تعد ظاهرة اجتماعية بالمعنى المتعارف عليه ، أى ظاهرة ناشئة ومترتبة على معيشة الناس فى المجتمع • فهذا التعريف يصـدق على الأديان الوضعية باعتبارها من صنع المجتمع • أما الأديان السماوية فتمثل ضرورة اجتماعية تقتضيها معيشة الناس فى جماعة ، ولا يمكن أن يستمر المجتمع ، بل ولا يمكن أن يتواجد أصلا بدونها •

وكما حرصت فى مؤلفات سـابقة لى ، أردت أن تغطى معالجتى للموضوع وجهـة نظـر كل من علم الاجتماع والانثروبولوجيا • ومن الطبيعى أن تكون المعالجة ذات طبيعية سوسيولوجية (أى نابعة من علم الاجتماع ومرتبطة به) على امتـداد الكتاب ، وذلك دون اهمال للمعالجة الأنثروبولوجية • ولكنى أرى من الأفضل أن أقدم معالجة مستقلة لاسهام الأنثروبولوجيا فى دراسـة الدين ، فقدمت فى الباب الرابع من الكتاب (وهذا الباب يتكون من فصل واحد) عرضا لموضوع الأنثروبولوجيا الدينية وقضاياها فى الدراسـة والبحث • وهى تركز فى الأساس على دراسـة الدين فى المجتمعات البدائية والبسيطة •

ولكن قد يتساءل سـائل — بحق — ولمـاذا كل هـذا العناء ، وما صلتكم به كسوسيولوجيين (أى كمشتغلين بعلم الاجتماع) ، وما هى الفائدة التى تعود على المجتمع من وراء دراسة هذا كله ؟ ان هـذا السؤال يطرح قضية الجانب التطبيقى لعلم الاجتماع الدينى ، أى يجعلنا نتساءل عن أوجه الانتفاع المختلفة بنتائج هذا العلم فى خدمة الديـن وخدمة المجتمع على السواء •

ويحاول الباب الخامس بفصليه (السادس عشر ، والسابع عشر) أن يقدم اجابة متواضعة على هـذا التساؤل ، ويجتهد فى وضع بعض النقط فوق الحروف • ففى هـذا الباب أقدم دراسـة للعلاقة بين الدين والتنمية الاجتماعية والاقتصادية • ومن الطبيعى أن يكون تركيزى على دور الدين الاسلامى فى خدمة قضايا التنمية فى المجتمع المسلم •

ومن المؤكد أن استعراض موضوعات هـذا الباب سوف تقودنا الى الاقتناع الكامل بأهمية الدور الايجابى الذى يمكن أن يؤديه الدين الاسلامى فى دفع حركة التنمية ، لأنه فى الأصل دين يحض على العمل ،

وعلى الفكر ، وعلى الاخلاص ، وعلى الأمانة ، وعلى العدالة •••• الخ •
فكلما ازددنا قربا من ديننا ، وكلما ازددنا ممارسة لعباداته ، وكلما ازددنا
التزاما بتعاليمه ، وكلما ازددنا تمسكا بأهدابه ••• كلما اندفعنا بمجتمعنا
الى الأمام • لأن المجتمع المؤمن هو المجتمع القوى ، وتاريخنا الاسلامى
الزاهر يعلمنا هــذا ، كما يعلمنا نفس المبادىء تدبرنا لحقائق ديننا •

واذا كنت قد خصصت الفصل السادس عشر للكلام بشكل عام عن
الاسلام والتنمية الاجتماعية والاقتصادية ، فقد أوقفت الفصل السابع
عشر على تأمل هــذه العلاقة الوثيقة بين الاسلام والتنمية فى المجتمع
العربى السعودى على وجه الخصوص •

وانى لأرجو الله أن أكون قد وفقت الى الصواب فيما اخترت من
موضوعات ، وفى الطريقة التى عالجتها بها ، وفيما حاولت أن أنتهى اليه
من نتائج أو أبرزه من دراسات الآخرين •

عبد الله الخريجى



فصــل تمهيــدى

فى تعريف الدين

- تباين مفاهيم الدين

١ ــ المفهوم الفلسفى

٢ ــ المفهوم النفسى

٣ ــ المفهوم الحيوى

٤ ــ المفهوم الاجتماعى

٥ ــ تعليـــق

٦ ــ الدين ضرورة اجتماعية



فصـــل تمهيـــدى

فى تعريف الدين

وقبل أن نعرض لتعاريف الدين نذكر أن مصطلح الدين لا يمكن تحديده تحديدا دقيقا نظرا لاختلافه لدى كل من المجتمعات البدائية والمجتمعات التى تعتنق الديانات الســـماوية ولاختلاف طبيعته من شخص لآخـــر ولارتباطه بأعمق العواطف والمعتقدات التى تدفع الانسان نحو الكمال •

فالدين يشمل الدوافع التى تحكم سلوك الانسان بدائيا أو متحضرا • على أن تصور كنه الدين يختلف باختلاف الأفراد وفى الفرد الواحد فى مراحل حياته • ففى كل مرحلة من العمر يختلف تأثير الدين فيها عن غيرها من المراحل • ففى فترة الشباب والمراهقة يلعب الدين دورا هاما ومرشدا فاما أن يكون الفرد ملتزما لدينه متمسكا بعقيدته واما أن يكون غير ذلك • وفى المرحلة التى تليها وهى عندما يبلغ الفرد أشده وهى مرحلة النضوج والاكتمال وكما جاء فى كتاب الله (حتى اذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال ربى أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على) هنا وفى هـــذه المرحلة يكون الدين مسيطرا سيطرة تامة ويكون ضابطا للأفراد فى ســـلوكهم وتصرفاتهم واحساساتهم الداخلية • ثم تأتى مرحلة الهرم والشيخوخة وهى ما تعرف بمرحلة التفرغ الدينى أو الزهد وذلك لأن الانسان ينسلخ عن مشاغله التى كانت تشغله ويتجرد طائعا لعبادته وقد أمن له من يعوله أو ضمن من يقوم بشئونه ، لكن يبدو أنه مرتبط فى كل مجتمع بالسلوك الدينى الذى يسود فيه أو يسيطر عليه بالطرق التى رسمها لهم هـــذا الدين أو ذلك •

هــذا الى أن علاقات الانســان بالطبيعة وما وراء الطبيعة تخضع لاعتبارات دينية ويصــبح الدين عاملا هاما فى حياة الانســان عندما يحس بأن هنــاك قوة عليا تؤثر فيه وفى وجدانه وأفكاره وسلوكه عامة • وترتبط قيم الانســان كلها عادة بالدين وتعتمد أفكاره عن الصدق والحق والفضيلة والخير على الدين • وقد تباينت مفاهيم الدين ، وفيما يلى محاولة للوقوف على بعض هذه المفاهيم على تباينها الكبير :

تباين مفاهيم الدين :

١ ـ المفهوم الفلسفى :

نجد فى هــذا الاتجاه عديدا من المفكرين والفلاسفة الذين حاولوا الربط بين الفلسفة والدين أو بين العقل والايمان ، وسوف أشير الى بعض من هــذه الآراء التى تناولها أصحاب هــذا الاتجاه • فاذا أخذنا رأى الفيلسوف « كانت » Kant فانه يرى « أن الدين هو الشــعور بواجباتنا من حيث كونها قائمة على أوامر الهية سامية »(١) •

ويعرف الفيلسوف « ديكارت » Decartes فى كتابه « مقال عن المنهج » أنه ينبغى لنا ألا نقبل شيئا على أنه حق ما لم نتبين ببداهة العقل أنه كذلك • ولكنه فى كتابه مبادى الفلسفة Principles of Philosophy يذكر أن من واجبنا أن نتخذ لنا قاعدة معصومة ان ما أوحى به الله هو أوثق بكثير من كل ما عداه(٢) •

---

(١) أحمد الخشاب ـ الاجتماع الدينى ـ مكتبة القاهرة الحــديثة ـ القاهرة ١٩٦٤ ص ٧٥ •

(٢) زكريا ابراهيم ـ مشكلة الفلسفة ـ دار القلم ـ القاهرة ـ ١٩٦٢ ـ صفحة ١٩٢ •

وقد توصل برجسون Bergson الى تعريف ما أطلق عليه اسم الدين الثابت بأنه رد فعل دفاعى تقوم به الطبيعة تجاه ما عسى أن يؤدى اليه استخدام القدماء من الانهيار لدى الفرد ومن الانحلال لدى المجتمع(٣) • أو بأنه رد فعل تقاوم به الطبيعة ما فى ممارسة العقل مما يشل حركة الفرد ويقضى على تماسك المجتمع(٤) •

ويرى هيجل أن الدين فن باطنى يصور لنا الحقيقة الالهية من الداخل عن طريق الشعور الباطنى(٥) •

ويرى « القديس أنسالم » St, Ansalin أن العقيدة ليست سوى قوة يستعين بها العقل من أجل فهم حقائق الكون فهما عقليا •

أما القديس « توما الأكوينى » St, Thomas Acquin فانه يذهب الى أن العقل والوحى وسيلتان من وسائل المعرفة وهما قد صدأر عن أصل واحد مشترك فان الله هو الذى أودع العقل فى الانسان وهو الذى أعلن للناس حقائق الوحى فى حين أن القديس « أوجسطين » عبر عن رأيه فى عبارته الشائعة التى قال فيها العقل يسبق الايمان والايمان يسبق العقل وأنا أؤمن لكى أتعقل(٦) •

---

(٣) روجيه باستيد — ترجمة محمود قاسم — مبادىء علم الاجتماع الدينى — الانجلو المصرية ، القاهرة — ١٩٥١ — ص ٢٥ .

(٤) على سامى النشار — نشأة الدين — دار نشر الثقافة — الاسكندرية — ١٩٤٩ — ص ٢٢ .

(٥) زكريا ابراهيم — مشكلة الفلسفة — مرجع سابق ص ١٩٣ .

(٦) زكريا ابراهيم — مشكلة الفلسفة — ص ١٨٥ — ١٨٦ .

ويعرف شلاير ماخر Schelirmaeher الدين بأنه خضوعنا لوجود لا يناله لدراكنا أو أنه خضوع الانسان الى موجود أسمى منه(٧)٠

٢ ـ المفهوم النفسى :

ويمثل هـذا الاتجاه كل من جوستاف لوبون وبرجسون ٠ يرى جوستاف لوبون أن اعتقاد الجماعات يصطبغ بصبغة خاصـة عبر عنها بالشعور الدينى ٠ ولهذا الشعور مميزات بسيطة للغاية كعبادة « ذات » يتوهم أنها فوق الذوات والخوف من القوة الخفية التى يبطن بها والخضوع الأعمى لأوامرها واستحالة البحث فى تعاليمها والرغبة فى نشرها والنزوع الى معاداة من لا يقول بها ٠ ومتى تكيف الشعور بهذه الصفة فهو من طبيعة الشعور الدينى(٨) ٠

أما برجسون Borgeson فقد ميز بين نوعين من الدين ٠ الدين الديناميكى والاستاتيكى الثابت وقد أشرت الى ما يعنيه برجسون بالدين الثابت فى الاتجاه الفلسفى ٠

وهنا أشير الى ما يعنيه بالدين الديناميكى أو المتطور ٠ وهو ديـن من خلق انسان من صفوة البشر أو من نخبة الناس سما الى فكرة مثالية ٠ وحاول أن ينبثق من أعماقه دين أو فكرة تفيض على الانسـانية كلها ٠ وقد حقق بعض كمال الخلق من أمثال المسيح فكرة هذا الدين(٩) ٠

---

(٧) روجيه باستيد ـ مبادىء علم الاجتماع الدينى ـ مرجع سابق ـ ص ٢٣ ٠

(٨) جوستاف لوبون ـ روح الاجتماع ـ ترجمة أحمد فتحى زغلول ـ المطبعة الرحمانية ـ القاهرة ـ ص ٧٧ ٠

(٩) على سامى انشار ـ نشأة الدين ـ مرجع سابق ـ ص ٢٢ ٠

ويعرف فورباخ Feurebach الدين بأنه الغريزة التى تدفعنا نحو السعادة[١٠] ويعرف ريفييل Reville الدين بأنه تحقيق الحياة الانسانية بواسطة الاحساس بأن رباطا يصل الروح الانسانية بالنفس الخفية التى تعترف الأولى بما لها من سلطان على العالم وعليها والتى يجب أن تكون شاعرة بالاتصال بها دائما[١١] .

وهذا ونجد فى دائرة المعارف الفرنسية التعريف التالى للدين .

يرى فيه ريفييل ان الدين هو أن تتأسس الحياة على الاحساس برابطة تضم الروح البشرية مع الروح الخفية التى تدرك سيطرتها على العالم وعلى الروح البشرية نفسها وتحب تلك الأرواح الخفية بعاطفة واحدة[١٢] .

٣ — المفهوم الحيوى :

يعرف أصحاب هذا الاتجاه الدين كما يلى :

يرى سبنسر Spencer أن الدين هو الشعور بأننا نسبح فى خضم من الأسرار كما ذكر ذلك روجيه باستيد ، أو هو الاحساس الذى تشعر به حينما نغوص فى بحر من الأسرار[١٣] كما ذكر ذلك على سامى النشار[١٤] .

---

(١٠) روجيه باستيد — مبادىء علم الاجتماع الدينى — مرجع سابق — ص ٢٣ .

(١١) على سامى النشار — نشأة الدين — مرجع سابق — ص ٢٢ — ٢٣ .

(١٢) دائرة المعارف الفرنسية — الجزء الثامن والعشرين — ص ٣٤٦.

(١٣) روجيه باستيد — مبادىء علم الاجتماع الدينى — مرجع سابق — ص ٢٣ .

(١٤) على سامى النشار — نشأة الدين — مرجع سابق — ص ٢١ .

وعرف تايلور Tylor الدين فى عمومه بأنه الاعتقاد فى الكائنات الروحية أو الاعتقادات فى الموجودات الروحية(١٥)•

ويعرف ماكس مولر Max Muller الدين بأنه الشعور باللانهائى أو بأنه احساسنا باللامتناهى(١٦) •

٤ — المفهوم الاجتماعى :

ونرى أن كثيرا من العلماء قد عرضوا لهـذا الاتجاه من الوجهة الاجتماعيـة ومن هؤلاء جوبلى الفبيلا G. d'Alviella — ماك ايفر Mec Iver — شاتل Chatel فريزر Frazer • ثم نتعرض لرأى الدرسة الفرنسية التى يمثلها دوركليم Durkheiem فيرى جوبلى الفبيلا G. d'Alvieiia ان الدين هو الطريقة التى يحقق بها الانسان علاقاته مع الطـاقات فوق الانسـانية أو الخارقة والخفية والتى يعتقـد فى حمايتها(١٧) •

ويعرف ماك ايفر وشارل بيج يعرفان الدين بأنه علاقة لا تقوم بين انسـان وانسـان آخر فحسب ولكن تقوم كذلك بين الانسـان وقوة ما أعلى منه(١٨) •

---

(١٥) أحمد أبو زيد — تايلور — مطبعة دار المعارف — القاهرة — ١٩٥٧ ص ١٣٢ •

(١٦) روجيه باستيد — مبادىء علم الاجتماع الدينى — مرجع سابق — ص ٢٣ •

(17) La Grand encylclopedie, Tome Vingt Huitiéme Paris p. 346.

(١٨) ماك ايفر — المجتمع — ترجمة على أحمد عيسى — مرجع سابق — ص ٣٣٤ •

ويرى شاتل Cnater ان الدين هو مجموعة واجبات المخلوق نحـــو الخالق[١٩] • ويرى فريزر Frazer ان الدين يبدأ بظهور فكرة الآلهه أو على أكثر تقدير بظهور فكرة أرواح الأفراد أو أرواح الطبيعة التى يتخيلها المرء على غرار أرواح البشر[٢٠] • أو أن الدين يبدأ بظهور فكرة الآلهة وعلى الأقل بظهور النفوس الفـــردية ونفوس الموت والقرائن الطبيعية فى شكل آدميين[٢١] •

ونري المدرسة الفرنسية التى يمثلها دوركايم بأن الدين هو عبارة عن مجموعة متماسكة من العقائد والعبادات المتصلة بالعالم المقدس والتى تنظم سلوك الانسان حيال هـــذا العالم بحيث تؤلف هـــذه المجموعة وحـــدة دينية تنظم كل من يؤمنون بها[٢٢] أو أنه مجموعة متماسكة من العقائد والعبادات المتصلة بالأشـــياء المقدسة مميزة وناهية بحيث تؤلف هذه المجموعة وحدة دينية متصلة بكل من يؤمنون بها[٢٣] • أو أن الامور الدينية هى أمور قدسية[٢٤] •

وهناك مفاهيم أخرى للدين نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر :

(١٩) أحمد الخشاب — الاجتماع الدينى — مرجع سابق — ص ٩١ .

(٢٠) روجيه باستيد — مبادىء علم الاجتماع الدينى — مرجع سابق — ص ٢٦ •

(٢١) على سامى النشار — نشأة الدين — مرجع سابق — ص ٢٢ .

(22) E. Durkheim Les Formes élémentaires de la vie religieuse F. Alcan Paris - 1927 - P. 65.

(٢٣) على سامى النشار — مرجع سابق — ص ٢٧ ..

(٢٤) روجيه باستيد — مبادىء علم الاجتماع الدينى — مرجع سابق — ص ٨ •

١ ــ أميل برنوف Emil Birnouf فى كتابه علم الديانات •
يقول فيه : ان الدين هو العبادة والعبادة عمل مزدوج فهى عمل عقلى به يعترف الانسان بقوة ســامية وعمل قلبى أو انعطاف محبة يتوجه به الى رحمة تلك القوة •

٢ ــ جويوه Guyau فى كتابه « لا دينية للمستقبل »[٢٥] حيث يقول فى تعريف الدين :

الديانة هى تصور المجموعة العالمية بصورة الجماعة الانســانية والشعور الدينى هو الشعور بتبعيتنا لشيئات أخرى يركزها الانســان البدائى فى الكون •

٣ ــ ميشيل مايير M. Mayer فى كتابه « تعاليم خلقية ودينية » يقدم لنا تعريفا يقول فيه : الدين هو جملة العقائد والوصايا التى يجب أن توجهنا فى سلوكنا مع الله ومع الناس وفى حق أنفسنا •

٤ ــ سلفان ببريسيه Sylvain Périssé فىكتابه «العلم والديانات» يقول فيه : الدين هو الجانب المثالى فى الحياة الانسانية •

٥ ــ سالومون ريناك Salomon Reinach فى كتابه« التاريخ العــام للديانات » يقول فيه الدين هو مجموعة التورعات التى تقف حاجزا أمام الحرية المطلقة لتصرفاتنا[٢٦] •

---

(25) Guyau - Irreligion de l,avenir - Paris - 1880. p. 1-3.

(26) Salomon Reinach - Histoire general des religion Paris 1909 p. 4.

٦ — وقد عرف س•م• ينجر • الدين بأنه نسق من المعتقدات والممارسات التى تستطيع بواسطتها مجموعة من الناس معاركة المشكلات الأساسية فى الحياة البشرية •

٧ — أما المسلمون فقد اشتهر عندهم تعريف الدين كما جاء فى كتاب الدين لمحمد عبد الله دراز بأنه وضع الهى سائق لذوى العقول السليمة باختيارهم الى الصلاح فى الحال والفلاح فى المآل • ثم يردف بعد ذلك بتعريفه التالى للدين فهو وضع الهى يرشد الى الحق فى الاعتقادات والى الخير فى السلوك والمعاملات(٢٧) •

وأضيف الى تعريف المسلمين للدين بناء على قوله تعالى « ان الدين عند الله الاسلام » • وأقصد بالاسلام كل ما أوحى به الله من عهد نوح الى عهد محمد •

وعلى ذلك يكون الاسلام هو الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والاخلاص من الشرك • قال تعالى : « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » • ومعنى (يعبدون) يوحدون •

٥ — تطبيق :

وأيا ما كانت تعاريف العلماء السابقة لمفهوم الدين فانه يمكن اعتبار الدين منهجا فى الحياة تتبعه كل جماعة أو يرتضيه كل مجتمع ، على اعتبار أن هناك ارتباطا وثيقا بين طبيعة النظام الاجتماعى وطبيعة التصور الاعتقادى • بل ان هناك ما هو أكبر من الارتباط الوثيق فهنالك الانبثاق

---

(٢٧) محمد عبد الله دراز — الدين — بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الاديان — القاهرة — مطبعة السعادة — القاهرة — ١٩٦٩ — ص ٢٩ .

الحيوى أو انبثاق النظام الاجتماعى من التصور الاعتقادى ، أى أن الأنظمة الاجتماعية قديمها وحديثها فى المجتمعات المتباينة صادرة أساسا من التصور الاعتقادى لكل مجتمع • فالتصور الاعتقادى ما هو الا دين المجتمع الذى يتصور فى ضوئه حقيقة الوجود وحقيقة الانسان ووضعه فى هــذا الوجود وغاية الوجود البشرى فى الحيـــاة ، ثم يتجه على هــذا الأساس الى تصور الوســائل التى يمكنه استخدامها لتحقيق غايته فى الحياة • فالدين يحدد العلاقة بين أفراد المجتمع ومنظماته وفى ضوء ذلك يتحدد كل نشاط بشرى بما فيه مشـــاعر الأفراد وأخلاقهم وعباداتهم وشعائرهم وتقاليدهم •

يتضح من ذلك أن منهج حياة كل مجتمع هو دينه لأنه صادر عن تصوره الاعتقادى ومتأثر به • ويشير المودودى فى كتابه المصطلحات الأربعة الى أنه « اذا كان منهج الحياة لهذه الجماعة أو تلك من صنع الله أى صادرة عن عقيدة ربانية ، فهذه الجماعة فى دين الله • واذا كان المنهج الذى يصرف حياة هــذه الجماعة من صنع الملك أو الأمير أو القبيلة أو الفيلسوف أو الشعب أى أنه صادر عن مذهب أو تصور أو فلسفة بشرية • فهذه الجماعة فى دين الملك أو دين الأمير أو دين القبيلة أو دين الشعب فليست فى دين الله لأنها لا تتبع منهج الله المنبثق ابتداء من دين الله دون سواه » •

واذا تأملنا المذاهب والأنظمة السياسية والاجتماعية والاقتصادية القائمة نجد أنها ليست مجرد مذهب اقتصادى أو اجتماعى أو سياسى وانما هى تصور اعتقادى أيضا • فالماركسية مثلا تستند الى تصور دينى قائم على انكار الاله وعلى مادية الكون وما يوجد بها من تناقضات ، الأمر الذى يؤدى الى كل التطورات والتغيرات فيه وهو ما يعبر عنــه

بالمـــادية التاريخية • كما تقوم الماركسية على أساس هـــذا التصور على التفسير المـــادى للتاريخ وارجاع تطورات الحيـــاة البشرية الى تقدم أدوات الانتاج • كذلك تعتبر العلمانية نظاما سياسيا صادرا عن تصور اعتقادى بأن الدين لله والوطن للجميع ولا ضرورة لتدخل الدين فى شـــئون الدولة •

وباختصار فان منهج الحياة أو نظام الحياة هو دين هـــذه الحياة والذين يعيشون فى ظل هـــذا المنهج أو هـــذا النظام دينهم هو هـــذا المنهج أو هـــذا النظام • فاذا كانوا فى منهج الله ونظامه فهم فى دين الله ، واذا كانوا فى منهج أو نظام غيره فهم على غير دين الله •

٦ — الدين ضرورة اجتماعية :

ان الانســـان بفطرته لا يملك أن يستقر فى هـــذا الكون الهائل ذرة تائهة معلقة ضائعة ، اذ لا بد له من رباط معين فى هـــذا الكون يضمن له الاستقرار ومعرفة مكانه فى هـــذا الكون الذى يعيش فيه ، ولذلك لابد له من عقيدة تفسر له ما يحيط به وتفسر له مكانه فيما حوله • فالدين ضرورة فطرية شعورية لا علاقة له بملابسات العصر والبيئة وكم كان شقاء الانســـان وحيرته وضلاله حين أخطأ فهم حقيقة هـــذا الارتباط وهـــذا التفسير • أى أن حاجة الانســـان الى الدين حاجة فطرية مركزة فى طبيعته النفســـية ومغروسة فى شـــعوره وممتزجة فى دمه وأعصابه وحسه ، ولكنه قد يضل عن أدراك هـــذه الحقيقة فيشقى ويحار ويفقد الاستقرار • وهذه الحاجة النطرية فى الانسان الى الدين هى التى يتحقق بقضائها معرفته بحقيقة مكانته فى هـــذه الحياة ورسالته وعمله ودوره الذى يجب عليه أن يؤديه مع أى انسان آخر يقوم بدوره فى الحياة •

والدين باعتباره شريعة وعقيدة أى كنظام اجتماعى يحكم حياة كل فرد ويحدد له قواعد سلوكه وكيفية معيشته فى أسرته وكيفية تربية أولاده وكيفية تعامله مع الناس بالعدل والفضيلة حتى يقوم المجتمع على أساس متفاهم متعاون على أداء الواجبات والحقوق ثم يتكامل هذا النظام الاجتماعى بوضع الأسس والقواعد والحلول التى تعالج قضايا المجتمع العامة اقتصادية كانت أم سياسية أم أخلاقية •

هـذا باختصار ــ جانب الشريعة فى (الدين) الذى هو كما أسلفنا أنه ضرورة انسانية لكل فرد وفى كل مجتمع •

أما جانب العقيدة أو التصور الاعتقادى فهو (الايمان بالله) ونحن المسلمين بايماننا بالله وحده • وكل الذين آمنوا فى الدنيا بآلهة أخرى كان ايمانهم بها وهما وظنا بأنها آلهة تضر وتنفع أو على الأقل تشفع لهم لدى الاله الاكبر أو تقربهم اليه زلفى •

وان الايمان بالاله الحق الفرد الصمد فطرة فطر الناس عليهـا وانما يضلون عنها بعض الوقت أو كل الوقت ثم يعودون اليها ولو عند فراق الحياة أو عند نزول الكوارث والأحداث •

فقد كان فرعون يدعى الألوهية ــ ويقول لقومه (أنا ربكم الأعلى) ، وسام بنى اسرائيل سوء العذاب ، وكفر بموسى واله موسى • ولكنـه عندما أدركه الغرق قال آمنت أنه لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين •

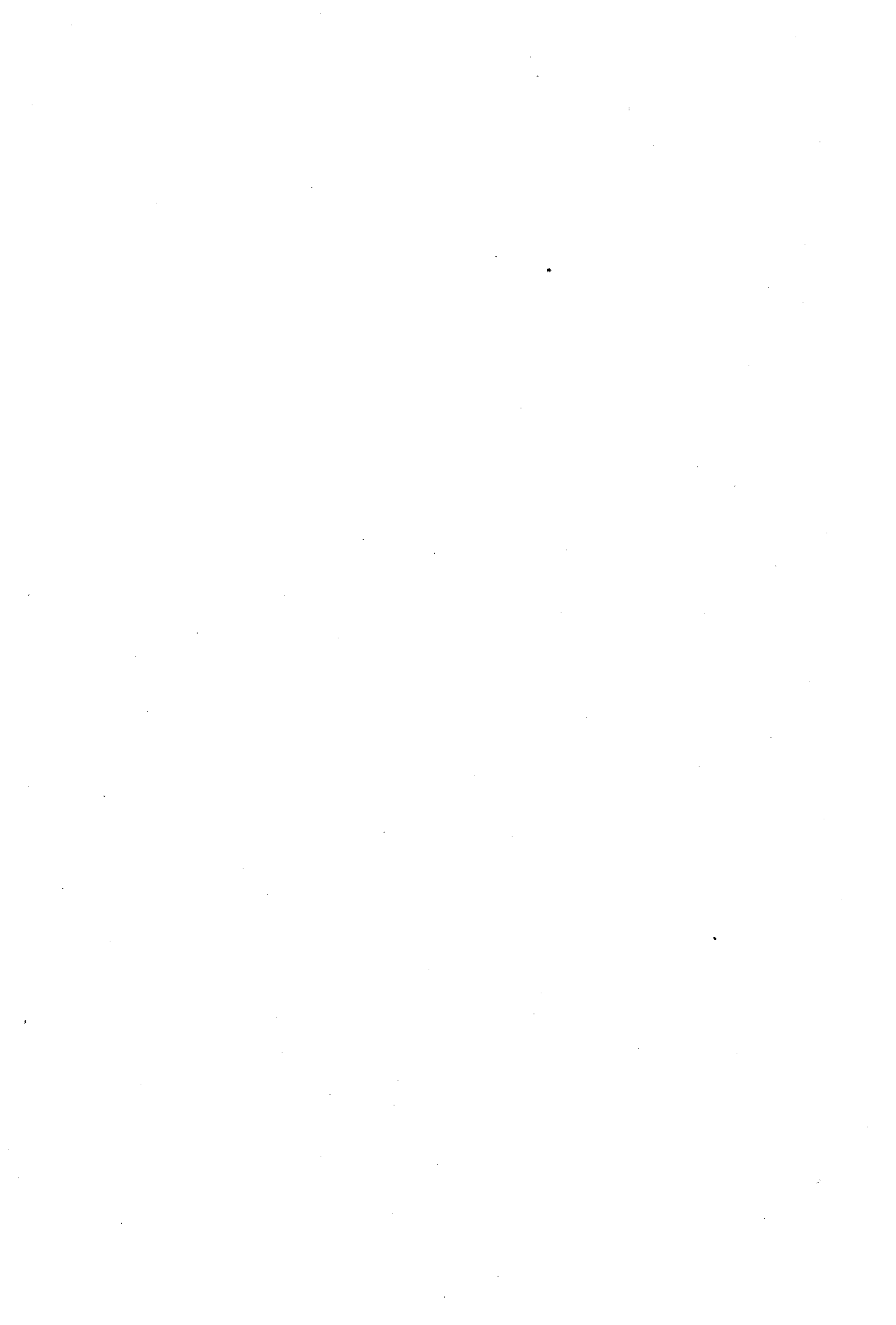
والمشركون بالله والكافرون به فى كل الأجيال كانوا يعبدون الأصنام ويستقسمون بالأزلام ، فاذا مسهم الضر فى البر أو فى البحر لجأوا الى

الله يدعونه ويسألونه النجاة • قال تعالى « فاذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ، فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون » •

وابنة ستالين خليفة لينين على شيوعيته المـادة الملحدة تعترف فى مذكراتها بأنها عادت الى الايمان على الرغم من أنها نشأت فى حضن الالحاد • وتقول انها تعجب فى نفسها كيف آمنت بعد كفران •

ولا عجب فالايمان بوجود الاله الحق فطرة كامنة فى كل قلب بشرى ولا تحتاج فى اثباتها الى جدل طويل لأنها (بديهية) كما يقول دور كايم• والبديهى ما لا تختلف عليه العقول • أى أنه قضية مسـلمة تماما كما تقول واحـد + واحـد = اثنين ، أو تقول أن الجزء أصغر من الكل أو العكس •

هـذه لمحة عن الدين كفطرة مركزة فى الانسان وحاجة الانسان اليه لتربية نفسـه روحيا وتنظيم سلوكه خلقيا وضبط أفعاله اجتماعيا وتعيين الحقوق والواجبات العامة فى المجتمع الانسانى كله ، وعـن فشل الحضارات العلمية والصناعية فى المجتمعات التى لا تدين بدين يهديها الى الخير ويحكم سلوكها بالعدل ويفىء بها الى ظل بارد كريم من الايمان واليقين •



الباب الأول

الاتجاهات النظرية والمنهجية فى دراسة الدين

الفصل الأول : الاتجاه الأنثروبولوجى التقليدى .

الفصل الثانى : الاتجاه البنائى الوظيفى .

الفصل الثالث : الاتجاه الثيولوجى الاجتماعى .

الفصل الرابع : دراسات الاجتماع الدينى فى فرنسا .

الفصل الخامس : علم الاجتماع الدينى المعاصر فى الولايات المتحدة .

الفصل الساس : خاتمة وتلخيص : محاولة لبلورة وتحديد موضوع

علم الاجتماع الدينى المعاصر .



الفصل الأول

الاتجاه الأنثروبولوجى التقليدى

١ ـ نشأة النظم فى المجتمعات البدائية ·

٢ ـ النظام التوتمى ·

٣ ـ ظهور كلمة توتم ·

٤ ـ دراسة بعض العلماء للتوتمية ·

٥ ـ الاكسوجامية ·

٦ ـ القيمة المادية للتوتم ·

٧ ـ قداسة التوتم ·

الفصـــل الأول

الاتجاه الأنثروبولوجي التقليدى

١ ــ نشأة النظم فى المجتمعات البدائية :

اهتم الأنثروبولوجيون بدراسة نشأة النظم فى المجتمعا تـوالقبائل التى تمثل أصدق تمثيل الحياة البدائية واتجهوا فى ذلك الى دراسة النظم التى توجد عند السكان الاصليين فى كل من قارتى استراليا وأمريكـــا نظرا لأن هاتين القارتين ظلتا قرونا طويلة قبل اكتشافهما بعيدتين عن الاتجاهات الحضارية التى سادت العالم المتمدين • واذا كان قد طرأ على النظم الســـائدة عند هؤلاء الســـكان بعض التغيير فقد كان هـــذا داخليا وليس نتيجة للاتصال الثقافى والحضارى الناجم عن احتكاك هـــذه الجماعات بمجتمعات خارجة عن نطاقها الاجتماعى أو المورفولوجى • كما أن هـــذه التغيرات البسيطة الذاتية لا تعتبر شـــيئا ذا أهمية اذا ما قورنت بالتغير الذى تم فى نظم العالم القديم • وعلى ذلك رأى الأنثروبولوجيون دراسة النظم الاجتماعية لهذه المجتمعات المتأخرة لمـــا فى ذلك من تسليط الأضـــواء على النظم الاجتماعية فى بداية نشأتها ، وقد زادت الرغبة عنـــد طائفة كبيرة من علماء الانجليز لدراسة هـــذه المجتمعات • وقصد كثير منهم استراليا وأمريكا • وكان أغلب هؤلاء العلماء من الجماعين المهرة الذين جمعوا الحقائق ونظموها وعملوا على تحليلها لكى يكتشـــفوا أصول النظم والأوضاع فى القبائل التى أرادوا دراستها وبحثها •

٢ ــ النظـــام التوتمى :

وقد جذب انتباه هؤلاء جميعا نظام اجتماعى هام حاولوا دراسته

دراسة تطبيقية قوية وعميقة لما له من أصالة ووظائف كبيرة فى هذه المجتمعات واصطلحوا على تسميته بالنظام التوتمى نسبة الى الكلمة « توتم » التى تدل على كل أصل حيوانى أو نباتى تتخذه عشيرة ما رمزا لها ولقبا لجميع أفرادها ٠ ويعتقدون أنها تؤلف معه وحدة اجتماعية وتنزل الامور التى ترمز اليه منزلة التقديس ٠ فاذا كان النسر مثلا توتما لعشيرة ما فمعنى ذلك أن هذه العشيرة تتخذ هذا الطائر رمزا لها يميزها عن غيرها من العشائر الأخرى التى تتخذ لها تواتم مغايرة حيوانا كانت أو طيورا أو نباتا ولقبا يحمله جميع أفرادها للدلالة على انتمائهم اليه وتعتقد أنها هى وفصيلة النسور من طبيعة واحدة أى أنه يتألف من أفرادها ومن أفراد هذه الطيور وحدة اجتماعية أو ما يشبه الاسرة الواحدة وتنزل هذا الطائر وما يرمز اليه منزلة التقديس وتقوم جميع عقائدها وطقوسها الدينية على أساس هذا التقديس ٠ وقد عثر الباحثون فى أول الامر على مظاهر كثيرة لهذه العقيدة بين السكان الاصليين لامريكا وخاصة بين الهنود الحمر الذين يتألف منهم معظم السكان الاصليين لامريكا الشمالية ٠ ومن ثم أطلق على الأصل الحيوانى أو النباتى الذى تقوم عليه هذه العقيدة اللفظ نفسه الذى كان مستخدما فى هذا المعنى لدى بعض عشائر الهنود الحمر وهو لفظ « توتم »[1] ٠

٣ — ظهور كلمة توتم :

وكان أول من استعمل هذه الكلمة ترجمان من السكان الأصليين من الهنود الحمر فى أمريكا الشمالية اسمه جون لانج وقد اتصل بالأجانب النازحين الى هذه البلاد والمهاجرين اليها وعرف عن طريقهم اللغة

---

(١) على عبد الواحد وافى — التوتمية — دار المعارف — القاهرة — ص ٧ ٠

الانجليزية ثم عمل مترجما للأوروبيين وألف لانج فى أواخر القــرن الثامن عشر كتابا سماه رحلات وأسفار لمترجم هندى تعرض فيه الى أصول النظام التوتمى ومدى انتشاره ومدى أهميته وارتباطه بالمناشط الاجتماعية المختلفة وقد جذب هذا الكتاب انتباه علماء الانثروبولوجيــا لا سيما من يقم منهم بالبحث عن أصول النظم الاجتماعيــة فى تلــك المجتمعات المتأخرة • وينتشر هــذا النظام فى قبائل الســكان الأصليين لاســتراليا •

٤ ــ دراسة بعض العلماء للتوتمية :

وقد اهتم به دوركايم وأراد أن يستخلص منه نظرية عامة عن الدين تحــدد الوظيفة الاجتماعية للدين بأنها المحافظة على تماسك واستمرار البناء الاجتماعى للمجتمع وتأكيد أواصر التعاون والمودة بين من ينتمون لدين واحد • وبرغم أن الانثروبولوجيين يتفقون مع دوركايم فى تحديد الوظيفة الاجتماعية للدين وخاصة للمجتمعات المتأخرة الا أن المعلومات الميدانية والبحوث التى اعتمد عليها قد تعرضت لنقد شديد فلم يوافق فريزر مثلا على اعتبار الطقوس التوتمية ظاهرة دينية وانمــا اعتبرها نوعا من الســحر ويذهب « رادكليف براون » الى أن المعــلومات التى استند اليها دوركايم كانت معلومات ناقصة وغامضة خاصة أن الدراسات الميدانية للمجتمعات البدائية قد ازدادت بعد عام ١٩١٢ م ، واعتمــد دوركايم فى دراساته على قبيلة استرالية تسمى قبيلة « أراندا » وتبين فيما بعد أن هذه القبيلة لا تمثل الصورة العــامة للعقائد والطقــوس المنتشرة فى القبائل الاسترالية وانما تمثــل حالة فردية • فالانســان البدائى الاسترالى يرى أن العالم الذى يعيش فيه عالم واحد يتكون من البيئة الطبيعية المحيطة به ومن البناء الاجتماعى الذى ينتمى اليه •

فهو يجمع بين البيئة الطبيعية والبيئة الاجتماعية فى عالم واحد ، ويشتمل النظام التوتمى على مجموعة من العقائد والطقــوس التى تدور حول ذلك العالم الموحد(٢) •

ومع ذلك فقد اهتم العلماء بدراسة النظام التوتمى واعتقدوا أن هذا النظام مقصورا على مجتمعات أمريكا الشمالية كما سبق وأن ليس له شبيه فى البلاد الأخرى وظل اعتقادهم هذا سائدا لمدة نصف قرن حتى نشر الرحالة الانثروبولوجى الانجليزى جراى Gray كتابا عن السكان الأصليين فى استراليا درس فيه كثيرا من العادات والتقاليد المنتشرة هناك وحلل طائفة كبيرة من النظم الاجتماعية السائدة وتتبع تطورها ونشأتها وقارن بينها بما وصل اليه زملاؤه الذين درســوا فى الميدان الأمريكى ، وقد توصل من هذه الدراسة الوصفية التحليلية الى نتائج هامة مؤداها أن النظام التوتمى الذى كشف عنه العلماء فى أمريكــا الشمالية موجوده فى روحها وتفاصيلها عند سكان استراليا الاصليين وان كانت أشــكال النظام فى أمريكا قد طرأ عليهــا نوع من التطور وأكثر منها عرضة للتيارات الحضارية الوافدة اليها من العالم المتمدين • وتحولات نسبية فان ذلك يرجع الى أن أمريكا كانت أسبق من استراليا ومنذ ذلك الوقت عكف العلماء على دراســة النظم التوتمية فى كل من أمريكا واستراليا محللين ومقارنين ، وظلوا مؤمنين بأنهم ازاء نظم أثرية قديمة ليست لها علاقة بالنظم القائمة أو بالديانات الانسانية المعروفة ، ولا يوجد لها نظير فى الديانات الراقية حتى نشر العلامة « ماكلينان » الذى هو من أعلام المدرسة الانثروبولوجية بحوثا مشهورة فى هــذه

---

(2) Rad. Brown Structure and function in primitive society, London 1952 p. 119 - 120.

الدراسات وأوضح بصورة لا يرقى اليها الشك أن للنظام التوتمى بقايا ورواسب فى معظم العادات والتقاليد والطقوس الدينية المعروفة عند قدماء اليونان والرومان(٣) •

وذهب فى هذا الاتجاه العلامة « روبرتسون سميث » Robertson-Smith وقرر أن لهذا النظام نظائر وأشباها وبقايا فى الديانات السامية وقارن بين الطقوس التوتمية وطقوس هذه الديانات فى كتابه الديانات السامية ثم عاد الى مراجعة نتائجه والحقائق التى جمعها وقام بتحليلها فى كتابه القرابة والزواج عند عرب الجاهلية ثم جاء العلامة (فريزر) وقرر فى كتابه الغصن الذهبى أن بقايا النظم التوتمية ليست مقصورة على الديانات السامية وغيرها ولكنها تركت رواسب واضحة فى العادات الشعبية الدارجة المنتشرة فى أغلب شعوب أوروبا ومن ثم اتسع مجال هذه الدراسات وأخذ كل باحث يدرس قبيلة معينة من السكان الأصليين ويحاول أن يهتدى الى العلاقة التى تربط النظم الاجتماعية السائدة بالأصول التوتمية التى درسها العلماء السابقون • وقد أثبت « روبرتسون سميث » أن العرب واليهود كانوا يأخذون بالديانة التوتمية وبرهن على ذلك بوجود أسماء قبائل عربية مأخوذة من المملكة الحيوانية النباتية أو من الظواهر الطبيعية والجمادات الا أن العناصر التوتمية لا توجد عند العرب وعند الساميين ولاحظ باحثوا الديانة التوتمية وجود علاقة بين الديانة التوتمية وبين نظام الزواج من الخارج ووضع فريزر موسوعة عن الصلة بين النظام التوتمى ونظام الزواج من الخارج وأشار الى وجود أنواع مختلفة من التوتم

---

(٣) مصطفى الخشاب — علم الاجتماع ومدارسه — الكتاب الثالث — المدارس الاجتماعية المعاصرة — الدار القومية للطباعة والنشر — القاهرة — ١٩٦٦ م — ص ١٣٢ .

منهاتو تم الجنس ويكون بمقتضاه للنساء توتم مميز عن توتم الرجال(٤) بالاضافة الى وجود توتم فردى وتوتم جماعى • وأهم دراسة فى هذا الميدان هى الدراسات التى قام بها كل من « جيلين وبلدوين سبنسر » البريطانيين فقد ذهب هذان العالمان الى استراليا واستقرا بها مدة ١٢ عاما واختلطا بقبائلها ودرسا العادات والتقاليد وعرفا اللهجات المحلية وحصلا على الحق القبلى وكانا بفضـل هذا الحق يحضران الحفـلات الدينية وأبيح لهما التزين بزى التوتم ومباشرة العمليات الطقوسية •

٥ ــ الاكسوجامية : Exogamy

ويرى تايلور أن التوتمية قد انشعبت عن عبادة الأرواح وأن هذا الانشعاب قد نشأ عن طريق ما يعتقده كثير من الشعوب البدائية وغيرها عن امكان تناسخ الأرواح وحلولهـا فى غير أجسـامها الأولى • وأبرز خاصيتين يتميز بهما النظام التوتمى وهما : انقسام القبيلة الى عشائر يرتبط أفراد كل عشيرة فيها بنوع معين من الحيوان أو النبات أو الجماد يقسمون باسمه ويعتبرونه توتما لهم وأن العشـائر التوتمية عشـائر اكسوجامية Oxogamy اغترابيـة بمعنى أن الزواج داخـل العشيرة الواحدة محرم وممنوع ولكنه مباح بين عشيرة وأخرى فى نفس القبيلة وقد رفض تايلور أن يسلم بأن التوتمية تمثل المرحلة الأولى أو الصورة الاولى للدين ونادى بنظريته عن الانيمزم Animism أو النزعة الحيوية على أنها أبسط صورة يمكن أن ترد اليها نشأة الاديان • ولكنه يسلم مع ذلك مع ماك لينان بأن للتوتمية أهمية قصـوى فى نشأة المجتمع نظـرا

---

(٤) أحمد الخشاب ــ الاجتماع الدينى ــ القاهرة الحديثة ــ القاهرة ــ ١٩٥٩ ص ١٤٠

لارتباطها الوثيق بالزواج الاغترابى رغم أن هذا الشـــكل من أشبـــكال الزواج كثيرا ما يوجد فى المجتمعات التى لم تعرف التوتمية(٥) •

٦ ـ القيمة المـادية للتوتم :

ونخلص الى أن التوتم ليس اسما فحسب بل هو رمز للعشـــيرة شأنه فى ذلك شأن الرموز والاشارات والاعلام التى تتخذها المجتمعات الحاضرة شعارا • ويذهب بعض العلماء الى أن أصل كلمة توتم مأخوذة من موطن الجماعة وحينما اتصل السكان الأصليون فى أمريكا بالأوروبيين وارتبطوا معهم بمعـــاهدات كانوا يلجأون الى التـــوتم ليختم به تلك المعاهدات وكان التوتم يرسم وينقش على أى شىء ذى قيمة اجتماعية كأن ينقش على الأسلحة أو جدران الأكواخ أو المتـــاع أو الجســـم فى صورة وشم وكانت هناك قبائل تنظـــم شعرها على شـــكل توتمهـــا • وكانت هانك قبائل أخرى تحمل معها توتمها الى المعارك الحربية التى يتحدد فيها مصيرها ويعمـــل توتمها على نصرتها كمـــا يعتقدون • ولم يقتصر الأمر على رسم التوتم على الأشياء الخارجية بل أنه يرسم على الأجســـام ويحاول أفراد العشـــيرة أن يتشبهوا بالتوتم فى مظهـــرهم الخارجى وكثيرا ما يحدث فى أعيادهم الدينية أن يتشبهوا بصورته أو أن يحملوا أعضاء من النوع الذى ينتمى اليه التوتم • وكثيرا ما يرسم التوتم على الموتى وبذلك يدخل التوتم كعنصر أساسى فى طقوس الموت ، ولا تزال توجد بعض الرموز التوتمية عند قبائل اســـتراليا الوســـطى كالشورنجا عند قبائل الاورنطا • وهذا الرمز التوتمى يتشكل من الخشب أو الحجر المصقول فى أشكال مختلفة عادة ما تكون مستطيلة أو بيضاوية•

---

(5) Frazer Totemism Maemillan co. it. inc. Edinburgh 1887 pp. 53 - 56.

وكان لكل جماعة توتمية مجموعة من القطع الحجرية والخشبية ينقش على كل منها توتم الجماعة •

٧ ـ قداسة التوتم :

وتحظى « الشورنجا » بأهمية كبيرة عند بعض القبائل وتعتبر من أهم الأشياء لديهم • ونظرا لقداستها فانه لا يباح لغير أفراد القبيلة أن ينظروا اليها كما أنه لا ينطق باسمها الا نادرا وبصوت خافت ، ولم يكن يباح للنجس أن يقترب منها ، ويعاقب بالموت أحيانا كل من يخالف هذه القيود أو الضوابط التوتمية • وتحفظ الشورنجا فى مكان خاص فى جوف الأرض تقام حوله أكوام من الحجارة حتى لا تسترعى انتباه الغرباء عن القبيلة ، وتنتقل الصفات المقدسة للشورنجا الى المكان الذى وضعت فيه فلا يسمح النساء وغيرهن من النجساء الاقتراب منه • ومتى أراد فرد الاقتراب فانه يخضع لسلسلة من الطقوس وكل ما يوجد فى هذا المكان يصبح شيئا آمنا لا يمكن لأى فرد الاعتداء عليه •

وتعتبر قداسة الشورنجا منتشرة فى جميع أجزاء الجسم وعناصره، ولكنها أظهر ما تكون فى نظر العشائر البدائية فى دم الانسان وشعره ومن ثم كانت الدماء والشعور من أكثر عناصر الانسان استخداما فى الطقوس والشعائر الدينية عند هذه العشائر ، فكانوا يدهنون الشورنجا بالدم الانسانى وكانوا يرسمون رموزا للتوتم على أرض أو مادة مبللة بدم فرد من أفراد العشيرة ، وكانوا فى حفلات التعميد أو الالتحاق بالمجمع الدينى للعشيرة يجرح الكبار أنفسهم ويبللون بما يخرج من جروحهم من دماء جسم الشاب الذى يريدون تعميده وكانوا يحرمون على النساء كما ذكرنا وعلى غير المعمدين من الرجال النظر الى هذه الدماء •

هذه الطقوس الدينية وما اليها تعتبر من دعائم الترابط الاجتماعى فى تلك الأشكال الاجتماعية اذ أنها تعد عاملا ايجابيا لتماسك أفـــراد الجماعة فهى بمثابة الوسيط بين الفرد ومجتمعه وآلهته • فضلا عن أنها تقوى التفاف الأفراد وتمركزهم حول بؤرة تقاليدهم وعرضهم وعاداتهم وتراثهم الثقافى • فهم لا ينظرون الى القيم والمعايير والمواقف الا من وجهة نظرهم الجماعية الخاصة بهم والميزة لهم عن غيرهم من الجماعات الأخرى • ولذا فان كل ظاهرة تخالف مألوفهم يقاومونها بشدة وبعنف باعتبارها خطرا يهدد كيانهم الجماعى وذلك بحكم تضـــامنهم وترابطهم الآلى(٦) •

---

(٦) أحمد الخشاب ــ دراسات أنثروبولوجية ــ دار المعارف ــ القاهرة ــ ١٩٧٠ ــ ص ٤٨١ •



الفصل الثانى

الاتجـــــاه البنـــائى الوظيفى

١ ــ الترابط بين الظواهر

٢ ــ التفسير المـــادى للظواهر

٣ ــ الوظيفة الاجتماعية للدين

٤ ــ التأثير المتبادل بين النظم

٥ ــ وظيفة التنظيم القرابى

٦ ــ نظام الكولا

٧ ــ البناء والوظيفة

٨ ــ الشعائر البدائية



الفصل الثانى

الاتجــاه البنائى الوظيفى

١ — الترابط بين الظواهر :

يلاحظ أن هناك ترابط بين الظواهر الاجتماعية فيما بينها وقد يكون هذا الترابط فى الحــاضر ويراد به تأثير بعض النظم الاجتمــاعية على البعض الآخر باعتبار ما يقع تحت أبصارنا ويمكن اعتبار هذا من الناحية الاستقرارية حسب تعبير أوجست كونت نفســه فنرى مثلا أثر الحالة الاقتصادية فى ظاهرة دينية كالحج مثلا فيكثر الحجاج بسبب كثرة حركة البيع والشراء • وتوفر النقود والرفاهية عامة وكأثر الهجرة الموسمية وزيادة كثافة السكان فى بعض المدن كالمصايف التى يهاجر اليها الناس بقصد الراحة والاستجمام ، وأثر ذلك على ارتفاع الأســعار فى المدن السياحية أو كأثر الدين فى استهلاك بعض السلع فى بلاد معينة كانعدام توزيع لحم الخنزير فى الحجاز والمصنوعات والمأكولات التى تصنع من الدم الخالص فى البلاد الاسلامية • وعــدم تداول ورواج المشروبات الروحية فى بعض البلاد الاسلامية[1] • وقد دعا ذلك دور كايم أن يحصر تفسير الظواهر الاجتماعية بظواهر اجتماعية أخرى من النــوع نفسه وليس بالظواهر النفسية كما فعل ذلك تارد فى كلامه عن التقليد والمحاكاة أو بالظواهر الحيوية كما فعل ذلك هربرت سبنسر أو بالظواهر الجغرافية كما فعل ذلك راتزل وأودوم • كذلك هناك ترابط تاريخى بين الحــاضر والماضى يتلخص ذلك فى ظهور موجات اجتماعية تدعو الى ترديد ظاهرات أو نظم أو نزعات جمعية كانت موجودة وقائمة فى المجتمع فى عهد معين

---

(١) عبد العزيز عزت — محاضرات السنة التمهيدية لطلبة الماجستير — العام الدراسى ٦٦ — ٦٧ — محاضرات مطبوعة صفحة ٢٠ .

ترفض مثلا عودة النظام الملكى فى فرنسا بعد قيام الجمهورية فى عهد نابليون وخلفائه من بعده ثم عودة الجمهورية بعد ذلك ، ومثل قيــام الفاشية فى ايطاليا فى عهد موسولينى وارتكازها على انشاء امبراطورية ايطالية ترديدا لنفس هــذه الظاهرة فى التــاريخ أيام يوليوس قيصر وغيره ، وكذلك الدعوة فى مصر قبل الثورة عند بعض الكتاب للفرعونية والدعوة فى لبنان للفينيقية والدعوة فى العراق للبــابلية والآشورية . وهناك أيضا ترابط دورى وهو التأثير المتبادل بين الأمم واقتباس البعض نظم الآخرين وقد يتحقق ذلك عن طريق الفتح كسيادة اللغة العربيــة والدين الاسلامى فى البــلاد التى فتحها العرب كمصر والعــراق وبلاد شمال أفريقيا ، واما عن طريق التجارة كأثر الفنون المصرية القديمة فى الفنون اليونانية فى العهد الدورى ، واما عن طريق تقدم سبل المواصلات المختلفة(٢) فهذه قربت الشعوب بعضها من بعض وجعلت الاختلاط عن طريق الرحلة سهل ومتيسر حتى للطبقات المتوسطة وهذا ظاهر فى تقليدنا للأوربيين فى شرقنا وبعض عاداتنا كالذهاب الى المصــايف وفى لهــونا كسباق الخيل وفى أثاثنا من طراز لويس الرابع عشر والخامس عشر ، واما عن طريق التعليم كانتشار الآراء والمبــادىء الأوربية فيما بيننــا كالديمقراطية والقوانين الوضعية وكاستعمال كثير من الألفاظ الأوربية فى أحاديثنا ومناقشاتنا . وهذا الترابط يوجب ألا تسود ظاهرة أو نظــام معين على سائر النظم الأخرى فى التفسير الاجتماعى لأنه لو تحكمت ظاهرة فى سائر الظواهر وصبغتها بصبغتها انتقل البحث من مجال العلم الى مجال الفلسفة فنجد عند كارل ماركس مثلا أن كل الحياة الاجتماعية بسائر نظمها العائلية والسياسية والقــانونية والدينية أو الايدولوجية

---

(٢) المرجع السابق — صفحة ٢١ .

عامة تفسر وأساسها الحياة الاقتصادية(٣) بينمـا يرى ابن خلدون ومن من قبل ذلك أن السيادة تكون عادة لظاهرة النظام السياسى ولهذا نجده يردد دائما فى مقدمته جملته المشـهورة « النـاس على دين ملوكهم » فالأمير أو السلطان هو الذى ينشىء المدن وهو الذى يشرع القوانين وهو الذى يحدد الأسعار وهو الذى يعلن الحرب . هذا التغليب أسـاسه تفضيل فيلسوف معين لنظام معين وهذا أمر شخصى وكل ما هو شخصى بعيد كل البعد عن ميدان العلم الذى هو واحد لكل الناس .

ويتضح من هنا ترابط النظم الاجتماعية كلها وتساندها وتكاملها ذلك لأنها تنبع من طبيعة واحدة وهى الطبيعة الاجتماعية ، وتهدف الى غايات بعيدة واحدة وهى تأمين المجتمع وضمان سلامته وسلامة أفراده الذين يتكون منهم ، والحرص على مقوماته وكيانه ويفيدنا هذا الترابط فى دراستها وتحليلها ، لأن النظم لا تعيش منعزلة ولكنها تتكامل وظيفيا فى أسرتها الاجتماعية . فالنظم الأسرية والأخلاقية والجمالية والدينية يفسر بعضها البعض الآخر وكذلك الشأن فيما يتعلق بالنظم الاقتصادية والسياسية والتشريعية(٤) .

٢ — التفسير المـادى للظواهر :

يذهب كل من كارل ماركس وانجلز الى أن الناحية المعنوية أو ما يطلق عليه علماء الاجتماع الايديولوجيات تقوم على أساس تركيبهـا المـادى ، ولمـا كان ماركس يجعل الحاجة الحيوانية أو البيـولوجية

---

(٣) المرجع السابق — صفحة ٢١ .

(٤) مصطفى الخشاب — علم الاجتماع ومدارسه الكتاب الثانى المدخل الى علم الاجتماع — لجنة البيان العربى — القاهرة ١٩٦٢ صفحة ٣٤٤ .

محورا للتطور الانسانى فقد كان هذا هو السبب فى تفسيره للدين بأنه مجرد ظاهرة عرضية لا أهمية لها كما يزعم من الناحية الاجتماعية •

ويرى أحد أتباع هذا المذهب أنه ما كان للدين والفلسفة أن يوجدا دون النواحى الاقتصادية التى تحيل ظهورها شيئا ممكنا ، فالمسيحية ما كانت لتوجد دون الانقلاب الذى صاحب الغزوات الرومانية وما كان للمذهب البروتستانتى أن يبرز الى الوجود دون نشأة الطبقة المتوسطة• ويرى هذا المذهب أن نظام توزيع الأراضى يقوم بدور هام ويفسر بعض الظواهر التى يبدو عليها غلبة الطابع الصوفى مثل النبوات لدى اليهود أو مجىء المنقذ لدى المسيحيين ولذلك لا تعكس أصول العقيدة والمعتقدات الا المصالح الحيوية للطبقات الاجتماعية والمنازعات الدينية والصراع بين هذه المصالح أو بين هذه الطبقات[٥] والى جانب هذا التفسير المادى للعلاقات بين المذاهب الدينية والنظم الاقتصادية نجد تفسيرا آخر يتمثل فى التفسير السيكلوجى كما يرى ماكس فيبر ونتشه ، فالمسيحية ديانة الجماعات المضطهدة لأنها تعبر عن عواطف الكراهية التى يحملها الأرقاء تجاه أسيادهم ولأنها تستخدم فى نفس الوقت الايمان بوجود الفردوس لتخفيف آلام الحاجة الى التحرر والراحة التى يضطرب لها تفكير هؤلاء الأرقاء وعندما ترك المذهب الكاثوليكى نفسه فريسة لعدوى وثنية عصر النهضة وتحول الى مذهب أرستقراطى أخذ المذهب البروتستانتى على عاتقه مهمة المطالبة بحقوق الطبقة العاملة ، وهذا التفسير فى أساسه لا يختلف عن أساس التفسير السابق الذى ذهب اليه اتجاه المادية التاريخية عند كارل ماركس وانجلز •

---

(٥) روجيه باستيد — مبادىء علم الاجتماع الدينى — مرجع سابق — صفحة ٢٠٦ •

٣ ــ الوظيفة الاجتماعية للدين :

ويتضح أن الانسان ليس روحا خالصة بل هو جسم ويحتاج الى مقومات ضرورية ويعمل لكى يشبع هذه الحاجات البيولوجية المتصــلة بالغذاء ، ولذلك فليس الدين عند الانسان فى الغالب الا وسيلة تستخدمها عواطفه فى البحث عما يشبعها وتبدو قوة هذه العواطف لدى الشعوب المتأخرة والقريبة جدا من المستوى الحيوانى ، وقد أكد ذلك ماكس فيبر عندما اعتقد أن السحر عبارة عن مجهود يبذله الرجل المتأخر لتسخير الطبيعة وتحقيق مصالحه المــادية مثل شفاء الأمراض والمطر الذى يروى الارض والشمس التى تنضج الثمار ، والاكثر من ذلك أن الدين التوتمى يرجع تبعا لاحدى نظريات فريزر الى أصل غذائى محض[٦] فهو يرى أن طقوس الانتشيوما محور الــديانة التوتمية فى اســتراليا ترمى الى الاكثار من الفصيلة التوتمية كمــا ترمى المحظورات التى تحمى هــذه الفصيلة الى الحيلولة دون القضاء عليها فى الغالب وتثير هذه القضية اعتراضين ، فمن ناحية كيف يمكن أن تهدف الديانة التــوتمية الى منع حدوث المجاعة اذا كان لا يحق للعشيرة أن تأكل توتمها لكنها تستطيع أن تأكل تواتم العشيرة الأخرى كما تستطيع هذه العشائر الأخرى أن تأكل توتمها بحسب طقوس معينة .

ويتضح أن الديانة التوتمية تصبح نوعا من التعاون بين القبائــل تقدم كل منها لغيرها المواد الغذائية الضرورية لها على سبيل العــون المتبادل ، ويعترض هنا بأن كثيرا من التواتم لا تستخدم فى التغذية واذا لم تكن جميع أنواع التــواتم مفيدة للانســان ، فان ذلك يدل على أن ديانات هذه القبائل قد اتسعت فى الوقت الحاضر وتاجوزت المرحــلة الأولى التى كانت فيها منفعة خالصة ، ويلاحظ فى هذا الصدد أن أسلوب

---

(٦) المرجع السابق ــ صفحة ٢٠٧ .

الرعى والزراعة يعملان على القضاء على الديانة التوتمية ولذلك نجد صيادو السواحل يجهلون الديانة التوتمية لأن صيد البحر لا ينضب معينه • وتتصل الأساطير نفسها بنظام خاص فى الحياة ، فسيطر القمر على تصورات الشعوب الرعوية كما تسيطر الشمس على تصورات الشعوب الزراعية ، ويقوم القمر بمهمة ارشاد الرعاة وتعمل الشمس على انبات الزرع •

ولقد قرر ماكس فيبر على عكس ما ذهب اليه المذهب المادى التاريخى أن حركة الاصلاح البروتستانتى لم يكن ظلا لظهور الطبقة المتوسطة وأبرز من خلال الاحصاءات التى قام بها وجود علاقة بين المذهب البروتستانتى والنظام الرأسمالى ولذلك فان النظام الرأسمالى كان بالأحرى احدى نتائج المذهب البروتستانتى وليس معنى ذلك أن البروتستانتى يتفوق على الكاثوليكى فى الاتجاه المادى ، وانما للمتطهرين الذين يتمسكون بحرفية الكتاب المقدس ، فكرة تقوم على التشاؤم من الدنيا والزهد فيها ، ولكن لما كان الزهد يحفز الى الناحية الاقتصادية فقد ساعد على تركيز رؤوس الأموال • وهكذا استخدم الزهد على نحو غريب كدعامة للنظام الرأسمالى(٧) •

هذا الى أن البروتستانتى عندما يتخذ من عمله المهنى طريقا الى تحقيق سعادته الأخروية فانه يؤدى عمله باخلاص طبقا لما يوحى به اليه ضميره ، ولذلك يصبح مديرا صناعيا ممتازا ، وفيما عدا ذلك لم يقف ماكس فيبر عند حد دراسة العلاقة بين المذهب البروتستانتى وبين النظام الرأسمالى لأن بعض البحوث الأخرى لاسيما البحوث المتعلقة بالاقتصاد الهندى والصينى أكدت وجهة نظر ماكس فيبر وهى أن النظام الرأسمالى لا يرجع الى أصول مادية ويحتاج فى نشأته ونموه الى بيئات

---

(٧) المرجع السابق — صفحة ٢١٢ .

دينية ملائمة وقد برهن فى هذا الصدد على وجود علاقة وثيقة بين النظم الدينية والاقتصادية وبصفة خاصة تأثير النظم الأولى وهى الدينية على النظم الاقتصادية وننتهى الى :

أن الظاهرة الدينية كانت مختلطة بالظاهرتين السياسية والاقتصادية ولكن هذا الاختلاط لم يكن دليلا على اتحاد طبيعة هذه الظواهر وتختلف هذه الوظائف فعلا من الناحية القانونية ولا يمكن ارجاع احداهما الى الأخرى وغاية ما هنالك أنها تختلط بعضها ببعض ويفسر بعضها البعض الآخر ، ويأخذ التطور الاجتماعى فيما بعد على عاتقه مهمة التفرقة بين هذه الظواهر المختلفة ويفصل بين الظواهر أو النظم التى يشبع كل منها حاجة خاصة ، ويصبح الاختلاف المبدئى بين النظم الدينية والسياسية والاقتصادية أساس للتأثير المتبـــادل المســـتمر بينهما فيستعين النظام السياسى بالنظام الدينى ويعكس النظام الدينى النظام الاقتصادى وفى النهاية يعكس النظامان الاقتصادى والسياسى النظام الدينى لأنه هو الذى يعدلهما ويوجههما(٨) •

٤ ـــ التأثير المتبادل بين النظم :

ويلاحظ أيضا مدى تأثير النظم الاجتماعية فى التربية ومبلغ تأثير هذه بدورها فى هذه النظم ويشتق هذا الأثر المتبادل من أن طبيعة النظم الاجتماعية تتداخل وتترابط ويفسر بعضها بعضا ، ويرى دور كايم • أن أهم النظم أثرا فى التربية هى :

١ـــ النظام السياسى ٢ـــ النظام الأخلاقى ٣ـــ النظام الاقتصادى ٤ـــ النظام الدينى ويدل على ذلك تأثر التربية العامة بالنظام السياسى

---

(٨) روجيه باستيد ـــ مبادىء علم الاجتماع الدينى ـــ مرجع سابق صفحة ٢١٢ •

فى ايطاليا الفاشية وألمانيا النازية بينما تأثرت التربية فى فرنسا بالعادات والعرف والتقاليد الديمقراطية نتيجة لقيام الثورة الفرنسية وتتأثر أيضا بالنظام الاقتصادى كما هو الحال فى روسيا ، وأخيرا تتأثر بالدين كتأثرها بالمذهب البيوريتانى عند الأمريكيين والكنديين فى أول عهدهم بالمهاجرة الى القارة الجديدة أو تأثرها بالاسلام عند بعض الشعوب الشرقية عامة والسعودية خاصة(٩) •

على أن المنهج التكاملى الوظيفى قد اكتملت صورته على أيدى المدرسة الانجليزية الانثروبولوجية وخاصة عند كل من مالينوفسكى ورادكليف براون •

٥ ـ وظيفة التنظيم القرابى :

والمثال الذى يحب مالينوفسكى نفسه أن يستشهد به فى مجال الاتجاه الوظيفى هو وظيفة التنظيم القرابى فى المجتمع وذلك باعتبار أن الجماعات القرابية تتخذ أشكالا متعددة تختلف باختلاف الحضارات التى توجد فيها •

وتعتبر الأسرة التى تتألف من الأبوين وأبنائهما غير المتزوجين أصغر وحدة قرابية عرفها المجتمع البشرى وتنحصر وظيفتها فى رأى مالينوفسكى فى امداد المجتمع بالمواطنين • اذ أنها هى الجماعة الوحيدة التى يمكنها عن طريق عقد الزواج القائم بين الزوجين أن تقدم للمجتمع أبناء شرعيين ، وتوفر لهم ما يحتاجون اليه من حاجات كالتربية والتعليم

---

(٩) عبد العزيز عزت فى الاجتماع التربوى ـ القاهرة ١٩٦٠. الطبعة الثالثة ـ صفحة ٧٦ ـ ٧٨ •

والتغذية ، وتهيىء لهم مركزا معينا فى المجتمع ، وتعتبر الوظيفة الحقيقية للعائلة الممتدة (وهى تشكل أكثر تعقيدا من الاسرة الصغيرة عنده ولا سيما فى المجتمعات المتأخرة التى عرفت هذا النوع من التنظيم العائلى) هى المساعدة على استغلال الموارد الاقتصادية بطريقة أفضل مما تستطيعه الأسرة الصغيرة كما أنها تعمل على زيادة السيطرة والاشراف القانونى فى نطاق احدى الوحدات الصغيرة المتمايزة التى ينقسم اليهـا المجتمع المحلى • بل وقد تؤدى فى بعض الأحيان الى زيادة السلطة السياسية وتدعيمها والى اسـتتباب الأمن وزيادة الطمأنينة داخل المجتمع المحلى ككل فى الحالات التى يتوزع فيها أفراد العائلات الممتدة بين أقسـام المجتمع المحلى المختلفة •

أما العشيرة التى تنقسم عادة الى عدد من العـائلات الممتدة فان وظيفتها تنحصر فى ايجاد شبكة واسعة جدا من العلاقات الاجتماعية التى تعتمد فى أساسها على الصلة القرابية •

والمهم أن هذا المثال يقربنـا من موقف مالينوفسكى من الوظيفة التكاملية وكيف أن هذه الوظيفة تختلف من مجتمع الى آخر تبعا لنمط الحضارة والنظم الاجتمـاعية السـائدة فيه • ومع أن كلا من الأسرة الصغيرة والعائلة الممتدة والعشيرة تقوم كلهـا على أسـاس الروابط القرابية الا أن لكل منها وظيفة اجتماعية تختلف عن وظيفة الأخـرى باعتبار أن كلا منها يرتبط بحضارة خاصة وبتنظيم اجتماعى مخالف •

ويؤكد مالينوفسكى بالنسبة للباحث الميدانى على تحليل الحضارة الى عدد من النظم التى يمكن دراسة كل نظام منها فى أوجهه ومظاهره المتعددة طالما كانت هذه النظم ترتبط احداها بالأخرى ويؤثر بعضها فى بعض رغم تباينها ، والقدرة على تمييز هذه النظم وفصلها عن بعضها مع

توضيح العلاقات المتداخلة التى تقوم بينها هو أهم ما يقوم به الباحث اجتماعيا كان أو انثروبولوجيا فى دراسته للمجتمع ، وعلى ذلك فان الحضارة وحدة متكاملة تتكون من العديد من النظم المستقلة نسبيا ، لكن يقوم بينها نوع من التناسق ، ويعتمد تكامل الحضارة على عدد من الأسس كرابطة الدم عن طريق التوالد والتناسل والتجاور فى المكان الذى يرتبط بدوره بالتعاون وتقسيم العمل واستخدام السلطة فى التنظيم السياسى ، وتدين كل حضارة بكمالها واكتفائها الذاتى الى قدرتها على اشباع كل الرغبات الاساسية والآلية والتكاملية (١٠) •

٦ ــ نظام الكولا :

وقد درس مالينوفسكى النظام المعروف باسم الكولا وتطرق فيه الى دراسة كل النظم الاجتماعية السائدة فى مجتمع التروبرياند فى علاقاتها بنظام الكولا ويقوم هذا النظام فى أساسه على تبادل بعض السلع التى ليست لها أى قيمة تجارية أو اقتصادية لكنها تتمتع بقيمة اجتماعية وشعائرية عالية تضفى على من يمتلكها مكانة مرموقة فى المجتمع ، وتتألف السلع المتبادلة من عقود طويلة من الأصداف الحمراء وأساور من الأصداف البيضاء وينحصر نسق التبادل فى وجود اتفاقيات شفوية تقليدية متوارثة منذ أجيال بعيدة بين سكان جزر التروبرياند على تبادل هذه السلع بحيث تنتقل العقود فى اتجاه معين واحدحول محيط الدائرة التى تنتظم فيهاهذه الجزر،بينما تنتقل الاساور فى الاتجاه المغاير وتتوقف مكانة الفرد وعائلته فى الحياة الاجتماعية على نوع السلع التى يحصل عليها من هذه المبادلات وخاصة عندما يحصل

(10) Bidney D. Thcorical Anthropology (2nd printing) Colombia U.P. 1954 p. 366.

على الأصداف النادرة النفيسة فتزداد شهرته ويرتفع صيته فى المجتمع أكثر من ذى قبل حين يتنازل عن هذه النفائس لعملائه أو شركائه فى نظام الكولا بعد أن يكون قد احتفظ بها فترة من الوقت .

ويوجد وراء هذا التبادل الشعائرى للسلع ذات القيمة الاجتماعية نوع آخر من تبادل السلع الاقتصادية يخضع لكل القواعد المعمول بها فى العمليات التجارية المعهودة ويصاحبه كثير من المساومة على تحديد قيمة هذه السلع الاستهلاكية الشيء الذى لا نجده فى تبادل السلع الشعائرية السالفة الذكر .

٧ — البناء والوظيفة :

أما عن العلامة رادكليف براون فيرجع اليه الفضل فى توضيح المنهج التكاملى الوظيفى ووضعه على أسس علمية سليمة ، وفرق فى ذلك بين البناء الاجتماعى والوظيفة الاجتماعية ، ولقد تقبل رادكليف براون بصورة عامة تعريف دور كايم لوظيفة النظام الاجتماعى بأنها التناظر بينه وبين حاجات الكائن العضوى اجتلاماعى،ورأى فى الوقت نفسه ضرورة ادخال بعض التعديل على تعريف دور كايم ليمكن توضيح مابه من غموض ويتلافى بل ما يبدو من نقص فى تعريف دور كايم،واقترح رادكليف براون أن تستبدل كلمة حاجات التى استعملها دور كايم باصطلاح الشروط الضرورية للوجود ، ويقول فى هذا الصدد ونود أن نذكر هنا أن أية محاولة لاستخدام مفهوم الوظيفة فى العلم الاجتماعى تتضمن الدعوى بأن هناك شروطا ضرورية لوجود المجتمعات البشرية مثلما توجد شروط ضرورية لوجود الكائنات العضوية الحيوانية ، وأن فى الامكان اكتشاف هذه الشروط عن طريق البحث العلمى الملائم (١١) .

---

(11) R. Brown structure and function op. cit. p. 178

ووظيفة أى نظــام هى الدور الذى يؤديه أى نشــاط جزئى من النشاط الكلى الذى يكون هذا النظام جزءا منه ، ووظيفة أى عادة اجتماعية جزئية هى الدور الذى تلعبه هذه العادة فى الحياة الاجتماعية على أساس أن لكل نظام نسق اجتماعى كلى • وتكون لأى ظاهرة دينية وظيفتها فى النسق الدينى من ناحية ، وفى النسق الاجتماعى الكلى من ناحية أخرى ، على اعتبار أن لكل نظام وظيفة معينة يقوم بها فى البناء الاجتماعى الذى يتألف من أفراد وجماعات يرتبطون بعلاقات بعضهم مع البعض الآخر فى وحــدة متماسكة • وهــذا الى أن قيام البنــاء الاجتماعى نفسه واستمراره يرجع الى فاعلية النســق والنظم التى تحافظ على كيانه وتبعا لهذا الرأى يكون للنسق الاجتماعى الدينى وحدة وظيفية ، بمعنى أنه ليس مجرد تجمع أو حشد ، وانما هو كائن عضوى متكامل ، وحين نتكلم عن التكامل الاجتماعى الخــاص بالنظام الدينى والهيئات التى تمثله فاننا نفترض من الأساس وجود رابطة تربط الأفراد والجماعات والتنظيمات الدينية • وتجمعهم فى بناءات وتنظيمات تتمتع بدرجة معينة من الثبات والاستقرار والفاعلية ، وتنتظمه أنساق ثابتة تتكون من جماعات تحدد علاقة هؤلاء الأفراد بعضهم مع بعض وتحدد علاقاتهم بغيرهم من الجماعات الاخرى،كما أنها تحدد الاوضاع التى تسمح بتكيفهم مع البيئة الاجتماعية العامة وبالتكيف الداخلى بين الأفراد وبين الجماعات المكونة لهذا النســق حتى يمكن قيــام فاعليات واهتمامات اجتماعية ودينية مترابطة متماسكة ، ويتطلب استخدام المنهج الوظيفى التكاملى دراسة البناء الدينى كما يتمثل فى التنظيمات الدينية والفرق والاتباع ، ويقضى أيضا بدراسة الروابط والعلاقات التى تحدد الصلات بين الأفراد الذين يضمهم هذا البناء ، وتتمثل تلك الصلات فى العناصر الروحية والمادية التى تعتبر مزيجا مختلفا من العادات والطقوس والمراسيم والصلوات والفروض والأضاحى والقرابين والعقائد والهدى •

٨ ــ الشعائر البدائية :

ولتوضيح ما سبق نذكر أمثلة عن الشعائر التى يمارسها البدائيون وهى أكثر الشعائر شيوعا فى أكثر المجتمعات ، فالمثال الأول هو : الشعائر الخاصة بتقديم الأضاحى والقرابين للأسلاف • وتنتشر هذه الشعائر فى المجتمعات الافريقية المتأخرة ويتفق كل من فريزر واميل دور كايم على اعتبار هذه الشعائر جزءا من النظام الدينى ، وان كانا يختلفان فى الأسباب التى أقاما عليها هذا الاعتبار • فيعتبر فريزر تقديم الأضاحى جزءا من الدين لأن الشعائر تتعلق بالكائنات الروحية ، بينما يعتبرها دور كايم عملا دينيا مقدسا لأن القرابين يقدمها الرئيس باسم المجتمع المحلى كله وليس باسمه هو وحده ، فهو اذن عمل مقدس وجماعى ويتوفر فيه الشرطان الأساسيان للممارسات والطقوس الدينية

أما المثال الثانى : فهو الاجتماعات الدورية التى تعقدها الشعائر التوتمية وخاصة فى استراليا وتقوم فيها ببعض الطقوس التى ترمى الى ارضاء التوتم والتقرب منه ثم ذبحه وأكل لحمه اذا كان ينتسب من الفصيلة الحيوانية لاكتساب صفاته وخصائصه ، ولا يعتبر فريزر هذه الممارسات والطقوس دينية لأنها لاتتعلق بالكائنات الروحية ، وما التوتم الا حيوانا يعتقد أفراد العشيرة التوتمية أنوم انحدروا منه ، كما أن الغرض من هذه الطقوس هو تقوية الروابط والصلات التى تجمعهم به فهو اذن فيما يرى فريزر جزء من الممارسات والطقوس السحرية ، ويرى دور كايم على العكس من ذلك أن الممارسات التوتمية كلها ممارسات دينية لأنها تتعلق بالكائنات المقدسة التى تتجسد فى التوتم ولأن الشعائر والطقوس تؤدى على المستوى الجماعى ، ويشترك فيها أفراد العشيرة كلهم وتهدف فى النهاية الى صالح الجماعة كلها ، والمثال الثالث والاخير :

هو وسائل التطبيب والعــلاج التى يجريها الطبيب الســاحر فى أغلب المجتمعات المتأخرة ويســتخدم فيها فنه ومهارته ومعــرفته بخصائص الاعشاب الطبية البرية • ويتفق فريزر ودور كايم فى اعتبــار هـــذه الممارسات على أنها نوع من السحر ، فهى سحر عند فريزر لأنها لا تمت بأية صلة الى الكائنات الروحية ، وسحر عند دور كايم أيضــا لأنهـــا ممارسات فردية يقوم بها شخص واحد هو المطبب لصالح فرد واحــد أو جماعة محدودة من الأفراد وينقصها عنصر القداسة وعنصر الجماعية اللذان يعتبرهما دور كايم أساس الممارسة الدينية •

الفصـــل الثـالث

الاتجاه التيولوجى الاجتماعى

١ ــ الدين والسياسة كوسيلتين ضابطتين

٢ ــ السلطة فى المجتمعات البدائية

٣ ــ التغيرات فى السلطة التشريعية

٤ ــ آلهة الأقاليم فى مصر القديمة

٥ ــ ادراك ذات الله

٦ ــ النفوذ الدينى

٧ ــ اختلاف الديانات

٨ ــ عناصر الدين

٩ ــ علاقة الدين بالنظم الأخرى

١٠ ــ وظائف التوتم

١١ ــ الآلهة فى الجاهلية

١٢ ــ ظهور الاســلام



الفصـــل الثالث

الاتجاه التيولوجى الاجتماعى

١ — الدين والسياسة كوسيلتين ضابطتين :

أشارت دراسة العلاقات بين الدين والسياسة كوسيلتين ضابطتين، وان كان الدين أقدم من هذه الناحية أثارت اهتماما شديدا لدى الرواد الأوائل بعلم الاجتماع لا سيما اهتمام سبنسر الذى كان قد ربط هذه الدراسة بقانونه عن التطور الانسانى الذى يتمثل فى انتقال المجتمعات الانسانية من المرحلة الحربية الى المرحلة الصناعية ، ووضح سبنسر فعلا العلاقات الوثيقة التى توجد أصلا بين النظم السياسية وبين النظم الكهنوتية أو الدينية سواء عند المجتمعات القديمة أو عنـــد المجتمعات البدائية (١) •

فالمجتمعات القـــديمة مثلا كونتها ديانات قديمة ، وكانت عقيدتها الأولى أن كل اله يحمى أسرة أو مدينة دون سواه ، وأن الاله لا يوجد الا من أجلها ، كان ذلك فى فترة آلهة المنازل والمعبودات المدنية وتولد التشريع من هـــذه الديانات • فالعلاقات بين النـــاس والملكية والميراث والاجراءات لم تنظم كلها عن طريق الانصاف الطبيعى ، بل عن طريق قواعد هذه الديانات ، ومن أجل حاجات عبادتها ، وهى أيضا التى أقامت السلطة الحاكمة بين الناس • سلطة الأب فى الأسرة وسلطة الحاكم فى المدينة • وقد جـــاء ذلك كله من الديانة السائدة عنـــد تلك المجتمعات القديمة ، ومن الرأى الذى كونته عن المعبود • ولذلك اختلطت الحكومة

(١) فوستيل دى كولانج — المدينة العتيقة — ترجمة عباس بيومى — النهضة المصرية بالقاهرة — ١٩٥٠ — صفحة — ٥١٦ .

والدين أو السياسة وفى الوقت نفسه التشريع ، وكانت كلها شيئا واحدا ذى ثلاثة مظاهر متباينة (٢) ٠

٢ ـ السلطة فى المجتمعات البدائية :

أما فى المجتمعات البدائية وخاصة المجتمعات الافريقية ٠ فنجد أن الملوك والسلاطين والرؤساء ومن اليهم ليسوا بمجرد حكام يملكون السلطة الزمنية فقط ، وانما هم يجمعون اليها كثيرا من السلطات الروحية المتوارثة منذ القديم ويستمدون سلطتهم السياسية مما اتفقوا عليه من أوضاع دينية لديهم ٠ وحتى فى المجتمعات التى لا توجد فيها سلطة سياسية ، فان توازن الأقسام الاقليمية والقرابية والسياسية يعتمد كثيرا على التقاليد والأساطير والقيم الروحية المتوارثة ، بحيث يعتبر الخروج عليها بمثابة خروج على كل التراث الروحى التقليدى مما يثير أرواح الاسلاف على الأحياء ٠ ومهما اختلفت الديانة فى المجتمعات فانها فى المجتمعات القديمة تتميز بالسيادة المطلقة على الحياة الخاصة والحياة العامة التى كانت الدولة فيها جماعة دينية ، والملك حبرا ورجل الدولة كاهنا والقانون صيغة مقدسة ٠ حيث كانت الوطنية نوعا من البر ونفى المواطن يصدر عن المعبد الذى تقام فيه الطقوس الدينية نظرا لأن الحرية الفردية كانت مجهولة ٠ والانسان خاضع للدولة عن طريق الروح وعن طريق الجسم وعن طريق المال ٠ ولقد كانت نظرتهم للأجنبى نظرة حقد الزامى لأنه يعتبر غريبا عنهم وكانت فكرة الحق وفكرة الواجب وكذلك فكرة العدل والمحبة تنتهى عند حدود مجتمع المدينة ٠ وكان المجتمع الانسانى وقتها بحكم الضرورة محدودا فى دائرة معينة حول المعبد ، ولم يكن هناك داع عندهم لتأسيس مجتمعات أوسع

---

(٢) المرجع السابق ص ٥١٦ ..

من تلك المجتمعات السابقة • وكانت هذه الصفات مميزة للمدن الافريقية والايطالية أثناء الفترة الأولى من تاريخها (٣) •

٣ — التغيرات فى السلطة التشريعية :

ثم أخذ المجتمع يتبدل شيئا فشيئا وحصلت تغييرات فى السلطتين التشريعية والسياسيه وشملت فى الوقت نفسه العقائد العقائد • أما قبل ذلك وعلى وجه التحديد فى القرون الخمسة التى سبقت ظهور المسيحية فان العلاقة بين الدين من ناحية والتشريع والسياسة من ناحية أخرى لم تكن وثيقة بمثل هذه الدرجة ، ذلك لأن جهـود الطبقات المضطهدة وانسقاط الطبقة الكهنوتية وعمل الفلاسـفة ممثلا فى محاربتهم طبقـة الكهنوت وتقدم الفكر قد أضعفت المبادىء التى كان يستند اليهاالمجتمع البشرى قديما • ولقد بذلت جهود مستمرة للتحرر من سيطرة هـذه الديانة القديمة التى لم يعـد فى امكان الانسان أن يقبلها وقـد تحلل التشريع والسلطة وكذلك الاخلاق من روابطها تحللا تدريجيا ، الا أن هذا النوع من الانفصـال كان نتيجة لانتهاء أو غروب شمس الديانة القديمة ، ولئن كان التشريع والسياسة قد ابتـدأ يستقلان بصـورة نسبية عن الدين بعد أن كان سائدا عليهما فيما مضى ، فانه لم يعـد للناس عقائد ولم تعد الديانة تحكم المجتمع ، ويرجع ذلك بصفة خاصة الى أنه لم تكن للديانة قوتها الأولى • ثم جاء يوم استردت فيه العاطفة الدينية حياتها وقوتها ثانية واستردت العقيدة نفوذها على الجوانب الروحية فى المجتمع • وبذلك ظهرت من جديد السيطرة الدينية والسياسية ورجـع المجتمع الى سيرته الاولى ولم يقتصر الامر الا مع ظهور المسيحية على بعث الحياة فى العاطفة الدينية ، بل أنها اتخذت تعبيرا اتسم بالروحية

---

(٣) المرجع السابق — صفحة ٥١٧ .

فلقد اتخذوا فيما مضى وقبل ظهور المسيحية آلهة وضعية من الأرواح البشرية ومن القوى الطبيعية (٤) وغير ذلك من المعبودات وكان لكل مدينة ولكل بلدة أو قوية معبودها الخاص الذى يحمى حوزتها وكان الناس يرفعون أكف التضرع اذا دهمهم خطر فيلتمسون معونته ويبتغون رضاء بالضحايا واقامة الصلاة لاعتقادهم أن سعادة المجتمع وشقاءه بين يديه. فكان هو رب المقاطعة أو اله المدينة . وكان مثله كمثل الحاكم الدنيوى متسلطا على رقاب كل من القيت مقاليد أمرهم بيده يحمى حياتهم ويحفظ سلعهم ويدفع عن ماشيتهم كل طارىء أجنبى مفاجىء . وكان رضاه رحمة على الناس وغضبه نقمة ومتلفة لهم .

٤ — آلهة الأقاليم فى مصر القديمة :

ولقد بلغ من شدة ارتباط هذه الآلهة بمقاطعاتها أن بعضها فقد اسمه الخاص وصار يسمى باسم الجهة التى يسيطر عليها ويظهر قوته فيها . فمن ذلك ان آله ادفو المحلى كان يذكر باسم اله ادفو ، وآلهة الكاب . كانت تدعى بسيدة الكاب . على أنه مما لا ريب فيه أن العادة جرت بأن يسمى كل اله محلى باسم خاص فكان اله منفيس مثلا يدعى (فتاح) واله مقاطعة الشلال القريبة من فيلة اسمه (خنم) واله (امبص) القريبة من نقاده بالوجه القبلى اسمه (سونح) أو (ست) واله قفط الواقعة على طريق القوافل من النيل الى البحر الاحمر اسمه (من) ومعبود الفيوم فى اقليم بحيرة موريس اسمه (سبك) . ونذكر من بين الآلهة (حتحور) سيدة دندرة(٥) . والمعبودة (نيت) الهة صان

---

(٤) المرجع السابق — ص ٥١٧ .

(٥) استندوف الالمانى — ديانة قدماء المصريين — تعريب سليم حسن — مطبعة المعارف — القاهرة — ١٩٢٣ — الطبعة الاولى — ص ٢٠ .

الحجر فى الدلتا (وسخمت) اله احدى ضواحى منف • وهذا قليل من كثير اذ من الصعب أن نعدد كل المعبودات • ومن الحقائق الواضحة فى هذا الصدد هو ان مصر فى عهدها الأول لم تكن فيها وحدة دينية • وانما هناك فى كل منطقة اله • بيـد أنه كان عند المصريين بعض عقائد دينية مشتركة بين جميع الشعب فهى ارث المجتمع العقلى المشترك • فمن ذلك أنه بالرغم من كل الخلافات السياسية • كان الشعب المصرى على بكرة أبيه يعتقد فى وجـود كائنات فوق البشر تتجلى فى قوى الطبيعة ومن هذه الآلهة (حوريس اله الشمس) فقد كان المصريين أجمعون يتخيلونه فى صورة باشـق له ريش زاه يحلق به فى السـماء فيفيض من نوره على العالم •

غير أن هذا المعبود السـماوى كان له فى بعض الجهات علاقات وروابط خاصة تربطه بحياة أهلها • فكان فى هذه الأحوال يعزى اليـه حماية طائفة صغيرة من الناس ، وبعبارة أخرى كان يعتبر الاله المحلى لتلك الجهة • ومن هنا أصبح حوريس الذى كان فى الأصل يسكن الأفق فحسب • الاله المحلى لمدن متنوعة ، وكذلك سبك اله الماء ، فقـد كان فى بادىء الأمر معروفا فى طول البلاد وعرضها بأنه شيطان يقطن الماء ويظهر للناس فى ثوب تمساح ، ولكن على مـر الأيام اكتسب احتراما خاصا فى بعض الجهات فأصـبح الاله المحلى فى المـدن التى تتوقف سعادتها وشقاؤها على الماء كأقليم الفيوم وجزر الجبلين فى الوجه القبلى كمدينة (خنو) الواقعة بالقرب من دوامات السلسلة الحالية • بهـذه الكيفية أصبحت قوى الطبيعة المختلفة آلهة محلية فى كثير من الأحـوال وصار لها احتراما خاصا (٦) •

---

(٦) المرجع السابق — ص ٢١ .

٥ ـ ادراك ذات الله :

ولئن اتخذت بعض المجتمعات من القوى الطبيعية آلهة لها فانها بعد ذلك بدأت تدرك الله كذات عليا فى جوهرها متميزة عن الطبيعة البشرية من ناحية أو عن العالم من ناحية أخرى ليس كمثله شىء ووضعه خارج الطبيعة المرئية وفوقها بدون رجعة فى ذلك • بينما كان كل رجل فى الماضى يصنع الهه وكانت هناك من الآلهة بقدر ما كانت هناك من أسر ومدن واذا بالله يبدو عندئذ كذات واحدة عامة مطلقة لا حد لها هى التى تبعث وحدها الحياة فى العالم وهى وحدها التى يجب أن تفى بالحاجة الى العبادة الكامنة فى الانسان ، وبدلا من أن تكون الديانة عند مجتمعات الاغريق وايطاليا ومصر كما كانت فى الماضى مجرد مجموعة من العبادات لاصنام أو تماثيل ، وغيرها من المجتمعات التى تعتمد على مجموعة من الشعائر يكررونها دون أن يروا فيها أى معنى وسلسلة من الرموز لم يكونوا يفهمونها فى أغلب الأحيان • نظرا لتقادم لغتها وانتقالها من عصر لعصر ولا تجد صفتها المقدسة الا من قدمها ، بدلا من ذلك كله أصبحت الديانة عبارة عن مجموعة من التعاليم ومجالا مفضلا للايمان ولم تعد أشياء خارجية بل أصبحت مستقرة فى قلب انلاسان ولم تعد أشياء مادية،بل أصبحت أشياء روحية•وبظهور الديانات السماوية الكبرى تغيرت طبيعة العبادة وشكلها ولم يعد الانسان يقدم الى الآلهة المأكل والمشرب ولم تكن الصلاة صيغة لعزيمة سحرية وانما أصبحت عملا من أعمال الايمان والتماسا عن طريق التواضع والخضوع الى الله • وأصبحت للروح صلة أخرى بالمعبود وحلت محبة الله محل الخوف من المعبود •

ولقد أتت الديانات السماوية الكبرى بأشياء جديدة اذ أنها لم تكن

الديانة المنزلية لأية أسرة ولا الديانة القومية لأية مدينة أو لأية جنس ولم تكن مقصورة على طبقة أو طائفة وانما عند ظهورها دعت اليهـــا الانسانية جمعاء (٧) •

وهذا الانتقال من الديانة الوضعية وكما سنرى فيما بعد عنـــد التعرض لديانة المجتمعات البدائية الى الديانات المنزلية نجد أن الأساس الدينى بظهور المســيحية حاول أن يبتعـــد فى أول الدعــوة عن المجال الدنيوى • فعنـــدما دعت المسيحية الى التزهـــد فى أمور الدنيا وظلت الكنيسة منفصلة عن مجريات الحياة العلمانية حتى جدت ظروف اجتماعية جعلت الباباوات والكرادلة والقســاوسة ورجال الدين لا يستطيعون ضمان مصالحهم ولانفوذهم اذ ظلت الكنيسة فى عزلة عن أمور الدولة ، وقد تلى ذلك عصور أصبح فيها للكنيسة أملاك ونفوذ لا تقل عن أملاك ونفوذ الأباطرة •

فقد أدى التنافس والصراع بين الأباطرة والباباوات على السلطة الى احتدام الصراع بينهما ولكن ما لبث أن حل الوفاق بين هاتين السلتطين نظرا لالتقاء مصلحتيهما ازاء من كان يتهددهم من جانب الجماهير التى نصبوا أنفسهم لاستغلالها وتسخيرها لصالحهم ومن هنا جاء القول بأن الدين قد سخر لاخضاع الملايين للشرذمة من المستبدين ورجال الدين (٨) وفى العصور الوسطى بلغت سلطة الكنيسة شأنا عظيما •

فقـــد كان البابا يدعى حق الســـيطرة الدينية والدنيوية وكانت الكنيسة تفرض ضريبة الاعشـــار وتضمها لمتلكاتها الخاصة ، وكانت

---

(٧) فوستيل دى كولانج — المدينة العتيقة — مرجع سابق . ص٥١٨ ..
(٨) أحمد الخشاب — الاجتماع الدينى — مرجع سابق — ص ٢٩٢ .

أملاكها معفاة من الضرائب وكان للبابا نواب يمثلون السلطة الدينية لدى الأباطرة والأمراء ثم ضعف نفوذ الكنيسة فى القرن الرابع عشر الميلادى وقلت مواردها وبذلك ابتدعت الكنيسة وسائل أخرى تمكنت عن طريقها من جمع الأموال مثل بيع الوظائف الدينية وبيع صكوك الغفران ، وقد قدر لحركات الاصلاح الدينية فى النهاية أن تحرر الدولة من ربقة السلطة الدينية بعد الصراع الدموى الذى نشب بين المذهب الكاثوليكى والمذهب البروتستانتى ، وقد أدى هذا الصراع بين المذهبين الى الغاء صكوك الغفران والى ضعف نفوذ الكنيسة وسيطرتها على أمور الدولة ومهد الطريق بذلك للقضاء على الحكومات والسلطة التيوقراطية التى تستمد نفوذها من الهيئات الدينية والتى تتبع فى تشريعاتها وأحكامها المبادىء والقواعد اللاهوتية • لذلك زاد الشعور بضرورة الفصل بين السلطة الزمنية والسلطة الدينية وضاق نطاق النفوذ الدينى حتى أصبح مقصورا على تنظيم وتنسيق الصلة بين الانسان وربه ، فالدين مثلا يقوى فى العباد الشعور والاحساس بضرورة التكفير عن الذنب والخلاص من زوائل الدنيا والاعتراف بما اقترفه الفرد وما جناه من شرور وآثام •

والأكثر من ذلك أن ايمان بعض العلماء بالقضايا الدينية قد تضعضع لا سيما بعد أن ظهر أن رجال الكنيسة يبدون مقاومتهم للاتجاهات العلمية التجريبية بالاضافة الى اضطهادهم للعلماء وتعذيبهم لهم ، ويوضح ذلك ما تعرض له كل من (روجر « بيكون » البريطانى ، وكوبر نيكوس الألمانى وجاليليو الايطالى) وآخرون غيرهم من سجن وتعذيب عندوما أبدوا آراءهم الطبيعية التى كانت تختلف مع رجال الدين [٩] •

---

(٩) المرجع السابق — ص ٢٩٣ .

٦ ــ النفــوذ الدينى :

والسلطة الدينية تســعى دائما الى الاســتحواذ على الســلطة السياسية ، فالجمعيات السرية عند من يعبدون الأصنام كانت تهدف الى استدراج الشبان الذين أنهوا طقوس الاطلاع على الأمــور الدينية من براثن الرؤساء السياسيين لكى يحتفظوا بهم تحت سيطرتهم الخاصة • والحقيقة أن هــذه الجمعيات تلعب دورا هاما فى كل مكان تقريبا لدى انصاف المتحضرين ، وقد ينتهى الامر الى قتل الاباطرة أو تجريدهم من سلطاتهم • وكذلك الحال فيما ذكره فافر عن نصيب الماسونية والمذهب الاشراقى البافارى فى التمهيــد للثورة الفرنسية وبين كيف تتحــول الجمعيات المستاوية فى الصين الى جماعات سياسية تساهم بقدر كبير فى الحوادث الثورية فى الشرق الأقصى وهى تلك الجماعات التى يحتمل أن الشيوعية تســتعين بها للنفــاذ الى الصين • وقــد كانت الكنيسة الكاثوليكية فى الأصل محض سلطة روحية كما رأينا ولكنها بدت عقب سقوط الامبراطورية الرومانية القوة الوحيــدة التى ما زالت تمارس نفوذها فاكتسبت سلطة سياسية لم تكن لها فى أول الامر ، وقد حاول الأباطرة اخضاعها لنفوذهم الا أن البابوية كانت ترفع رأسها باستمرار كلما ضعفت السلطة الزمنية وتحاول بقدر المستطاع أن تتحول الى سلطة زمنية أيضا •

ومهما يكن من شأن فان السلطة السياسية تستعين بكل ما تنطوى عليه العــواطف الدينية من قــوة قــاهرة حتى تثبت أقــدامها • فان (أمينوفيس الرابع واخناتون) لما فزع من طغيان طائفة الكهنوت طغيانا متزايدا أراد أن يصبح الحاكم الحقيقى فى مصر القديمة وأخفى عمله السياسى وراء اصلاح دينى حينما استعاض عن المعبود الوطنى القديم

(آمون — رع) بالشمس أى (يأتون) وعنـدما حاول (هليو جابان) تحقيق الوحدة السياسية فى امبراطوريته اتخذ شعارا لهذه الوحـدة اله الشمس الذى لا يقهر ، وفى هذه الناحية لم يفعل سوى أن حاكـى اتجاها طبيعيا للتطور الدينى الذى يقضى بأن يسير التوحيد جنبا الى جنب مع تركيز السلطة السياسية وتدل مجتمعات البانتو ومجتمعـات وادى النيل على وجود هذا الاتجاه لأن النظام الحربى القوى هو أهم ما تتميز به ومن ثم فهنـاك بذرة تعبر عن هذا النظـام وحتى اذا تم الانفصال نهائيا بين الدين والدولة فان السلطة السياسية تحتفظ لفترة طـويلة من الزمن ببقـايا العصر الذى كانت فيه الملكيـة مرتبطة بالكهنوت (١٠) •

٧ — اختلاف الديانات :

هذا الى أن الديانات القديمة الوضعية التى سادت قبلا ولا تزال تسود فى المجتمعات المتأخرة تختلف عن الديانات الكبرى السماوية المنزلة •

فالدين فى الجماعات المتأخرة غيره فى الجماعات الراقية فهو ليس بدين سماوى ولم ينزل به كتاب معين كالتوراه والانجيل والقرآن فهو ليس بدين للتوحير لأن ديانات التوحيد المنزلة لها مستواها الحضارى الراقى ولم تأت الا فى آخر مراحل التطـور الدينى كما يقول بذلك (ادوارد تايلور) فالعقلية المتأخـرة لم تبلغ حـد التجـريد والتعميم العقلى ولا تتصور الها الا يحده مكانا ولا زمانا • وقد اتجه دور كايم فى تفسير الدين الى أنه لا يقوم أصلا عند الاقوام المتأخرة على فكرة الاله وقيام

---

(١٠) روجيه باستيد — مبادىء علم الاجتماع الدينى — مرجع سابق — ص ٢٠٢ •

كائن أعظم له من القدرة والحوار وما يفرض اراذاته العليا المقدسة على متبعيه والمؤمنين به ذلك لأن العقلية المتأخرة لم تبلغ درجة من الرقى يمكنهم بها ادراك اله مجرد عام[11] ويصعب عندهم أو عند هذه الاقوام وجود ديانة توحيدية •

كذلك فان فكرة الاله الواحد ليست هى الأساس الرئيسى لقيام الأديان لأن هناك أديان تقوم أحيانا على تعدد الآلهة كما هو الحال عند اليونانيين القدامى والمصريين ، وأحيانا هناك أديان لا نجد فيها فكرة الاله اطلاقا كالحال فى الديانات القومية الالحادية الوضعية كالبوذية والكنفوشية ، وإنما يقوم الدين على فكرة المجتمع أى أنه وسيلة لتوحيد أفراد المجتمع وجمعهم ومصدرا لمعيشة الناس معيشة مشتركة واحتياجهم فى مجرى حياتهم الى أصول وقواعد ضابطة يأخذون بها ويطبقونها باخلاص وباحترام • أى فى أساليب العرف الخاصة بالمعبودات مهما كانت أشكالها أرواحا كانت أم تواتما أم أجدادا وآبا أم أبطالا •

ويتمثل الدين أيضا فى الطقوس المقدسة التى يمارسها معتنقوها من حين لآخر بأنواع العبادات والعادات والتقاليد المختلفة والاحتفالات والاعياد والمواسم ويأتون بهذه الافعال كلها فى دقة ونظام •

٨ ــ عناصر الدين :

ويعتمد قيام الأديان على عنصرين أحدهما نظرى يتمثل فى الأفكار والمعتقدات الدينية ويتمثل الآخر كعنصر عملى فى الطقوس المختلفة التى

---

(11) Durkheim E. Les formes Elementaires f. Alcan paris 1923 pp. 13-14.

يقومون بها ويطبقونها ويفعلونها فى المناســبات الدينية (٢١) ولكل من هذين العنصرين خصائص اجتماعية أصيلة أهمها :

١ — أنه خارجى وقائم فى المجتمع قبل ظهور الأفراد فهم يخرجون الى الحياة ويجدونه سابقا لظهورهم ويأخذون به •

٢ — أنه تلقائى ومن صنع المجتمع نفسه وليس من صنع الأفراد ويتولد وجوده من ضرورة معيشة الناس مع بعضهم فمصدره اذن الطبيعة الاجتماعية وليس الطبيعة النفسية أو الحيوية أو الجغرافية ، فالدين بعنصرية النظرى ولا يمكن أن يعزى الى روعة مظاهر الطبيعة • كالشمس والقمر والنجوم والرعد التى بهرت الانسان واضطرته الى عبادتهـــا وتقديسها كما ذهب الى ذلك بعض المفكرين • ومما يؤيد ذلك أن الرجل المتأخر يعتقد أنه عن طريق السحر كظاهرة اجتماعية يمكن أن يتحكم فى المظاهر الطبيعية ويسيطر على حركاتها •

٣ — أن العنصرين النظرى والعلمى للدين ملزمين لما لهما من جبر وضغط اجتماعى يتحتم أن يتبعهما كل فرد فى المجتمع والا وقع عليــه الجزاء • فالجزاء يكون أحيانا ماديا وهو فى الغالب القتل وأحيانا أخرى يكون ادبيا وهو الازدراء الجمعى والاشمئناط والاشمئزاز ، الا أن للعقاب المادى السيطرة لانه لا ينصب عند المتأخرين على المجرم وانما ينصب على الجريمة فالجرم اعتداء صريح على هيبة الجماعة والعقاب وسيلة لرد شرف الجماعة ، ومن هنا تبدو الصرامة والشدة فى الجزاء حتى أنهم لا يعاقبون المجرم نفسه أحيانا وانما أى فرد من أفراد البطون والشعائر للتفكير عن الجريمة نفسها •

---

(21) Ibid p. 50.

٤ — ان القواعد الدينية قد تكون آمرة أو ناهية فهى تخص على الاعتقاد والايمان ببعض الأفكار وتنصح أيضا بعدم الايمان والاعتقاد فى أفكار ومعتقدات أخرى ، وهذا ما يمثل الناحية النظرية فى الدين ، وكذلك هناك الناحية العملية وهىالخاصة باتيان بعض الافعال والطقوس والشعائر أو عدم الاتيان بها أحيانا ،

٩ — علاقة الدين بالنظم الاخرى :

واذا كان الدين يرتبط بالشكل الاجتماعى العام فهو ليس بمظهر قائم بنفسه فى داخلية المجتمع وانما هو مرتبط بغـيره من مظاهر المجتمع ، فهـو مرتبط بالاقتصاد والسـياسة والأسرة وبغـير ذلك من النظـم الاجتماعية ، وهـو يؤثر فيها كلها فى المجتمعات المتأخرة ، ولهذا كان الدين أهم الظواهر الاجتماعية طرا فى هذه المجتمعات ومنه تفـرعت كلها ، ويوضح ذلك الطقس الدينى المعروف عند زنوج استراليا باسم الانتشيوما فهو عبارة عن احتفال دينى له أغراض اجتماعية مختلفة فيهـا الغرض العائلى وهو تقوية الرابطة بين الفرد وقومه فى البطن الـذى يعيش فيه وله غرض حـربى بأن يشـتد ترابطه عن طـريق أكل لحم الحيوان المفترس الذى يعبدونه فى هذه المناسبة ويشعرون بأنهم كتلة واحدة عند محاربة أعدائهم وله غرض اقتصادى وهو اكثار النسـل والخير المادى (١٣) ،

وترى المدرسـة الفرنسية وخاصـة « بوجليه » أن من القصص والأساطير الدينية قد خرجت فيما بعد الآداب والفلسفات والعـلوم ،

---

(13) bid pp. 465 - 500.

ومن الاحتفالات الدينية بمظاهرها البراقة خرجت الفنون الجميلة كالرسم والتصوير والحفر والموسيقى والتمثيل والعمارة ، ومن الاوامر والقواعد الدينية خرجت أصول الاخلاق والقوانين الوضعية بعد ذلك(١٤).

ونجد الديانة السائدة عندهم الديانة المعروفة باسم التوتمية وهى التى تقوم على تقديس بعض مظاهر الطبيعة كالسحاب والمطر أو بعض النباتات كنبات « ملجا » عند زنوج استراليا وعلى وجه الخصوص عبادة الحيوانات كعبادة الكنغر فى استراليا والنسر والغراب عند بعض الهنود الحمر فى أمريكا الشمالية .

١٠ — وظائف التوتم :

والتوتم عند الأقوام المتأخرين الذين يعيشون فى الشكل الاجتماعى العام الثانى المعروف بالبطن له ثلاثة وظائف فى هذه الجماعات المتأخرة فهو :

١ — الدلالة أو الرمز الذى يميز لبطون والعشائر بعضها عن بعض أى أنه يشبه (العلم أو الراية) فى المجتمعات الراقية وخاصة أعلام الكشافة وما عليها من حيوانات ورموز تميز فرقها عن بعضها البعض . وهذه هى الوظيفة السياسية للتوتم ، وعلى ذلك عندما تقوم الحرب بين هذه الأقوام يعمد المنتصر الى الغاء تواتم المغلوبين وضمهم الى التوتم الغالب كما هو الحال فى الشعوب الراقية المستعمرة عندما تفعل بالمهزومين المغلوبين على أمرهم فى مستعمراتها .

---

(14) Bouglé I'ar tau point de vue sociologique dans morale et science, Paris 1929 - pp, 128 - 129.

٢ — ينظر الى التوتم عند الأقوام المتأخرين كأنه الأب الروحى للبطون التى يعيشون فيها فهم يعتقدون أنهم ينحدرون من سبطة فاذا كان التوتم ذئبا تصوروا أنهم ذئابا واذا كان دبا يعتقدون أنهم دببة ، ويرون أن روح هذا التوتم تتمثل فيهم وتحـل فى أبدانهم وخاصة فى دمائهم • ولهذا يحـرم الزواج من داخل البطون لأنهم ينظـرون الى النساء فيها كأنهن شقيقات للرجال وهنا تصـبح القرابة عندهم على درجة واحـدة ، وعليهم الزواج من خارج توتمهم من بطـون تخالف تواتمها توتم البطن وفروعه •

٣ — ان للتوتم صفةالقداسة فهو الههم ، فتتلخص مظاهر القداسة عندهم فى عدم لمسه أو أكله ، ولا يمثل التوتم عادة فردا معينا وانمـا فصيلة بذاتها ويشمل التحريم أفراد الفصيلة كلها لا فردا معينا ، وأحيانا قد يلمس التوتم ويؤكل بشروط دينية خاصة كاقامة بعض الطقوس فى أوقات محدودة لأغراض دينية معينة لها فائدتها الاجتماعية ، كاكتساب الصحة أو لغزارة النسل وزيادة الخصوبة وتقوية الدم العنصر المقـدس فى أبدانهم (١٥) والاحترام واجب للتوتم ويعبر عنه بتقـديم القرابين والتودد اليه بالدعوات وبالاشتراك فى الأعياد والمواسم التى تقام له والاعتقاد فى قوته الخارقة وسلطته النافذة والتبرك بحمل وذكر اسمه فكلهم ينتمون الى اسم واحد قد يكون هذا الاسم اسم الأب أحيانا ، ويكون اسـم الأم أحيانا كثيرة كالحال عند زنوج اسـتراليا المعروفين (بالأرونطة) وأقـوام (الأيركوا) فى أمريكا الشـمالية ولذلك تكون القرابة أبوية فقط أحيانا وأمومية فقط أحيانا أخـرى أى أن قرابتهم نصف قرابة •

---

(15) Durkheim Les formes elementaira Op. Cit. p . 470.

ويرى دور كايم ومدرسته أن القرابة الاومية أسبق وأقدم من القرابة الأبوية • والمعتقد أن نظام التوتم من أصول مختلفة ظهرت فى أماكن متباينة ومتباعدة وهذا يرجع الى حتمية ارتباط النظم الاجتماعية ومنها الدين بالشكل الاجتماعى المورفولوجى العام للمجتمع البشرى أو بحجم المجتمع ومستوى حضارته • ويحتوى هذا الدين شأنه فى ذلك شأن الأديان الأخرى على عنصرين أساسيين عنصر نظرى وعنصر عملى• يتعلق أحدهما بالمعتقدات ويتعلق ثانيهما بالطقوس وتنصب المعتقدات على الافكار التى تسود فيما بينهم ولها صفة القداسة والاحترام ومن ذلك مثلا :

احترام الشيوخ وواجب الكرم والعطف على الغير فى داخل البطون وواجب احترام السلام فيما بين البطون بعضها ببعض • وواجب عدم مساس النساء فى داخل البطون وواجب عدم السرقة وعدم الاعتداء بالقتل • ويتضح من هذا أن الأقوام المتأخرين لا يجهلون الأخلاق وهى لا تنعدم عندهم فهم أهل تعاطف وتضامن اجتماعى والفضائل قائمة فيما بينهم وحياتهم كلها الاستقرار والتعبد ويتغلغل الدين فى نفوسهم وفى كل مظاهر حياتهم الاجتماعية وتقل عندهم الجرائم كما ذهب الى ذلك كل من موسى وبوجليه • وتشتمل المعتقدات كذلك على الحكم والأمثال والأساطير والقصص ، ويحظى رئيس البطن أو العشيرة بالقداسة والاحترام لما يتمتع به من سلطتين دينية وسياسية • ويمارس على أفراد البعض أو العشيرة وسائل الضبط الاجتماعى على هؤلاء الأفراد المستمدة من الدين •

١١ ــ الآلهة فى الجاهلية :

وقد كان العرب فى الجاهلية لهم آلهتهم المتعددة وهم يعملون على

تقديسها واحترامها ويتقربون اليهـا بالذبائح مثل اللات والعزة وهبل ومناة وغيرهم ويعتقدون أنهـا تقربهم الى الله زلفى وكانوا يحملون آلهتهم المنحوته من الحجر تارة والمصنوعة من مواد أخرى تارة أخرى ، فقد كانوا يرفعون آلهتهم على أقدس مكان وحول بيت الله الحـرام بمكة وكانوا أحيانا يصنعونه من التمر ويأكلونه بعد تأدية مهمته أو وظيفته الدينية كما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

وكانوا يرددون فى حروبهم (أعلو هبل أعلو هبل) فأمر الرسول المسلمين أن يرددوا (الله أعلى وأجل) ، وعند ظهور الاسلام دعى الدين كضابط محاربة الأصنام والأوثان وتحطيمها كالات والعزة وما اليهـا يوم فتح مكة .

١٢ ــ ظهور الاســلام :

وجاءت الشريعة الاسلامية كضابط دينى تدعو الى عبـادة الله وحده لا شريك له فى عبادته كما أنه ليس له شريك فى ملكـه ، وبنزول القرآن نجد أنه قد اشتمل على الأصول العامة والقواعد الكلية كضوابط دينية منظمة لشئون المجتمع ولا تختلف الأصول والقواعد وحاجة الأمم اليها باختلاف أزمانها وأماكنها ، انما التفصيلات الجزئية والتطبيقات العملية تعتبر أشـياء نسـبية بينما تعتبر الدلالات الاجتماعية بيئية ويمكن من ثم أن يتلاءم التشريع الاسلامى مع ظروف البيئة الاجتماعية ومقتضياتها وفى الوقت نفسه لا يجافى مبدأ الصلاحية المطلق لكى يناسب كل زمان ومكان بفضل ما امتاز به من عمومية ومرونة وقابلية للتطور والتوافق والملاءمة .

ولقد وضعت الديانة الاسلامية نظاما عاما لتنظيم الدولة أساسه تحقيق الديموقراطية والعـدالة الاجتماعية وتنمية الشـعور بالكرامة

الانســانية والقضــاء على النعرات العنصرية والاختلافات الطائفية العنصرية ووضعت أيضا اطارا عاما للنظام المدنى يحوى تشريعا كاملا لجميع الأسس القانونية اللازمة لقيــام حياة اجتماعية فى أية دولة ، وتنظيم علاقات الناس بعضهم مع البعض الآخر وعلاقات هؤلاء بالسلطة الحاكمة والمحافظة على الحقوق الخاصــة للأفراد والحقوق العــامة للجماعة • وقد أشاد الاسلام بأهمية العمل المثمر المنتج وأوجبه ومقت التواكل والكسل والقعود عن طلب الرزق وزيادة الانتاج • وقد أوضح القرآن ذلك بقوله (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) وأول الحقوق التى أوجبها الاسلام فى هــذا الصدد على الأثرياء هو حق الزكاة ولا تؤخذ الا بعد حول كامل وبعد بلوغ النصاب • وتؤخذ الزكاة من المــال ذهبا كان أو فضة نقدا كان أو عينا كالانتاج الزراعى والانتاج الحيوانى (وبهيمة الانعام) وهى الابل والبقر والغنم وفصيلتها وتدفع للفقراء والمساكين والعاملين عليهــا وفى الرقاب والمؤلفة قلوبهم والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل ، وهى الركن الثالث من أركان الاسلام ويعتبر الممتنع عنها خارجا عن الدين أو مرتدا : واذا لم يخرجها الفرد فعلى الحاكم أن يأخذها قهرا • وتســتمد الدولة فى المجتمــع الاسلامى تشريعها من الدين ويؤكد ذلك ما ذهب اليه ابن خلدون من أن العمران البشرى أو ما يمكن تسميته فى الوقت الحالى بالمجتمع لا بدله من سياسة ينتظم بها أمره ولا يتأتى ذلك الا اذا كان هناك وان يدفع البشر بعضهم عن البعض الآخر لمــا فى طبائعهم الحيوانية من العدوان والظــلم •

ونستنتج من ذلك اشارة ابن خلدون الى أهمية الضبط الاجتماعى فى حفظ النظام الاجتماعى ، اذ عن طريق هذا الضبط يمكن التحكــــم فى نوازع الصراع والظلم بين أفراد وفئات المجتمع ، كما يمكن عن طريقه

أن تمارس وســائل علاج الانحرافات الاجتماعية واعادة الاســتقرار والتوازن الى مكونات البناء الاجتماعى لتضمن سلامة الآداء الوظيفى فى مؤسساته ومنظماته وهيئاته ٠

وقد اعتبر ابن خلدون أن الدين أهم وأقوى الضوابط الاجتماعيــة التى تؤدى الى الاستقرار الاجتماعى(١٦) ٠

ويتضح من ذلك أن ابن خلدون فى اتجاهه هــذا كان من أنصار الاتجاه التيولوجى السياسى ٠ ويشير ابن خلدون فى مقدمته الى وجوب الامامة شرعا (السلطة) عن طريق الاجماع فيقول : ثم ان نصب الامام واجب قد عرف وجوبه فى الشرع باجماع الصحابة والتابعين لأن أصحاب رسول الله عند وفاته بادروا الى بيعة أبى بكر وتسليم النظر اليه فى أمورهم وكذا فى كل عصر من بعد ذلك ولم يترك الناس فوضى فى عصر من العصور واستقر ذلك اجماعا دالا على وجوب نصب الامام أو تنصيب الامام ٠ وأدل شىء على استقرار ذلك اجماعا أن أغلب المتكلمين حينما تعرضوا لبحث الامامة صرحوا بأن نصب الامام من أتم مصالح المسلمين وأعظم مقاصد الدين ، وشرح ذلك (النسفى) فى كتابه العقائد فقال : والمسلمون لابد لهم من امام يقوم بتنفيذ أحكامهم واقامة حدودهم وسد ثغورهم وتجهيز جيوشهم وأخذ صدقاتهم وقهر المتغلبة والمتلصصة وقطاع الطريق واقامة الجمع والأعياد وقطع المنازعات الواقعة بين العباد وقبول الشهادات القائمة على الحقوق وتزويج الصــغار أو الصــغائر الذين لا أولياء لهم ، وقسمة الغنائم ونحــو ذلك من الأمور التى لا يتولاها آحاد الأمة(١٧) ٠

---

(١٦) أحمد الخشاب — الضبط الاجتماعى مرجع سابق — ص ٣٣ ٠
(١٧) مسعود بن عمر التفتازانى — شرح عقائد النسفى — استانبول — ١٩٢٧ ص ١٤٢ — ١٤٣ ٠

ومهما يكن من شيء فان الحاكم المسلم بأى لقب سمى نفسه أو سماه الناس لا يستطيع ولا يؤذن له أن يتحرر من سلطان الدين الذى يدين به وهو والمجتمع الذى بايعه رئيسا عليه • لأن كل ما فى الاسلام من التشريع السياسى وغيره خاضع لنظام النبوة اقتداءا به لا ارثا له ليس لأن الحكومة فى هذا الدين تيوقراطية امامها خليفة الله على الأرض يستتر ارادته المستبدة وراء عصمته المزعومة ولكن لأن عقيدة مجتمعه دين يجمع، فى آن واحد بين طرفى الدنيا والآخرة فى وحدة مثالية كبرى لا تقبل التجزئة والتحليل ، فالحقيقة فى نظر الاسلام هى بعينها تبدو دينا اذا نظرنا اليها من ناحية ، وتبدو دولة اذا نظرنا اليها من ناحية أخرى •

ولذلك عرف التفتازانى الامامة أو ما يعرف بالسلطة الحاكمة ، الآن بانها رئاسة عامة فى أمر الدين والدنيا خلافة عن النبى ، وعرفها الماوردى بقوله : الامامة موضوعة لخلافة النبوة فى حراسة الدين وسياسة الدنيا ، فالامام أو الحاكم يخلف النبى مقتديا به فى حراسة الدين وحمايته لا فى شرحه والتبديل فيه • وفى سياسة الدنيا أيضا بهذا الدين فيما آتى به من النظم التشريعية المفصلة المسعدة لبنى الانسان • وذلك ما فهمه ابن خلدون حين تحدث عن نظام الامامة فقال (هو حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة اليه اذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع الى اعتبارها مصالح الآخرة فهى فى الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين وسياسة الدنيا به)(١٨) •

---

(١٨) صبحى الصالح ، النظم الاسلامية . نشأتها وتطورها ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٦٥ (١٣٨٥) ، ص ٢٩٢ •

الفصـــل الرابع

دراسات الاجتماع الدينى فى فرنســا

أولا ـ مقـــدمة

ثانيا ـ الأسس الاجتماعية للدين عند دوركايم

ثالثا ـ الدراسة الاجتماعية الوصفية للسلوك الدينى

الفصـــل الرابع

دراسات الاجتماع الدينى فى فرنســـا

أولا : مقـــــدمة :

أوقف دوركايم آخر أعماله التى نشرت فى حياته ، وأعنى « الصور الأولية للحياة الدينية » (١٩١٢) على اثبات القضية التى مؤداها أن الآلهة عبارة عن تجسيد للمجتمع • وفى هــذا ينطلق دوركايم من القول بأن الاحساس الواحد لجميع المؤمنين على مدى العصور المختلفة لا يمكن أن يكون وهما أو خيالا • ولكن الأمر الحاسم هنا أن هــذا الواقع لا يلزم بالضرورة أن يتطابق وفكرة المؤمنين عن هــذا الواقع نفســه تطابقا موضوعيا • ونلاحظ أن المجتمع كان فى حقيقة الأمر ذلك الواقع الذى تصورته الأساطير بأنواعها المختلفة وصورها المتعددة • فهذا المجتمع هو السبب الموضوعى ، والشامل ، والأزلى لكل تلك الابتكارات التى أبدعها عقل الانســان ، والتى تمثل جوهر التجربة الدينية • والمجتمع هو الذى يخلق القوى الأخلاقية ، ويوقظ لدى الانســان الاحساس بالاستناد الى قوة قاهرة ، وقدرة حامية حافظة ، والخضوع لعالم علوى مقدس ، هو الذى يربط المؤمن بعبادته ودينه • ويفسر لنا ذلك الدور البارز الخطير الذى تلعبه الشــعائر الدينية فى جميــع الأديان وعلى مدى العصور • ذلك أن المجتمع لا يمكن أن يخلق فى نفس الانســان الفرد تأثيرا معينا الا من خلال فعل ملموس ، ومن خلال اجتماع الأفراد ــ الذين يتكون منهم هــذا المجتمع ــ وممارستهم الشعائر مجتمعين • وهــذا الفعل الجماعى هو الذى يخلق لدى أفراد الجماعة الوعى بذاتهم ، وهو الذى يدعم الكيان الجماعى الواحد فى نفوس أولئك الأفراد ، كذلك

يقول ان الشعائر الدينية تمثل بالدرجة الأولى نوعا من التعاون الفعال ذى الآثار الايجابية • بل ان الأفكار والمشاعر الجماعية لا يمكن أن تقوم لها قائمة أو يتم تواصلها الا من خلال حركات ظاهرية يؤديها الأفراد ، وهى حركات تمثل تلك الأفكار والمشاعر وتعبر عنها ، على نحو ما يقول دوركايم[١] •

وكما أن المجتمع لا يتحقق الا فى الأفراد ومن خلالهم ، فان الآلهة لا تتصف — فى رأى دوركايم — بالواقعية الا بقدر وجودها فى الضمير الانسانى ، ونحن الذين نفسح لها مكانا فى ضمائرنا ، بما نضفيه عليها من خصائص وسمات • وبذلك يوجد نوع من الاعتقاد المتبادل ، أو قل التبعية المتبادلة ، بين الآلهة وبين المؤمنين بها • فالمجتمع الذى يعتبر الآلهة تعبيرا رمزيا عنه ، لا يستطيع أن يستغنى عن الأفراد تماما كما لا يستطيع أولئك الأفراد أن يستغنوا عن المجتمع[٢] •

وهنا تتفتح أمام دوركايم امكانيات التغير الاجتماعى ، من خلال الابداع الجماعى الجديد • ذلك أن الحياة الدينية تتميز بنوع من التغير الجذرى فى الجو النفسى ، أو ما يسميه دوركايم « حالة الفوران » Etat d'effervescence [٣] • ويقول فى هذا المعنى فى كتابه الشهير « الصور الأولية للحياة الدينية » : — عندما توقظ الحياة الجماعية — حالما تصل الى درجة معينة من الشدة — التفكير الدينى •

---

(١) أنظر دوركايم ، الاشكال الاولية للحياة الدينية ، السابق الاشارة اليه ، صفحة ٥٩٦ ، وصفحتى ٥٩٧ — ٥٩٨ •

(٢) انظر المرجع السابق صفحة ٤٩٦ ، وكذلك ، جوجلر Gugler نفس المرجع السابق ، صفحة ٤٢ •

(٣) ويرى دوركايم أن المثل العليا التى عرفتها المجتمعات الانسانية =

وذلك لأنها تخلق حالة من الاثارة التي تغير من ظروف النشاط النفسى . فطاقات الحياة تصل حينئذ الى درجة من الاثارة والانفعال الشديدين ، وتصبح العواطف والانفعالات أكثر حيوية ، كما تصبح الانطباعات أكثر قوة . وتتولد فى مثل تلك اللحظات طاقات جديدة وعواطف وانطباعات جديدة . ويصبح الانسان غير قادر بعد على معرفة نفسه ، ويحس كما لو كان اعتراه تغير جديد ، ويعمل هو نتيجة لذلك على تغير البيئة المحيطة به . ولكى يفسر الانسان لنفسه الانطباعات المفرطة فى الغرابة التى يحس بها ، نراه ينسب الى الأشياء التى يحتك بها احتكاكا مباشرا بعض الخصائص التى ليست فيها . ويعزو اليها بعض القدرات والقوى غير العادية التى لا تتميز بها موضوعات الخبرات اليومية . فهو بالاختصار يتجاوز العالم الواقعى الذى تدور فيه وقائع الحياة العلمانية ، ليصل الى عالم آخر لا وجود له الا فى تفكيره هو ، ولكنه ينزله فى نفسه منزلة أعلى من العالم الأول . فهذا العالم المقدس هو بمعنى مزدوج عالم مثالى[٤] .

وهكذا تتحول بعض الأشياء التى تختار بطريقة عفوية الى حد ما الى رمز للمثل الأعلى الذى يتصوره الأفراد والذى يتفق والرموز المشتركة للجماعة ، والذى تضفى عليه تلك الجماعة بعض الأحكام القيمية الخاصة . وهكذا يفصل كل مجتمع فصلا صارما ودقيقا بين عالم علمانى وعالم مقدس . وقد أكد دوركايم أن هذا العالم المقدس

= على مدى العصور المختلفة ، واعتمدت عليها فى حياتها ، وقد تكونت فى لحظات الاثارة والفوران هذه . قارن فى هذا الصدد كتاب دوركايم علم الاجتماع والفلسفة ، صفحة ١٣٤ .

(٤) انظر ، دور كايم ، الاشكال الاولية للحياة الدينية ، صفحة ٦٠٣ .

يستوجب قدرا من الاحترام ويفرض فى نفوس النـــاس قدرا كبيرا من التوقير والاجلال • ويسرى هــذا الاحترام على مجال الحياة الدينية بأكملها التى تتميز بوجود قطبين واضحين شأنها شأن الحياة الاجتماعية على اختلافها وتنوعها ، اذ يوجد بين المقدس الخير والمقدس الشرير نفس التناقض الموجود بين حالات الشعور بالنشاط والخفة **Euphorie** الجماعية وحالات القلق **Dysphorie** الجماعى • على أنه نظرا لأن كلا القطبين جماعى بنفس القدر ، نجد أن الروايات الأسطورية التى ترمز لهما وتعبر عنهما تقترب من بعضها اقترابا وثيقا وتصدق هــذه الازدواجية بصفة خاصة على جميع الشعائر الدينية(٥) •

فالعبادة ليست اذن مجــرد نسق من العلاقات والاشـــارات التى يترجم بها المعتقد نفســـه للخارج ، وانما هى مجموع الوسائل التى تخلق بها العبادة نفســها وتجدد نفسها تجديدا دوريا • وهكذا لا يهم على الاطلاق ما اذا كانت الجماعة تؤدى هــذه الحركات أو تلك لكى تصبح واعية بذاتها وانما العـــامل الحاسم هنا أن الأفراد يجتمعون معـــا على صعيد واحد • وأنهم يعيشون أحاسيس مشتركة ، وهى الأحاسيس التى تعبر عن نفسها فى صورة أفعال مشتركة • والشعائر هى أولا وقبل كل شىء وسائل تؤكد بها الجماعة الاجتماعية ذاتها تأكيدا دوريا • وهى فوق هذا تتميز بدرجة كبيرة من المرونة ويمكن استبدال بعضها ببعض تحت شروط معينة(٦) •

وهكذا لا يمكن أن يوجد مجتمع لا يشـــعر بالحاجة الى ممارسة واحياء المشاعر والأفكار الجماعية التى تخلق وحدته وتصنع شخصيته ،

---

(٥) نفس المرجع السابق ، صفحتى ٥٩١ — ٥٩٢ •
(٦) المرجع السابق • صفحة ٥٤٨ وما بعدها •

وهى ممارسة تتم على فترات منتظمة • ولا يمكن أن يتحقق هذا الدعم الأخلاقى الا من خلال الجماعات الدينية بأنواعها من اجتماعات وجمعيات وجماعات •• للخ • ففى هذه الجماعات يقترب الأفراد بعضهم من بعض ويجددون مشاعرهم المشتركة ويبثون فيهــا حياة جديدة • ولا يمكن أن تختلف هــذه الشعائر والمراسيم بطبيعتها عن الشعائر الدينية الفعلية • وهنــاك بالفعل رابطة وثيقة دائمــا بين المراسيم الدينية وبين الاحتفال الاجتماعى(٧) •

وهنا يكمن فى العبادة وفى المعتقد الدينى الجانب الاول الدائم فى الأديان جميعا • ذلك أن العلم يظل دائمــا بعيدا عن الممارسة العملية ويبقى دائمــا هامشيا غير مكتمل ، يخطو الى الأمام على اســتحياء ، ولا يصل أبدا الى الكمال • أما الحياة فلا تستطيع أن تتوقف ولا يمكن أن يقف نبضها ، أما الحماس اللازم للفعل فيصدر عن العقيدة • ويأتى الدين بنوع متميز من الفكر النظرى ومن التأمل الذى يحفز الناس الى الحيــاة والى الفعل • ويرتكز هذا التفكير النظرى على نوع من التفكير الحدسى الغامض الغير محدد ، الذى لا يقوم على التأمل والتدبر بقــدر ما يقوم على الاحساس والشعور • حقيقة أن هذا النوع من التفكير سوف ينطلق بالضرورة من بعض المعارف العلمية ، ولكنه لا يقف عندها ولا يلتزم بها • وهكذا يتمتع الدين بأهمية غير مباشرة الى حد ما فليست وظيفته الفعلية أن يحفزنا الى التفكير أو أن يثرى معلوماتنا ، أو ان يضيف الى تصوراتنا التى اكتسبناها عن طريق العــلم تصورات أخرى ذات مصدر مختلف وطبيعة مختلفة • وانما وظيفة الدين أن يحفزنا الى الفعل ، وأن يعيننا على الحيــاة • فالمؤمن القريب من ربه ليس فقط

---

(٧) دور كايم ، الاشكال الاولية ... ، صفحتى ٦١٥ — ٦١٦ .

عبارة عن انسان يرى حقائق جديدة لا يراها غير المؤمن ، وانما هو كذلك انسان يستطيع أن يفعل أكثر مما يستطيعه غير المؤمن[٨] •

ولعل هذه التجربة الدينية تدفع الانسان الى التشكك فيما اذا كانت العبادة الاجتماعية أو الديانة الاجتماعية ، يمكن أن تحل محل العقيدة العمياء • فحتى لو أدرك الفرد أنه يدين بوجوده الانسانى كله للمجتمع ، فانه لا يترتب على ذلك أبدا استعداده للاضطلاع بما يفرضه عليه ذلك من واجبات والتزامات ، الا أن دوركايم يعتقد أنه يستطيع فى هذه النقطة قبول رأى كونت • اذ يرى أنه من الممكن قيام دين دنيوى (وضعى) ولكن بحيث لا يقوم كاحياء مصطنع لذكريات تاريخية قديمة • فالديانة الحية يمكن أن تنبثق عن الحياة نفسها وليس عن ماض ميت • وهكذا نجد أنه ليس هناك فارق جوهرى بين مجموعة من المسيحيين الذين يحتفلون ببعض الأحداث الهامة فى حياة المسيح أو جماعة من اليهود الذين يحتفلون بذكرى خروجهم من مصر أو بنزول الوصايا العشر ، أو مجموعة من المواطنين الذين يحتفلون بذكرى اعلان ميثاق أخلاقى جديد أو أى حدث آخر كبير من الأحداث الوطنية[٩] • وهكذا نرى أن دوركايم يطمح فى مجتمع علمانى يسيطر عليه ويغذيه نوع من الحماس الدينى المقدس[١٠] •

ثانيا : الأسس الاجتماعية للدين عند دوركايم :

بعد أن قدمنا فى الفقرة السابقة عرضا للاطار العام لعلم الاجتماع

---

(٨) المرجع السابق ، صفحة ٥٩٥ .

(٩) نفس المرجع السابق ، صفحة ٦١٠ .

(10) Wolff, Kurt H., « The Challenge of Durkheim and Simmel, American Journal of Sociology. LXIII, 1958, p. 593.

الدينى بشكله الكلاسيكى عند المدرسة الفرنسية الحديثة فى علم الاجتماع، رأيت أنه من المفيد أن أقدم فيما يلى نصا مترجما لدوركايم نفسه يفصل فيه بعض الشىء فى توضيح وجهة نظره فى هذا الميدان بوجه عام ، وفى موضوع الأسس الاجتماعية للدين على وجه الخصوص • والنص الذى تقدمه فيما يلى مأخوذ من كتابه الشهير « الاشكال الاولية للحياة الدينية » الذى سبقت الاشارة اليه ، وقد ترجم هذا النص الى الانجليزية ونشر ضمن كتاب كبير حرره رونالد روبرتسون عن علم الاجتماع الدينى(١١) •

تتميز كل المعتقدات الدينية البسيطة والمركبة بسمة أساسية وعامة ، مفادها : أن المعتقدات الدينية تصنف كل الأشياء الواقعية وغير الواقعية التى يؤمن بها الناس الى فئتين رئيسيتين هما ، الأشياء المقدسة • والأشياء غير المقدسة • وتنسحب هذه السمة (أى تقسم الأشياء الواقعية وغير الواقعية الى مقدس وغير مقدس) على كافة ألوان الفكر التى تحمل طابعا دينيا ، كالمعتقدات والأساطير الخرافية ، والمبادىء الدوجماطيقية ، والأساطير ، وكافة الأنساق الفكرية التى تتجسد فيها ، وتعبر من خلالها عن طبيعة الأشياء المقدسة ، والفضائل والقوى التى

---

(11) Excerpts from E. Durkheim , The Elementary Forms of Religious Life, translated by J. Swain, Free Press of Glencoe, 1961, pp. 52-56 , 62 - 63 and 464 - 472. Published in : Ronald Robertson (ed.) , Sociology of Religion. Selected Readings, Penguin Books, 1972 , pp. 42 - 54.

وسيلاحظ القارىء أننا قد قدمنا النص فى أقرب صورة لشكله الاصلى ؛ لانه لم يكن هناك مناص من ادخال بعض التعديلات عليه والتصرف فيه فى حدود ضيقه جدا . ولكنه يعبر فى النهاية تعبيرا أمينا عن وجهة نظر دور كايم .

تنتمى اليها ، وعلاقة كل منهـا بالأخرى ، وبالأشـياء غير المقدسـة بصـفة عامة •

بيد أن الانسـان لا يستطيع أن يدرك ببساطة من خلال هـذه الاشياء المقدسة كنه وحقيقية الكائنات فوق الطبيعة كالآلهة والارواح ، لا سيما اذا كانت تتجسد فى شكل صخرة أو شجرة أو جدول مائـى أو قطعة من الخشب ، أو فى أى شكل مقدس • كما يتسم الطقس أيضا بهذه السمة ، حيث أن الطقس لا يوجد فى دائرة الواقع • ما لم يتضمن فى ثناياه شـيئا يتصف بالقداسة • هـذا فضلا عن أن هناك كلمات وتعبيرات ، لا يقدر كل الناس على فهمها والنطق بها • مثال ذلك العبارات اللفظية والتغييرات الحركية التى تتمثل فى الايماءات والحركات التـى لا يتيسر لكل فرد القيام بهـا • كما تتضمن الأضحية أيضا قيمة مقدسة ، ذلك لأنها من خلق الآلهة ، وذات ارتباط وثيق بها ، كما ورد فى الميثولوجيا• وهكذا يتبين لنا أن قيمة كل الموضوعات والأشـياء المقدسة ، لا تتحدد ولا يمكن فهمها الا فى ضوء علاقاتها بما عداها من أشـياء وأفكار ، تلك الأشـياء والموضوعات التى تختلف وتتباين بتباين الأديان • وتفسر لنا لديانة البوذية ذلك ، ففى الوقت الذى تهمل فيه الآلهة ، نجدها تعترف بوجود أشـياء مقدسة منهـا الحقائق الأربع النبيلة والممارسات التى تنبثق عنها على سبيل المثال •

واذا اتجهنا الى حصر الأشـياء المقدسة ، فسوف نجد أنها بالرغم من كثرتها وتعددها وتشعبها ، لها من الخصائص العـامة ما تميزها عن الأشـياء غير المقدسة ، كما أنها تحتل مكانة مرموقة فى سلم الأهمية ، حيث تتفوق بطبيعتها على الأشـياء غير المقدسة ، وتسمو عليهـا بفضل تبجيل الانسـان وتقديره لها ، لاسيما عندما كان وحيدا ، وليس أمامه شىء يقدسه • وقد يعتقد الانسان أنه تابع لهذه الأشـياء المقدسة ،

ويشغل مكانه أدنى منها • ولا ريب فى أن هــذا الاعتقاد صادق الى حد ما • غير أنه لا يوجد أمامنا فى نفس الشىء سمة واقعية يمكن أن تكشف لنا عن سمة القداسة التى تتميز بهــا هذه الأشــياء هذا فضلا عن أنه لا يكفى أن لذلك على قداسة شىء ما ، لمجــرد أن هــذا الشىء أدنى من شىء آخر وتابع له ، ذلك لأن القداسة ليست بارتفاع القدر والمكانة فقط • فالعبيد يسيرون وراء سادتهم ، والرعية تتبع الملك ، والجنود ينقادون للقادة ، والبخيل يلهث وراء الذهب • كما أنه لو قيــل عن انســان ما ، بأنه صنع دينا من هــذه الكائنات والأشــياء التى أدرك سموها وقيمتها الفائقة لديه ، لكان هذا القول والقصور ضربا من ضروب المجاز البلاغى ، ذلك لأنه لا يوجد شىء فى هــذه العلاقات يعد دينيا فى الواقع •

كما ينبغى علينا أن نضع فى اعتبارنا جانبا آخر ، ألا وهو تدرج القداسة ، حيث يشعر الانسان حيال بعضها بطمأنينة نسبيا ، فالتعويذة على سبيل المثــال تنطوى على خاصية مقدسة ، ولذا تلقى الاحترام كقاعدة عامة وليست استثناء • وقبل وجود الآلهة ألم يكن الانســان نفسه فى حالة تبعية وتمدن ، حيث مارس الانسان فى أحيــان كثيرة ضغوطا فيزيقية حقيقية على هــذه الآلهة ، ليجبرها على تلبية رغباته • فمثلا كان يضرب الفتيش Fetish (الفتيش هو شىء كانت الشعوب البدائية تعتبر أن له قدرة سحرية على حماية صاحبه أو مساعدته) لأنه ليس مقتنعا به ، ولكن سرعان ما يصبح الانسان تابعا له مرة أخرى عندما يستجيب لرغباته • كما كان الانســان من أجــل الاستســقاء (جلب المطر) يلقى بالأحجار فى جدول المــاء أو فى البحيرة المقدسة التى يعتقد بأن اله المطر يقيم فيها • وبتلك الوسيلة كان يعتقد الانسان أنه يجبر الاله على أن يكشف عن هويته ويقضى له حاجياته • الا أن

الانســـان اذا كان يعتمد على تلك الآلهة الوضعية فى تحقيق حاجياته ، فانها هى الأخرى فى حاجة الى الانسان الذى يقدم لها الهبات والأضاحى التى بدونها تموت • وهكذا يتبدى لنا أن هنـــاك علاقة متبادلة بين تلك الآلهة الوضعية ومن يعبدونها حتى فى أكثر الأديان مثالية •

ولكن اذا اعتمدنا على التمييز التسلسلى الخالص كمعيار لتحديد ما هو عام ، وما هو غامض وغير دقيق ، فلن يبقى أمامنا شيء أو معيار نحدد بمقتضاه خصائص الشيء المقدس وعلاقته بالاشياء غير المقدسة سوى معيار التنافر وعدم التجانس • ومهما يكن من أمر ، فان صفة عدم التجانس كفيلة بتحديد خصائص الأشـــياء وتصنيفها وتمييزها عن كل ما عداها • ويرجع ذلك الى الخصوصية البالغة التى تتضمنها هـــذه الصفة وهى أنها مطلقة • حيث لا نجد فى كل تاريخ الفكر الانســـانى مثالا آخر لفئتين من الأشـــياء يغلب عليها التباين العميق ، أو يتعارض أحدهما مع الآخر ، كما هو الحال فى فئتى المقدس وغير المقدس • الا أن التعارض أو التضاد التقليدى بين الخير والشر ، لا يندرج تحت هـــذا الاطار فى هـــذا المقام ، ذلك لأنهما نوعان متعارضان فقط من فئة واحدة تعرف باسم محدد فى مجال واحد هو الأخلاقيات ، شأنهما فى ذلك شأن الصحة والمرض كنوعين مختلفين لنظام واحـــد فى الواقع هو الحياة • كما نجد أن العقل البشرى يفهم المقدس وغير المقدس فى كل مكان على نحو دائم كفئتين متميزتين ، وكعالمين متمايزين لا يشـــيع بينهما شيء مشترك ، بمعنى أن القوى التى تلعب دورها فى واحد منهما ليست هى التى تلعب نفس الدور فى العالم الثانى ، أى أنهما عالمان مختلفان تمام الاختلاف • وهنا ينبغى أن نشير الى ضرورة تناولهما فى اطار محلى وفى أجزاء عديدة متباينة من العالم الفيزيقى،باعتبار أن الشيء المقدس يوضع فى عالم مثالى متعال (ترانسندنتالى) Transcendental • على حـــين

يوضع الشىء غير المقدس فى شتى المواضع الباقية الأخرى • ومع ذلك فلابد أن ندرك أن هنــاك أشكالا متعددة من التضاد • ولعل مرد ذلك الى أن التضاد حقيقة عالمية شــاملة • وهكذا يتبدى لنا أن الأشــياء المقدســة وغير المقدســة تتميز بالنســبية ، أى أنها تختلف باختلاف المكان والزمان •

ولكن هناك حقيقة هامة مفادها : أننا اذا كنا نفرق فى الواقع بين الأشــياء المقدسة وغير المقدسة ، فان هذا لا يعنى بأى حال من الأحوال القول باستحالة عبور الكائن وانتقاله من عالم مقدس الى عالم غير مقدس أو العكس ، ولكن هنــاك امكانية العبور والانتقال بين المملكتين • فمثلا نجد أن طقوس التكريس initiation (ادخال شخص ما فى عضوية جمعية أو تقليده منصبا معينا) التى تمارس فى أجزاء شتى من العالم ، تضم سلسلة طويلة من الطقوس التى يقصد من ورائها تأهيل الشاب للحياة الدينية ، وترك العالم غير المقدس (الطفولة) للمرة الأولى ، ليدخل فى عالم الاشياء المقدسة ، ذلك العالم المغاير تمــاما لما ألفه • وهكذا يســود الظن بأن تغير حالة الشاب ، لا يمثل تغيرا جزئيا أو طفيفا ، يمس جزئية من جزئيات حياته ، بل يمثل تغيرا شاملا لكل مناحى حياته • ولذا يقولون عن التكريس وقت اكتماله بأن فتى قد مات وتوقفت حياته ، وظهر بديل عنه يحمل صفات الرجولة والحياة فى عالم المقدسات • أى أنه ولد من جديد وفى شكل جديد • وعلى هــذا ، تدور الطقوس الاحتفالية حول الحياة والموت معا • ألا يبرهن ذلك على قطع الاستمرارية فى الحيــاة غير المقدسة ، والانتقال الى الحيــاة المقدسة بعد التكريس ؟ هــذا فضلا عن أن التنافر واللاتجانس بين كل ما هو مقدس وغير مقدس يعد تنافرا كاملا ، لدرجة أنه يتولد عن عداء حقيقى لكل ما هو غير مقدس ، ولا يقتصر الأمر على فهمنا لما هو مقدس وغير مقدس باعتبارهما

عالمين ومجالين منفصلين عن بعضهما البعض ، بل تتجاوز ذلك ليشمل العداء والشرور والغيرة بين كل منهما للآخر • لاسيما أن الناس لا يقدرون على الانتماء كلية الى أحدهما والتخلى تماما عن الآخر • فهم ينسحبون من العـالم غير المقدس ، لكى يقودهم هـذا الانسحاب الى الحيـاة الدينية الخالصة • وفى ضوء ذلك تأتى الرهبنة التى تتسم بدرجة من التنظيم تجعلها خارجة عن مظاهر الحياة المألوفة ، ومنفصلة عنها ، حيـث يهجر الزاهد مباهج الحياة الدنيا ويتركها ، متجها الى حياة ناسـكة تكون مغايرة تماما للحياة السابقة ، ومن هنا يظهر الزهد الصوفى ، والتنسك ، اللذان يقتلعان بقايا بذور العالم غير المقدس التى لم تزل باقية فى المرء المتصوف • ومن هـذا السلوك يتبع كل صور الانتحار الدينى والزهد والتصوف ••• الخ • وهكذا يتحدد الأسلوب الوحيد للهروب من الحياة غير المقدسة برمتها ، فى هجر كل جوانب الحيـاة •

وفى ضوء ذلك كله يمكن القول أن التضاد الحاد بين كل من العالمين المقدس وغير المقدس ، ذلك التضاد الذى يفصح عن نفسه فى العديد من المظاهر المرئية التى يمكن ادراكها والتعرف عليهـا ، يمكن الاعتماد عليه فى التصنيف والتمييز بين الأشـياء • هذا فضلا عن أن فكرة المقدس منفصلة أيضا فى ذهن الانسـان عن فكرة غير المقدس ، وبهذا يكون تصور الفصل بين المقدس وغير المقدس أمرا منطقيا ، لاسيما أن العقل يرفض الخلط بينهما رفضا قاطعا ، كما يرفض مجرد وضعهما فى حالة اتصـال واحتكاك • فالشىء المقدس شىء سـام رفيع ، لا ينبغى أن يمسه الشىء غير المقدس أو يقترب منه ، وان حدث ذلك المساس ، فلابد أن يلقى جزاءه من العقوبة • بيد أن هـذا التناقض لا يمكن أن ينفى امكانيـة التواصل بين كلا العالمين ، ويجعل مثل هـذا التواصل أمرا مستحيلا • ذلك لأن الشىء غير المقدس اذا لم يدخل فى علاقة ما مع

الشىء المقدس ، ولن تكون لهذا الأخير صلاحية أو خير الشىء • هـذا فضلا عن أن هـذه العلاقة لا مناص منهـا• ، حيث أنه لابد من وجود تحذيرات وطقوس بالغة التعقيد كالتكريس مثلا ، ذلك لأنه اذا لم توجد هذه التعقيدات والمعاناة ، فلن يكون للشىء المقدس معنى ، وبذلك يندرج الشىء غير المقدس بعده فى الأهمية مباشرة ، ان لم يكن فى نفس الدرجة • وهكذا فالعالمان لا يمكن أن يقتربا من بعضهما حتى لمجرد الاقتراب ، ويحافظان على طبيعتهما فى نفس الوقت •

وهكذا نصل الى المعيار الأول فى فهم وتصنيف المعتقدات الدينية ، والذى مؤداه أن السـمة الحقيقية للظواهر الدينية هى أنها تفترض تقسيما ثنائيا للعالم كله المتطور وغير المتطور ، ولا شك فى وجود أنواع أخرى ثانوية فى داخل هاتين الفئتين الاساسيتين • ويشتمل هذا التقسيم الثنائى على كل الموجودات بدون اختلاط • ويتمثل النوع الأول فى الأشياء المقدسة التى تحميها التحريمات وتحافظ عليهـا ، بينما يتمثل النوع الثانى من التقسيم فى الأشياء غير المقدسة التى لا تطبق عليها التحريمات، والتى يحظر اقترابها من الأشياء الأولى • وفى ضوء ذلك تعبر المعتقدات الدينية عن طبيعة الأشياء المقدسة ، والعلاقات والوشائج التى تعضدها سواء فى داخل علاقاتها ببعضها ، أو فى علاقة هذه المقدسات بالاشـياء غير المقدسة • وفى نهاية المطاف ، يمكننا القول بأن الطقوس هى بمثابة قواعد محددة للسلوك ، تبين للانسان كيف يسلك ويتعامل فى ظل هـذه الأشياء والموضوعات المقدسة •

كما نصل أيضا الى تعريف الدين على أنه «نسق موحد من المعتقدات والممارسات المرتبطة بالأشياء المقدسـة ، والممارسات المرتبطة بالأشياء المقدسة التى تستلزم الطاعة والاذعان ، كما تشـكل المعتقـدات والممارسات مجتمعا محليا أخلاقيا واحدا ، يتمثل فى المؤسسة الدينية ،

وكل من يتمسكون بهـا ويتبعونها • أما العنصر الثانى الذى يتضمنه التعريف ، فليس أكثر أهمية من الأول ، وذلك لأن الاشارة الى أن الدين لا ينفصل عن المؤسسة الدينية ، تفصح لنا بشكل صريح أو ضمنى عن أن الدين ينبغى أنيكون شيئا جمعيا بشكل واضح •

بيد أن الدراسة الحالية تركز على مسـلمة أسـاسية مؤداها أن الاحساس الاجماعى للمؤمنين بالدين فى كل العصور ، لا يمكن أن يكون احساسا وهميا خالصا • وأننا نعترف مع المدافعين عن الصدق بأن هذه المعتقـدات الدينية ترتكز على خبرة وتجـربة نوعية لا تقل فى قيمتها المتكررة ، عن قيمة التجارب المعملية بالرغم من اختـلاف كلا المجالين • كما نعتقد بأن الشـجرة تعرف بثمارها ، وأن الخصـوبة هى الدليـل الأفضل على قيمة ما تساويه البذور • غير أن التجربة الدينية — لو أردنا تسميتها بذلك — موجودة وتسـتند الى أسـاس معين • ونحن نتساءل هل من الممكن أن توجد تجربة ، لا ترتكز على أساس ، وتخلو من المعنى ؟ لقد فهم الناس هذه التجربة على مر العصـور ، وأدركوا تنوعها فى أزمنة متباينة •

ولقد أكد لنا الميثولوجيون هذه الحقيقة بأشكال وأساليب متباينة ، الا أننا نحاول جاهدين أن نتحرى الدقة فى مثل هذه المسألة الهامة • موضحين أن السبب الأساسى والموضـوعى للاحساسات التى تتسـم بذاتية النشأة والتـكوين ، وما ينبثق عنهـا من خيرة دينية ، يكمن فى المجتمع • ذلك المجتمع الذى يطور القوى الأخلاقية ، ويوقظ فى الانسان الاحساس بالأمن والطمأنينة ، والعون والمساعدة التى تزيد من تمسك المؤمن بدينه ، ويمكنه من أن يسمو على نفسه ، ويخلق من جديد • وبذلك تتفجر الطاقات والقدرات التى تشيد الحضارة ، تلك الحضارة التى هى

وليدة المجتمع • هــذا فضـــلا عن أن المجتمع لا يمكن أن يفرض على أعضائه نفوذه ، الا من خلال الفعل والسلوك ، ذلك الفعل الذى لايتحقق فى المجتمع ، الا اذا كان أفــراد المجتمع متضـــامنين متكاتفين معــا ، ويمارسون هذا السلوك بشكل عام • وهذا الفعل الاجتماعى الذى يتميز بالعمومية ، يجعل المجتمع واعيا بذاته ، مدركا لوضعه • وهكذا يتبدى لنا أن القضية الرئيسية هى التعاون الفعال والنشط ، أولا وقبـــل كل شيء ، وأنه لا مكان للأفكار والمشاعر الجمعية بدون الأفعال والحركات الخارجية المتطورة والــدالة عليها ، والتى تجســـد رموزها ••• وهكذا يتبدى لنا أن الفعل الذى يسيطر على الحياة الدينية للفرد فى المجتمع ، انما يتشكل وينبثق عن هذا المجتمع ، الذى يمثل المصدر الرئيسى للافعال والسلوكيات الدينية التى يتعلمها ويتدرب عليها الفرد •

هذا فضلا عن أنه يمكن أن نضيف الى ما ســبق ذكـــره ، حقيقة أخرى مفادها : أن مقولات الفكر والعلم ترجع الى أصل دينى ، وكذلك كافة القضايا والعمليات التى انبثقت عنه • هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فانه يلاحظ أيضا أن القواعد القـــانونية والأخلاقية لا تقبـــل التمييز عن الوصفات العلاجية الطقوسية • صفوة القول ، أن كل النظم الاجتماعية تقريبا ، قد نشأت فى أحضان الدين ، وأن المظاهر الأساسية للحياة الاجتماعية ، ما هى الا تنويعات وأشكال متعددة لمظاهر الحيـــاة الدينية المختلفة ، وأن الحياة الدينية شـــكل بارز ، وتعبـــير قوى عن الحياة الجمعية كلها ، واذا كان الدين قد وهب الحياة لكل ما هو حيوى وأساسى فى المجتمع ، فاننا نرى أن المجتمع هو الذى ينقل الى أفراده التجربة الدينية ويغذيهم بها •

وتأســـيسا على ما سلف ذكره ، فان القـــوى الدينية هى قـــوى انسانية ، وقوى أخلاقية ، وأن المشاعر الجمعيـــة لا يمكن أن يصـــبح

واعية بذاتها ، الا اذا اختلطت بموضوعات خارجية ، وتجسدت فيها • كما أنها لا يمكن أن تتخذ شكلا مميزا ، ما لم تأخذ بعض خصائصها وملامحها من الأشياء الأخرى ، أى أنها تكتسب نوعا من الطبيعة الفيزيقية ، وتمزج نفسها بحياة العالم المادى ، ومن ثم فهى تعتبر ذات قدرة على تفسير ما يمر عليها • ولكنها عندما تتخذ هذا الشكل ، وتقوم بهذا الدور ، فاننا نرى مظهرها الاكثر سطحية فحسب • ان العناصر الأساسية التى انبثقت عنها المشاعر الجمعية ، قد خضعت للاستعارة فى الواقع عن طريق الفهم • وهكذا تبدو القوى الدينية ، ذات سمة انسانية مألوفة فقط عندما نفهمها وندركها فى أشكال انسانية ، ولكنها على أية حال حتى فى أكثر صورها المنظورة وغير المنظورة ، لا تعد شيئا أكثر من مجرد مشاعر موضوعية •

ان النظر الى الدين من هذه الزواية ، يجعلنا ندرك أهميته ومغزاه الحقيقى • ولو طبقنا هذه النظرة على الطقوس على سبيل المثال ، لوجدنا أنها تعطينا الاحساس بالعمليات المحسوسة الخالصة ، حيث أنها تكون بمثابة مراهم ودهون تمسح أجسامنا ، وتطهرنا ، كما أنها وجبات غذائية تقوينا • وأننا اذا أردنا أن نكرس شيئا ما ، وجب علينا أن نضعه فى احتكاك بمصدر الطاقة الدينية ، مثلما نضع الآن جسما فى حالة احتكاك مع مصدر حرارى أو كهربى لندفئه أو لنكهربه ، وكلا العمليتين متماثلتان الى حد ما • وهكذا يمكن أن يفهم البعض التكنيك الدينى على أنه نوع من الآليات الغامضة • غير أن هذه المناورات والتمويهات المادية لا تمثل فى واقع الأمر الا مظهرا خارجيا يخفى تحته العمليات العقلية • وفى النهاية ليس هناك أهمية لممارسة ضغوط فيزيقية على هذه القوى العرضية والخيالية والعمياء • ولكن لابد أن يقترب الوعى الفردى من توجيه هذه القوى ، وتنظيمها • وقد يقال

فى هذا الصدد بأن أكثر الأديان تبعية وتدينا هى الأديان المـادية • ولكن هذا القول ليس صحيحا ، فكل الأديان ذات طابع روحى ، ذلك لأن القوى التى تمارس دورا بالغا منها هى قبل كل شىء قوى روحانية، كما أن موضوعها الأساسى يتمثل فى توجيه الحياة الأخلاقية •

وهنا يثار سؤال مؤداه : أى مجتمع هـذا الذى صـاغ السلوك الدينى وأخرجه الى حيز الوجود ؟ وهل هو ذلك المجتمع الواقعى كما هو فى الحقيقة ، وكما تقع عليه أبصارنا ، بكل تنظيماته الأخلاقية والقانونية التى تأسست دعائمها عبر التاريخ ؟ ان هذا السـؤال زاخر بالقصـور والنقائص • ففيه يسير الشر بجانب الخير ، ويرافق الظلم العدالة ، والطمأنينة بجانب الهلع والخـوف • فكيف يمكن اذن لأى شىء منظم ببساطة أن يوحى بمشاعر الحب ، ويلهب الحماس وروح نكران الذات التى تبثها كل الأديان فى أتباعها ، فهذه الآلهة والكائنات الكاملة لا تأخذ سماتها من تلك السمات المتوسطة أو تلك السمات الواقعية أحيانا •

ولكن من ناحية أخرى ، هل يفكر واحد منا فى مجتمع كامل مثالى، لا تسوده الا العدالة والصدق ، وتنمحى منه كل معالم الشر والظلم الى الأبد ؟ ان المجتمع ليس حقيقة امبيريقية يمكن تحديدها وملاحظتها• كما أنه ليس حلمـا يعيش على أمله النـاس ويمسـحون به آلامهم ومعاناتهم ، ولم يعيشوا فيه قط فى دائرة الواقع • انه مجرد فكرة تعبر عن ايحاءاتنا واستلهاماتنا القليلة أو الكثيرة تجاه الخير والجمال والمثل • ان هذه الالهامات تمتد جذورها الآن فى أعماقنا ، وتنبع من أغـوارنا الداخلية • وهكذا لا يوجد شىء خارج عن ذواتنا ، ويمكن أن نحسب له حسابا ، والاكثر من ذلك انها ايحاءات والهامات دينية فى حد ذاتها • ومن هنا يبدو واضحا أن المجتمع المثالى يفرض الدين مسبقا •

ولكن الأشياء فى المحل الأول ، تتبسط بشكل تعسفى عندما ننظر الى الدين من الوجهة المثالية ، بينما هو واقعى للغاية • وليس هنـــاك قبح أخلاقى أو فيزيقى ، ولا توجد شرور لا تتضمن قداسة خاصة بها ، ففى الميثولوجيا الاغريقية آلهة للسرقة وآلهة للخداع والحرب والشهوة والمرض والموت وغير ذلك الكثير ، حتى أن المسيحية هى الأخـــرى • بالرغم من أنها أولت الجانب المثالى قدرا أعظم من الاهتمام ، الا أنها فى نفس الوقت أتاحت لروح الشر أن تشـــغل مكانا فى ميثولوجيتها • ويعد الشيطان ركنا جوهريا فى النسق المسيحى ، حتى وان كان كائنا نجسا (غير طاهر) • كما أن المضاد للاله فى الميثولوجيا الدينية هو اله أدنى منه فى الدرجة ، وأقل منه شأنا وتابع له ، وهذا حقيقى • ولكنه مزود بقوى ممتدة ، وهو موضوع لطقوس أيضا ، وان كانت طقوســـا سلبية على الأقل • وهكذا فان الدين يمثل فى صورته الحقيقية — بغض النظر عن تجاهل المجتمع الواقعى لذلك وتجريده تماما — انعكاسا لكل مظاهر المجتمع حتى أكثرها قبحا وأعظمها بغضا واشمئزازا • وفى كل الحالات التى نراها ، نجد الخير يتغلب على الشر ، والحياة تقهـــر الموت ، وقوى النور تطارد قوى الظلام ، وهـــذه حقيقة ليست محل خلاف • وتجدر الاشارة هنا الى أنه لو حلت علاقة الخير بالشر وسائر هذه الثنائيات ، لفقدت الحياة قيمتها ، واستحالت ، ولكن يجب الاشارة هنا الى ضرورة القول بامكانية تطور وتهذيب قوى الشر والتحكم فيها •

ولقد رأينا الحقيقة واضـــحة فى معظم الاســـهامات الميثولوجية والثيولوجية ، حيث ظهرت فى شكل انتقالى مثالى ضخم • كما أن الاديان البدائية لا تختلف عن ذلك الطابع العـــام ، حيث رأينـــا أن الأرونتـــا Arunta باستراليا يضعون المجتمع الخرافى فى بداية الزمن ، ثم ينبثق عن تنظيمه تنظيمات أخرى عديدة توجد فى حيـــاتهم الآن بنفس

تفاصيلها بين العشـــائر والبطون ، وتخضـــع لنفس الطقوس والأحكام والممارسات التى كانت سائدة فى البداية • بيد أن العنصر البشرى فى هذا المجتمع الخرافى الاول كان فى نظر الارونتا عبارة عن كائنـــات مثالية ، زودت بقوى وفضائل لا تقوى الناس على تحقيقها • وهـــذه الكائنات علاوة على ذلك ليست طبيعتها سامية فقط ، بل أنها من طبيعة حيوانية وانسانية فى نفس الوقت • كما أن القوى الشريرة تخضـــع بالمثل للتغير ، فالشر فى حد ذاته قد امتد وأصبح ذا طابع مثالى • وهنا نتساءل من أين أتى هذا الطابع المثالى ؟•

لعل الاجابة على ذلك ، هى أن الانسان لديه القدرة الطبيعية على أن يجعل الشىء مثاليا ، بمعنى استبدال العالم الواقعى بغيره المختلف عنه ، وسرعان ما يحول نفسه وينتقل الى هذا العالم الآخر عن طريق الفكر • ولكن هذه الاجابة ما هى الا تلاعب بالألفـــاظ ، لا يقـــدم ولا يؤخر ، وأن اضفاء الطابع المثالى المنظم على الأشياء تعد صفة جوهرية فى الأديان • الا أن تفسير الأديان عن طريق القوة الفطرية يعد ببساطة بالغة ، بمثابة احلال كلمة محل كلمة أخرى معادلة ومرادفة لها • مثلها فى ذلك مثلما نقول بأن الناس قد صنعت الخير لأن لديهم طبيعة خيرة • ان الحيوانات لا تعرف الا عالمـــا واحدا هو عالم الخبرة التى يعايشونها، يستوى فيه الجانب الداخلى مع الجانب الخارجى • أما الانسان فهو الكائن الوحيد الذى لديه صفة ادراك ما هو مثالى وفهمها ، واضفاء شىء ما على الواقع • ولكن من أين تأتى هذه الميزة المنفردة المتميزة أيضا ؟ ينبغى علينا اذن وقبل أن نجعلها حقيقة فطرية ، أو فضيلة خفية تطرد العلم ، وتجعله يهرب — أن نقول بأنها لا تعتمد على ظروف يمكن اخضاعها للتحديد الامبيريقى •

لقد رأينا فى الواقع ، أننا لا نستطيع أن نفسر شيئا بدون أن نفسر الآخر المرتبط به ، وأنه اذا كانت الحياة الجمعية توقظ الفكر الدينى ، وتنبهه الى الاقتراب من الشدة والتأكيد عليه بدرجة معينة ، فان ذلك يرجع الى أنها تضعنا فى حالة الفوران والفاعلية التى تغير من ظروف وحالات النشاط النفسى • وتجعل الأنشطة الحيوية وطاقاتها تبلغ أوج قوتها وعنفوانها ، وهنا تتعاظم الأحاسيس ، ونكون بصدد لحظة لا تتكرر الا فى مثل هذا الموقف • ويدرك الانسان ذاته ، وقد تحولت وتبدلت ، ومن ثم تتحول بالتالى البيئة المحيطة به ، كما يراعى الانطباعات الخاصة التى يتعرض لها ، ويضعها فى الحسبان ، كما يضفى على الأشياء التى يحتك بها احتكاكا مباشرا صفات ليست فيها ، وينسب اليها قوى وفضائل لا تتضمنها خبرات وتجارب الحياة اليومية ، وما فيها من موضوعات • وبعبارة أخرى ، فانه بالاضافة الى العالم الواقعى الذى تمر به حياته غير المقدسة ، قد وضع الانسان عالما آخر مثاليا تصوريا ، لا يوجد الا فى فكره هو ، ولكن ينظر اليه نظرة سامية تفوق نظرته الى العالم الواقعى •• وهكذا يتبدى لنا أن هناك عالما مثاليا يكونه الانسان ويصنعه بفكره •

ولا شك أن العالم المثالى بصورته هذه ، ليس حقيقة متدينة ناقصة القدر تبعد عن دائرة العلم ، وانما يمثل حقيقة عالية القدر ، يمكن ملاحظتها ، وتنبثق عن الحياة الاجتماعية • ان المجتمع اذا أراد أن يعى ذاته ، ويدعم مشاعره بشكل يساعد على الانتظام والاطراد ، وجب عليه أن يتحد ويهتم بتأمل ذاته ، ذلك الاهتمام الذى يمكن المجتمع من اعلاء حياته العقلية التى تتخذ شكلها وتتكون أساسا من مجموعة التصورات المثالية التى تمثل الحياة الجديدة التى أيقظها التفكير المثالى ، ثم تتفاعل هذه المجموعة الجديدة من القوى الفيزيقية مع القوى التى تحتويها

حياتنا والمهام اليومية لحياتنا • وفى ضوء ذلك نجد أن المجتمع غير قادر على أن يخلق ذاته ، ولا أن يعيد خلقها من جديد ، الا عندما يصل الى هذه الدرجة التى يخلق فيها المثال • وليس هذا الخلق الا نوعا من العمل الرئيسى الذى يكمل المجتمع به ذاته ، فهو قد تكون بالفعل واتخذ صورته ، بيد أنه فى حاجة الى الكمال ينشده من وقت لآخر •

وفى ضوء ذلك عندما يقابل البعض بين المجتمع المثالى والمجتمع الواقعى ، نجدهم يضفون الطابع المادى على المجتمع المثالى ، ويعارضون ما فيه من مجردات • فليس المجتمع المثالى من المجتمع الواقعى ببعيد ، وانما هو جزء منه • وعندما نتناول أحدهما ، فلابد أن نتناوله فى ضوء علاقته بالآخر • حيث أنهما يمثلان قطبين لمقياس واحد تتدرج على المسافة بينهما كافة الدرجات • كما أن المجتمع ليس حصيلة عدد أفراده ، والأرض التى يعيشون عليها ، والأدوات التى يستخدمونها، والحركات التى يقومون ، وانما المجتمع بالاضافة الى ذلك هو فكرة أو مثال تتكون من ذات المجتمع نفسه • وان المجتمع وهو يدرك ذاته ، يشعر بنفسه وقد ألقى بها فى اتجاهات شتى متنافرة • ولكن هذه الصراعات التى تقلل من قوة المجتمع وتستنفذها ، ليست بين الواقع والمثال ، ولكنها بالأحرى بين نوعين من هذا المثال ، هما مثال اليوم ، ومثال الأمس ، مثال يمثل سطوة التراث وآخر يمثل آمال المستقبل • وهناك بالطبع مجال لبحث هذين المثلين ، ولكن مهما كان حل هذه المشكلة، فلابد أن تبقى كل محتويات عالم المثل •

وتأسيسا على ذلك فان المثال الجمعى الذى يعبر عن الدين ، ليس راجعا الى قوى فطرية الى الفرد ، وانما هو بالأحرى راجع الى مدرسة الحياة الجمعية التى تلقى فيها الفرد المبادىء التى تمكنه من اضفاء

الطابع المثالى على الأشياء ، أى كيف يلون الشىء بلون مثالى • ولاشك أن هذه الصفة قد اكتسبناها من المجتمع ، وذلك من خلال تمثل وتشرب الأفكار والمثل التى يحددها المجتمع • وهكذا يدرك المثال ، سواء على مستوى الفرد أو الجماعة ••• فالمجتمع اذن هو الذى أكسب الفرد من ادماجه فى مجال الفعل ، الحاجة الى أن يرتفع بنفسه فوق عالم الخبرة والواقع ويسمو عليه ، ويكون لديه فى نفس الوقت من الوسائل ما تمكنه من أن يدرك هذا العالم ، ويتصل به دائما • لقد أرسى المجتمع دعائم هذا العالم المثالى الجديد ، من خلال تشييده لذاته ، خاصة أن هـذا المثال ما هو الا تعبير عن هذه الذات • وهكذا يتبدى لنا أن الفرد وحده أو الجماعة وحدها ، لا يعرفان شيئا عن هـذا التحديد المثالى بدون المجتمع ، كما أن هذا التحديد المثالى لا ينطوى على شىء غامض أو خفى • وهذا الأمر ليس نوعا من الأبهة أو الرفاهية التى قد يستغنى عنها الفرد ، وانما هى شرط جوهرى لوجوده الضرورى • فهذا الفرد لن يكون شخصا اجتماعيا ، ولن يكون كائنا اجتماعيا ، ولا شيئا من ذلك ، اذا لم يكتسب هذا المثال • فمن المعروف أن الأفراد عندما يتحدون ويتفاعلون ، فان الأفكار والمثل الجمعية هى التى تضفى عليهم طابعهم المتميز الذى يميزهم عن غيرهم • وينفصل المثل الشخصى ذاته عن المثل الاجتماعى فى كليته ، كلما تطورت الشخصية الفردية نفسها وصارت مصدرا مستقلا للفعل • ومع ذلك ، فاذا كان لنا أن نفهم هذه الفكرةالتى تبدو لنا فردية فى مظهرها ، وهى فكرة المعيشة خارج الواقع ، فيكفى أن نربطها بالشروط والظروف الاجتماعية التى تعتمد عليها •

* ● *

ثالثا : الدراسة الاجتماعية الوصفية للسلوك الدينى :

يرجع الفضل الى جابريل لوبرا Gabrielte Bras فى ريادة الاتجاه الجديد فى البحوث السوسيولوجية الوصفية للسلوك الدينى فى فرنسا(١٢) • وانتقلت بعده مثل هذه الدراسات وتعددت وتنوعت فى سائر الدول الأوروبية وفى الولايات المتحدة ، كما سنرى فيما بعد • (انظر الفصل التالى عن علم الاجتماع الدينى فى الولايات المتحدة • وقد أخرج لوبرا فى عام ١٩٣٠ دراسة احصائية وتاريخية لوضع الكاثوليكية فى مختلف أقاليم فرنسا • ومع أن دراسته تلك لم تستوف الموضوع بكافة جوانبه الا أنها كانت بمثابة حافز وموجه الى القيام بهذا النوع من البحوث • ولقد كانت دراسته بمثابة نقلة جديدة تماما على مسار دراسات الاجتماع الدينى فى فرنسا • فاذا كان دوركايم قد انطلق فى دراساته الاجتماعية الدينية من « الجانب فوق الطبيعى » ، فقد انطلق هذا الاتجاه الجديد من الاطار الاجتماعى • وبذلك حدث نوع من الانقطاع فى تراث علم الاجتماع الدينى الدوركايمى • بل اننا لا نغالى اذا قلنا أن القضايا الكبرى التى انتهت اليها أو حاولت أن

---

(١٢) يمكننا أن نجد عرضا وتحليلا وافيين لانتاجه فى ميدان علم الاجتماع الدينى عند :

Desroche, Henri, « Domaines et méthodes de la sociologie religieuse dans I'oeuvre de G. Le Bras » : Revue d'Histoire et de philosophie, Religieuse, 1954.

وكذلك عند :

Isambert, Francois. « Developpement et dépassement de I'étude de Ia pratique religieuse chez G. Les Bras » : Cahiers Internationaux de Sociologie, XX. 1956.

تنتهى اليها دراسات مدرسة دوركايم فى علم الاجتماع الدينى قد طرحت بعيدا عن ميدان المناقشة والتحقق(١٣) • ولقد كان من آثار هذا التحول ان أمكن لأول مرة الانتقال من تحليل الأديان « البدائية » الى تحليل المسيحية ، أى الانتقال من الاشتغال بالجوانب الخرافية البعيدة فوق الطبيعة الى الاهتمام بالظواهر الواقعية الملموسة التى يعيشها الباحث وينتمى اليها ويدين بها •

ولقد أورد لوبرا فى دراساته الأولى نوعا من التصنيف كشرط أساسى للقيام بدراسات كمية • فميز لوبرا بين الذين يزورون الكنيسة بمناسبة التعميد ، وحفل تناول العشاء الربانى لأول مرة ، والزواج ، والوفاة ، وكذلك بمناسبة بعض الأعياد الكبرى(١٤) ، والذين يشاركون فى العشاء الربانى بمناسبة عيد الفصح وفى صلوات الأحد •

وعلى أساس هذه السمات تم جمع البيانات والاحصاءات ، بحيث استطاع فرناند بولار Fernand Boulard أن ينشر « خريطة دينية للريف الفرنسى(١٥) » • ولقد حاول لوبرا فى الجزء الأول من كتابه

---

(13) Le Bras, Gabriel, Etudes de Sociologie religieuse Vol II De la morphologie à la tupologie, Paris, 1956, p. 794.

(١٤) يمكن الربط بين هذا الامتثال الموسمى الواسع الانتشار وبين « طقوس العبور » عند فان جنب Van Gennep قارن كتابه :

Van Gennep Arnold , Les rites de passage, Paris, 1909.

وكذلك علياء شكرى « المدخل الى الفولكلور الفرنسى المعاصر . دراسة لآراء وأعمال فان جنب » ، مقال فى الكتاب التالى : أحمد أبو زيد ، الفولكلور ، القاهرة ، ١٩٧٢ .

(١٥) أنظر المجلد الاول من كتاب لوبرا الاجتماعى الدينى : =

« دراسات فى علم الاجتماع الدينى » أن يقدم بعض التفسيرات الممكنة لهذه الصورة التى تحددت ملامحها على الخريطة المذكورة • وقد اعتمد فى ذلك على خبرات ونتائج علم النفس الجماعى ، كما حاول أن يأخذ فى اعتباره البيئة الجغرافية بما تحويه من أرض وظروف طبيعية وكذلك أسلوب الحياة[١٦] • ولقد اتضح من تحليـــلات لوبرا أن علاقة المنطقة بالمراكز الحضرية الحديثة أمر على جانب كبــير من الخطورة لا يمــكن التقليل من شأنه • كما أورد لوبرا نتائج البحوث المماثلة التى أجريت فى المدن الكبرى الفرنسية • وقد اتضح منها أن نسبة حوالى ١٠ الى ٢٠٪ من سكان هذه المدن يزورون قداس الأحد بصفة منتظمة • وعلى أساس هذه البيانات الاحصائية الدقيقة يمكن استخلاص بعض الاشارات الاولية الى ارتباط الظاهرة الدينية بشتى الظواهر الاجتماعية الاخرى• فيمكن مثلا الوقوف على آثار ممارسة الشعائر الدينية أو اللامبالاة ازاء تلك الشعائر على السلوك الانتخابى مثلا ، أو عدد المواليد ، أو الايمان بفكرة التدرج الاجتماعى المســتوحاة من التراث أو بنــاء الكنــائس الجديدة • والنقطة الأخيرة بالذات أكثرها وضوحا للعين المجردة وأسهلها على الملاحظة[١٧] • على أن لوبرا يعترف بنفسه فى الجزء الثانى من كتابه المذكور بأن المعــايير التى اعتمــد عليها ســطحية بعض الشىء • وأنه يستهدف الوصــول الى بحوث ودراســات أكثر تعمقا ، لا تقتصر على الممارسة الدينية وحدها ، بل تتجاوز هذه الأعراض الظاهرية الى العقيدة

Le Bras . G., Etudes de sociologie religieuse, Vol I :Sociologie= de la pratique religieuse dans les campagnes francaises, Paris, 1955, p. 325.

(١٦) المرجع السابق ، صفحة ٣٠٤ وما بعدها .

(١٧) المرجع السابق ، صفحة ٢٦١ وما بعدها .

(الايمان نفسه) والسلوك الأخلاقى ، حتى تكون النتائج أكثر تعبيرا عن حقيقة الانسان المؤمن ، وأكثر كفـاءة فى قيـاس الأثر الدينى على مختلف جوانب سلوكه وعلى دوره فى الحياة الاجتماعية(١٨) •

وعلاوة على اهتمام لوبرا بتسجيل الموقف الراهن للممارسة الدينية فى توزيعها المكانى (الجغرافى) ، نجده يولى البعد التاريخى أهمية كبيرة محاولا من خلاله تعميق نظرته الأولى • وهو فى تتبعه التاريخى يتعرض بالتفصيل لفكرة تتابع الطبقات الاجتماعية فى ترددها على الكنيسة(١٩) • من هـذا الانخفاض المتزايد للممارسـة الدينية عند طبقتى النبـلاء والبورجوازية فى القرن الثامن عشر ، ثم الاقبال الفجائى المتزايد على ممارسة الشعائر الدينية عند النبلاء بعد الثورة الفرنسية ، هذا بينمـا انتشرت روح التشكك فى أمور الدين بين أبناء البورجوازية ، ثم عقب ذلك عودة كلا الطبقتين بسرعة الى الممارسـات الدينية القـديمة • أما بالنسبة للطبقات الشعبية فيلاحظ أنها قد أهملت فى ممارسة تلك الشعائر تحت وطأة الرعب الذى سيطر طوال تلك الفترة ، بحيث وجدنا الكنائس تكاد تخلو خلوا تاما من جماهير العمال فى أواخر القرن التاسع عشر • وهو الوضع الذى شهدناه فى القرن العشرين بالنسبة لجماهير الريفيين ، التى هجرت الكنائس اليوم • وقد اهتم ديروش Descrocne فى كتابه الصادر عام ١٩٥٥ بدراسة العلاقات بين الاشتراكية الأولى والحركات الدينية ، وخاصة حركة Les Shaker الأمريكية(٢٠) •

---

(١٨) انظر المجلد الثانى من كتاب لوبرا ، (هامش رقم ٢٧) ، صفحة ٥٦٣ وما بعدها •

(١٩) انظر المجلد الثانى من كتاب لوبرا ، صفحة ٣٦٣ وما بعدها ..

(٢٠) انظر مؤلف دى روش : Dameche, Henrl, Les Shakers =

أما الاهتمام بالمشكلات الثقافية فى هذا الاطار فيرجع الفضل فيه الى أميل بان Emile Pin ، وهو دارس قانون أصلا ، فى دراسته التى نشرها عام ١٩٥٦ عن احدى الأبروشيات فى اقليم ليون • فقــد حاول « بان » أن يتبين العلاقة بين المشاركة فى الحياة الكنسية ومجموعة من المتغيرات الأخرى • واتضح من تلك الدراسة أن الأشـــخاص المولودين فى المدن الكبرى يقبلون بدرجة أكبر على ممارسة الشـــعائر الدينية • أى أن هناك صلة وثيقة بين التكامل والاندماج فى المجتمع الحضرى وبين الممارسة الدينية[٢١] • وفيما عدا هذا فان المتغيرات التى اهتم بدراستها لا تظهر كعوامل مستقلة ، وانما كتعبير عن واقع شامل • أو تعبير عن ظاهرة اجتماعية كلية بالمفهوم الذى يعنيه مارسيل موس[٢٢] • ويحدد « بان » فى دراسته المذكورة هذه « الظاهرة الاجتماعية الكلية » بأنهــا الطبقات الاجتمــاعية ، وذلك من واقع الارتبــاطات التى توصــل الى

= Améeicains. Diun néochristionisme à un Pré-socialisme ?, Paris, 1955.

هذا وتصدر « جماعة علم الاجتماع الدينى Groupe de sociologie des Religions » منذ عام ١٩٥٦ « مجلة علم الاجتماع الدينى » Cahiers de Sociologie des Religions.

وقد أصدرت المجلة عددا خاصا (عدد يوليو / ديسمبر ١٩٥٧ خصصته لوصف الحركات الدينية التبشيرية فى الماضى والحاضر .

(21) Pin. Emile. Pratique religieuse et classes sociales dans uns pareisse urbaine. Saint-pothin à Loyon. Paris, 1956, p. 129.

وكذلك جيرالد بريز ، مجتمع المدينة فى البلاد النامية . ترجمة وتعليق دكتور محمد الجوهرى ، القاهرة ، دار نهضة مصر ، ١٩٧٢ الفصل الخاص بالدين فى مجتمع المدينة .

(٢٢) قارن : بان ، المرجع السابق ، صفحة ١٠ .

ملاحظتها والكشف عنها[٢٣] • وهو يرى أن التفسير يصبح فى هذه الحالة ممكنا اذا ما أخذنا فى اعتبارنا الظاهرة المدروسة نفسها ، وهى الكاثوليكية الحضرية ، الى جانب ممارسيها أنفسهم • وعلى هذا الأساس نجد أن هناك قدرا ملحوظا من التوافق والالتقاء الثقافى بين البورجوازية والكاثوليكية الحضرية • ولا يبدو هذا التوافق وهذا الالتقاء فى تشابه سلم القيم فى كل ، وانما يتضح كذلك — وبوجه خاص — فى تشابه الوعى عند البورجوازية وعند الكاثوليكية الحضرية • وتبدو هذه الحقيقة فى الوساطة الفكرية التى تلعب دورا حاسما فى تحقيق هذا الالتقاء • فالبورجوازية « وسيط » والكاثوليكى « وسيط » يتلقى الرموز والاشارات والرسائل الدينية المقدسة [٢٤] • وتتفق هذه الحقيقة والتكامل فى المدينة الكبيرة ، على أساس أن الشخص البورجوازى يجسد حقيقة « التكامل » فى الحضارة المعاصرة • والملاحظ أن الحياة الحضرية بما تتميز به من انقسام وتفكك تجبر الانسان — الذى يريد أن يحتفظ بوحدة شخصيته واستقرارها — على أن يتباعد بين حياته النفسية وحياته الاجتماعية ، أو أنه يزيد من هذا التباعد اذا كان موجودا فعلا •

ووراء هذه البحوث جميعا تبدو واضحة مخاوف الكنيسة الكاثوليكية • ولعل تساؤل الأب جودان **Godin** أن يعبر عنها اذ يقول : « هل فرنسا أرض تبشير ؟ » • أى هل ضاعت الكاثوليكية من فرنسا ، بحيث أصبحت الحاجة ماسة الى اعادة تبشير أهلها بالمسيحية من جديد • ويبدو ذلك الحرص واضحا أيضا فى دراسة ميشيل كوست **Michel Quoist** التى أجراها فى أحد الأحياء العمالية فى مقاطعة روان

---

(٢٣) نفس المرجع السابق ، صفحة ٤١١ .

(٢٤) المرجع السابق ، صفحة ٤١١ وما بعدها .

Rouen • فقد وصف دراسته تلك بأنها نوع من النقـــد الاجتماعى ، تركز بالدرجة الأولى على الظروف السكنية الرهيبة التى يعيش فى ظلها أولئك العمال (٢٥) •

---

(٢٥) قارن مؤلفه التالى :

Quoist, Michel, fa ville er L'homme, Rouen. Etude sociologique d'un secteur proletarien. Suivi de conclusions pour L'action, Paris, 1952.

الفصـــل الخـــامس

علم الاجتماع الدينى المعاصر فى

الولايات المتحـــدة

١ ـ مقـــدمة

٢ ـ النظرية السوسيولوجية العامة للدين

٣ ـ تنظيم الدين

٤ ـ القيادة الدينية والمجتمع

٥ ـ تدين الفرد

٦ ـ الدين والمجالات النوعية للحياة الاجتماعية

٧ ـ استخلاصات

الفصـــل الخامس

علم الاجتماع الدينى المعاصر فى الولايات المتحـــدة

١ ــ مقـــــدمة :

أول الظواهر التى تلفت النظر فى دراستنا لعلم الاجتماع الدينى فى الولايات المتحدة الأمريكية ذلك التقلب والتغير الواضح فى وضع هذا العلم ومكانته بين فروع علم الاجتماع المختلفة (١) • فنجد فى بعض الأحيان تركيزا كبيرا من جانب علماء الاجتماع على دراسة الدين كنظام اجتماعى ، ونجد فى أحيان أخرى اهمالا يكاد يكون تاما ، وانزواء يكاد يكون كاملا لدراسات هذا الفرع الهام من فروع علم الاجتماع •

فقد مرت دراسات علم الاجتماع الدينى بأحد عصورها الزاهرة فى الفترة التى قدم فيها أرنست ترولتش E. Troeltsch بحوثه البارزة فى الاجتمـــاع الدينى ، وأشـــهرها على الاطـــلاق كتابه : « التعاليم الاجتماعية لكنائس المســيحية » ، والتى قـــدم فيها ماكس فيبر كتابه الأشهر : « الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية » ، والتى قـــدم فيها اميل دوركايم كتابه الأساس المعنون : « الأشـــكال الأولية للحياة الدينية » • ففى هـــذه الفترة ازدهرت بالفعل دراسات علم الاجتماع

---

(١) انظر حول هذا الموضوع فصلا هاما عن « علم الاجتماع الدينى » فى الكتاب التالى :

Robert Merton and others (eds.) , Sociology Today, Vol. I : Charles Y. 6 lock, « The Sociology Sociology of » , Harper Torchbooks, , N.Y., 1955 , PP. 153 - 177.

الدينى وبلغت بحوثه ذروة الاهتمام بها ، وأصـــبحت حديث الكثير من الدارسين ومدار بحوثهم •

ثم انحسرت دراسات هـــذا الفرع الهام من فروع علم الاجتماع مرة أخرى ، وتجلى هـــذا الانحسار فى الفترة الواقعـــة بين الحـــربين العالميتين (الاولى والثانية) • وقد بدا فيها أن الدين لا يمثـــل ذلـــك الموضوع الذى يفرض نفسه على بحوث علماء الاجتماع •

ولقد كان لهـــذا الموقف المتضارب أثره البالغ فى قصـــور الهيكل النظرى لمعرفة علماء الاجتماع المعاصرين بموقع الدين فى المجتمع ، كما كان له أثره فى انعدام التجانس فى المؤلفات العلمية الاجتماعية بصـــفة عامة فيما يتصل برؤيتها للدين •

ولكن الملاحظ اليوم أن هذه الغشاوة قد انقشعت ، فظهرت مجموعة من الحقائق والمؤشرات التى تفرض علينا ضرورة توجيه الاهتمام صوب دراسة الدين • وقـــد أملت ظروف النهضـــة الدينية العامة فى الحياة الأمريكية هذه الضرورة • ومع ذلك فقد يؤدى هذا الاهتمام المعـــاصر بدراسة الدين الى توفير قوة دفع كبيرة ، تكفى لتوجيه نظر المتخصصين الى هذا الميدان وحثهم على دراسة هـــذا الموضوع لمدة زمنية يمكن أن تمتد الى مستقبل بعيد وبصورة تتصف بقدر من الاستمرار •

وسنحاول أن نقدم فى هذا الفصل نظـــرة نقدية للموقف الراهن لعلم الاجتماع الدينى فى الولايات المتحدة الأمريكية • وسوف نجد من ملامح هذا الموقف قدرا كبيرا من الاهتمام بدراســـة الظواهر الدينية والتعرف على المؤسسات الدينية فى المجتمع الغربى المعاصر ، من أجـــل تقييم دورها فى المجتمع ، وتفاعلها مع النظم الاجتماعية الأخرى القائمة

فى هذا المجتمع • وهى جميعها دراسات تصطنع طرق السوسيولوجى الامبيريقى •

٢ — النظرية السوسيولوجية العامة للدين :

لقد لخصت بعض الكتب الرائدة فى علم الاجتماع العام ، المفهومات المعاصرة لمقع الدين فى المجتمـع ولا سـيما كتـاب كنجـزلى دافيز Kingsley Davis عن المجتمع الانسانى يقول دافيز (ص ٥٢٩) :

« يضطلع الدين بأربعة أشياء تساعدنا على احكام سيادة العاطفة على الرغبة العضوية ، وسيادة المصـالح العامة وأولويتها على المصلحة الذاتية • أما الشىء الاول فهو أن الدين يقدم لنا نسق الاعتقاد فيمـا فوق الطبيعى ، يفسر لنا أهداف الجماعة الاولية ، وتبرير هذه الاولوية • وثانيها أنه يزودنا بوسائل تجديد المشاعر العامة بطريقة متسقة مـن خلال الطقس الجمعى وثالثها أنه يجسد — من خلال الموضوعات المقدسة — اطارا ملموسا من القيم ، ويحشـد كل الأشخاص الذين يشـتركون فى احترامها حول موضوع هذه القيم أما الدور الرابع فهو أن الدين يزودنا بمصدر — لا ينضـب — من الثواب والعقـاب ، الثواب لمن يحسن ، والعقاب لمن يسىء • وبهذه المهام الأربع • يقدم الدين اسهاما فريدا لا مثيل له فى تحقيق التكامل الاجتماعى •

ومن الجدير بالذكر أن هذه القضـايا مستمدة بالدرجة الأولى من الدراسات التى أجـريت عن الدين فى المجتمعات الأمية ، وبقـدر أكبر استمدت من دراسة جيل أو أكثر • ومنذ ظهور هذه الدراسات ، ظهرت معها مجموعة من الانتقادات والهجوم على عجزها عن التقدير السـليم لمكان الدين فى المجتمعات المعاصرة ، المعقدة والمتغيرة ومع ذلك ، فان مهمة

توضيح هذه الدراسات ، لزيادة امكانية تطبيقها على المجتمع المعاصر ، لم تلق اهتماما يذكر •

ويرجع هذا الاهمال البالغ الى مجموعة من العوامل ، يأتى على رأسها ضعف المدخل وقصوره • اذ كان المنظرون الاوائل يهتمون أساسا بتوضيح أصل الدين ، ودوره ووظيفته فى المجتمع البدائى ، وبالتالى فى كل أنواع المجتمعات • وكان من نتيجة ذلك • الميل الى تجاهل البدائل الوظيفية للدين فى مواجهة حاجات المجتمع • بل كانت هناك نزعة ضمنية للنظر الى المعتقدات والطقوس والممارسات الدينية المصاحبة لها ، كما لو كانت وسائل شاملة لمواجهة هذه الحاجات • وقد برهنت دراساتهم على هذه النظرة — خاصة فى المجتمعات البدائية ومع ذلك ، فقد أصبحت هذه النظرة بالغة الضعف عندما بدأت تطبق على المجتمعات المركبة • فمن الصعب — على سبيل المثال — أن ندافع عن قضية تدعيم الدين وحده للتكامل الاجتماعى ، أو الضبط الاجتماعى فى المجتمع الأمريكى أو البريطانى أو حتى المجتمع الهندى •

ومع ذلك ، فان هذه الأعمال الأولى ، لا تزودنا بأساس لتحديد البدائل الوظيفية للدين ، وبالتالى فهى لا تحاول أن تحدد نوعية الاسهامات النسبية للدين ، وبدائله الوظيفية لتدعيم التكامل الاجتماعى • كما أنه ليس هناك عمل علمى آخر أقتحم هذه المشكلة •

ويحاول دافيز وآخرون حلها خاصة بعد التعرف الوثيق عليها — ويدرو الحل حول القول بان الدين « يساعد على »، أو يسهم فى الحفاظ على التكامل الاجتماعى وتدعيمه • ومن الواضح أن هذه القيود تعة بمثابة نتيجة موروثة عن الطريقة التى عولجت بها القضية ، أى مدى اسهام الدين فى التكامل الاجتماعى • ولو أنها طرحت فى ضوء

مفهوم التكامل الاجتماعى والقوى التى تسهم فيه ، لأمكن محاولة لتحديد النسبى لاسهام الدين وسائر نظم المجتمع الأخرى فى هـذا التدعيم ، أو الاضعاف والوهن أو التكامل •

وهذا ما قدمته المدرسة البنائية الوظيفية فى علم الاجتماع بالفعل • ولكن من المحقق أن هذه المدرسة كانت الأولى التى طرحت القضـايا المتعلقة بالوظائف التكاملية للدين • ولكن يبدو أن هذه القضايا الراسخة الآن ، ليست واضحة فى تعريف البنائية الوظيفية للتكامل الاجتماعى ، وغير دقيقة فى تحديدهم التصورى للمجتمع أو الجماعة ، التى يضطلع فيها الدين بدور وظيفى • ولهذا فمن الصعب أن تخضع هـذه القضايا للتفسير الامبيريقى •

وقـد انبرى روبرت بيلاه R0Bellah بتقـديم اطار تصـورى للدراسة النظرية للدين ، يمكن أن يسهم فى حل هذه المعضلة • فبـدأ يطرح فكرة مؤداها أن الفعل الفردى أو المجتمعى اذا خلا من المعنى عند الفاعلين ، فلابد أنه يتهـدد استقرار الشخصية ، وبالتالى اسـتقرار المجتمع • والفعل الملموس يستمد معناه من المعايير الاجتماعية ، علاوة على وجود نسق رمزى — وراء هذه المعايير — أى نسق معنوى سام ، يعطى للمعايير نفسـها المعنى والتماسك • ففعـل التصويت (الادلاء بالصوت فى الانتخاب) مثلاتدعمه المعايير الاجتماعية التى تستمد معناها من نسق الاعتقاد المعنوى أى فكرة الديمقراطية •

وقد يكون نسق المعنى السـامى دينيا — وقد لايكون — بمعنى أنه يتضمن سلطة ترانسند نتالية متعالية • ومع ذلك ، فعندما يكون الارتباط به قويا الى حد كبير ، يكفى مثلا لأن يكف الفـرد أو الجماعة رد فعلها العدائى لأى تهديد يقع عليها ، فان هذا النسق سرعان ما يصبح مقدسا

فى خصائصه • ويوضح بيلاه هذا المعنى بقوله بوجـــود بعض الظروف يكون فيها الارتباط الاولى للفرد أو الجماعة بنسق المعنى السامى ، على حين توجد ظروف أخرى يتجه فيها هذا الارتباط صوب المعيار • فأعضاء مجالس المواطنين البيض يرتبطون ــ على سبيل المثال ــ بمعيار العزل والتفرقة العنصرية • وسوف يعملون على تغيير مدلولاته ومضمونه • بينما فعل هذه الوظائف يدعم المعيار • ومن ناحية أخرى لم يبد الجهاز الوظيفى الرسمى فى الاتحاد السوفيتى أى ارتياب أو تحفظ بشأن تغيير التشريع المتعلق بالطلاق ، بينما بدأت المعايير السائدة تهدد النســق المعنوى القائم •

وتتمثل الأهمية الملحة لارتباط هذه الأفكار بمشكلة تحديد الوظائف التأملية للدين وتوضيحهــا ، فى أنها قد تزودنا بأساس لترتيب معايير أى مجتمع فى ضوء أفكار النظــام المعنوى القيمى الذى نضــفى عليها معناها • فاذا حدث وتم ترتيب تلك المعايير ، فسوف يصبح بامكاننا التمييز بين الجزاءات التى تحددها السلطة الدينية وبين الجزاءات التى تحددها المضامين العلمانية • وبالتالى يمكن تحــديد المضامين العلمانية ــ التى سبق تسميتها بالبدائل الوظيفية ــ للدين •

وبهذا يمكن أيضا تعريف التكامل الاجتماعى كمقياس يقيس لنــا درجة قبول المعايير كموجهات للفعل ، سواء على مستوى الجماعة أو على مستوى المجتمع • ومن الواضح أن ما صــاغه بيلاه يتطلب المزيد من التحديد ، اذا أريد لافكاره أن تؤدى الى نوع من تحديد وتوضيــح البحوث الامبريقية التى تتضمنها هذه الملاحظات ومع ذلك ، فانها تغرينا بالنظر فيما وراء التعميمات النسبية الواهنة التى تخرج بها عن وظائف الدين فى المجتمع المعقد •

٣ — تنظيم الدين :

يعـد الدين منظمة بيروقراطية (أى قائمة على قـواعد تنظيمية محددة) من نوع ما ، بصرف النظر عن أصوله فى المجتمع • ومع هذا ، فان البيروقراطيات الدينية تختلف اختلافا ملحوظا من مجتمع الى آخر • فالدين فى المجتمع الغربى — على سـبيل المثال — ينتظم حول شـكل تسلسل هرمى من نوع ما •

وتجدر الاشارة الى أن استمرار المذهب الكاثوليكى الرومانى ، لم يكن ليتحقق — فى الواقع — بدون وجود هذا التنظيم الهـرمى التسلسلى • بينما لا توجد التنظيمات الهرمية الرسـمية والصورية فى النمط الكاثوليكى فى المجتمعات غير الغربية بصـفة عامة ، ومع ذلك فلا يمنـع غيابها من ازدهار الأديان من قرن الى آخـر • فلا يوجـد فى الهندوسية — على سـبيل المثال — ما يمكن أن نقارنه بالكنيسـة ، أو بالسيادة • فما يوجد فيها ، يتخذ الشكل المحلى ، ولا يتضمن الا القليل من البيروقراطية ، بدون نسق رسمى للتواصـل بين الوحدات المحلية ليشكل سياسة عامة شاملة ، ويحل الصراعات الدائرة حول المبادىء الدينية الثابتة ، وتوحيد الممارسات الطقوسية ••• الخ وتعكس هـذه الاختلافات — بطبيعة الحال — الطرق المختلفة التى يتكامل الدين فى ضوئها مع المجتمع ، مثله فى ذلك مثل سائر التنويعات والاختلافات فى البناء البيروقراطى لكل نظم هذا المجتمع •

مع التسليم بالحاجة الملحة الى الدين ، فان علماء الاجتمـاع الأمريكيين لم يولوا اهتماما كبيرا بالتنظيم الدينى للاديان ، على أساس الدراسة الثقافية المقارنة • ولهذا فقد اسـتأثر تنظيم الدين المسيحى بمعظم الدراسات •

ولعل دراسات ترولتيش عن التمييز بين الطائفة أو المذهب الدينى Sect والكنيسة توضح لنا هذه الحقيقة • ويتضمن هذا التمييز علاقة وثيقة بالتداخل القائم بين الايديولوجيا الدينية وبين الطقس من ناحية، وشكل التنظيم الدينى من ناحية أخرى — فهو يصف باختصار هذه العلاقة من خلال متصل يتضمن نقطتين استقطابيتين لأنماط التنظيم الدينى • وهما الطائفة والكنيسة •

وتتميز الطائفة — من الناحية الدينية — بطقسها ومبادئها الجامدة الاقل ميلا الى التطور • وتتميز من الناحية النفسية برغبتها العاطفية وروابطها الوجدانية الأكثر عمقا ، وتتميز من الناحية السوسيولوجية بعضويتها القائمة على أساس الاهتداء والاختيار وليس الوراثة • ومن بين النواحى الأخرى تتميز الطائفة أيضا باتجاه متصلب مترمت للعالم •

وتقف الطائفة والكنيسة معا فى علاقة دينامية فى مظهرين رئيسيين أولهما أن الطائفة تنشىء لنفسها الكثير والكثير من صفات وسمات الكنيسة • وبتراكم هذه الصفات والخصائص تفقد سماتها الطائفية فى هذه العملية التراكمية • وتصبح الطائفة ثانيا منظمة دينية أكثر تشابها مع الكنيسة فى صفاتها وخصائصها بحيث يؤدى هذا التشابه فى النهاية الى زيادة تكون الجماعات المنشقة عن القطاعات القائمة ، وبالتالى تتشكل طوائف جديدة •

يضاف الى ذلك ، دراسة ليستون بوب Liston Pope عن جدوى تنميط دور التنظيمات الدينية فى تحول المجتمع المحلى بمقاطعة جاستون Gaston County فى الجنوب من اقتصاد الزراعة الى اقتصاد الصناعة • فقد أمكنه التمييز بين الطوائف والكنائس فى التنظيمات الدينية بالمقاطعة ، وبالتالى تمكن من الوقوف على كيفية اسهام هذين

النمطين من المنظم الدينية فى عملية التغيير ، ولكن بطرق مختلفة اختلافا جذريا • وهناك دراسات أخـــرى أقل طموحا فى موضـــوعها تشير الى جدوى التنميط • ومع ذلك فانه بصرف النظر عن فائدتها ، فانها أثارت الاهتمام بما ابتكرته من أفكار عن طبيعة التنظيم الدينى • وربما كان هناك ميل كبير لفرض كل تنوع للشكل التنظيمى على مستوى التنميط •

ويعد التنميط وسيلة لتنظيم تنويعات التعبير الدينى فى أمريكا ، بشكل يوضح لنا حقيقة هذه المعضلة • ومن هذه التنويعات الطائفيـــة حركة الأب المقدس وحركة Hutlerites وغيرها ، لا تراعى اختلافات ظروف تكونها وتطورها ، فى مضمونها الثيولوجى وتشكيلاتها وتنظيمها الداخلى • ومن هنا لا يضطلع بحل هذه المعضلة سوى التمييز بـــين العبادة أو الدين ، وبين الطائفة كما قدمه فون فيزه [illegible] وبيكر Becker • أو النظر الى التنميط فى ضوء المتصل وليس المنفصل على نحو ما فعل ينجر Yinger •

اننا لا ننكر فائدة التنميط فى علم الاجتماع الأمريكى ، ولا نغمط دوره فى المحاولات المتكررة للتمييز بين الطائف والكنيسة • فهناك حاجة لتأكيد نوعية العامل المعاصر فى التفاعل بين الصفات الثيولوجية مـــن ناحية ، والنفسية والسوسيولوجية من ناحية أخـــرى • بيد أن اختبار قابلية تطبيق التنميط على التنويعات التنظيمية فى الاديان الأخرى غير المسيحية يعـــد أمرا محـــل تحفظ • ومع ذلك ، فقـــد تحول اهتمـــام السوسيولوجيين الشاغل بمشكلة التنميط ، ليتجه شطر تناول القضايا الاخرى المفيدة لسوسيولوجيا التنظيمات الدينية •

ومن الملاحظ أن النظرية والبحث فى أصل الأشكال الجديدة للهيئة الدينية ، واحياء الأشكال الأولى القديمة ، على مدى فترات زمنية مختلفة وفى أماكن مختلفة ، تعد كلها غير كافية • اذ أن التواريخ المتاحة أمامنا

لا تشفى الغليل ، وانما هى تنهمك فى وصف الأحداث أكثر من اهتمامها بفهم العمليات الكامنة وراءها وبالتالى فالحاجة ماسة الى دراسات حالة ، يظهر فيها سعة الأفق السوسيولوجى لتأمل الظروف التى تؤدى الى تشكل الأديان وتكونها فى أمريكا • فقد حاول سكلير Sklave التعرف على أساس السوسيولوجية لتدعيم مكانة اليهودية المحافظة ، وتطورها الناجح كأغلبية ثالثة فى هذا المجتمع الأمريكى ومن الفئات الجديرة بالدراسة والبحث أيضا جماعة المورمون التى درسها أوديا O' Dea

وينبغى على علماء الاجتماع الأمريكيين توجيه الاهتمام بصفة خاصة لعمليات التطور البيروقراطى فى مختلف الاديان • فمن الواضح أن الشكل البيروقراطى للتنظيم الدينى ينطوى على آثار مباشرة على مضمونه الدينى ، وسمة رجال الدين فيه ، والسلطة التى يمارسونها ، ويفرضونها على أتباعه ، وقياس مدى تأثيره ونفوذه على السياسة العامة • ولا شك فى أن القواعد البيروقراطية للتنظيم الدينى فى المجتمع الأمريكى المعاصر وما تتضمنه من اختلافات ، تشكل مجالا خصباً للدراسة السوسيولوجية لا تحده حدود • ومع ذلك ، فهناك بعض الدراسات السوسيولوجية القليلة التى تركز على البيروقراطيات الدينية ، فى حد لم يتجه أحد من المفكرين النظريين المهتمين بتحليل الاختلافات القائمة وتنسيقها •

وفى مواجهة هذا القصور ، اتجه معظم الاهتمام لمحاولة تقييم تطور الكنيسة المنظمة تنظيماً هرمياً ، بعيداً عن المجتمعات المحلية المسيحية الأولى • فظهرت بالتالى دراسات هاتش E. Hatch وجولاند G.olland وآخرين ، وأنصب اهتمامهم على القضية المركزية وهى عملية مواجهة المتطلبات الوظيفية للمجتمعات المحلية الأولى التى يفرضها

القبول التدريجى للاشكال البيروقراطية ، التى تعيد تشكيل ثيولوجيـة الحركية من جديد • ومن ثم ينبغى أن يوجـه الاهتمام الواجب الى موضوع التداخل بين الثيولوجيا والتنظيم البيروقراطى فى الاشـكال الاخرى للتنظيم الكنسى فى المجتمع الغربى المعاصر •

وهناك دواع أخرى عديدة ، وميول متزايدة ، تستدعى اشراك علماء الاجتماع فى دراسـة تطور الحركات والتنظيمات الدينية • فلم تزل العلاقة بين الحركات الدينية الطائفية والراديكالية السياسية فى المجتمع الغربى • ولا سيما فيما يتعلق بالاختلافات الظاهرة فى أنماط التفاعل فى أوربا والولايات المتحدة • وهى تحتاج الى المزيد من الفحص والتفسير النظرى على الأقل • أما الاهتمام المتحدد الآن بالتعامل الروحانى فهو دليل ظاهر مستمد من التليفزيون والصحف اليومية المنتشرة فى الغرب • فقد انجرفت هـذه الحركات فى منعطفات عديدة فى التاريخ وفى كـل الأديان العالميـة • وليست هنـاك دراسات حول هـذه الموضوعات ، سوى اشارات لويس Louis فى عام ١٩٣٢ ، الى تفسيره للظروف التى تؤدى الى هذه الحركات والى تدعيمها •

أما ريتشارد نيبور Richard Niebuhr فقد قدم « دراسة المصادر الاجتماعية للطائفية » وهى مثال جيـد للجهد السوسيولوجى الأساسى لتفسير كيفية انبثاق الافكار الثيولوجية عن خاصية البناء الاجتماعـى ، ودور هـذا البناء فى التأثير على مجرى التنظيم الدينى •

كما تذكرنا هـذه الدراسة بأن الطائفية فى البروتستانتية الأمريكية الآن ، تمهد الطريق لموجة العالمية • فنلاحظ من الناحية التاريخية ، أن الطوائف فى صراع مع بعضها البعض الآخر نظرا لوجود بعض الخلافات — سواء الحقيقية أو المتصورة — وأن هـذا الوضع بات لشغل مزيداً من

الاهتمام ، لأنه صــار محوراً لمفاوضات الاندماج بين أبنــاء الطوائف المختلفة • وقد حدث بالفعل كثير من صور الاندماج هــذا • وهنا تكون الفرصة الذهبية الخصبة لاكتشاف العلاقات المتداخلة بين التغير التنظيمي والتغير الثيولوجي • ولكن الى أى حد يمكن أن نفسر الحركة العالميــة المعاصرة كنتيجة للتغيرات الراديكالية فى الظروف الاجتماعية وخاصــة مجال الطائفية ؟

ان اندماج الكنائس الاصلاحية مع طائفتى الانجيليين والمستقلين يعد مثالا لهذا الاتجاه ، وأن هــذا الاندماج على الرغم من أنه يهيىء مناخ الرأى للتغير ، الا أنه يبدو حادثة تاريخية فريدة • فالطائفة الأولى تمتد بجذورها فى ألمــانيا ، بينما تضرب الأخرى بجذورها فى انجلترا • وتمركزت الأولى جغرافياً فى بنسلفانيا ، على حين تمركزت الأخرى فى نيوانجلند فى الولايات المتحــدة • وتختلف الطائفتان اختلافا جذريا فى سياستهما وفى لاهوتهما • ويعد المستقلون من أوائل الكنائس فى الولايات المتحدة من خلال معيار الدخل الفردى السنوى لكل عضو من أتباعها ، فهى أكثرها جميعا ثراء • بينما الكنيسة الاصلاحية والانجيلية ينحصر أتباعهما فى الطبقة الوسطى الدنيا أساسا •

ومع ذلك حدث الاندماج بين الطائفتين ، بشــكل يبدو مختلفاً عما نتوقعه ، وعما نعرفه من أفكار نظرية ، ومن ثم يثير فضول علماء الاجتماع الدينى • الا أن دراسة هــذه الأحداث الغربية وتحليلها ، يبدو أنه متروك لمؤرخى الكنيسة وحدهم يقولون فيه كلمتهم •

وقد أدى الاهتمام بالظروف التى تؤدى الى الوحدة بين الجماعات الدينية الى توجيه الأذهان الى قضية أسس الصراع الدينى بين الطوائف والفئات المختلفة فى المجتمع الأمريكى • وفى هــذا الصدد ، فهناك قضية

أخرى ذات علاقة بدرجة الحاح تراكم هيكل المعرفة بالعلاقات المتداخلة بين الجماعات ودراسة هـذا الصراع الدينى ، أثارتها مجلة « القضايا الاجتماعية » Journal of Social Issues • وطرحت هذه الدورية فكرة مؤداها أن هذا الصراع ينبغى تناولهبمنظور هادىء واطاد تصـورى مختلف تماماً عن غيره من القضايا • وقد أيدتها الدراسات السوسيولوجية المعاصرة التى تجرى على الصراع الدينى فى أمريكا •

وهناك قيود عديدة على دراسـة هذا الصراع ، غير أنه يتعين علينا هنا تقديم تعليق واحد على التنظيم الدينى ، ولا سيما القضية العـامة المرتبطة بعمليات صنع القرار • ونعنى بها الطرق التى يزودنا بها التنظيم لصياغة السياسة ، والاختبار بين البدائل المتاحة • وتحدد كل التنظيمات طرقاً معينة لفعل الأشياء هى عادة الطرق « المقدسة » • وهـذه أخص خصائص التنظيمات الدينية •

ولكن ما هى أنواع القضايا التى نأخذها كموضوع للتعامل الادارى، وأيها لا يعد كذلك ؟ وأى القرارات يصنعها موظفو المؤسسة الدين ورجالها وأيها يشير الى عضوية المنظمات الدينية ؟ وبصفة خاصـة كيف تتعامل البيروقراطية الدينية مع الضغوط المحيطة بها لكى تكيف تأويل الكتاب المقـدس مع التغيرات الفعليـة ــ أو المفهومة الملاحظة ــ فى العـالم الاجتمـاعى ؟

وكانت هذه التساؤلات باعثا لاجراء المزيد من الدراسات والبحوث المقارنة على عمليات اتخاذ القرار فى المنظمات الكنسية الدينيـة ذات السياسات المختلفة • بمعنى كيف تجيب هـذه الدراسات على مـدى اسـهام الكنائس ــ المنظمة تنظيماً هرميا مثل الكنيسـة الكاثوليكية الرومانية ــ فى صياغة السياسة ، بما تمارسـه من تأثير يكثر أو يقل ؟

ولكن ماذا عن دور الكنائس الأسقفية تاريخياً فى السياسة ؟ وقضايا التأويل المقدس الذى يتزايد مع الأيام ويوشك أن يكون صوتاً كتابياً كهنوتيا ، يحول التفويضات الى دعوات طائفية • ولعل الاجابات النظرية والمقارنة على هذه الاسئلة سوف توضح فهمنا للتفاعل بين الثيولوجيا وبين بنية البيروقراطيات الدينية •

٤ ــ القيادة الدينية والمجتمع :

من الطبيعى أن مناقشة شكل التنظيم الدينى تثير مجموعة من التساؤلات حول دور رجال الدين المتخصصين ، وأنماط الأداء الوظيفى الدينى الأخرى • وهنا يثير الموضوع مرة أخرى عديداً من القضايا والتساؤلات • منها على سبيل المثال : ما هى الظروف الاجتماعية التى تؤدى الى ظهور القيادة الدينية الكارزمية وازدهارها أو انزوائها ؟ وما هى العملية التى يحدث بمقتضاها احتراف الأدوار الدينية وشغلها ؟ وما هى السلطة التى يمارسها رجال الدين فى المجتمعات المختلفة ، وعلى أية مجالات للحياة ، بالنسبة لأى أنماط من الناس ؟

وهناك بطبيعة الحال ، مادة تاريخية هامة متوافرة عن القيادة الدينية فى صورة سير الحياة ، وتواريخ الكنيسة ••• الخ • ومع ذلك فان القليل من هذه المادة المتوافرة يمكن اعتباره سوسيولوجياً أو نظريا ، وأن هناك قليلا جداً من المحاولات التى بذلت لكى تجعله كذلك • فقد ميز ماكس فيبر بين الكاريزما الشخصية Personal charisma وكاريزما المنصب of office ، وبين النبوة الرائدة والأخلاقية • وهو بهذا التمييز يزودنا باطار للمقارنة بين أنماط مختلفة من القيادة (الزعامة) الدينية كما تظهر تحت ظل ظروف اجتماعية معينة • ومع ذلك ، كان اهتمام

فيبر الأساسى منصباً على العلاقات المتداخلة بين القيم الدينية والمصالح الاقتصادية • وبالتالى فلا تشكل دراسة النموذج المطلوب لدراســة الزعامة الدينية •

وعلى النقيض من ذلك ، نجد اهتماماً متزايداً من علم الاجتماع المهنى ، والمتخصصين عموماً ، بدراســة رجال الدين واجراء البحوث عليهم كأنهم أصحاب مهنة تماماً • ولعــل أكثر هــذه البحوث ضرورة وأهميــة هو البحث الذى أجــراه دونوفان Donovan على القسيس الكاثوليكى ، ودراســة كارلين Carlin ومندلوفتز Mendlovitz عن الحبر (اكاخام) **rabbi** ، ودراســة بليذارد Blizzard عن رجل الدين البروتستانتى ••• وغيرها من الدراسات •

وتعد هــذه المحاولة بداية جادة لفهم دور موظف الدين فى أمريكا المعاصرة على الأقل • ومع هــذا ، تبقى بعض العقبات الرئيسية التى تعرقل دراسة الزعامة الدينية • ولا تكمن هذه العوائق فى نقص أو قصور الاطار النظرى للدراسة العــامة للمهن بطبيعة الحال • اذ تقف كل مهنة فى علاقة مع المهن الأخرى ، كما أن كل المهن تنطوى على صفات مشتركة الى حد ما ، وفى نفس الوقت تحتفظ كل واحدة منهــا بخصائص معينة تميزها عن غيرها • ولعل رجال الدين هم أكثر أصحاب تلك المهن تفرداً وتميزا • ومن هنا ، فالمشكلة أساسا هى التساؤل عن القضايا الهامــة المتعلقة بالمقارنات بين هــذه المهن •

ولعل أجدى المداخل لاقتحام هــذه المشكلة ، يكمن فى اعتبار ثلاث مراحل كامنة فى عمليــة الاحتراف المهنى Professionalization وهى مرحلة التعاقد والالتزام ، ومرحلة التدريب ، ومرحلة العمل المثمر وممارسة الدور المهنى • وبالنســبة للتعاقد والارتباط ، نجد الممارسة

متبوعة دائماً بدراسة الأديان المختلفة ، والطريقة التى تسلكها فى تطورها والتحرى عن هـذه الطريقة • ويعد الصراع محور الاهتمام فى الوقت الحاضر ، لأن كثيراً من الجماعات الدينية تعايش هـذا الصراع المستعر بين الرغبة فى الاحتفاظ بالاحساس بالرسالة كمحل أساسى لتأهيل رجال الدين لشغل أدوارهم الوظيفية ، وبين الرغبة فى قبول المرشحين فحسب ، اذا ما كانت الكنيسة تقبل المؤهلات الشخصية ومواصفات الذكاء المحددة•

وقد أجريت بعض الدراسات على مصادر الارتباط بالعمل الدينى ، والعوامل المؤثرة فى الدخول فى زمرة رجال الدين • ومع ذلك ، فمعظم معرفتنا المتاحة ، تنصب على الخصائص الاجتماعية للمرشحين ، مثـل النفوذ النسبى للوالدين ، والأصدقاء ، وتأثير رجال الكهنوت على القرار ، أو تقويمات المرشحين الذاتية لأنفسهم ، فيما يتعلق بدوافع التحاقهم بسلك رجال الدين • وحتى هذه المعلومات القليلة المتاحة ، ليست كافيـة للمقارنة بين الملتحقين بالعمـل الدينى فى الجماعات الدينية المختلفة • علاوة على أن العمليات التى يكتسب بها المنخرطون فى سلك رجال الدين المعرفة والاتجاهات وقيم المهنة من خلال التدريب ، والقيم التى تحكم تطور مناهج الدراسـة بمعاهد الأبحاث ••• كل ذلك لم يلق الاهتمام الشامل من الباحثين •

وقد تكون دراسـة دونوفان وسـيلة لسد هـذه الفجوة ، على الأقل فى معهد البحوث الكاثوليكى الرومانى ، وعند الباحثين فيه • وحتى هـذه الدراسـة — مع ذلك — لا تتعمق فى تناول الأفـكار والقيم والمعتقدات ، ومفهومات الدور الكهنوتى التى يحملها المرشح معه ، وكيف أن هذه العناصر تتعرض فى معهد الدراسة للتعديل والتفسير من جديد • كما أهمل البحث تماما فى مجال العملية التعليمية فى كل المهن • الا أن

الأمل معقود على الدراسات المتوازية فى الوقت الحاضر للتعليم الطبى ، التى يجريها روبرت ميرتون وزملاؤه •

ويقودنا ذلك الى نقطة تحول جوهرية حيث يتولى رجل الكهنوت الجديد الدور المهنى ويواجه أحداث وحقائق الحياة الأبرشية • وقد أدرك الباحثون المختلفون المشكلات المتصلة بهذا الأمر ، وفهموها بطرق مختلفة • فدونوفان على سبيل المثال ، يرى أن المشكلة الرئيسية تكمن فى التكيف الأيديولوجى بين القيم التى تعلمها رجال الدين فى معاهد البحوث وبين تلك التى توجد فى بيئة الأبرشية الحالية • كما يؤكد بليزارد على الصراعات بين ما تدرب رجل الدين على أدائه ، وبين ما يتطلبه منه موقف الأبرشية • وقد حاول فيتشر وجولد شتاين وبليزارد تحديد الأدوار العديدة التى يقوم بها القسيس وراعى الأبرشية Pastor والمدير الادارى ، وتناول بعض لمسات توقعات الدور بين رجال الدين وبين رعايا الكنيسة •

وغاية القول اذن أن هذه الدراسات المتعددة لم تهتم اهتماما مركزاً بالسلطة التى يمارسها الزعيم الدينى على أتباعه ورعاياه • ومن هنا تثار القضية الجديدة القديمة ، التى تدور حول سلطة وسطوة الفكر الدينى فى توجيه السلوك فى المجتمع المعاصر • ومهما كانت السلطة الممارسة سلطة وسطية يمارسها المختص ، الا أن الواضح لنا أنه لا يمكن تجاهل دور هذا الوسيط المختص • ففى الولايات المتحدة فقط ، يحاول رجل الدين الاتصال والتفاهم من خلال برقية أو رسالة يوجهها الى خمسين مليونا من البشر ، على الأقل بمقدار اثنين وخمسين مرة فى العام • وعلى الرغم من تنوع واختلاف المرات ، الا هذه العملية الاتصالية تستمر الآن ، كما استمرت من قبل على مدى تاريخنا • ومع هذا ،

فليس لدينا الأساس الذى نحدد على أساسه أطراف عملية الاتصال فى المجال الدينى ، ولا مبلغ تأثير هـذا الاتصال وآثاره .

٥ — تدين الفـرد :

اذا كان لنا الآن أن ننتقل من مجال رجال الدين الى جمهور الناس ، فاننا نغير اهتمامنا صوب القضايا ذات الطابع الاجتماعى النفسى الغالب . ففى التركيز على الفرد ودينه سوف نعالج ثلاث قضايا ، تتمثل الأولى فى كيفية التمييز بين الأفراد تمييزاً ذا معنى فى ضوء توجيهاتهم واتجاهاتهم الدينية . والثانيـة هى ماذا يجعل الأفراد يميلون الى أنماط التوجيه المختلفة . وتدور الثالثة حول نتائج التوجيهات المختلفة على السلوك .

وليس هناك شك فى أن علماء النفس أكثر اهتماماً من علماء الاجتماع بقضية نتائج التدريب على الأدوار الدينية ، وتشكل مجموعة من المعتقدات الدينية ، والمشاركة فى الطقس الدينى أو عدم المشاركة . ولذلك شهدت العقود الثانية والثالثة من القرن العشرين عدداً لا بأس به من الدراسات التى تتجه صوب تحديد نتائج السلوك الاخلاقى المستمد من توجيهات الدين العديدة . بيد أن نتائج هـذه الدراسات لا تشير من قريب أو بعيد الى آثار أو متتاليات ذات مغزى احصائى .

وعلى الرغم من انطلاق هـذه البحوث من طرق بحث تجريبية فى تصميمها واجرائها ، الا أنها تعرضت لسـهام النقد الشـديدة بسبب استخدام مقاييس قاصرة للتمييز بين الموضوعات والناس من الناحية الدينية . وقد قامت معظم الدراسات باجراء المقارنة بين المترددين على الكنيسة وغير المترددين ، بين خدام الكنيسة بانتظام وخدامها بشـكل غير منتظم ، بين الأطفال الذين تلقوا قدراً من التعليم والتدريب بمدارس

الأحد ، وبين الذين لم يتلقوا هــذا القدر • غير أن الغالب على كل هذه الدراسات أنها لم تخرج باستخلاصات جوهرية ذات بال •

أما مشكلة تطوير التنميط الديني وأنماط التوجيه الديني فقد لقيت اهتماماً حديثا فى هذه الأيام • ولعل دراسة جوزيف فيتشر J. Fichter تعد أكثرها جذبا للانتباه •فهى تنميط لقياس الروح الدينية أكثر منها تمييزا للأفراد فى ضوء احتوائهم فى حياة الكنيســة • وفى هــذه الحالة يتمثل الاحتواء فى الكاثوليك فى الأبرشية الكاثوليكية الرومانية • ولذلك تضع دراسته تنميطاً لأصحاب وأتباع الأبرشية وهى : نمط الأتباع الأفراد وهو أكثرها احتواء ، ونمط الأتباع النموذجيين المثاليين ، ونمط الكاثوليك الهامشيين وأخـيراً يأتى نمط ساكنى الأبرشـية ، وهم النافرون غير المندمجين • غير أن فيتشر لم يشر الى المؤشرات التى نحدد بمقتضاها الأفراد فى هــذه الأنماط • ومن ناحية أخــرى ليست هــذه الأنماط مقارنة ، بمعنى أنها تمييز نظرى ، اما بين الخصائص الاجتماعية للأنماط ، أو نتائج العضوية فى نمط سلوكى ، بدلا من كونها تمييزاً لصور احتواء الكنيسة للأتباع بطبيعة الحال •

ولعل فكرة فيتشر أكثر اتساعا فى ضوء تأكيد الآخرين على أهميتها • فقد طبقتها المدرســة الحديثة للبحث الاجتماعى بنجاح على سلسلة من الدراسات عن حيــاة الأبرشية فى ألمــانيا • كما حاول بنيامين رينجــر B. Ringer تطبيق هذه الفكرة لكى يميز بين درجات مختلفة لاحتواء الكنيسة بين عينة قوية من بين أتباع وأصحاب الابرشيات فى الكنيســة البروتستانتية • وقد ربط رينجر مقاييس الســلوك الدينى الطقوسى عند الأتباع ، وارتباطهم التنظيمى بالكنيسة واعتمادهم الفكرى عليهــا ، لكى يطور تصنيفاً للأتباع الذين تحتويهم الكنيسة •

غير أن مشكلة التنميط لن تحل بطبيعة الحال عن طريق هذه المؤشرات لاحتواء الكنيسة • فهذه المؤشرات قاصرة حتى فى قياس ما ينبغى أن يدخل تحت اصطلاح الخبرة والتجربة الدينية كما يفهمها علماء الدين أو كما يدركها علماء النفس • والحقيقة أنها لا تقدم أسلوباً للتمييز بين كثافة المعتقد الدينى ومضمونه ، أو تمييز أنماط غير المترددين على الكنيسة والقيود التى تعرقلهم عن التردد عليها ، علاوة على عجز المقاييس والمؤشرات عن قياس درجة الاحتواء الدينى للأفراد فى الثقافات غير الأوربية •

ومع ذلك فهى يمكن أن تقدم لنا نوعاً من التجريب عن طريق بعض المؤشرات المختلفة التى يمكن أن تؤدى الى أسلوب أو أساليب قابلة لقياس وتصوير الخبرة الدينية على المستوى التصورى • ومع ذلك ، فان هذا النوع من التجريب هو الذى يؤدى الى طريقة أو الى طرق امكانية القياس — بمؤشرات مختلفة — للخبرة الدينية التصورية •

ولعل ما يوضح قصور مفاهيمنا التصورية المعاصرة ، هو الصعوبة الكامنة فى محاولة تحديد كيفية غلبة الطابع الدينى على مجتمع معين سواء فى فترة معينة أو على مدى الزمن • وقد أقيمت العديد من المناظرات فى الولايات المتحدة — على سبيل المثال — حول مغزى احياء التأكيد الواضح على أهمية الدين فى هذا المجتمع • ولكننا ليس لدينا فى نفس الوقت طريقة للقياس ، وبالتالى معرفة طبيعة الشىء المنبعث من جديد • وليس لدينا كذلك طريقة تفسير معناه ، أو اكتشاف السر فى هذا الاحياء •

يضاف الى ذلك ، أن افتقاد الاجماع العام على التعريفات ، وسذاجة مؤشرات الأنماط المتباينة للتوجيه الدينى ، قد عرقل اكتشاف الظروف السابقة على ظهور الأشكال العديدة للتعبير الدينى بدقة •

غير أن هناك بعض الاهتمام بفحص معاملات الارتباط الاجتماعية للفروق والاختلافات فى مقاييس الروح الدينية كالانتماء الى الطائفة ، والمداومة على أراء الطقوس والممارسات الدينية فى الكنيسة •

وقد أجريت كثير من المقابلات المتعمقة حول بحث العلاقة بين هذه العوامل كالجنس والسن والمهنة والتعليم ، وبحث الانتماء الى طائفة دينية ، والمداومة على الحضور الى الكنيسة واجتماعاتها الدورية ، والمعتقدات الدينية التى يمكن التعبير عنها • وقد أولت معظم تلك الدراسات اهتماماً رئيسياً بارساء العلاقة بين الدين والطبقة الاجتماعية •

والملاحظ على حجم التراث العلمى المكتوب حول هذا الموضوع ، أنه يتدرج من أكثر الدراسات والمقالات الكيفية على المجتمع المحلى ، الى أكثر المحاولات الكمية لارساء العلاقة بين الانتماء الطائفى وبين الوضع الطبقى •

وتعد الاختلافات الطبقية فى السمات الدينية موضع اهتمام رئيسى فى مناقشة تنميط الطوائف الكنسية ، كما أوضحها نيبور Nibuhr فى دراسته عن كيفية أداء القيم الدينية — عند من يسمون بالعصاميين والطبقات الوسطى — فى المجتمع الأمريكى الى نظام الطوائف عند الفئة الأولى ، ونظام النشاط الدينى الكنسى عند الفئة الأخرى •

واذا راجعنا كل الشواهد المقدمة ، فانها لا تقدم لنا معلومات مفصلة عن تدين الرجل العادى • ان الحقيقة التى مؤداها أن الكنيسة مؤسسة أكثر صمتاً وهدوءاً نسبياً ، بالنسبة للنساء أكثر من الرجال ، والأشخاص المسنين أكثر من المحدثين ، وأن الطوائف المختلفة يمكن تمييزها من خلال الوضع الطبقى النمطى لأعضائها ، كل ذلك عبارة عن

معلومات بدائية أساسا ، وتنفع بالدرجة الاولى فى تحديد أهمية بعض المتغيرات ، لمراعاتها فى اجراء الدراسـات المكثفة على الفرد وتدينه • ومع ذلك فهى لاتسهم فى حل المشكلات المعقدة لايجاد الوسائل اللازمة لتمييز أنماط التوجيه الدينى ، أو توضيح العمليات التى تؤدى بالفرد الى تبنى بعض التوجيهات دون الأخرى •

وعلى الرغم من تقديم التراث العلمى لبعض الامكانيات ، فليس واضحاً لنا كيف يمكن حل هـذه المشكلات بطرق أكثر كفاءة • وهناك اشارات عديدة فى علمى الاجتمـاع والنفس الى أن المعتقدات الدينية ، والارتباط بتنظيمات دينية ، وما شاكل ذلك من وظائف تزويدنا بالمعنى فى التجربة والخبرة — تمكن الفرد من التواؤم مع أزمات الحياة ، وتشكل صورة للمكانة الدينية ، عندما يغيب الشعور بالمكانة الاجتماعية •

ومن هنا فلابد أن نقرر فى البداية بعض الحقائق العامة بالاستعانة بمثل هـذه الآراء والأفكار البسيطة والأولية ، والاستمرار فى محاولة التحديد الملح — نظريا — لانواع وظائف المعتقدات الدينية بالنسـبة للأفراد فى مختلف الظروف • وقد يمـكن الاقتراب من هـذا المدخل امبريقياً فنبدأ به ولو بطريقة مبسطة • فقد نتمكن عن طريق المقابلات المتعمقة مع عدد من أصحاب الأبرشيات الصغرى عند فيشتر من تحديد درجة التمجيد والتعظيم التى يستمدونها من احتوائهم الكامل فى حياة الأبرشية • وحينذ قد تساعدنا كل المقابلات المكثفة والمتعمقة — مع أصحاب وأتباع الأبرشيات الذين تصنفهم الدراسة التنميطية كالمثاليين والهامشيين والمقيمين — على اكتشاف ما اذا كانوا يشعرون ويجربون نفس أنواع الحاجة بنفس الدرجة • واذا كان الأمر كذلك ، فما دواعى وأسـباب احتواء الكنيسة الكامل كوسيلة لاشباعهم • وعند تأمل هـذه المعلومات

فى سياق الموقف الاجتماعى للفرد ، قد يؤدى ادراكها الى تهذيب التنميط وتنقيه ، وبالتالى تبصيرنا بالعوامل التى تحكم هذا الاحتواء ، وفى النهاية تزويدنا برؤى جديدة بعيدة النظر حول الدور المجتمعى للكنيسة

ان القيمة الحقيقية لهذا المدخل تتمثل فيما توصل اليه رينجر من نتائج فى دراسته • فقد وجد ــ على سبيل المثال ــ أن أصحاب الأبرشيات وأتباعها الذين يعيشون بلا زوجات ولا أطفال هم أكثر احتواء فى حياة الكنيسة ، من أولئك الذين يعيشون مع أسرة صغيرة تضم الزوجة والطفل • وتنعقد العلاقة وتتدعم عندما تنسجم بعض المتغيرات الكاشفة ــ كما سبق • فالعزاب أكثر ارتباطا واحتواء لحياة الكنيسة من غيرهم •

وتبين النتائج أيضا أن نسوة الأبرشيات ذوات المكانة الاجتماعية المنخفضة هن أكثر احتواء وأعمق فى درجة الاحتواء ، من أولئك اللائى يتمتعن بمكانة اجتماعية عالية • وتخلص الدراسة الى أن الكنيسة تحقق أمن المكانة للنساء الاعضاء فيها من ذوات المكانة المنخفضة ولاسيما أولئك اللائى يعشن فى مجتمعات محلية ذات مكانة عالية ، حيث يلعب التمايز الطبقى دوره الواضح فى تحديد وتقييد قابليتهن للتوجيهات العلمانية • وتشير هذه النتائج المتواضعة الى قيمة المدخل الذى يفهم الكنيسة على أن لها أداء وظيفياً متعدد الجوانب ، ومتنوع الأنواع فى المضون الدينى ، ويشبع الاحتياجات المطلوبة لأعضاء من خارجها ، وبدرجات مختلفة •

وعندما نعود الى تناول النتائج السلوكية للتوجيهات الدينية المختلفة والتى سبق دراستها تقريبا فى الثلاثينات نجد أنها عرقلت المحاولات اللاحقة لدراسة الآثار الدينية للتدريب والمعتقدات الدينية على السلوك الأخلاقى •

ومع ذلك فقد تطرقت بعض الدراسات لتناول العلاقة بين مقاييس تحديد الهوية الدينية والاتجاهات نحو الشئون السياسية والاجتماعية والاقتصادية • وتخلص الى فكرة ضمنية مؤداها أن المعتقدات الدينية قد يكون لها تأثيرات على القيم التى تحكم صور ادراكنا للعالم الاجتماعى• وقد أيدت معظم دراسات التصويت الانتخابى النظرة الشائعة عن العلاقة الايجابية بين الانتماء الطائفى وبين التصويت للحزب •

فمن المعروف أن الكاثوليك أكثر ديمقراطية فى الأصوات من البروتستانت ، وهى علاقة قائمة حتى ولو تحكمنا فى المكانة الاجتماعية الاقتصادية وبعض المتغيرات المستقلة الأخرى المرتبطة بها • ومع ذلك فالأكثر أهمية أن الكاثوليك الذين يعتبرون أنفسهم أوثق ارتباطا بكنيستهم ، هم أكثر تصويتاً للديمقراطيين على الرغم من أن البروتستانت النشطاء لا يصوتون للجمهوريين أكثر من البروتستانت غير النشطاء • وتكثر الردة والانسحاب من حزب الى آخر بين الكاثوليك الذين خططوا فى الحملة الانتخابية للتصويت للحزب الجمهورى ، وبين البروتستانت الذين قصدوا أساساً التصويت للحزب الديمقراطى •

وقد نفذ رينجر وجلوك Glock فى أعماق العلاقة بين درجات الاحتواء الكنسى وبين ادراك أصحاب وأتباع الأبرشيات الأسقفية لمسئولية الكنيسة نحو اسهامها البارز بدور أساسى فى الشئون السياسية • وقد وجد الباحثان أن أكثر أبناء الأبرشيات احتواء فى الكنيسة ، هم الأقل تصريحاً باتجاهاتهم نحو مشاركة الكنيسة فى السلطة، وبالتالى بذل المزيد من الجهد من أجل خلاص الأرواح ونجاة الفرد •

وتبدأ هذه النتائج فى التعامل مع مشكلات تحديد نتائج المعتقدات الدينية أو الخبرة أو احتواء الكنيسة للأنشطة المتنوعة التى يمكن من

خلالها ممارسة نفوذها • ولعل البحوث الدقيقة المتأنية على آثار الدين فى أهداف الحيـــاة وأغراضها ، وتقدير قيمة الذات والسلوك الأخلاقى ، والصحة العقلية وفهم وادراك العوالم الاجتماعية ••• ينبغى أن تنتظر حتى تظهر الأطر التصورية القادرة على قياس التجربة الدينية ذاتها •

٦ — الدين والمجالات النوعية للحياة الاجتماعية :

لا شك فى أن المراجعة المنهجية للقضايا الهامة التى تدور حول محاور الدين والنظــام الاقتصادى والكنيسة والدولة ، والدين والسياسة ، والدين والأسرة ، تتطلب موضعا أكثر اتساعاً من هــذا المجال • بيد أن هــذا لا يمنع من الاشارة اليها على قدر الامكان •

يأتى على رأس هــذه القضايا والتساؤلات ، الاهتمام بفهم التفاعل بين الأفــكار الدينية التى يمارسها غير المتدينين ، مثلهم فى ذلك مثــل المؤسسات الدينية نوعاً ما ، وكذلك القيم الســائدة فى المؤسسات والنظم العلمانيــة فى المجتمع • ولم يبــذل مجهود سوسيولوجى فى هــذه الموضوعات حتى الآن خاصة بالاشارة الى مسرح الأحداث المعاصرة •

أما بالنسبة للعلاقات التبادلية بين الافكار الدينيــة والمصالح الاقتصادية ، فقد أشار ينجر B.yinger — فى دراســته عن الدين والكفاح من أجل القوة — الى القرب الوثيق للتعامل مع هــذا الموضوع وذلك من خلال تحليل الضغوط المتعددة والمتداخلة الواقعة على المنظمات الدينية لكى تقيدها عن ممارسة سلطتها على الحياة الاقتصادية بصــفة خاصة ، والشئون العلمانية بصــفة عامة •

وعلى المستوى التاريخى ، هنــاك دراسات رائدة بطبيعة الحال ، ومنها مثلا دراســة ماكس فيبر ، والدراسات المونوجرافية الرائدة عن الدين والتى انطلقت منها أساساً • ومع ذلك ، فلم يقدم الباحثون على

تقييم دراسة فيبر ، خاصة وأنها تربط بين الدين والنظام الاقتصادى فى المجتمع المعاصر ، بعلاقة وثيقة • ومن الحقيقى فعلا — وكما أشار ينجر — أن الأفكار الدينية فى المجتمع الغربى المتجه نحو العلمانية باطراد ، ليست سلبية بالنسبة للقيم الاقتصادية كما كانت الظروف فى الماضى • ومع ذلك فلم تنكسر الحلقة كلية • ولعل عمليات التغير الاجتماعى السريعة التى يشهدها المجتمع والثقافة فى الوقت الراهن ، كفيلة بالحث على اجراء الدراسات والاستمرار فيها •

أما عن علاقات الكنيسة بالدولة ، فان التراث العلمى المتوفر عنها تاريخى أكثر منه سوسيولوجى معاصر • وهذا حقيقى بالنظر الى القضية المتعلقة بالتداخل بين الدين والسياسة والتفاعل بينهما • وتشير دراسات الانتخاب والتصويت الى لمسات من القضية الاجتماعية النفسية الخاصة بتأثير الهوية الدينية على القرارات السياسية الفردية • وسوف تسهم دراسات ليبست Lipset وزملائه بالفعل فى تناول وحسم القضايا الخاصة بالروابط القائمة بين الدين والأيديولوجيا السياسية ، وبين الكنيسة والأحزاب السياسية •

وفيما يختص بالتراث السوسيولوجى عن الأسرة ، فاننا لا نهمل موقع الدين فى حياة الأسرة ، ومدى تأثيره فى الحفاظ على المعايير التقليدية التى ينطوى عليها الزواج والطلاق والحياة الجنسية ونمو الطفل ••• الخ • وهناك عديد من الاشارات الى هذه القضايا ، مثل الزواج الداخلى ، والدين والطلاق ، والدين والجنس • ومعظم كتب المدخل عن الأسرة تتضمن فصلا — على الأقل — عن الدين •

وتجدر الاشارة الى أن دراسة الدين وارتباطه بنظم المجتمع الأخرى ، تبدو دراسة محورية فى علم الاجتماع الدينى ، الذى لم يلق اهتماماً كبيراً حتى الآن • ولعل سبب هذا الاهمال النسبى يكمن فى

سوء فهم علماء الاجتماع الأمريكيين للدين ، وتصورهم الخاطىء بأنه لم يعد يمارس نفوذا جوهريا على الحياة الاجتماعية ، ومن ثم حذفوه من خريطة البحث والدراسة فى الوقت الراهن • وقد يحمل هذا الفهم بعض الصدق ، وخاصة فى المجتمع الغربى على الأقل ، ولاسيما من المنظور التاريخى • فمن المعروف أن الدين قد مارس نفوذه — فى صورته الكنسية — فى كل مناحى الحياة كالتعليم والرفاهية الاجتماعية والترويح والقانون والضبط الاجتماعى ••• الخ • بيد أن الهيئات والنظم العلمانية المتزايدة فى المجتمع الغربى المسيحى حاليا ، قد سحبت من الكنيسة كل هذه الوظائف وجردتها منها ، ومن هنا تضاءل الاهتمام بالاجتماع الدينى بعض الشىء •

ولكن هل اكتملت عملية العلمنة ؟ ان المسلمة الضمنية التى نخلص بها من هذه المناقشات هى أن هذه العملية لم تكتمل بعد • وفى واقع الأمر ، أننا اذا نظرنا الى النتيجة المناقضة — وهى عدم اكتمال أو فشل العلمنة — وبالتالى فالحل أمامنا هو ترشيد وتطوير الاطار التصورى الكفء ، لدراسة دور الدين فى المجتمع المعاصر • وبدون ذلك فلا يتيسر أن نتتبع الطرق والأساليب التى لازالت الأفكار الدينية تمارس من خلالها نفوذها فى طبيعة الحياة الاجتماعية ومجراها •

٧ — استخلاصات :

اذا كان علم الاجتماع حديث النشأة نسبياً • ولم تتكامل اسهاماته وتنضج نضجا كافيا ، فان علم الاجتماع الدينى هو الآخر لا يخرج عن هذه القاعدة • فليس لدينا الا القليل من المعلومات العلمية الدقيقة عن سلطة ونوعية نفوذ الدين فى المجتمع المعاصر • ومع ذلك فان المستقبل يبشر بثراء دراسات هذا الفرع الوليد وتعددها •

ولعل ما يؤيد هذا التفاؤل ، هو زيادة حب استطلاع علماء الاجتماع للدين وتقدير أهميته • وبالتالى تمثل هذه الزيادة بعثاً للاهتمام بالدين ، وكما سبقت الاشارة يضاف الى ذلك أن حب الاستطلاع يمثل ديناميته للابتكار والتجديد فى هـذا العلم ، وتشجيعاً للمشتغل به ليعرف مكان الدين فى المجتمـع • واذا كانت الكنيسـة فى الغرب تجهض محاولات الدراسين — ذوى التدريب الدينى والتأهيل الاجتماعى — للدين ، فان هـذا الكف والتعويق قد انتهى ، كما أن علم الاجتماع الدينى نفسـه أصبح يفرض نفسـه على السـاحة ، وصارت تعقـد حلقات البحث واللقاءات العلمية لتطويره •

ولهذا التفاؤل أسـباب ، منها على مسـتوى النظرية العـامة أن « بيلاه » يقدم نموذجا للدراسة النظرية للدين ، يوضح فيه أننـا بصدد انطلاقة متقدمة صوب فهم وظائف الدين فى المجتمع المعاصر • كذلك هناك شواهد هامة تقدمها الدراسـة الحالية للشكل البيروقراطى للتنظيمات الدينية • ولكن ازدهار الدراسـة فى علم الاجتماع العام ، سوف تؤدى بنا الى الاعتقاد بأنهـا مسألة وقت فقط ، وبعدها مباشرة تكون الدراسـة المتخصصة للتنظيمات الدينية • ويمكن القول باجراء نفس الدراسة على رجال الدين كاحتراف مهنى على الرغم من أننا قد أولينا التاريخ الزمنى أهمية تفوق دراسة البيروقراطيات الدينية •

ومن المتوقع مستقبلا أن تزدهر دراسـة الدين مع ارتباطه بعلم النفس الاجتماعى أكثر من ارتباطه بعلم الاجتماع • اذ أن تطور مناهج دراسـة الجماعات الصغيرة فى العقود الأخيرة ، مثل تكنيكات المقابلة ، والبحث المسحى ، وأفكار التحليل ••• الخ • يمكن تطبيقها على دراسات علم النفس الاجتماعى للدين • وعلى الرغم من أن المناهج ذاتها لا يمكن

أن تزودنا بالأفكار التصورية ، الا أن قابليتها للصدق توسع مجال وأفق الامكانيات لاجراء العديد من الدراسات .

ولكن دارسى علم الاجتماع الأمريكيين المعاصرين أقل تفاؤلا حول امكانية توجيه المزيد من الاهتمام لدراسة التفاعل بين الدين وسائر النظم والمؤسسات المجتمعية فى الولايات المتحدة على الأقل . فللآن لم يطرح شىء ولم يقدم شىء عن العلاقات المتداخلة بين الافكار الدينية وبين قيم النظام الاقتصادى ، مثلا ، أو علاقات الدولة بالكنيسة . واذا بدأ علماء الاجتماع فى تناول الأفكار الدينية فى سياق علاقاتها التاريخية بالقيم السائدة فى المجتمع العام ، فلسوف يتقدم علم الاجتماع الدينى وتتطور بحوثه .

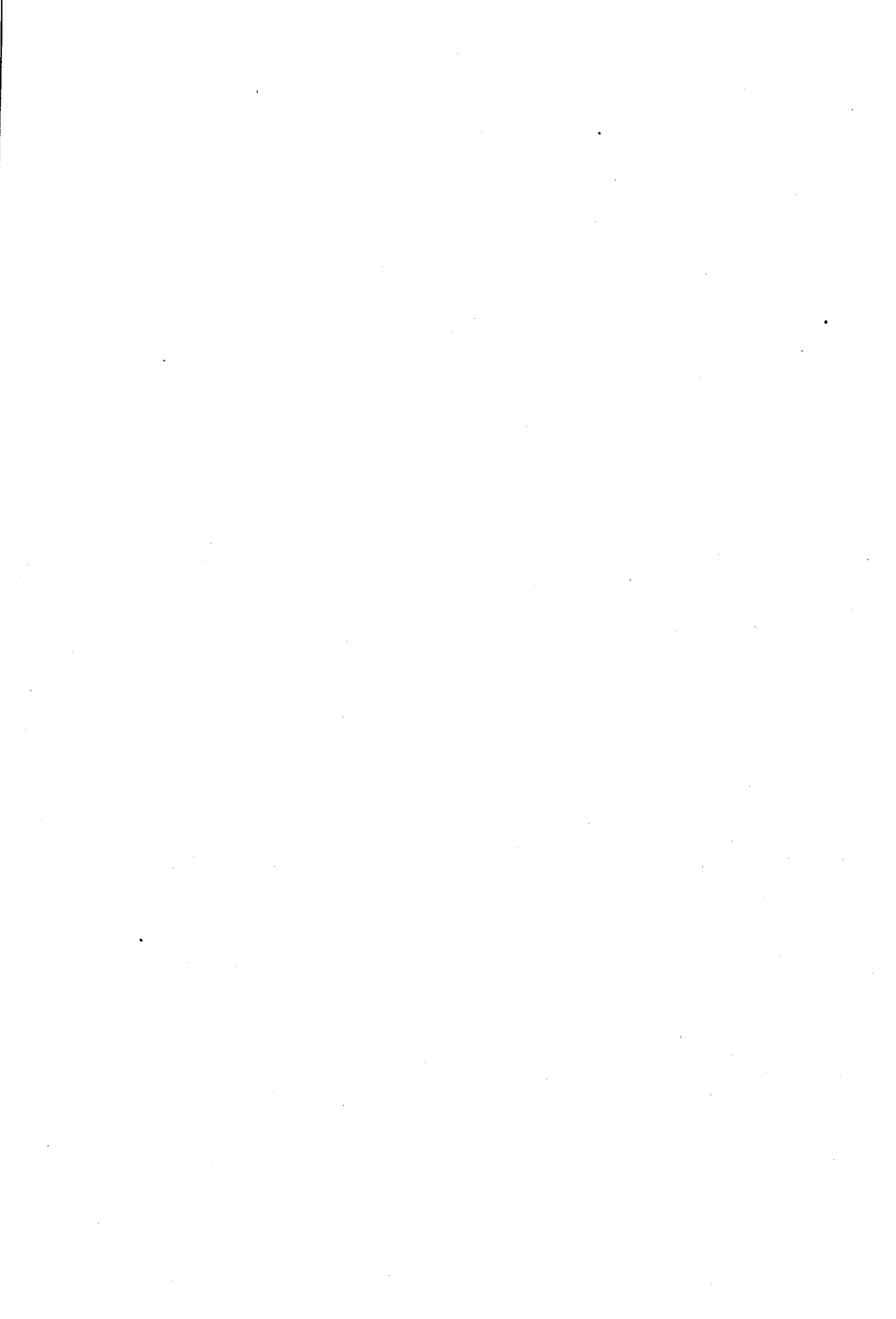
والنقطة الأخيرة هى خطأ الاعتقاد بأن سوسيولوجيا الدين تمثل منطقة التخصصات السوسيولوجية فى الدين . فالمشكلات الهامة فى المجال هى وثيقة الصلة — وبدرجات مختلفة — بفروع علم الاجتماع الأخرى ، كما أن بعضها يمكن دراسته من زاوية نظر العلوم الأخرى بالتقريب . وبالتالى فان الاسهام فى نمو هيكل المعرفة الذى يشمل علم الاجتماع الدينى — من بين العلوم — لا نتوقع أن يتراكم فقط من دراسات المتخصصين ، وانما لا بد أن يساعدهم المنظرون الاجتماعيون ، ودارسو البيروقراطية وعلماء الاجتماع المهنى، وتعاون علم النفس الاجتماعى معاً .

الفصل السادس

خاتمـــــة وتلخيص : محاولة لبلورة وتحديد موضوع علم الاجتماع الدينى المعاصر .

أولا : علم الاجتماع الدينى الكلاسيكى :

ثانيا : فهم جديد لعلم الاجتماع الدينى :



الفصـــل السادس

خاتمـــــة وتلخيص :

محاولة لبلورة وتحديد موضوع

علم الاجتماع الدينى المعاصر ٠

ان علم الاجتماع الدينى فرع حديث ، مازالت الآراء تختلف حول تحديد ماهيته وأهدافه ومناهجه ٠ وقد زعم أولئك الذين تناولوا ميـــدان علم الاجتماع الدينى بالدراسة بعد الحرب العالمية الثانية أن هــذا الفرع قد شهد بذلك نقطة تحول تاريخية من اجتماع دينى قديم أو «كلاسيكى» ، الى علم اجتماع دينى حديث ٠ ومجرد هذا القول بتحول تاريخى فى ميدان علم الاجتماع الدينى يعنى مقدما وجود خلاف بين ممثلى المرحلتين فى تحديد مفهوم ومناهج هــذا العلم ٠ وسوف نناقش فيما يلى بالتفصيل ما اذا كان هناك تحول أساسى فعلا ، أم أن ما حدث هو مجرد تعديلات فى موضوع الدراسة بما يترتب على ذلك من تغييرات فى المنهج دون أن يحتم ذلك القول وجود تحول تاريخى أســاسى فى كيان العلم ، وانما هو مجرد اضافة وتخصيص للاهداف العلمية لهذا الاجتمــاع الدينى « الأقدم »[١] ٠

أولا : علم الاجتماع الدينى الكلاسيكى :

يمكننا استعراض ماهية وأهداف « علم الاجتماع الدينى القديم »

---

(١) اعتمدنا فى عرض هذا المبحث على المصدر التالى : محمد الجوهرى وزملاؤه ، دراسة علم الاجتماع ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ، القاهرة، ١٩٧٥ ٠ فصل بعنوان « علم الاجتماع الدينى » ٠

على النحو الأمثل من واقع الدراســة السريعة لأهم ممثليه ، واستعراض تاريخه • فقد شــهد القرن التاسع عشر اتجاها جديدا يسعى الى تفسير الدين وفهمه فى ضوء الظروف الاجتماعية • وقد ارتبط هــذا الاتجاه الجديد بوضــعية أوجست كونت ، الذى كان يعتبر الدين وظيفــة من وظائف المجتمع •

ولقد كان أحد التصورات الأساسية التى أقام عليهــا كونت مهمة علم الاجتماع ما أطلق عليه « قانون المراحل الثلاثة » • وطبقــا لهذا القانون يمكن القول أن الفكر الانسانى قد تطور تاريخيا وبالضرورة — فى رأى كونت — من المرحلة الثيولوجية (المجتمعات البدائية والقديمة) الى المرحلة الميتافيزقية (مجتمعات العصــور الوسطى) حتى وصــل الى المرحلة الوضــعية (المجتمعات الحــديثة التى بدأت منــذ القرن التاسع عشر) •

والملاحظ أن كونت قد نظر الى التفكير الثيولوجى بوصفه خطأ عقليا ما لبث أن تبدد وتلاشى بظهور العلم الحديث ، ثم تتبع — داخل المرحلة الثيولوجية — تحول التفكير من الأنيميزم **Animism** حتى الوحدانية مفسرا المعتقدات الدينية تفسيرا سيكولوجيا فى ضوء العمليات الادراكية التى كانت لدى الانسان القديم •

وقــد قامت الأدلة والبراهين على خطــأ كثير من قضايا كونت وتخميناته ، خاصة الفكرة التى يعبر عنها فى قانون المراحل الثلاثة هــذا • فدراسات التطور الاجتماعى ، والتغير الاجتماعى بعد ذلك ، قد أوضحت بما لا لبس فيه أن أساليب الفكر (الدينية والفلسفية والوضعية) تتجاوز فى كل أنواع المجتمعات ، وأنهــا لا تتعاقب بالصــورة الساذجة التى كان يتصورها • كما كان كونت ميتافيزيقيا مفلسا ، لأنه اعتقد أنه قضى على

امكان قيام ميتافيزيقيا • كذلك كان مفكرا دينيا مفلسا ، فمع أنه أعتقد اعتقادا جازما بعد ذلك أن الدين واحد من دعامات المجتمع ، التى لا تقوم للحياة الاجتماعية قائمة بدونه — مؤكدا بذلك الحاجة العامة للدين — الا أنه لم ينجح فى وضع هذه الأفكار اللاحقة فى سياق تصوراته الأساسية(٢) •

ثم أصبحت المدرسة الفرنسية فى علم الاجتماع التى أسسها أميل دوركايم ذات تأثير كبير فى هذا الميدان • ويرى دوركايم أن الدين يبدو فى الميثولوجيا ، التى تتضح فيها أحاسيس يرجع مصدرها الى المجتمع • ويقول دوركايم : « لقد أوضحنا القوى الروحية التى يطورها المجتمع ، وكيف أنه يذكى هذا الاحساس بالتساند والمحافظة والتبعية الحامية التىتربط المؤمن بعبادته »(٣) وهكذا تنبثق جميع النظم الاجتماعية عن الدين ، وهذا الدين بدوره نابع من المجتمع • واذا كان دوركايم يرىفى تحليله للنظام التوتمى الاسترالى أن التوتم يمثل بديلا للمجتمع المؤثر ، ومن ثم يعتبره ذلك الكيان المقدس المقصود فى الدين ، فاننا لا نستطيع فى ضوء الدراسات المعاصرة أن نوافق جيمس فريزر **Frazer**

---

(٢) انظر مناقشة وافية لآراء أوجست كونت فى ، تيماشيف ، نظرية علم الاجتماع ، مرجع سابق ، صص٤٣ — ٦٢ .

(٣) انظر مؤلف دوركايم الرئيسى فى علم الاجتماع الدينى ، والمعنون : الاشكال الاولية للحياة الدينية :

E. Durkheim Les Formes élémentaires de la vie religieuse, Paris, 1912.

ويحاول دوركايم فى هذا الكتاب من خلال تحليله للنظام التوتمى فى استراليا أن يثبت أن الدين يمثل تعبيرا عن شعور الرهبة البدائى الذى يشعر به الانسان تجاه المجتمع . انظر مقال منشنج السابق الذكر ، دراسة علم الاجتماع ،ص ٤١٠ .

على شجبه الطابع الدينى للنظـام التوتمى(٤) أما بالنسبة للاسهامات الاساسية فى نظرية دوركايم عن الدين فقد ذهب الى أن كل المجتمعات تعرف التفرقة بين الأشياء « المقدسة » والأشياء « الدنسة » أو العلمانية فالدين — وجهة نظره — « نظام موحد للمعتقدات والممارسات المتعلقة بالأشياء المقدسة ، أى الأشياء التى يتعين تجنبها وتحريمها • ووظيفة المعتقدات والممارسات السائدة فى مجتمع معين هى التوحيد بين أولئك الذين يؤمنون بها » •

ومن هنا يتضح أن دوركايم قد أكد فى نظريته الجوانب الجمعيـــة للدين تأكيدا واضحا • فوظيفة الطقوس الدينية هى تأكيد السمو الأخلاقى للمجتمع وسيطرته على الأفراد ثم تحقيق تضامن المجتمع • ولقد شن دوركايم فى الجزء الاول من كتابه هجوما عنيفا على أعمال علماء الانثروبولوجيا والاجتماع الأوائل ، ذاهبا الى أن التفسيرات التى قدموها للدين كانت تفسيرات سيكولوجية (أى مستندة الى عواطف الأفراد) ، وأنها لم تكن تفسيرات سوسيولوجية على الاطلاق •

واذا ما فصلنا تفسير دور كايم الفلسفى لنشأة الدين ، ثم فصلنـــا ررفضه لدور علم النفس فى فهم الظواهر الدينية ، فاننا سنجد دوركايم قد قدم تحليـــلا وظيفيا للدين ينطوى على فائدة محددة ، وان كانت

(4) J. Frazer, Totemism and Exogamy, London, 1910, 5th ed. 1935.

وانظر كذلك حول نفس الموضوع :

J. Hapkel , « Totemism » , in : Religion in der Geschichte und Gegenwart, 3. Aufl., Vol. VI, Colm., 954.

حيث يقول : « ان التوتمية ليست دينا ، ولكنها يمكن فى بعض الاحيان — وبدرجات متفاوتة — أن تتصف ببعض العناصر الدينية » •

محدودة • ولقد أوضح الأنثروبولوجيون اللاحقون أمثال مالينوفسكى ورادكليف براون فى دراساتهم الميدانية كيف أن الدين يمارس وظيفـــة هامة فى المجتمعات البدائية هى تدعيم التماسك الاجتماعى وضبط سلوك الافراد • والواقع أن تفرقة دوركايم بين الطقس والمعتقد قد انطوت على فوائد عظيمة ، لأنها حولت اهتمام الأنثروبولوجيين من مجرد شرح الافكار الدينية وتحليلها الى محاولة ملاحظة السلوك الدينى ووصفه(٥) •

وقد ظلت هـــذه النظرة السوسيولوجية طاغية حتى أوائل القرن العشرين على البحث التاريخى بصفة عامة • وهو الرأى القائل بتفسير جميـــع الأحداث من حيث علاقتها بالظروف الاجتماعية ، التى تتحدد بدورها بالظروف الاقتصادية وتوزيع السلطة السياسية الى حد كبير • وتطبيق هـــذا الرأى على تاريخ الأديان يعنى محاولة ارجاع الظواهر الدينية نفسها ــ حتى فى مظاهرها التاريخية وما مرت به من تغيرات ــ الى الظروف الاجتماعية ، والأزمات والضرورات الاقتصادية ، وفهمها من خلال ذلك • على أنه ليست هناك محاولة شاملة من هـــذا النوع ، وانما هناك محاولات جزئية فقط • نذكر منهـــا على سبيل المثال بعض الدراسات التى حاولت تفسير المسيحية • ويعتبر كاوتسكى أشهر ممثلى المذهب الذى يقول بتبعية الدين للفروق الطبقية القـــائمة على أسس اقتصـــادية • وقد حاول كاوتســـكى فى كتابه عن « أصل المسيحيه » (الصادر عام ١٩٠٨) • اثبات أن المسيحية ليست سوى حركة جماهيرية قامت بها الفئات الفقيرة • ويرى أنه حدث فيما بعد أن استغلت الطبقات

---

(٥) انظر بوتومور ، تمهيد فى علم الاجتماع ، مرجع سابق ، صص٣٦٤ ــ ٣٦٦ ، وانظر كذلك الفصل الذى عقده راد كليف براون بعنوان « الدين والمجتمع » فى كتابه « البناء والوظيفة فى المجتمع البدائى » الذى ســـبقت الاشارة اليه .

المالكة هـذه الحركة الجماهيرية لخـدمة مصالحها ، ومن ثم عدلت من عقيدتهـا ومن أخلاقياتها بمـا يتفق وذلك • وقد أبـدى ماورنبرشر Maurenbrecher آراء مشابهة اذ حاول أن يفسر المسيحية فى ضوء علم النفس الجماهيرى • (٦) والفكرة الأساسية هنا وهناك هى الرأى الخاطىء تاريخيـا تماما الذى يرى فى الدين تعبيرا عن ظروف وقوى اجتماعية ووظيفة لها • وقد يطلق البعض على هذه النظرة علم الاجتماع الدينى ، وعلى أسلوبها المنهج السوسيولوجى الدينى •

وهناك انتقادان يمكن أن يوجها الى هـذا النوع من علم الاجتماع الدينى ، هما : — •

ان عدم فهم هـذا الاتجاه لحقيقة الدين — اذ ينقله الى حيز الحياة الدنيا تماما ومن ثم يعتبره وهما خالصا — يؤدى الى القول بوجود تأثير حقيقى فى الدين التاريخى من جانب الظروف الاجتماعية • ثم يعتبر هـذا التأثير المنبع الذى يحدد طبيعة الدين نفسـه • ان من أهداف علم الاجتماع الدينى — كما نفهمه هنا — دراسته مثلا تأثير الظروف الاجتماعية فى المراحل الأولى للدين وعلى أتباعه الأوائل فى تحديهم للدين نفسه • وسنعرض من ناحية أخرى لجانب من موقف الدين من المشكلات الاجتماعية فى عصره وعالمه • ولكن أن نعتبر هـذا التأثير المتبادل هو جوهر الدين وكيانه ، وأنه يخضع فى صـورته الأولى لهـذه المؤثرات والاتجاهات الاجتماعية ، وأن نعتبر جميع الخصائص الجوهرية الأخرى — مثـل الايمان بالله والشـعائر — مجـرد اضافات ثانوية وهمية : ان هـذا انما يسلب الدين روحه حقا •

---

(٦) انظر مقال منشنج « علم الاجتماع الدينى » فى كتاب محمد الجوهرى وآخرون ، دراسة علم الاجتماع ، مرجع سابق ، ص ٣٩٦ ، وكذلك ص ٤١٠ •

ولذلك نؤكد ترتيبا على ما سبق : ان علم الاجتماع الدينى لا يمكن أن يقوم على تفسير ظاهرة الدين الشاملة المعقدة وتفسير تاريخ الأديان تفسيرا نظريا من واقع عناصر جزئية من هـذا المركب الظاهرى • ومن شـأن مثل هـذه المحاولة أن تقودنا حتما الى تصوير الموقف بطريقة مشوهة ومتميزة ، لأنها تقلب الظروف التاريخية تماما •

وعلاوة على هـذا فان البحث التاريخى يدحض هـذه النظريات السوسيولوجية • وقد أكد أرنسه ترولتش E. Troeltsch بصـدد الحديث عن المسيحية ــ وبالاشارة الى محاولات التفسير السوسيولوجية هـذه ، أكد بحق أن « علينا أن نؤكد ازاء هـذا أن المسيحية هى بالدرجة الاولى حركة دينية مستقلة ، تنبع من فكرة دينية متميزة • وتوضح لنـا هـذا حقائق التاريخ المسيحى القديم • ولو أن الانجيل كان بالدرجة الأولى انجيلا للفقراء ، بشر به حبا فى الفقراء • ولكن لم يكن هدف ذلك القضاء على الفقر وتخفيف وطأة الفاقة ، أو السلوى على الفقر بالحياة فى الآخرة • فليس الموضوع هنا هو الفقر من أجل الفقر فى حد ذاته ، وانما الفقر بسبب ما يضفيه على داخلية الانسـان من شفافية لتلقى النفحة الربانية » • (٧) ولهذا ليست المسيحية ولا أى ديانة سـماوية منزلة حركة جماهيرية مرتدية ثوب الدين ، وقابلة للاحالة الى ظروف اجتمـاعية(٨) •

---

(٧) انظر ، ارنست ترولتش ، مقالات فى التاريخ الفكرى وعلم الاجتماع الدينى ، المجلد الرابع ، ص ١٢٢ . نقلا عن منشنج فى دراسة علم الاجتماع مرجع سابق ، ص ٣٩٧ .

(٨) المرجع السابق لترولتش ، ص ١٢٤ .

ثانيا : فهم جديد لعلم الاجتماع الدينى :

لا هكذا نفهم علم الاجتماع الدينى ، اذ أن ذلك معناه تحويل هدف من أهداف البحث فى الاجتماع الدينى الى الموضوع الرئيسى الوحيد لدراستنا • ويعنى هـذا أيضا ــ علاوة على التضييق والتميز ــ نظرة خاطئة الى طبيعة الدين نفسـه ، الذى تفسر نشـأته فى ضـوء تلك الظروف الاجتماعية •

ولكننـا نفهم علم الاجتماع الدينى على أنه : دراسـة الظواهر الاجتمـاعية فى ميدان الدين والعلاقات الاجتمـاعية للدين فى الداخل والخارج • وينطوى هذا التعريف العام الموجز على بعض العناصر التى نعرض لها فيما يلى على عجل : ــ

(ا) نقرر بادىء ذى بدء أن علم الاجتماع الدينى يرتبط بعلاقـة معينة قابلة للتوضيح بكل من علم الاجتماع وعلم الأديان • واذا كان علم الاجتماع يهدف الى دراسة الانسـان فى المجتمع ، وعلاقته بالمجتمع ، ودور المجتمع فى تشكيل حياته ، أى علاقات الفـرد بالجماعة وبنـاء الأشـكال الاجتماعية المختلفة ، فان علم الاجتماع الدينى يبدو بذلك فرعا خاصا من فروع علم الاجتماع • وقد جرت العادة على تقسيم علم الاجتماع الى ميدانين رئيسيين هما «علم الاجتماع العام» و«علوم الاجتماع الخاصـة » • فبينما يقـدم الأول دراسـة للأشكال الأساسية للمجتمع وقواه الأساسية فى صورة خالصة ، نجد علوم الاجتماع الخاصـة تتناول الميـادين السوسيولوجية المختلفة • فهنـاك علم اجتماع الفن ، وعلم الاجتماع القانونى ، وعلم الاجتماع السياسى ، وعلم الاجتماع الدينى • من هذا المنطلق يعتبر علم الاجتماع الدينى أحد علوم الاجتماع الخاصة •

الا أن علم الاجتماع الدينى ينتمى — من ناحية أخرى — الى علم الأديان المقارن الذى يتناول امبيريقيا تاريخ الأديان بالمقارنة والتحليل • ويعتمد علم الأديان المقارن على تاريخ الأديان العام أى دراسة الظواهر الدينية (فينومينولوجيا الدين) ، والانتظامات ، والأبنية ، والنظائر الطرازية العامة • وهكذا يتناول علم الاجتماع الدينى الكيانات والعمليات الاجتماعية التى تنتمى لميدان الظواهر الدينية ، بهدف تحليل أبنيتها والقوانين التى تخضع لها •

(ب) هناك أكثر من ميدان للدراسة يعرض لها علم الاجتماع الدينى العام ، الذى نعرض هنا خطوطه العامة • الا أنه من البديهى أن هناك الى جانب هذا الاجتماع الدينى العام علم اجتماع دينيا خاصا ، يتناول الموضوعات السوسيولوجية الخاصة بكل دين من الأديان •

وقد قدم لنا ارنست ترولتش فى مؤلفه الأساس « الآراء الاجتماعية للكنائس والجماعات المسيحية » • (٩) علم اجتماع دينى للمسيحية • كما قدم ماكس فيبر فى مؤلفه « مجموعة مقالات فى علم الاجتماع الدينى » • (١٠) علم اجتماع دينى خاص بعدة أديان مثل الكونفوشية ، والهندوكية ، واليهودية • على أن علم الاجتماع الدينى الخاص لا يقتصر — فى الغالب — على تناول الآراء الاجتماعية فى الدين الذى يتناوله • ذلك أن هناك كثيرا من الأديان التى لست لها آراء اجتماعية بمعنى الكلمة ، ولكنها مع ذلك أدت الى ظهور كيانات اجتماعية خاصة تكون

---

(9) E. Troeltsch, Die Soziallehren der christlichen Kirchen und Gruppen, 1912.

(10) Max Weber, Gesammelte Aufsatze zur Religionssoziologie, Heidelberg, 1920 ff.

موضوع البحث السوسيولوجي الديني • ومن أبرز المؤلفات التي تنتمي الى علم الاجتماع الديني الخاص مؤلف جوستاف منشنج « علم اجتماع الاديان الكبرى » الذي صدر عام ١٩٦٦ • ويتناول هذا الكتـاب دراسة سوسيولوجية للأديان الكبرى ، وقد اقتصر فيه مؤلفه على الأديان الحية فقط • وينقسم الكتاب الى ثمانية أبواب ، يضم كل منهـا بدوره بضعة فصول • وخصص كل باب لمعالجة دين واحد ، أوردها فيما يلي وفق ترتيب الكتاب •

١ ــ الدراسة السوسيولوجية لأديان الشعوب البدائية •

٢ ــ سوسيولوجيا الدين الصيني الكوني •

٣ ــ ديانة الشنتو

٤ ــ الهندوكية •

٥ ــ البوذية •

٦ ــ الدين اليهودي •

٧ ــ المسيحية •

٨ ــ الاسلام •

ويعرض المؤلف في كل باب من هـذه الأبواب الثمانية للمحة تاريخية عامة عن الدين توضح أسسه العامة ، وخطوط تطوره الرئيسية • ثم ينتقل الى استخلاص الواحدات الاجتماعية داخل هـذا الدين أو المرتبطة به (كنظام الطوائف في الهندوكية ، أو الكنيسة في المسيحية ، أو الدولة الاسلامية كجامعة دينية ••• الخ) • ويؤكد بصفة خاصـة التفاعل بين التنظيمات الدينية والظروف الاجتماعية • فيخصص مثلا في الباب الرابع

عن الهندوكية فصلا عن الأهمية الوظيفية لنظام الطوائف ، ويخصص فى الباب الخامس عن البوذية فصلا عن طريقة بوذا وأسسها الاجتماعية ••• وهكذا كما يبرز الفكر الاجتماعى والمواقف الدنيوية لهذه الأديان المختلفة حيث تلعب الشرائع فى بعض الأديان دورا أساسيا ، بل ومطلقـا ، فى تشكيل الحياة الدنيوية وتوجيهها •

ونود هنا أن نجول خـلال تاريخ الأديان معتمدين على الدراسـة السوسيولوجية الدينية الامبيريقية بعامة ودراسة كل دين على حدة • وفيما يلى عرض للمسائل التى يتحتم التعرض لها فى هـذا المجال كما عرضها جوستاف منشنج فى تحديده للخطوط الرئيسية فى ميـدان علم الاجتماع الدينى ، فى مقاله الذى سبقت الاشارة اليه ، والمنشور فى كتاب « دراسة علم الاجتماع » : —

١ — يتخذ الدين بالضرورة موقفا من الأشكال الاجتماعية العلمانية الطبيعية القـائمة (الأسرة ، والقبيلة ، والشعب ، والدولة) • وتمثل دراسة العلاقات المتبادلة هنا أول أهداف علم الاجتماع الدينى المنهجى •

٢ — يكون الدين نفسه أشكالا اجتماعية خاصـة ، ولا نجد مثل هـذه الجماعات الدينية المتميزة الا فى نطاق الأديان العالمية • والجماعات التى ستوضع أبنيتها موضع الدراسة هى جماعة المعلم والتلاميذ ، وجماعة المعلم وحوارييه ، وشعب الكنيسـة ، والطائفة الدينية ، والطريقة • وهنـاك من الباحثين من يرى ضرورة الربط بين هذين الهدفين (الأول والثانى) ، حيث أننا نجد فى الواقع الملموس أن الدين قد لا يتخذ ككل موقفا معينا موحدا من نظام اجتماعى آخر ، بل يمكن أن يتنوع — بل وقد يتضارب — هذا الموقف داخل الدين الواحد • ولعله من المفيد لتوضيح

هذه النقطة أن نشير الى دراسة ليستون بوب • (١١) التى استخدم فيها الطـريقة الطيبولوجية (أى طريقة دراسـة الأنماط) Typology فى دراسـة المنظمة الدينية فى انتقال مجتمع محلى أمريكى فى الجنوب من الاقتصـاد الزراعى الى الاقتصـاد الصناعى • وقد استطاع بفضل التمييز بين الطوائف Sects والكنيسة داخل التنظيم الدينى للمقاطعة أن يوضح الفرق الهائل بين دور كل نمط منهما فى عملية التغير • اذ تعاونت الكنائس بشكل مباشر وصريح فى أغلب الأحيان مع أصحاب المصانع ، بينما عمدت الطوائف الدينية — عن طريق اثارة الاستياء الكامن لدى عمال المصانع — الى توجيه اهتمامهم من هـذا العالم الى العالم الآخر ، ومن ثم تعويق عملية التغيير المنشود(١٢) •

والواضح من هـذا أن موضـوع التنظيم الدينى يتميز بأهمية خاصـة ، وهو التنظيم الذى يتخذ صورته المتميزة فى الكتابات الأوربية فى تكوين الكنيسة المسيحية •

ومن الجدير بنا أن نسـجل ملاحظة على اهتمام دراسات التنظيم الدينى بالكنيسة أساسا • فقد أنصبت تلك الدراسات —فى هذه النقطة— على الكنيسة المسيحية باعتبارها أبرز صور التنظيم داخل الدين • على

---

(11) Liston Pope, Millhands and preachers, Yale University Press, 1942.

(١٢) عرض لهذا الرأى محمد الجوهرى فى تعليقه على دراسة منشنج المشار اليها فى محمد الجوهرى وآخرون ، دراسة علم الاجتماع ، مرجـع سابق ، ص ٣٩٩ ، حاشية رقم ١ — وانظر كذلك مقال جلوك الهام :

G. Glock, « The Sociolog. of Religion », in : Merton and others (eds.), Socioligy Today, 1965, p.p. 158-159.

أن الملاحظ أن منظمات التدرج الرسمى — على الطراز الكاثوليكى — ليست معروفة على الاطلاق فى معظم المجتمعات غير الغربية • الا أن اختفاءها لم يؤد كما هو واضح الى الحيلولة بين الاديان وبين الاستمرار فى البقاء والفاعلية عبر القرون • فلا تعرف الهندوكية ولا الاسلام — مثلا — شكل الكنيسة أو شيئا قريبا منها • والتنظيمات الصغيرة الموجودة تتميز بأنها غالبا ذات طابع محلى ، ولا تعرف نظاما رسميا للتواصل بين الوحدات المحلية على مستوى المجتمع كله من أجل رسم سياسة موحدة ، وحل الخلافات على العقيدة ، وتوحيد الممارسات الشعائرية وغير ذلك • وتعكس هذه الاختلافات بطبيعة الحال الأساليب المختلفة لتكامل الدين فى المجتمع ، وكذلك الاختلافات فى البناء الادارى لجميع النظم فى المجتمع •

والجدير بالذكر هنا أن علماء الاجتماع الأمريكيين لم يولوا الاهتمام الكافى — رغم شدة الحاجة الى ذلك — لدراسة التنظيم الدينى على أساس ثقافى مقارن • ومن شأن تأكيد الأستاذ منشنج وأقرانه على ربط الدراسات السوسيولوجية للدين بعلم الأديان المقارن أن تتفتح بعض مغالق هذا الموضوع أمام علماء الاجتماع الدينى[١٣] •

٣ — أما الموضوع الثالث فيتصل بالعلاقة الخاصة القائمة بين الجماعة العلمانية والجماعة الدينية من ناحية ، والدين الحى فى المجتمع من ناحية أخرى • والملاحظ أننا اذا التزمنا مع الأستاذ منشنج بتقسيمه للدين الى نمطين رئيسيين : دين شعبى (خاص بشعب واحد) Volksreligion ودين عالمى (مفتوح لكل الناس) Universalreligion

---

(١٣) قارن مقال منشنج المذكور فى دراسة علم الاجتماع ، وكذلك مقال جلوك الذى سبقت الاشارة اليه ، صص ١٥٧ — ١٥٨ .

فاننا سنواجه عند دراسة هذه النقطة مشكلة هامة تتمثل فى أن الجماعات العلمانية فى الدين الشعبى (أى : الأسرة ، والقبيلة ، والشعوب) هى فى نفس الوقت الجماعات الدينية الوحيدة التى يمكن أن تقوم هنا • اذ أن الجماعات الدينية الخالصة لا وجود لها الا فى ميدان الدين العالمى [١٤] •

٤ ــ ثم يهتم علم الاجتماع الدينى علاوة على ذلك بدراسة العلاقة بين الجماعات الدينية بعضها البعض • بما فى ذلك العلاقات المتبادلة بين الجماعات الدينية الغربية كلية ، وكذلك العلاقات المتبادلة بين جماعات الطوائف مع بعضها من ناحية ومع التنظيم الدينى الذى تخضع له من ناحية أخرى •

٥ ــ وتنصب الدراسة السوسيولوجية الدينية علاوة على هذا على العلاقات المتنوعة بين الأشكال الاجتماعية العلمانية والدينية وبعضها • والملاحظ على التراث الموجود فى علم الاجتماع الدينى أن علماء الاجتماع الدينى قد اهتموا بصفة عامة بموضوع العلاقة بين الدين وبعض مجالات الحياة الاجتماعية ، مثل الدين والنظام الاقتصادى ، والكنيسة والدولة ، والدين والسياسة ، والدين والأسرة •• الخ •

والنقطة الأساسية فى جميع هذه الموضوعات هى محاولة فهم التفاعل بين الافكار الدينية كما تنقلها المؤسسات غير الدينية والمتخصصة على حد سواء ، وبين القيم السائدة للنظم العلمانية فى المجتمع • ومن

---

(١٤) قارن فى هذا تعريف منشنج للنمطين الرئيسيين من الدين وكذلك تعريفه العام للدين فى كتابه : « الدين » .

G. Mensching, Die Religion, Bonn, 1959, p.p. 17 ff.

وكذلك فيما يتعلق بهذه النقطة كتابه : « علم الاجتماع الدينى ».

Soziologie der Religion, Bonn, 2nd ed., 1968, p. 29.

الغريب أن هذا السؤال الأساس لم يحفز الى ما هو جدير به من جهود البحث السوسيولوجى ، وخاصة فى الآفاق المعاصرة •

أما عن العلاقات المتبادلة بين الأفكار الدينية والمصالح الاقتصادية فنجد دراسة ينجر Yinger للدين وموضوع النضال من أجل القوة أقرب الدراسات الى تناول هذا الموضوع • وذلك من خلال تحليله للضغوط المختلفة الواقعة على المنظمات الدينية لمنعها من ممارسة سلطة على الحياة الاقتصادية بصفة خاصة والشئون العلمانية بوجه عام • أما على المستوى التاريخى فهناك بطبيعة الحال العمل الضخم الذى خلفه ماكس فيبر ، وما حفز اليه مؤلفه من دراسات مونوجرافية هامة • غير أننا لا نجد مع ذلك من حاول اعادة تقييم مؤلف فيبر من حيث ربطه بالعلاقة بين الدين والنظام الاقتصادى فى المجتمع المعاصر • وقد أشار ينجر الى أنه لم يعد لبعض الأفكار الدينية فى بعض المجتمعات المعاصرة ذلك التأثير الكبير على القيم الاقتصادية كما كان الحال فى الماضى • الا أن الصلة بينهما مع ذلك لم تنقطع تماما ، والقدر الباقى منها — وخاصة فى الثقافات ذات الارتباط الوثيق بتراثها وتعيش الآن عملية التغير الاجتماعى السريع — يدفعنا الى مواصلة الدراسة فى هذه النقطة•

أما فيما يتعلق بالعلاقات بين الكنيسة والدولة فالمؤلفات معظمها تاريخى لا سوسيولوجى • كما يصدق هذا الحكم على المسائل المتصلة بالتأثير المتبادل بين الدين والسياسة • وقد اتجهت دراسات الانتخابات فى الماضى الى مساس الموضوع من زاوية نفسية اجتماعية خاصة بتأثير الانتماء الدينى على القرارات السياسية الفردية• ومن المأمول أن تقودنا دراسات ليبست Lipset وزملائه الجارية حاليا الى حقائق جديدة فى موضوع الصلة بين الايديولوجيات الدينية والسياسية •

ونلاحظ على دراسات الاجتماع العائلى أنها لم تغفل موضوع مكانة الدين فى الحياة الاسرية ودوره فى الحفاظ على القيم التقليدية الخاصة بالزواج ، والطلاق ، والعلاقات بين الرجل والمرأة ، وتربية الطفل • بل أن هناك عددا من الدراسات المستقلة فى هذا الموضوع • وتتضمن معظم كتب الأسرة فصلا عن الدين • ولو أننا ما زلنا نفتقر الى مؤلف أساس عن الارتباط بين الدين والاسرة يتناوله بأسلوب منهجى مقارن•

واذا كان العلماء الأمريكيون والغربيون بصفة عامة لا يولون اليوم موضوع العلاقة بين الدين والنظم الاجتماعية ما هو حقيق به من اهتمام، لاعتقادهم كما أشرنا بأن الدين لم يعد قوة ذات تأثير كبير فى مجمتع اليوم،فان هذا لا ينطبق بحال من الاحوال على مجتمعاتنا العربية الاسلامية ومجتمعات أخرى كثيرة ما زالت ارتباطاتها التقليدية كبيرة للغاية • فما زالت العلاقة بين الدين والنظم الاجتماعية فى بلادنا علاقة حية مؤثرة ، وسيظل الدين لأمد طويل فى المستقبل — الى ما شاء الله — قوة فعالة وقيمة موجهة ذات أهمية كبرى •

وغنى عن البيان أن الدراسات الأولية اللازمة لانجاز هذه الموضوعات والقاء الضوء الكافى عليها ما زالت قليلة • وقد تناول يواخيم فاخ فى كتابه « علم الاجتماع الدينى »[١٥] عرضا منهجيا عاما لجميع المسائل التى أشرنا اليها هنا على وجه الاجمال • ثم صدر بنفس الهدف مؤلف منشنج « علم الاجتماع الدينى » فى طبعته الاولى عام ١٩٤٧ • وبعد هذا يحتل مؤلف ماكس فيبر (عاش من ١٨٦٤ حتى ١٩٢٠)

---

(15) Cf. Joachim Wach, Sociology of Religion, Chicago. 1944.

والمعنون : « مجموعة مقالات فى علم الاجتماع الدينى »[١٦] المقام الأول ولا شك . غير أنه ركز اهتمامه بالدرجة الأولى على الدراسة المقـارنة لموضوع تأثير الدين على الحياة الاقتصـادية فى عصر معـين ، ثم آثار الحياة الاقتصادية — المتأثرة بالدين — على التدرج الاجتماعى . كمـا اشتهرت على نطاق واسـع دراسـات ماكس فيبر عن روح الرأسمالية وعلاقتها بالأخلاق البروتستانتية ، والكالفينية بصفة خاصة .

ويحتـل أرنست ترولتش (عاش من ١٨٦٥ حتى ١٩٢٣) مكانة تضارع مكانة ماكس فيبر فى هذا الميدان . وقـد اهتم فى مؤلفه سالف الذكر وفى مقالاته فى علم الاجتماع الدينى بالدرجـة الأولى بدراسـة العناصر الاجتماعية للمسيحية.ولكنه قدم علاوة على هذا مساهمات هامةفى علم الاجتماع العام والمنهج ، وذلك من خلال تحليلاته البارعة للمفاهيم الأساسية فى الاجتماع الدينى .

ويشترك علماء الاجتمـاع الدينى المذكورون فى أنهم انطلقوا فى دراساتهم السوسيولوجية الدينية العامة منالظواهر والأبنية — بأشكالها المختلفة — المعروفة على طول تاريخ الأديان . ثم حدث بعـد الحرب العالمية الثانية — وتحت التأثير الأمريكى أساسا — أن ظهر اتجاه جديد فى علم الاجتماع الدينى يختلف عن الاتجاه السالف اختلافا أساسيا من

---

(16) Max Weber, Gesammelte Aufsatze zur Religionssoziologie, 3 Bande, Ist ed., 1920, 2nd ed., 1922-1923.

وكذلك المراجع التالية :

Marianne Weber, Max Weber, Ein Lebensbild, 1926, Karl Jaspers, Max Weber, 1927.

وكذلك جوستاف منشنج ، علم الاجتماع الدينى ، فصل فى دراسة علم الاجتماع ، مرجع سابق ، ص ٢ـ٤٠ .

حيث اعتماده على البحث الامبيريقى وتركيزه بالدرجة الأولى على ظواهر الكنائس والجماعات الدينية المسيحية • وقد أطلق أصحاب هذا الاتجاه الجديد — كما أشرنا من قبل — على علم الاجتماع الدينى ذى الاتجاه التحليلى المعتمد على تاريخ الاديان اسم : علم الاجتماع الدينى « القديم » أو « الكلاسيكى » •

أما فيما يتعلق بعلم الاجتماع الدينى الحديث فقد جاءته دفعات قوية من « معهد البحوث الاجتماعية والدينية Institute of Social and Religious Research فى الولايات المتحدة الأمريكية ، ومن العالم الفرنسى جابريل لوبرا Le Bras الذى اهتم بالدرجة الأولى بدراسة الحياة الدينية فى المناطق الكاثوليكية فى فرنسا [(١٧)] ، وكذلك من العالم الهولندى كروخت Kruijt وقد كتب فورستنبرج Furstenberg عن هذا التحول فى علم الاجتماع الدينى يقول : « وهكذا أخذ علم الاجتماع الدينى يتخلص تدريجيا باستمرار من ارتباطه التقليدى بالاديان نفسها ، ويقترب من المشكلات العملية المتصلة بالممارسة الدينية ، وخاصة تلك التى تتعلق بمسائل ادارية لبناء الجماعة الدينية » •

ويعنى هذا الاتجاه فى دراسات الاجتماع الدينى — فى الواقع — الاقتصار على معالجة موضوع التأثير الاجتماعى فى السلوك الدينى داخل المجتمع المعاصر وفى نطاق الكنائس • وعلى الرغم من أن المسيحية والكنيسة هما المقصودان عند الحديث عن الدين والسلوك الدينى ، الا أننا نجد لدى اتباع هذا الاتجاه تعريفا موسعا بطريقة عجيبة للدين هو الذى تنطلق منه دراسات الاجتماع الدينى عندهم • وقد كتب ميلتون ينجر — على سبيل المثال — يقول : « وهكذا يمكن تعريف الدين بأنه

---

(17) C. Le Bras, Introduction à L'Histoire de le pratique religieuse er France, 2 Vole., Paris, 1942-45.

نسق من المعتقدات والممارسات التى تستطيع بواسطتها مجموعة من الناس مواجهة المشكلات الأساسية فى الحياة البشرية »[١٨] فالدين على هذا الأساس مجرد نسق معيارى يستطيع الانسان بفضله مواجهة أمور الحياة • وعلى نحو قريب من هذا أيضا يفهم تيليش Tillich الدين على أنه المعنى النهائى وكذلك التحديد النهائى لمعنى الحياة بجميع جوانبها النظرية والعملية • ثم نجد كذلك « فان دير جابلنتز » Val der Gablentz يصف الثقافة ، والمذهب الانسانى ، والقومية بأنها أديان علمانية ذات وظائف تعمل على خلق التكامل الاجتماعى • بل أنه حتى السينما والتليفزيون وكرة القدم يمكن — على هذا الأساس — اعتبارها أديانا علمانية •

. ولا تستطيع الدراسة العلمية للدين أن تقر هذا الرأى فى طبيعة الدين • اذ بمقتضى هذه التعريفات يصبح الدين مجرد كلمة أخرى للتعبير عن المواقف القيمية التى تحدد حياة الناس• فالدين فى التعريفات السوسيولوجية المعاصرة — ومنها تعريف منشنج على سبيل المثال — هو لقاء مفعم بالتجربة بين الانسان والكيان المقدس ، والسلوك الذى يمثل استجابة لذلك والصادر عن الانسان الذى اختاره هذا الكيان المقدس • وفد حدد فاخ مفهوم الدين على نحو شبيه بهذا ، منطلقا هو الآخر من آراء رودلف أوتو R. Otto فيقول : « الدين هو معاناة المقدس ••• ويؤكد هذا المفهوم عن الدين الطابع الموضوعى للتجربة الدينية ، على خلاف النظريات السيكولوجية عن طبيعته الذاتية البحتة ، التى يقول بها علماء الأثنولوجيا عادة •

---

(18) I. M. Yinger, Religion, Society and the Individual, New York, 1957. p. 9.

نقلا عن منشنج ، المرجع السابق ، ص ٤٠٣ .

الباب الثانى

الديانات الوضعية

الفصل السابع : ـ الديانة التوتمية ٠

الفصل الثامن : ـ الزرادشتية ديانة وضعية ٠

الفصل التاسع : ـ الكنفوشيوسية ديانة وضعية ٠

الفصل العاشر : ـ الهندوسية ديانة وضعية ٠

الفصل الحادى عشر : ـ البوذية ديانة وضعية ٠

الفصل السابع

الديانة التوتمية

١ ـ مقــــدمة

٢ ـ القصص

٣ ـ الطقوس

٤ ـ التوتمية والنظام الاقتصادى

٥ ـ المحرمات

٦ ـ الرموز



الفصـــــل السابع

الديانة التوتمية

١ ــ مقـــــــــدمة :

تعتبر الديانة التوتمية التى تمثل نظاما من أقدم النظم الانسانية ان لم تكن أقدمها جميعا • نظام تسير عليه مجتمعات تعد من أكثـــر المجتمعات بدائية وبعدا عن أسباب الحضارة • فهى تضع لجميع فروع الحياة وأنشطتها نظما وضـــوابط لا تقل فى دقتها وتعقيـــدها عن نظم المجتمعات المعاصرة ان لم تزد عن كثير منها فى معظم النواحى• فالانسان أينما وجد وأينما عاش مدنى بطبعه لا يســـتطيع أن يحيا الا فى مجتمع ولا تستقيم الحياة به فى مجتمع ما الا اذا أخضعت أوضاعه كلها وخضع أفراده فى شئون حياتهم المختلفة لما يختاره عقله الجمعى من نظم وقواعد وقوانين (١) •

وتعتبر الديانة التوتمية عند دوركايم أقـــدم عادة على الاطـــلاق ، انبثقه منها مقولات العقل الجمعى أو التصورات الجمعية • وحـــاول ماكلينان أن يربط بين الديانة التوتمية وبين تاريخ الانسانية العام وبين أن التوتمية ليست دينا فحسب ، بل هى مجمـــوعة كبيرة من العقـــائد والعبادات الحيوانية والنباتية عند المجتمعات المتأخرة •

ويرى روبرتسون سميث Robertson Smith أن هـــذه الديانة البدائية الغامضة ديانة مليئة بكثير من المعانى ، واعتبرها احدى الديانات الكبرى الوضعية • وقـــد تمكن من خـــلال أبحاثه أن يعثر على عبادة الحيوانات وعبادة النباتات فى أماكن متفرقة • ورغم ذلك لم يتوصـــل الى

(١) على عبد الواحد وافى ، التوتمية أشهر الديانات البدائية ،ص١٠٧

الأساس الحقيقى الذى تستند عليه التوتمية . ذلك لأنه يرى أن التوتمية تفترض وجود اتحاد جوهرى بين الانسان وبين الحيوان أو النبات . وفى كتاب له عن ديانة الساميين يقرر أن فكرة القربان انما يوجد منشؤها فى التوتمية وفيها تفسير كثير من مسائلها(٢) . وقد اكتشف كل من بالدورين سبنسر وجيللين Baldwin Spencer and Gillin من خـــلال أبحاثهما فى وسط أستراليا عددا من القبائل يدين بالتوتمية عقيدة وعملا .

والملاحظ أن التوتمية ليست مقصورة على قبائل وســـط استراليا وحدها ، وانما هى تنتشر بين جميع سكان استراليا الأصليين . وقـــد يكون التوتم عندهم حيوانا أو نباتا أو جمادا (٣) أو أى شىء من الأشياء ينتسب اليه شخص أو مجموعة من الأشخاص ويرتبطون بطريقة غامضة وتتكون منهم مجموعة توتمية واحدة سواء انتمى أفراد المجموعة التوتمية الى قبيلة واحدة أم لا فانهم جميعا يعتبرون أخوة ، ويشتركون معا فى امتيازات خاصة كما يشتركون فى التزامات خاصة ، وأيضا تحرم عليهم أشياء معينـــة . وعلى كل فرد ينتمى الى مجمـــوعة توتمية أن يقـــدم ما يستطيع من العون لكل فرد ينتمى الى نفس المجموعة . ويحرم عليه أن يسىء الى توتمه أو أن يقتله أو أن يأكله ، كما يحرم عليه فى الغالب أن يتزوج من أسرة تنتمى الى نفس المجموعة . أما الابناء فانهم فى بعض الأماكن ينتمون الى مجموعة أبيهم التوتمية ، وينتمون فى أماكن أخرى الى مجموعة أمهم التوتمية . وتستنزل المجموعة التوتمية الوفرة والقوة

---

(٢) على سامى النشار ، نشأة الدين ، دار نشر الثقافة بالاسكندرية ، الاسكندرية ، ١٩٤٩ ، ص ٩٣ .

(٣) أنظر الموسوعة الفرنسية الكبرى ، المجلد الحادى والثلاثين ، ص ١٩٥ ، وكذلك المراجع الواردة هناك .

على التوتم بواسطة حفلات تقيمها وتتخللها أعمال سحرية. وهناك بعض الطقوس السرية التى لا يشترك فيها الا العالمون بأصول السحر (٤) .

وقد أورد فريزر فى كتابه « التوتمية والزواج الاغترابى » بعض النصوص والوثائق التى توضح الصلة بين التوتمية والأسرة والزواج ، وبحث من الناحيتين الجغرافية والاثنوجرافية « التوتمية » فى كل قارة . غير أنه لم يقدم لنا النظرية النهائية التى يمكن استخلاصها من التوتمية. لقد قدم الينا المواد اللازمة لبناء المذهب والنظرية ، ولكنه لم يبين المذهب كاملا . ولما كان فريزر من أعلام المدرسة الانثروبولوجية ، فاننا نرى أن علماء هذه المدرسة لم يحاولوا أن يضعوا الدين فى البيئات الاجتماعية وأن يرونه كعنصر من عناصر البيئة . بل أن غاية الأنثروبولوجيا عندهم أن تصل الى التعرف على الأسس المشتركة الانسانية للحياة الدينية . وتفترض تلك المدرسة أن الانسان بذاته له طبيعة دينية خاصة يتميز بها. ولما كانت هذه الطبيعة الدينية عنصرا عاما مشتركا لدى كل البشر ، كان لابد من مقارنة عامة بين مختلف المجتمعات بدائية ومتحضرة عن طريق جمع المعلومات ومقارنتها لمعرفة الديانة السائدة فى كل مجتمع على حدة. وهذا ما تراه المدرسة الفرنسية التى تفسر الدين ومظاهره تفسيرا علميا واقعيا اجتماعيا بأنه ظاهرة قائمة فى المجتمعات البشرية متأخرة كانت أو راقية ، وما على الباحث الا أن يقرر طبائعها على ما هى عليه فى الواقع الاجتماعى دون ما حاجة الى فروض وهمية نفسية كانت أو حيوية أو طبيعية .

---

(٤) تشارلز بيج ، الشعوب البدائية ، ترجمة محمود محمد موسى ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ص ٩٠ .

٢ — القصص :

تصف القصص الحياة غير العادية لبعض الأرواح الخفية أو الأشباح • ولكل جماعة من هذه المجتمعات المتأخرة طابع معين يغلب على أساطيرها • فالأساطير عند زنوج أفريقيا تعبر عادة على أرواح الأجداد وشرور الأشباح والعفاريت ، بينما تنصب عند أقوام الكورياك على أثر السحر والسحرة كقوى لمقاومة الأرواح الشريرة • وتنصب عند الهنود الحمر على معالم الحياة فى عالم الأرواح والقوى الخفية •

وتتجه القصص عند زنوج استراليا الى التحدث عن أصل العالم : كيف ظهر ، وكيف ظهرت الحياة منه • وتتناول القصص احيانا التعبير عن مشاعرهم وتصوراتهم لبعض مظاهر الطبيعة كالشمس والقمر وغير ذلك من القصص التى تروى مصارعة الابطال للحيوانات المفترسة وابتلاع بعض الحيوانات للانسان وحالته بعد ذلك فى بطن الحيوان ، وكيف تتخلص الروح البشرية من جسم الحيوان المفترس • وتتناول قصصهم كذلك مسألة تشخيص بعض الحيوانات ووضعها بصفات الانسان نفسه كالقصص التى تصف ابن آوى باللؤم والخداع والمكر ، أو تصف النعامة بالغباء ، وتلك التى تصف العداوة بين القطط والكلاب •• الخ ما هناك من قصص •

٣ — الطقوس :

أما فيما يتعلق بالطقوس الدينية فهى متعددة وأحيانا خاصة بمناسبات معينة كالطقوس التى تمارس عند الولادة أو حين الوفاة أو حينما يقل المحصول أو يحدث جدب أو عندما تنزل صاعقة كارثة من السماء وتتضمن هذه الطقوس اقامة احتفالات لها أصولها المرعية المعروفة

من مدة زمنية بعيدة لأنها تنتقل من الأجيال السابقة العريقة فى القــدم وينفذ منهــا بدقة تامة فى وقت معين وبشــكل محدود ســواء بالكلام أو الحركات أو الأوضاع الرمزية بالرقص والغناء فنجد مثلا عند زنوج استراليا الحفلات التى تســمى كوربورية أو أنتشيوما • والكوربورية عبارة عن حفلة تقام وتتكرر لعدة أيام محدودة فى أمسيات الليالى المقمرة ، خاصة فى ليلة اكتمال البدر حيث يوقدون نارا متوهجة يرقص حــولها الرجال ويحيط بهم كمشاهدين النساء والأطفال والصبية ويغنون لهم ، ويلوحون لهم بعصى فى أيديهم • ويجب على الرجــال قبــل الرقص أن ينقشوا على أجسامهم رسوما متنوعة مختلفة الالوان • وقــد تشــترك أحيانا ولمدد قصيرة النساء فى الرقص وان كان هذا من النادر حدوثه ، والغرض من هذا الاحتفال نشر البهجة فى حياتهم الاجتماعية من جهــة ، كما أن له من جهة أخرى غرضا خفيا يتعلق بتراثهم الدينى كارضاء أوثانهم لحمايتهم ودفع الضر أو البلاء عنهم • أما الانتشيوما فهو احتفال يقام بقصد التوسل الى الاوثان أو التواتم بأن تزيد بقوتها الخفية نسل الفصائل الحيوانية اللازمة وزيادة الخصب والعشب بالنسبة للأرض التى يعيشون عليها • ويحدث بعد هذا الاحتفال أن يســمحوا لبطون غريبة أن تأكل الحيوان الذى يعبدونه وهو التوتم لأنه يتكاثر أما هم فلا يمكن أن يشتركوا فى هذا اطلاقا • أما قبيل هذا الاحتفال فيكون محرما عليهم وعلى غيرهم أكل التوتم • ولكن اذا حدث قحط أو مجاعة أو ظروف خاصة فيحق لهم أكله• ويجب أن نفرق بين الأكل والقتل (٥) • فغالبا ما يمثل التوتم مصدر خطر على حياة أفراد الجماعة كأن يكون مفترسا ، فهنا يحق لهم قتله ولكن يحرم عليهم أكله •

---

(٥) عبد العزيز عزت ، تطور المجتمعات المتأخرة ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ص ٤٣ .

وأحيانا أخرى تكون الطقوس عادة لها مراسمها ودوراتها ولابد من القيام بها فى وقتها ، وتتعلق بوجودهم الكلى كوحدة اجتماعية بذاتها • التوتمية والنظام الاقتصادى :

٤ ـ التوتمية والنظام الاقتصادى :

يتضح لنا أن الدين يؤثر فى جميع النظم الاجتماعية ، وهو أهم الضوابط طرا • فاذا أخذنا مثلا تدخل الدين فى النظام الاقتصادى كوسيلة ضابطة نجـد أن طقوس الأنتشيوما تقـام أحيانا على مرحلتين تتعلق أولاهما باكسار نسل التوتم حيوانا كان أم نباتا عن طريق نشر الأتربة المقدسة المتراكمة على الصخور التى تمثل أجداد التوتم • ويذهب الرجال الى هذه الصخور وهم عرايا لا يحملون على أجسادهم شيئا ويسيرون فى صف خلف رئيسهم ولا يتكلمون فى أثناء الطريق،ويكونون فى حالةصمت ولا يحملون من الأسلحة شيئا ، انما يحملون فقط بعض غصون الأشجار ويمشون فى خشوع ورهبة لأن المكان الذى يذهبون اليه يعتبر فى نظرهم مقدسا وله أهمية عنـدهم ، كما أنه ملىء بذكريات التوتمية • وعنـد وصولهم للأحجار المقدسة التى يرتفع بعضـها الى خمسة أقدام يقف الرئيس بجانبها ويتغنى بأغنية دينية وترانيم يدعو فيها للتوتمبالخصوبة والتكاثر • ثم يمرر عصا صغيرة لها أهميتها الدينية ويلمس بها كل فرد معه فوق معدته بعد أن يضرب بها الصـخور التى يقدسونها ثم يذهبون بعد ذلك الى أماكن أخرى توجد بها أحجار يقدسونها • وقد يبعد المكان أحيانا عن المكان الآخر بمسافة ميل • ويرددون نفس ما فعلوه أول مرة من طقوس • وأحيانا يسكب بعضهم دماءهم على هذه الصخور كقربان مقدس ، بقصد انعاش قواها الخفية لتقوى من فصائل تواتمهم ، لأن الدم عنصر مقدس وموحد بينهم وبين هذه الصخور وهـذه التواتم •

ثم أن له قوته السحرية ، وهو كذلك عنصر أساس للحياة فى الفرد وفى فصيلةمعبوداته من التوانم التى يحرم أكلها بعد هذا الاحتفال الاول لمدة معينة يحددها رئيس البطن أو رئيس العشيرة ويتناسب هذا التحديد مع تكاثر فصيلة التوتم • وعند هذا يحدد الرئيس وقت اقامة احتفال آخر قد يحدث لأيام متعددة يبيح فيها لهم أكل التوتم • ويقوم الرئيس بذبح بعض فصائل التوتم ثم يدهنون أجسامهم بدمائهم ثم تشوى لحومها ويأكلهو منها أولاثممنبعده يأكلالشيوخ ويعقبهم سائر أفراد العشيرةمن نساء وأطفال • وفى هـذه الطقوس يغنون ويرقصون ويقرعون آلاتهم الموسيقية ويرددون القصص المتصلة بهذا التوتم من حيث توحشه واستئناسه وفوائده وقواه الخارقة •

وبعد هذا الاحتفال الثانى يمكنهم أكل لحم هـذا التوتم بشروط دينية معينة • أما فيما بين الحفلين فلا يجوز ذلك • ويدل الاحتفال على أنه فى المرحلة الأولى منه يمنع أكل اللحم المقدس لكى يتكاثر نسل الحيوان المعبود • وفى مرحلته الثانية يعتبر عيد وقرابين يقصد منه ايجاد الاتصال والتداخل والحلول بين المعبود وبين أتباعه ليخلقوا الاتحاد فيما بينهم وبين التوتم • فهم منه وهو منهم بمعنى أن هناك أساسا اجتماعيا يقضى عليهم بالمشاركة الفعلية فى حياة الجماعة والانصهار فيها•

لم يعد الدين مظهرا سلبيا يقوم على الخضوع أو الانسحاب أو الهروب من الحياة الاجتماعية سعيا وراء التصوف والزهد والاقامة فى الصوامع والمغارات للتعبد والتكهن • وانما أصبح الدين عاملا ايجابيا يحرك الأفراد نحو هدف واحد ويجعلهم كلهم كتلة واحدة متماسكة ويعيشون بقوتهم الجمعية ووجودهم الكلى •

فالأنتشيوما بمرحلتيها وسيلة لربط الفرد بالمجتمع ووسيلة لتقوية

المجتمع المتأخر وجعله يشعر بتماسكه ووسيلة لغرس هيبة المجتمع فى نفسية أفراده ووسيلة لتجنب الاخطار التى تحدق بفصيلة التوتم وبهم • فظاهرة الأنتشيوما اذن ظاهرة اجتماعية مدعمة للضبط الاجتماعى ومحققة له (٦) •

٥ — المحرمات :

أما عن المحرمات أو التابو Taboo فهى كلمة بولونيزية تعادل كلمة مقدس أو محرم عند الرومان ، وتعنى أيضا ممنوع أو نجس أو غير نظيف أو خطر • ويمكن القول بمعنى أصح أنها تعنى الخوف المقدس • والقداسة هنا ليست دينية أو أخلاقية ،وانما هى قداسة جمعية يأخذ بها كل الأفراد ، وهى أيضا قداسة زمنية لأن أفراد الجيل السابق أخذوا بها • فالمسألة اذن فيما يتعلق بالمحرمات مسألة عادة اجتماعية ثابتة تنطوى على مجموعة من النواهى الالزامية التى تستمد سلطانها من قداسة مصدرها (٧) •

ويلاحظ أن العلماء اعتادوا اطلاق اسم التابو على الأمور المحرمة سلطة دينية أو بقوة غيبية أو بدافع مجهول قد لا يخضع لمنطق العقل المتحضر • وقد أصبحت كلمة تابو اصطلاحا سوسيولوجيا يعبر عن هذه الظاهرة العامة التى توجد لدى المجتمعات • هذا بالاضافة الى أن هناك مصطلحات محلية لهذه الظاهرة • ويعتمد هذا التحريم على العناصر التالية :

١ — فكرة التفرقة بين ما هو مقدس وبين ما هو دنس •

---

(٦) عبد العزيز عزت ، أهم نظم الجماعات المتأخرة ، مطبعة دار التأليف القاهرة ١٩٥٦ ، الطبعة الاولى • ص ٤٢ •

(٧) عبد العزيز عزت ، تطور المجتمعات المتأخرة،مرجع سابق ، ص ٤٤ •

٢ ـ الاعتقاد بضرورة ابتعاد الشخص العادى عن الشيء المقدس والشيء الدنس وعدم لمسهما أو التعامل معهما الا اذا هيىء لذلك بطقوس خاصة • وتكون هـذه الطقوس سـابقة فى حالة الاقتراب من الشيء المقدس ، ولاحقة فى حالة الاقتراب من الشيء النجس •

٣ ـ هناك اعتقاد بأن انتهاك هذه المحرمات يؤدى الى نتائج تضر آليا بالشخص فقد تفضى به المخالفة الى المرض أو الموت أو الجنون (٨)•

وتتمثل الأشياء المحـرمة فى عقلية الأقوام المتأخـرين كما نتمثل الاشياء فى نظرنا محملة بالتيار الكهربائى • فتبدو هذه الاشياء وكأنهاتحمل قوة خفية هائلة تنتقل وتصيب من يلمسها،وأن قوتها عن طريق اللمس تؤثر على جسم لامسها ، واذا مست هذا الجسم أو حلت به فستكون بالنسبة له قوة هادمة •

ويشمل المنع أو التحريم بالنسبة للأشـياء والحيوان والأشخاص عدم اللمس وعدم القتل وعدم الأكل وعدم الكلام معها • وقد يكون هذا المنع أو التحريم لمدة معينة ، وقد يكون بصفة مستمرة ودائمة • ويشمل التحريم المستمر الرؤساء الروحانيين والمدنيين والأموات وكل ما ملك هؤلاء الأموات من أشياء خاصة •

ففى بولونيزيا مثلا اذا لمس رجل من الارقاء أحد الرؤساء فانه يقتل وأحيانا يصعق من نفسه تحت تأثير الوهم والخـوف • ويشمل المنع المؤقت عدم لمس المرأة أثناء الحيض وفى فترة الرضاعة ، وكذلك عـدم الحرب والصيد فى البر والبحر فى أوقات معينة • ولكى يمكن منع الأثر

---

(٨) انظر ، أحمد الخشاب ، الاجتماع الدينى ، مكتبة القاهرة الحديثة، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص ١٧٤.

السىء لمخالفة التحريم بتأدية بعض الطقوس الدينية التى تكون شبيهة بالعازل بين اللامس المخالف وبين هذه القوة • ومن لم يقم بتأدية هـذه الطقوس يحرم الكلام معه والاقتراب منه •

وينحصر الغرض من هذه المحرمات فيما يلى :

١ ــ قـد يكون الغـرض منها حماية الأشـخاص الذين يحظون بالاحترام القداسة فى المجتمع كالرؤساء ورجال الدين من الأذى والضرر

٢ ــ وقد يكون الغرض منها أيضا حماية النساء والأطفال والناس عامة من القوة السحرية التى يتمتع بها الرؤساء ورجال الدين •

٣ ــ المحافظة على العمليات الأساسية للحياة كالولادة والتعميد والزواج وغير ذلك لكى تبقى سليمة ودون أن تفسدها عناصر غريبة •

٤ ــ تأمين الناس من سخط الآلهة وغضب الأرواح الخفية •

٥ ــ تأكيد الحياة للأطفال الصغار بمنعهم ومنـع آبائهم من أكل بعض المأكولات التى يعتقد أنها تضر بالحياة •

٦ ــ يقصد بفرض هذه المحرمات أو التابو احترام ملكية الأفراد

لأدواتهم الخاصة ضد السرقة والسطو عليها • ويؤمن المتأخرون أن من يخالف هـذه المحـرمات يعاقب عقاب تلقائيا • بمعنى أن روح التوتم والأرواح الأخرى ستنزل عليه ما يستحق من عقاب • ويعتقد من حوله أنه أساء اليهم وأنه لم يحترم العادات السـائدة كقوة ضابطة ، ولذلك فانهم يدعونه الى التكفير عنها بالطقوس الدينية ليتطهر ، أو ينزلون به العقاب • وفى الغالب يكون مصيره الطرد أو الموت باعتبار أنه أصـبح فى نظرهم نجسا ولا سبيل لأن يحيا بينهم ، ويعتبر هو نفسه فى هـذه الحالة من المحرمات التى يرعاها المجتمع ويتجنبها •

وقد يبدو للانسان المتحضر أن يكون سبب التحريم القداسة والنجاسة أى الجمع بين صفتين متناقضتين . ولكن يجب أن نعرف أن هذا الخلط فى فهم قيم الأشياء يرجع الى طبيعة العقلية المتأخرة التى يصعب عليها فهم مبدأ عدم التناقض . اذ أن من صفات العقلية المتأخرة الخلط بين المتناقضات . ويرجع ذلك الى اعتقادهم فى الأرواح والأشباح التى تتناسب مع مستواهم الحضارى . فمجموع الكائنات غير المرئية لا ينفصل عندهم عن مجموع الكائنات غير المرئية لا يبفصل عندهم عن مجموع الكائنات . وليست الكائنات الخفية فى نظرهم أقل وجودا ونشاطا من الكائنات المرئية ، بل أنها أكثر منها تأثيرا واثارة للرهبة . ولذلك فهى تشغلهم أكثر من غيرها وتصرف عقولهم عن التبصر وعن التفكير فيما نسميه نحن بالمدركات الوضعية ولو الى حد يسير (٩) .

٦ — الرموز :

هذا وترمز كل عشيرة توتمية الى توتمها برمز خاص تتفق عليه . ويأخذ هذا الرمز أشكالا عديدة يكون أحيانا عبارة عن صورة التوتم نفسه مرسوما أو مجسما . ويكثر هذا النوع من الرموز وتدق أشكاله فى العشائر التى ارتقى لديها الذوق الفنى وتقدمت فى ميادين الرسم والتصوير كعشائر الهنود الحمر بأمريكا .

وأحيانا يكون الرمز عبارة عن أشكال هندسية أو مجموعة خطوط ليس فيها شىء من صورة التوتم ، وانما اتفق على اتخاذها كرمز له . وينتشر هذا النوع من الرموز فى العشائر المتأخرة فى فن الرسم والتصوير كعشائر السكان الأصليين فى استراليا .

---

(٩) انظر ليفى بروك ، العقلية البدائية ، ترجمة محمد القصاص ، مكتبة مصر ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص ٥٣ .

وأحيانا تستخدم أجزاء من الحيوان أو النبات كرمز للتوتم • ففى بعض العشائر يرمز للتوتم بجلد الحيوان ، وفى البعض الآخر يدبغ الجلد ويحشى وينصب كأنه حى • وقد يرمز الى التوتم بتشكيل شعر الرأس أو بعض أجزاء الجسم فى صورة تشبه صورة التوتم أو صورة بعض أجـزائه •

ففى بعض العشائر التى تتخذ من السحاب أو المطر توتما لها يخلع للفرد ثناياه متى وصل الى مرحلة البلوغ أو أية مرحلة أخرى ، فيبدو تجويف فكه المظلم وهو محاط بأسنان بيضاء كأنه سحاب مظلم يتساقط منه مطر أبيض • وقـد يرمز الى التوتم بتشـكيل الملابس أو الدروع أو الأدوات الحربية فى شكل يشبه شكله ففى كثير من عشائر الشـمال الغربى فى أمريكا الشـمالية وفى غـيرهم يرمز الى التوتم بالوشم على أجسام الأفراد • وفى مناسبات حفلات الرقص الدينى والأعياد وبمناسبة المآتم يرمز أفراد العشيرة الى توتمهم بتنكرهم فى شكل يشبه شكله بأن يلبسوا جـلده أو ريشـه ويخفوا وجوههم بقناع يشبه وجـه التوتم ويحاكونه فى مشيته وحركاته وأصواته • وقد يرمز الى التوتم بعصـا أو بمجموعة من العصى بعد أن تضاف اليها مواد أخرى ، وتجرى عليها بعض عمليات وطقوس وترسم عليها أشكال خاصة ومن هذا النوع ثلاثة رموز توتمية هامة يستخدمها كثير من العشائر الاسترالية وتسمى عندهم : الشورنجا ، والواتنجا ، والنورتنجا •

فالشورنجا هى عبارة عن عصا طويلة تخترقها عرضا عصا أخرى واحدة أو عصوان اثنتان فى صورة تمثل شكل الصليب وتوصـل نهايتا العصا الأفقية أو نهايات العصوين الأفقيتين بنهايتى العصـا الرأسية بخيوط مجدولة من شـعر آدمى أو حيوانى •. أما النورتنجا فتتمثل فى

عصا طويلة أو عدة عصى مربوطة فى مجموع واحد وتوضع فوقها أعشاب يابسة وتلف حول الأعشاب خيوط مجدولة من شعر آدمى ويصـــنع من شعر بعض الحيوانات أو زغب بعض الطيور حلقة تثبت فى رأس هذه العصا أو عدة ضفائر تتدلى من رأسها الى أسفلها وتتزين قمتها بخصلة من ريش النسور (١٠) وتوجـــد الواتنجا لدى قبـــائل الأرونتا وقبائل الأورابونا وقبـــائل اللورد جاليت ، وهى تشـــبه النورتنجا فى تكوينها الأساسى •

يتضح مما تقدم أن كل عشيرة تنزل الرمز الخاص بتوتمها منزلة التقديس فى طقوسها وشعائرها الدينية المختلفة •

وتعد الرموز السابقة من أكثر هـــذه الرموز تقديسا واستخداما فى الطقوس والشعائر الدينية • وتحفظ هذه الرموز فى مخابىء خاصة بعيدة عن الطرقات ، وتعتبر هـــذه المخابىء مكانا مقدسا لا يسمح بالتجول فيه ولا بالقرب منه الا لمن عمدوا أو ألحقوا بالمجمع الدينى • كما يعتبر هذا المكان المقدس مكانا آمنا لا يرتكب فيه منكر ولا يصاب الملتجىء اليـــه بسوء وكثيرا ما يشار الى حدود هـــذا المكان الآمن باشارات مادية تمثلها قطع حجرية عند بعض العشـــائر • ولا يجوز اخراج هـــذه الرموز من مخائبها الا فى مناســـبات دينية وحربية خاصـــة أو اذا قبلت العشـــيرة اعارتها لمدة ما لعشيرة أخرى لتستمد منهـــا القوة والعون كما يتوهمون • وعند اعاراتها يتطلب اخراجها من مخائبها طقوسا دينية متعددة معقدة ، فتخرج فى موكب حافل • والمعتقد أن مصير العشيرة مرتبط بمصير هـــذه الرموز ، ويعتبر فقدانها أكبر كارثة تصاب بهـــا العشيرة • ومتى فقدت

---

(١٠) على عبد الواحد وافى ، التوتمية ، مرجع سابق ، ص ٢٤ .

العشيرة رمزا منها ظل جميع أفرادها أسبوعين كاملين يبكون وينتحبون ويلطخون وجوهم وأجسامهم بالطين .

وتبدو سيطرة الدين على ما عداه من النظم الاجتماعية الأخرى ، وعلى النظم الاقتصادية بصفة خاصة . ويبدو هـذا التأثير الدينى على المجال الاقتصادى فى دور الضبط الدينى فى ظاهرة البوتلاتش . وتعنى هـذه الكلمة فى لغة الجماعة المعروفة باسـم شيلوك العطـاء أو الهبة أو الهدية . وتستند ظاهرة البوتلاتش فى أساسها على الملكية . والملكية هنا لا ينظـر اليها نظرة مادية كالملكية العقارية (كالأراضى) أو الملكية المنقولة (كقطعان الماشية) ، وانما هذه الملكية تابعة لملكية أخرى أدبية أهم وأكبر وهى الملكية الشرفية ذات الصـفة الدينية ، وتنحصر فى الألقاب والامتيازات والنعوت ... الى غير ذلك من الصـفات الجمعية التى تدل على الوجاهة والاعتبار ، وما ينشـأ عن ذلك من القصص والأساطير والأغانى وزيادة السمعة .

وتسـاعد الديانة التوتمية على قيام الملكية الجمعية ، وفى الوقت نفسـه تقوم ظاهرة البوتلاتش على الروح الكلية ، وتشمل العشـائر والبطون ولا تشمل أفرادا بالذات . وعن طريقها يمكن تقديم الهدايا فى صـورة بذخ . كذلك تسـاعد الديانة التوتمية على سـيادة العادات والعرف والتقاليد المتوارثة التى تحظى باحترام المجتمع . وبذلك تخلق وراثة اجتماعية من جيل الى جيل ، ويمكن لظاهرة البوتلاتش أن تؤدى دورها ، ويكون لهـا مبررها الاجتماعى فهى تحطم الوراثة الاجتماعية الاتباعية ، وتغير من قيم العشـائر الاجتماعية كمـا تبدو فى العادات والتقاليد والعرف . ولهذا تعتبر البوتلاتش وسـيلة للتجديد وللتبادل الاجتماعى فى شكل شارات الوثنية والمركز الاجتماعى والملكيات .

فالبوتلاتش اذن أوجد نظاما اجتماعيا جـــديدا ينبنى على التعاقد الضمنى ويقوم على عناصر غير اتباعية من المنافسة والتحدى • وقد نشأ نظام البوتلاتش هذا من الديانة التوتمية عند الشعوب المتأخرة ، كما نشأ النظـــام الرأســـمالى فى الشـــعوب الراقية من الديانة البروتستانتية (على نحو ما ذهب ماكس فيبر) • كذلك آل نظام البوتلاتش الى السياسة فى شـــكل توزيع التواتم وتوزيع مراكزها الاجتماعية • وتصبح وظيفة البوتلاتش الاجتماعية التبديل والحركة فى النظام المتوارث الذى نزل من أجيال بعيدة عند الجماعات المتأخرة •

وهكـــذا يتضح مدى تداخل النظم الاجتماعية بعضها مع بعض ، وعدم امكان دراستها دراسة مســـتقلة عن غيرها من النظم الأخرى • فالبوتلاتش كنظام اقتصادى لا يمكن أن ينفصل عن الديانة التوتمية ، ولا عن الحكم وتنظيم السلطة كمظهر سياسى عند الجماعات المتأخرة •



الفصل الثامن

الزرادشتية ديانة وضعية

- مقدمة

أولا ـ الأسفار المقدسة للديانة الزرادشتية

ثانيا ـ العقيدة في الديانة الزرادشتية

ثالثا ـ العبادات والشرائع والأخلاق في الزرادشتية

١ ـ العبادات

٢ ـ الشرائع

٣ ـ الأخلاق



الفصــل الثامن

الزرادشــتية ديانة وضعية

مقـــــدمة :

يعتقد اليوم على الأرجح أن زرادشت ولد حوالى ســنة ٦٦٠ قبل الميلاد بأذربيجان احــدى مقاطعات ميديا على مقربة من بحيرة أورميا فى القســم الغربى من بــلاد فارس • ويروى عن مولده وعن الفترة الســابقة لمولده قصص وأساطير كثيرة يشــبه بعضها ما يقوله المسيحيون عن المسيح ، وأن روح الله قد حلت فيه ، أو أنه أحــد الأقانيم المكونة للاله • ويشــبه بعضها ما حدث لابراهيم الخليل من القائه فى النــار بدون أن يمسه منها ضرر • ويقص بعضها نبأ حوادث كونية وفلكيــة وحيوانية غريبة كانت ارهاصا لبعثته وبشيرا بقرب ظهوره(١) •

ولمــا بلغ زرادشت العشرين من عمــره أحس رغبة شــديدة فى الوقوف على حقيقة الكون وخالقه ومحتويات الطبيعة وما وراءها فآثر العزلة والرياضة الروحية والتأمل العميق فى ملكوت السموات والأرض ، لتصفو روحه ، ويوقن بقدرة الاله ، وتتطهر نفســه من جميع عقائد الشرك والسحر ونســبة الأفعال للكواكب والمخلوقات ، ويتهيأ لتلقى الاشراق والاهتداء الى معرفة الحق • وأخذ يطوف بمختلف بلاد ايران لتزداد تجاربه وتزداد معرفته بالمجتمعات وشئون حياتها • وقد استغرقت هذه

---

(١) اعتمدنا فى هذا الفصل على المصدر التالى : على عبد الواحد وافى ، الاسفار المقدسة فى الاديان السابقة للاسلام ، الطبعة الاولى ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، صص١٢٩ وما بعدها .

المرحلة عشر سنين ، فبلغ فى نهايتها الثلاثين من عمره • وكان حينئذ قد وصل الى أرقى درجات الصفاء الروحى •

ثم تلقى الوحى فى هـذه السن ، وظل زرادشت بعد ذلك التاريخ أكثر من عشر سـنوات يدعو الى دينه الجديد ويحاول أن يبلغ الناس برسالته الجديدة • ولكنه لم يصادف أى قدر من النجاح ، ولم يلق من أهله أو من غيرهم سـوى العنت والاضطهاد والتكذيب ، شأن أصحاب الرسالات •

ولمـا بلغ الأربعين وجاوزها بدأت هـذه المعارضـة الشـديدة تتحطم ، ثم تخف بعض الشىء ، وبدأ يصادف شـيئا من النجاح فى دعوته تلك • وكان ابن عمه متيوماه Metyomah أول المؤمنين به • ثم انتشرت دعوته ، وعرف بها كثير من الناس • وبذل زرادشت كثيرا من الجهد ولقى كثيرا من العنت والمؤامرات حتى وجدت دعوته آذان صاغية ، وآمن به الملك وحاشيته آنذاك • وانتشر الدين ، ولم تمض بضع سنين حتى اعتنق الزرادشتية معظم أهل ايران ، بل يقال انه دخل فى هـذا الدين الجديد كثير من أهل البلاد المجاورة لايران ، وخاصـة بعض بلاد من الهند • ويقول البعض انه انتشر كذلك فى بعض بلاد اليونان نفسها(٢)•

ولم تصبح الزرادشتية ديانة رسـمية للدولة الفارسية الا أيام الساسانيين فى القرن الثالث الميلادى • ولكنها على الرغم من ذلك لم تكن عقيدة الايرانيين عامة ، بل كانت تقوم الى جانبها وتتصارع معها عقائد شتى تعتنقها أقليات من الايرانيين • ومن أهم هـذه العقائد اليهودية ، والبوذية ، والمسيحية ، والمانوية ، والمزدكية • ثم جاء الاسـلام فدخل

---

(٢) على عبد الواحد وافى ، المرجع السابق ، ص ١٣٣ .

فيه معظم أهل ايران ، ولم يبق على الزرادشتية الا نفر قليـــل هاجر بعضهم الى بلاد الهند ، ولا تزال منهم فى الوقت الحاضر طائفة فى بومباى تعرف بالفرسيين وتتمسك بهذا الدين الى يومنا هـــذا • وبقيت فئة منهم فى فارس تقيم شـــعائر دينها ، وتوقد النار فى المعابد فى كثير من الولايات الفارسية • وعاشت هـــذه الفئة مع الأقليات الدينية الأخرى فى أمان واطمئنان فى ظل المسلمين • ثم أخذ أتباع الزرادشتية فى ايران يتناقصون عـــددا شيئا فشيئا منـــذ القرن الثالث الهجـــرى حتى أوشـــكوا على الانقراض ، ولم يبق منهم فى العصر الحاضر الا عدد قليل •

* * *

أولا : الأسفار المقدسة للديانة الزرادشتية :

يطلق على الأســـفار المقدســـة للديانة الزرادشتية اسم الأفستا Avesta (ومعناها الأساس أو الأصل أو المتن أو السند) • والمقرر فى هـــذه الديانة أن الأفستا موحى به من الاله المسمى عندهم « أهورا مازدا » ، وليس من وضع زرادشت[٣] •

وكان الأفستا يشتمل على واحد وعشرين ســـفرا ، وكان مجموع الفصول التى تشتمل عليها هـــذه الأسفار ألف فصل • ويحوى تفصيلا لعقائد الديانة الزرادشتية وعباداتها وشرائعها وتاريخها وما اجتازته من مراحل وتاريخ نبيها زرادشت من قبل رسالته ومن بعدها •

ويقال انه ســـجل على اثنى عشر ألف جلد من جلود البقر أو الثيران

---

(٣) المرجع السابق ذكره ، صفحة ١٣٥ .

أو المعز[٤] ، وأنه قد كتب حفرا فى الجلد ونقشا بالذهب • وفى هذا يقول السعودى فى « مروج الذهب » : « أن الأبستاق (أى الأفستا) كتب فى اثنى عشر ألف مجلد بالذهح ، فيه وعد ووعيد وأمر ونهى ، غير ذلك من الشرائع والعبادات » [٥] •

وقد فقدت جميع نسخ الأفستا بعد غزو الاسكندر لفارس سنة ٣٣٠ قبل الميلاد ، وفقدت معها تفاسيره • والمؤلفات التى كانت تشتمل على شىء من أجزائه • ويرجح الدكتور على عبد الواحد وافى أن اليونانيين قد تعمدوا اعدامها لما عرف عنهم من الاعتزاز بحضارتهم وعدائهم لحضارة الفرس وثقافتهم ، ولما طبعوا عليه من ميل للانتقام من الايرانيين ، ومجازاتهم على ما فعلوا بالآثار اليونانية ابان انتصارهم على اليونان قبل ظهور الاسكندر[٦] •

وظلت بعد ذلك نصوص الأفستا أو بعضها فى حوافظ الموابذة (وهم كبار رجال الدين عند الفرس) والفقهاء يتناقلونها ويتناقلها الناس عنهم مشافهة • فلابد أن يكون قد دخلها من جراء ذلك كثير من التحريف والتغيير والزيادة ، وأن يكون حظ كبير منها قد عدت عليه عادية النسيان •

وفى النصف الأخير من القرن الأول الميلادى (٥١ — ٨٧) شرع فولو بيسس الأول Vologeses (بلاش الأول) ملك فارس من الأسرة البارثية فى تدوين ما بقى من حوافظ الناس من الأفستا • وأكمل عمله هذا فى القرن الثالث الميلادى الملك أردشير مؤسس الدولة

---

(٤) المرجع السابق نقلا عن حامد عبد القادر ، زراد شت الحكيم ، ص ٦٦ •

(٥) نقلا عن أمين عبد المجيد ، القصة فى الادب الفارسى ، ص ٣١ •

(٦) على عبد الواحد وافى ، المرجع السابق ، ص ١٣٦ •

الساسانية • وبلغ ما تم تدوينه فى هذين العهدين واحدا وعشرين سفرا تشتمل على ٣٤٨ فصلا من فصول الأفستا ، التى كانت تبلغ ألف فصل كما قدمنا • أى انه قد فقد منه نحو الثلثين ، هـذا ما اعتور الفصول المدونة من نقص وزيادة وتحريف وتغيير عن أصولها نتيجة لتقادم العهد بها وتناقلها مدة طويلة عن طريق المشافهة كما سبقت الاشارة الى ذلك •

وكما فقد الأفستا القديم الأصلى ، فقد كذلك هـذا الأفستا الذى دون من حوافظ الناس فى عهد البارثيين والساسانيين • وجاء فى أثنـاء ذلك الاسـلام واعتنقه معظم الايرانيين ، ولم يبق على الزرادشتية الا أقليات ضئيلة لا يؤبه لها • وكان من جراء ذلك أن نسى الايرانيون معظم ما يتصل بالأفستا ، ولم يبق منه فى ذكرياتهم الا رواسب قليلة يتناقلها الخلف عن السلف • ومن هـذه الرواسب دون المؤرخون فى هـذه العصور ، ومنهم القوامى من مؤرخى العرب ، جميع ما كتبوه عن الديانة الزرادشتية •

وفى أواخر القـرن الثامن عشر الميلادى عثر أحـد علماء الآثار الفرنسيين على قسم من الأفستا الذى دون فى عهد البارثيين والساسانيين، فقام بنشره وترجمته ، وترجم بعد ذلك الى كثير من اللغات الحيـة • وهذا القسم هو كل ما يعرفه العلماء اليوم من الأفستا وهو يشتمل على خمسة أسفار لا تكاد تتجاوز فى مجموع فصولها ربع الأفستا الذى دون فى عهد البارثيين والساسانيين •

وهـذه الأسـفار هى : ـ

١ ـ سفر اليسنا Yasan (ومعناها العبـادة أو التسبيح) • ويشتمل على أدعية وصلوات كان يتجه بها الى الله والى الملائكة والكائنات

المقدسة ، واشارات الى تاريخ الدعوة الزرادشتية فى مراحلها الأولى •

٢ ــ سفر الفسبرد Visperd ، ويشتمل على أدعية وصلوات مكملة لما فى أليسنا وترتل فى مناسبات خاصة • ويبلغ عدد فصوله ثلاثة وعشرين أو سبعة وعشرين فصلا •

٣ ــ اليشتات أى الترنيمات أو المزامير • وهى احدى وعشرون ترنيمة تتلى فى مدح الملائكة المشرفين على أيام الشهر • فقد كان يعتقد أن لكل يوم من أيام الشهر الثلاثين حاميا وحارسا من الملائكة • وكان يسمى اليوم باسم حاميه وحارسه • وكان لكل ملك ترنيمة دينية خاصة تتلى باسمه • فلابد أن يكون عدد هذه اليشتات فى الأصل ثلاثين وأن يكون قد فقد منها تسع يشتات •

ويذكر البيرونى فى كتابه « الجماهر فى معرفة الجواهر » فى صدر هذه اليشتات أنه كان للملوك الساسانيين سبحة من الدر الثمين عدد حباتها واحد وعشرون بعدد اليشتات ، وكانوا يسمونها « نسك شمارة » أى عدد الأسفار ، لأنها بعدد كتبهم المعروفة بالأفستا • وتبعا لهذه الرواية يكون عدد اليشتات فى الأصل واحدا وعشرين فقط ، وتكون الحكمة فى الوقوف عند هذا العدد هو مطابقته لعدد أسفار الأفستا •

٤ ــ الخوردة أفستا أى الأفستا الصغير ، وهو سفر جامع لأدعية وصلوات خاصة بكل وقت من اليوم ، وبالأيام المباركة من الشهر والأعياد الدينية فى العام وأوقات الصحة والمرض التى تعرض فى الحياة • ويشتمل كذلك على بعض أحكام العبادات والزواج والزفاف •

٥ ــ الفانديداد Vendidad أى القانون المضاد للشياطين ويتألف

من اثنين وعشرين فصلا يعرض أولها للأمور نفسها التى تعرض لها الاصحاحات الأولى من سفر التكوين ، وهى خلق العالم والسموات والأرض ، فيتحدث عما خلقه الله من الأراضى الطيبة المباركة واحدة بعد أخرى ، وعما أوجدته قوى الشر من الأرواح الخبيثة • وتعرض بقية فصوله للنظم التى يخضع لها رجال الكهنوت من الزرادشتين ولبيان العقائد والشرائع الزرادشتية المتعلقة بالموت والحياة والزواج وما اليه من نظم الأسرة ومشكلات الحياة الاجتماعية والنجاسة ، والغسل والطهارة وغسل الموتى وتطهير الملابس والبدن والصحة والمرض ، والقسم وحفظ العقود ونقضها ••• الخ • ومن ثم يعد أهم مرجع للوقوف على محتويات الديانة الزرادشتية وتفاصيل شرائعها(٧) •

ثانيا : العقيدة فى الديانة الزرادشتية :

كانت الديانة الزرادشتية فى أصلها ديانة توحيد تدعو الى عبادة الاه واحد هو « أهورا مازدا » وتحارب الشرك وعبادة الأصنام والكواكب وقوى الطبيعة ، وكانت جميع أدعيتها وصلواتها وآيات أسفارها تتجه الى هذا الاله وحده • وقد أوضح هذه النقطة بكل جلاء الدكتور على عبد الواحد وافى فى كتابه المشار اليه ، وأورد بعض نصوص سفر « اليسنا » التى توضح ذلك وتبرهن عليه(٨) •

وكانت نصوص سفر « اليسنا » تصف ذلك الاله الزرادشتى الواحد بصفات القدم والبقاء والقدرة والارادة والعلم والمخالفة للحوادث،

---

(٧) المرجع السابق ، صفحة ١٤٠ — ١٤١ •

(٨) على عبد الواحد وافى ، المرجع السابق ، صفحتى ١٣٨ — ١٣٩ وكذلك صفحة ١٤٣ وما بعدها •

وأنه يعلم حقيقة كل ما فى هـذا العالم ، ولا يستطيع أحـد أن يصل الى معرفة حقيقته • فأهورا مازدا يطلق فى الأفستا على الذات المتصفة بهذه الصفات • بل ان اسم « أهورا مازدا » نفسـه يدل معناه فى اللغة الفارسية على ذلك • فهو مركب من ثلاث كلمات وهى « أهو » و « را » و « مازدا » ، ومعناها على الترتيب : أنا — الوجـود — خالق ، أى « أنا وحدى خالق الوجود أو الكون » (٩) •

ويلاحظ الدكتور وافى أنه قد دخل — على ما يبدو — على الديانة الزرادشتية فيما بعد كثير من التحريف والتبديل ، فانتهى بها الأمر فى عصورها الأخيرة الى أن أصبحت ديانة مثنوية أو ثنائية ، أى تعتقد بوجود الاهين : أحدهما « أهورا مازدا » وتجعله الها للخير ، والآخر « أهريمان » وتجعله الها للشر ، وتعتقد أن بينهما صراعا دائمـا لأن كليهما يرمى الى السيطرة على العالم • مع أن « أهريمان » هـذا — وهو فى الأصـل « أنكره مينو » ومعناه الخبث أو الشر — لا يذكر فى الأسـفار المقدسة للزرادشتيين فى مقابل أهورا مازدا على أنه شريك له • ولكنه يذكر فى مقابل « سبنتا مينو » ومعناه القدسية أو الخيرية •

فلم يكن فى أصل العقيدة الزرادشتية الاهان ، وانما كان فيهـا قوتان متضادتان أو مجموعتان من القوى المتضادة : احداهما مجموعة قوى الخير والنور والحيـاة والحق ، ويرمز اليها جميعا « سبنتا مينو » ويعمل على تحقيـق أغراضها سـبعة ملائكة قدسيون يمثلون الفضائل السبع العليـا وهى : الحـكمة والشجاعة والفقه والعـدل والاخلاص والأمانة والكرم ، والأخرى قوى الشر والظلام والموت والخداع ، ويرمز

(٩) المرجع السابق ، صفحة ١٤٤ نقلا عن حامد عبد القـادر ، زرادشت الحكيم ، صفحتى ٨٠ — ٨١ .

اليها جميعا « أنكره مينو » الذى تحول اسمه الى أهريمان ، ويقوم على تحقيق مقاصدها الآثمة سبعة شياطين خبيثة تمثل الرزائل الانسانية الرئيسية وهى : النفاق والخديعة والخيانة والجبن والبخل والظلم وازهاق الأرواح[١٠] .

وكلتا المجموعتين من القوى أو الدوافع مع توابعها وملحقاتها كانت خاضعة للاله الواحد المسيطر على كل شىء فى الوجود وهو أهورا مازدا . ويشير الدكتور وافى الى أن العلامة الشهرستانى ربما كان فى مقدمة المدركين لحقيقة الديانة الزرادشتية فى نشأتها الاولى ، وأنها كانت ديانة توحية ، اذ يقول فى كتابه الشهر « الملل والنحل » : « وكان دين زرادشت عبادة الله والكفر بالشيطان والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجتناب الخبائث » . ويقول الشهرستانى فى موضع آخر من كتابه الملل والنحل : « وقال زرادشت ايه البارىء تعالى خالق النور والظلمة ومبدعهما ، وهو واحد لا شريك له ولا ضد ولاند » [١١] .

ولما كانت ذات أهورا مازدا ذات روحانية خالصة مجردة من شوائب المادة لا تدركها الأبصار ولا تحيط بكنهها العقول ، ولما كان كثير من الناس لا يستطيعون الايمان بذات هذا شأنها الا اذا رمز اليها برموز مادية يستطيعونتصورها ، فقد رمزت الديانة الزرادشتية الى الذات العلية برمزين ماديين مشاهدين تقوى عقول الجماهير على ادراكهما ، ويشتمل كلاهما على بعض مظاهر من صفات الخالق ، فيستطيع

---

(١٠) نقلا عن حامد عبد القادر ، زرادشت الحكيم ، صفحة ٨٣ فى على عبد الواحد وافى ، المرجع السابق ، نفس الموضع .

(١١) نقلا عن الشهرستانى ، الملل والنحل ، الجزء الاول ، صفحة ٢٣٧ طبعة مصطفى الحلبى (وردت فى المرجع السابق ، صفحة ١٤٥) :

الناس بالتأمل فى صفاتهما تصور شيء من صفات أهورا مزدا على وجه التقريب والتمثيل . وهذان الرمزان أحدهما سماوى وهو الشمس والآخر أرض وهو النار . فكلاهما عنصر متلألىء مضىء طاهرمطهر لايتطرق اليه الخبث ولا الفساد ، وتتوقف عليـه الكائنات . وهـذه الصفات تشبه طائفة من صفات معبودهم نفسه وترمز اليها .

ولعل هذا هو السبب الذى جعلالديانة الزرادشتية تحرص على أن يوقد فى كل هيكل من هياكلها شعلة من النار ، وأن تظل هذه الشعلة متوهجة مضـيئة ، يتعهدها الموانده (كبـار رجال الدين) والهوابذة (صغار رجال الدين) ورجال الكهنوت . فيقدمون لها خمس مرات فى اليوم وقودا من خشب الصندل وما اليه من الأعشاب والمواد العطرية فيمتلىء الهيكل بعرقها الطيب وريحها الزكى ، وترتل حولها الأدعية وتقام الصلوات . وقدبالغ الزرادشيتون فى تقديس نار الهيكل ، فأوجبوا على رجل الدين أن يتلثم عنه اقترابه من النار خشية أن يصل اليها زفيره فيلوثها . وكان عليـه أن يتذكر حينما يدنو من هـذه القوة الأرضية أن هـذا النور الفياض انما يرمز الى أهورا مازدا(١٢) .

غير أنه يظهر — كما يوضح الدكتور على عبد الواحد — أنه قد دخل الديانة الزرادشتية ، فيما بعد ، التحريف والتبديل فيمايتعلق بتقديس النار ، فانتهى بها الأمر فى عصورها الأخيرة الى أن أصبحت ديانة مجوسية يعبد أهلها النار لذاتها ، بعد أن كانت مجرد رمز للاله ، تشتمل على شيء من صفاته ، وتقرب صوره للأذهان(١٣) .

---

(١٢) المرجع السابق ، صفحة ٨٧ .

(١٣) على عبد الواحد ، الاسفار المقدسة ، مرجع سابق ، صفحة ١٤٦

وكان يشارك النار فى صفة التقديس ثلاثة عناصر أخرى من العناصر الأرضية وهى : التراب والهواء والماء ، وان كانت فى مستوى أقل من مستوى النار • وأما الكائنات الأخرى فقد كان من بينها فى العقيدة الزرادشتية الطيبوالخبيث • ويعرف كل نوع بعمله وآثارة • فالطيب ما حسنت أعماله والخبيث ما كان مصدر شر وضرر كالثعابين والعقارب وكل ضار من الحيوانات • والعناصر الخبيثة تظل خبيثة ما دامت على قيد الحياة ، فاذا ماتت طهرت وجاز اتصالها بالعناصر المقدسة ، فيجوز دفنها فى التراب والقاؤها فى الماء • والعناصر الطيبة تظل طيبة ما دامت على قيد الحياة • فاذا فارقتها الحياة استحالت أجسامها الى رجس ونجس ، فلا يجوز لمسها الا بطقوس خاصة ولا يجوز اتصالها بالعناصر المقدسة •

ولهذا كانت جثة الميت من البشر منجسة لكل من يقربها ، ولكل طريق تمر به ، ولا يجوز أن تدفن فى باطن الأرض ولا تحرق بالنار ولا تلقى بالأنهار • لأن التراب والنار والماء عناصر مقدسة لا يصح القاء نجس فيها • ولذلك أقيم لجثث الموتى فوق قمم الجبال أبراج منعزلة عالية الجدران لا سقف لها يسمى كل برج منها « زخما » أو برج الصمت ، وتحمل اليها جثث الموتى نهارا على نعوش من حديد ، ثم تلقى فيها طعاما لجوارح الطيور • وكان كل من يلمس جثة ميت أو تلمسه جثة ميت يعد ملوثا ، ولا يطهر الا بعد طقوس دينية معقدة كل التعقيد • بل ان نجاسته هذه كانت تنتقل الى كثيرين من المجاورين له والى غيرهم[١٤] •

---

(١٤) انظر مزيدا من التفاصيل عن هذه الطقوس وتلك المعتقدات عند على عبد الواحد وافى ، المرجع السابق ، صفحة ١٤٧ وما بعدها ، وكذلك لنفس المؤلف كتب المسئولية والجزاء ، دار نهضة مصر ، الطبعة الثانية ، صفحتى ١٠٨ و ١٠٩ •

وتوجب الديانة الزرادشتية الايمان باليوم الآخر والبعث والنشور والحساب والجنة والنار على الا يختلف كثيرا فى جملة عما تقرره بعض الديانات السماوية • فتقرر عقائدهم — كما يوضح الأستاذ حامد عبد القادر فى كتابه عن زرادشت الحكيم — أن الساعة ستقوم على أثر حادث فلكى • وذلك أن كوكبا يصطدم مع الأرض ، فتميد بالناس ، وتخر الجبال هدا ، وتذوب العناصر ويصهر النحاس ويسيل الى جهنم ، ويغنى « أهريمان » وأنصاره من الشياطين ، ويغسل الناس فى منصهر النحاس ، ويجده الصالحون بردا وسلاما • ثم بعد ذلك يجمع أهورا مازدا الخلائق ، ويمدهم بحياة جديدة ويجازيهم بأعمالهم • وهذا فيما يتعلق بمن يكونون على قيد الحياة وقت قيام الساعة • أما الذين يموتون قبل ذلك فتحاسب أرواحهم عقب موتهم مباشرة • وذلك أن الروح تحوم عقب الوفاة فوق الجسد ثلاثة أيام تشقى فيها أو تنعم وفقا لسيرة صاحبها فى الحياة : ان خيرا فخير ، وان شرا فشر • وفى اليوم الرابع تهب من الجنوب على الروح الصالحة ريح طيبة تتضوع بالمسك ، وتتلقى روح الميت عند أول الصراط (واسمه بالفارسية « بل جنوات » أى جسر المفارقة) المضروب فوق جهنم ، بفتاة بيضاء الذراعين منقطعة النظير فى جمالها ، فتسألها من أنت فتقول : أيها الشاب الطيب السريرة الطيب القول الطيب العمل[15] أنا وجدانك وضميرك ، كنت محبوبة فزدت الناس محبة فى ، وكنت جميلة فزدتنى جمالا ••• الخ • ثم تمضى الروح بارشاد هذه الفتاة وهدايتها

---

(١٥) سنلاحظ فى مكان لاحق من هذا الفصل أن قوام الاخلاق عند زرادشت ثلاثة أمور هى :

— الفكر الطيب
— والكلم الطيب
— والعمل الطيب

انظر على عبد الواحد وافى ، الاسفار المقدسة ، مرجع سابق ،

الى حضرة أهورا مازدا ، فتعبر الصراط الى الجنة حيث يستقبلها ملك جالس على كرسى من ذهب عند باب الجنة فيفتح بابها ويقول لصاحبها أدخل سالما آمنا وتمتع بحياة هنيئة • أما روح الشقى فتلقى بمخلوق بشع المنظر نتن الرائحة ، ولا تستطيع العبور على الصراط فتهوى فى دركات النيران[١٦] •

ثالثا : العبادات والشرائع والاخلاق فى الزرادشتية :

١ ــ العبادات :

من أهم العبادات فى الديانة الزرادشتية تقديس النار على النحو الذى سبق شرحه ، والأدعية التى تتجه بها الى الاله والملائكة والأرواح المقدسة وقوى الخير ، والصلوات التى كانت تقام فى الهياكل خمس مرات حول النار المقدسة ، وتختم كل صلاة منها بعظات يلقيها رجال الدين على المصلين ليبينوا لهم معالم دينهم ويرشدوهم الى طرق الخير والفضيلة ويحذروهم من المعاصى • وتقام واحدة من هذه الصلوات عند بزوغ الشمس ، وواحدة عند الزوال ، وواحدة عند الغروب ، وتقام الصلاتان المكملتان للخمس بين هذه الصلوات الثلاث •

وكان الزرادشتى مقيدا بعدة طقوس وعبادات فى كثير من شئون حياته الخاصة كالأكل والنوم والاستيقاظ منه واضاءة المصابيح • وكان عليه أن يبقى نار الموقد فى داره مشتعلة لا تخبو ، وألا يسمح لضوء الشمس أن يقع على النار ، ولا للماء أن يلقى على النار ، ولا ليده أن

---

(١٦) انظر المرجع السابق نقلا عن أمين عبد المجيد ، القصة فى الادب الفارسى ، صفحة ٢٢ ، وكذلك حامد عبد القادر ، المرجع السابق ، صفحة ٩٢ والمراجع الاخرى الواردة هناك .

تمس جثة ميت ، أو جسد امرأة حائض ، وألا يلوث المـاء ، وألا يتكلم ولا يبكى فى أثنـاء الطعام •

وكان عليه اذا أشكل عليه أمر من أمور الدين أن يرجع الى رجال الدين • وكان الزرادشتيون يذهبون الى هياكل النارفى أيـام أعيادهم الرئيسية ليقيموا الصلوات ويبتهلوا الى أهورا مازدا بالدعوات وبخاصـة يوم التوبة وهوعيد النيروز ففى هـذا اليوم يفعـل الزرادشتيون كثيرا مما يفعله الناس فى أعيادهم الدينية • فيتبادلون الزيارات للتهنئة بالعيد الجديد ، ويستيقظ الواحد منهم من نومه مبكرا فيستحم ويلبس ملابسـه الجـديدة ، ويبتهل الى أهورا مازدا أن يغفر له ولأهله سـيئاتهم التى اقترفوها فى العام المنصرم • ثم ينصب الى هيكل النار ، فيجتمع هو واخوانه هناك ، ويسـتأنف معهم الدعاء ، ويطلب من الاله الرحمـة والرضوان ، ثميتصدق على الفقراء والمساكين • ومن هنـا قلنـا أن ما كان يفعله الزرادشتى فى عيدال نيروز قريب فى خطوط العام مما يفعله أى شعب فى عيده الدينى •

أما بالنسبة للاحتفالات الجنائزية فكان من عادة الزرادشتين بعد القاء جثة الميت فى برج الصمت أن يعزى أهل الميت ثلاثة أيام ، وأن يقام فى المســاء السابق لليوم الرابع حفل دينى يحضره أهل الميت وأصدقاؤه ، وأن توزع الصدقات رجاء أن يغفر الله له • وتجلس قريبات الميت على مقربة من المكان الذى مات فيه على بســاط يفرش على الأرض لتقبل العزاء من صديقاتهن ، من ثلاثة أيام الى عشرة بعد الوفاة •

وليس فى الديانة الزرادشتية رهبانية، بل انها لتكره كل ما يؤدى الى الخمول والى اضعاف الجسم •ومن الجدير بالذكر أنهاتنهى عـن الصوم الا فى ظروف خاصـة نادرة ، ولكنه ليس معروف كعبادة دينية عامة لأبنـاء هـذا الدين •

وكان يشرف على شئون العبادات الدينية وما اليها من أمـور دينية طبقتان من رجال الدين : احداهما تعرف باسم طبقة الموابذة ، ويسمى كل واحد منهم موبذان • وكانوا يتولون الوظائف الدينية العليا ويرأسهم الموبذ موبذان أى رئيس الموابذة • كانت وظيفة هذا الرئيس تعد أرقى الوظائف الدينية جميعا ، وهو الذى يوجه رجال الدين على اختلاف درجاتهم ويوليهم ويعزلهم • ولم يكن نشاط الموابذة مقصورا على الشئون الدينية ، بل انهم كانوا يمارسون كذلك شئون الطب والقضاء والتعليم ، ويشتركون فى ادارة الشئون السياسية للدولة وفى شئون التشريع والتنفيذ • ومن ثم كان لهم سلطان كبير على كل شخص فى البلاد ، مهما كانت مرتبته الدنيوية • أما الطائفة الثانية التى تتقدم على رعاية الشئون الدينية فتعرف باسم طبقة الهوابذة • وهؤلاء كانت منزلتهم دون منزلة الموابذة ، وكانوا يتولون اقامة الشعائر الدينية فى هياكل النار • ويورد حامد عبد القادر فى كتابه عن« زرادشت الحكيم مزيدا من التفاصيل عن سمات وخصائص ووظائف أبناء هاتين الطبقتين الدفينتين »(١٧) •

٢ — الشرائع :

تحث الشريعة الزرادشتية على العمل والسعى فى مناكب الارض لكسب الرزق وانتاج الثروة ، وخاصة الانتاج الزراعى وتربية الماشية • فمن نصوصها المقدسة أن من يشق الارض بمحراثه خير ممن يقدم ألفا من القرابين وممن يقدم عشرة آلاف من الادعية والصلوات • وتحث على النظافة والقضاء على الحيوانات المؤذية والهوام • وتضع على كاهل الفرد واجبات نحو نفسه وجسمه وأفراد أسرته وأفراد مجتمعه والانسانية

---

(١٧) انظر على عبد الواحد وافى ، المرجع السابق ، ص ص ١٥٢ — ١٥٣

جمعاء ، وتوجب صيانة النفس والمحافظة على الصحة ، وتحرم الانتحار تحريما باتا ، لأنه جناية على النفس والوطن • وتجعل الزواج واجبا على كل قادر عليه ، وتحث على تعدد الزوجات ليكثر النسل ويزداد عدد الجنود المحاربين فى سبيل النور •

وقد ورد فى الافستا أن « أهورا مازدا » قد أوحى الى زرادشت أن المتزوج أعلى منزلة من الاعزب ولو كان تقيا عفيفا ، وأن من له بيت (أى أسرة وزوجة) أعلى منزلة عند الله ممن ليس له بيت ، وأن من له خلف أعلى منزلة ممن ليس له خلف[18] • وكانت أكبر كارثة تحل بالرجل عند الزرادشتيين ألا تكون له ذرية • وكانوا يعتقدون أن من يدركه الموت من قبل أن ينجب أولادا لا يلج باب الجنة ، وأن أول سؤال يلقيه خزنة الجنة على من يقف ببابها هو سؤاله عما اذا كان قد ترك فى الدنيا من يخلفه • فان أجاب بالنفى حيل بينه وبين دخولها ، اذ لا يدخلها الا من ترك من بعده خلفا يخلد اسمه ويقدم لروحه ما تقرر الشريعة تقديمه من صلوات وقرابين • ويقرر التراث الزرادشتى أن « أشهى فانجوهى » (وهى لديهم رمز العفة ومصدر الخير والبركة والنماء) لا تقبل قربانا يقدمه اليها العقيم من الناس ، وأن أكبر جرم يرتكبه الافراد والرؤساء هو أن يضلوا الفتيات عن الزواج ، ويحاولوا بذلك بينهم وبين انجاب الاولاد[19] •

وتشبه أسفار الافستا وشروحها أسفار اليهود فى استيعابها لجميع فروع الشريعة ، فهى لا تغادر أى فرع من فروع الحياة الفردية والاجتماعيه الا وضعت له قواعد يسير عليها حتى شئون الاكل والشرب

---

(١٨) المرجع السابق ، صفحة ١٥٣ نقلا عن ادوارد وستر مارك فى كتابه تطور الاخلاق ، المجلد الثانى ، صفحة ٣٨٦ من الترجمة الفرنسية .

(١٩) على عبد الواحد وافى ، قصة الزواج والعزوبة فى العالم ، القاهرة دار نهضة مصر ، صفحة ١٠ .

وحلق الشعر وتقليم الاظافر • ونجد على سبيل المثال أن سفر الفانديداد يضع فى صدد قلامات الاظافر والشعر تعاليم واحتياطات تشبه ما هو معروف فى المعتقدات الشعبية (التقليدية) المتواترة لدى كثير من الشعوب حول هذه الموضوعات وحول الاحتياطات الواجب معالجتها بها • فيذكر سفر الفانديداد على سبيل المثال أنه من الواجب على الانسان أن يضع قلامات أظافره وقصاصات شعره على منضدة أمامه ، ويحرص عليها كل الحرص حتى لا يضيع منها شىء ، ثم يحملها بعناية ويخفيها فى حفرة عميقة ، والا كانت عرضة لأن تمتد اليها أيدى السحرة والمشعوذين فيستخدموها فى سحر صاحبها • وتدل هذه التعاليم على تأثر الزرادشتية تعقيدة قديمة مؤداها أن شعر الشخص وأظفاره تتجمع فيها جميع صفاته الشخصية • ولذلك كان التأثير فيها بخير أو شر وسيلة للتأثير فى الشخص نفسه(٢٠) •

والملاحظة الجديرة بالانتباه حول هذه الامور التى تحدثنا عنها فى فقرتى العبادات والشرائع أن كثيرا منها يختلط فيها التشريع فى شئون الحياة الدنيا بالعبادة التى يقصد بها وجه الله والدار الآخرة • معنى هذا أن الشىء الواحد قد يكون شريعة وعبادة فى آن واحد •

٣ ــ الأخلاق :

تدعو الديانة الزرادشتيه الى الفضائل نفسها التى تدعو اليها

---

(٢٠) انظر مزيدا من التفاصيل حول هذه الموضوعات كعناصر فى المعتقدات الشعبية فى المرجع التالى :

محمد الجوهرى ، علم الفولكلور ، الجزء الثانى وموضوعه دراسة المعتقدات الشعبية ، الطبعة الاولى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ .

الديانات ، وتنهى عما تنهى عنه من مظاهر الرذائل والفحشاء والامور المنكرة • وقوام الاخلاق عند زرادشت ثلاثة أمور هى :

الفكر الطيب ، والكلم الطيب ، والعمل الطيب • وكان لا يقبل دخول أحد فى الدين الزرادشتى الا بعدأن يؤخذ عليه بهذه الأمور ميثاق ذو صيغة محددة • وقد وردت صيغة هذا العهد فى الأفستا[٢١] •

---

(٢١) انظر حامد عبد القادر ، المرجع السابق ، مذكور عند على عبد الواحد وافى ، المرجع السابق ، صفحة ١٥٥ .

الفصـــل التاســـع

الكنفوشيوسية ديانة وضعية

١ ـ مقدمة

٢ ـ الاصلاح الأسرى

٣ ـ مضامين كتب كونفوشيوس



الفصـــــل التاسع

الكنفوشيوسية ديانة وضعية

١ ــ مقدمة :

تنسب الكنفوشيوسية الى واضعها كونفوشيوس أكبر فيلسوف ورجل الحكمة والاخلاق فى الصين (سنة ٥٥١ الى سنة ٤٧٩ق٠م) وقد عاش كونفوشيوس الذى يسميه الصينيون « كونج ــ تسو » [١] اثنين وسبعين سنة وعلى الرغم مما نسج حوله من أساطير بعده الا أن مـــن المعروف أنه ولد فى ولاية (لو) الاقطاعية بالصين وأنه شغل وظائـــف عديدة غير أنه انسحب منها معتزلا اياها مكرسا جهده لنشر الآداب الصينية وشرحها ، كما حث كونفوشيوس أتباعه على الاصلاح الاجتماعى وحاول وضع نظام أخلاقى وسياسى ابتغاء للسلام والعدالة والســـلم العالمى وأصبحت تعاليمه أساس النظام الخلقى للكونفوشيوسية التى تأسست أصلا على العقائد السابقة ثم تطورت فى بعض الاعمـــــال الهامة فى الادب الصينى،ومن أبرزها المنتخبات وهى أقوال كونفوشيوس وتلاميذه والمؤلفات الكلاسيكية التقليدية وكان كونفوشيوس هو محققها ، وهى المعروفة بالآداب القديمة الخمسة ، ويعتبر الكتاب الاول «التغيرات» أكثر الكتب قدما ، وثانيها هو كتاب « الاحداث التاريخية » أما الكتاب الثالث فهو ديوان الغزل والكتاب الرابع هو كتاب المراسيم أما الكتاب الخامس فهو كتاب الربيع والخريف ويسمى (شون شيو) ويؤكد المبدأ الاخلاقى الاساسى فى هذه الديانة على أهمية الروابط بين الافراد وذلك

---

(1) La Grande Encyclopedie Tome Douzieme op. cit. P. 397.

بالمحافظة على العلاقات بينهم ووضعها السليم • ويؤكد ما قاله كونفوشيوس ينبغى أن تعامل مرؤوسيك كما تريد أن يعاملك رؤسائك هذه هى القاعدة الذهبية فى الكونفوشيوسية على اعتبار أن الشخص فى جميع العلاقات الانسانية هو رئيس أو مرؤوس وقد أكدت الكنفوشيوسية على أهمية طاعة الابناء لابائهم والولاء العائلى واقامة نظام عالمى للحكومة مع التأكيد على اتباع الطريق الوسط وتجنب التطرف ، ومع أن الكنفوشيوسية أصلا نظام خلقى ، الا أنها تأثرت فيما بعد بالعناصر الدينية المستمدة من المعتقدات السابقة عليها ، ولقد ازدهرت الكنفوشيوسية فى فترتها الاولى وظل نظام الحكومة المأخوذ من تعاليمها قائما •

وبالرغم من اختلافها مع الطاوية والبوذية اللتين كثيرا ما تغلبتا عليها • وفى عصر حكم أسرة سانج ٩٦٠ — ١٢٠٩ م أعيد النظر فى النظام وتطور الى الكنفوشية الجديدة التى تعارض التأمل والهدوء اللذين تدعوا اليهما الاديان الوضعية الاخرى وذلك بالاهتمام بالتقدم عن طريق اكتساب المعرفة ، وينبغى على الانسان الاسمى وفقا لتعاليم الكنفوشية أن يراعى أربعة مبادىء : العلم الغزير والسلوك الحسن والطبيعة السمحة والعزيمة القوية • وهذه المبادىء الاربعة يمكن ايجازها فى كلمة العدالة (١) •

كان كونفوشيوس يؤمن بوجود اله يدبر الكون بحكمته وأنه يجب الا يعبدون سواه ، ولما وجد كونفشيوس قومه غارقين فى لجج الاهام منكبين على التأمل والتفكير فى عالم الارواح وفى ذات الله وجنده وملائكته والحياة الآخرة منصرفين عن الدنيا لا شأن لهم الا اقامة الشعائر الدينية وتقديم الاضاحى لارواح أسلافهم وللقوى الطبيعية المتعددة التى

---

(١) الموسوعة الميسرة — مرجع سابق — ص ١٤٨٦ •

رأوا مظاهرها فى كل ناحية والتمسك بالتقاليد القديمة الموروثة بعد تحريفها ، لم ينكر ما وجدهم عليه ولم يصدمهم فى عقائدهم ولكنه دعاهم الى سبيل الحقيقة بالحكمة والموعظة الحسنة(٢) •

٢ ـ الاصلاح الأسرى :

ولقد كان اصلاح الاخلاق الاجتماعية هو غاية كنفوشيوس ونظرا لأنه رأى بنفسه مدى ما أصاب مجتمعه من فوضى واضطراب فانه نسب ذلك الى ضعف البواعث الاخلاقية وانتشار الاتجاهات الفلسفية التى أثارها مفكرون سابقون ، ويرى أن لا سبيل الى القضاء على الفوضى الاخلاقية الا باصلاح النظام الاسرى فى المجتمع لان أساس المجتمع هو الفرد المنظم فى الاسرة المنظمة • وبذلك بشر بالاتجاه القائل بأن الرقى الذاتى هو أساس الرقى الاجتماعى أى أن الفرد هو حجر الاساس فى بناء الاسرة التى هى أول خلية حية فى البناء الاجتماعى ، ومتى استقامت اللبنة الاولى استقامت الحياة الاسرية • وعندما تستقر هذه الحياة الاسرية تصلح شئون الدولة ، ويرى كنفوشيوس الى جانب ذلك أن الحياة الاسرية المنظمة تلزم الافراد بنظام اجتماعى يفوق فى دقته ورقيه ما ترمى اليه القوانين الوضعية ، وذلك بفرضه عن طريق القوة والسلطة • ومتى كانت الاسرة غير سليمة فى دعائمها ومختلة فى نظامها فانه لا يتوافر التضامن الاجتماعى بين أفرادها ،ولا تستطيع أن تهيىء النظام الاجتماعى السليم ، وبالتالى لا يرجى للمجتمع أى تقدم ورفاهية لذلك ينبغى على أفراد الاسرة أن يعتمدوا على أنفسهم وعلى عقولهم وان يتزودوا من المعارف الانسانية بقدر يضمن القضاء على الدوافع

---

(٢) سنية قراعة ـ الرسالات الكبرى ـ مرجع سابق ـ ص ١٤٥ •

الشهوانية المرزولة • واذا ما تم تنظيم الاسرة بهذا التطهير والاخلاص والتضامن وطاعة الابناء للآباء والزوجات للازواج ، فان المجتمـع يتهيأ من تلقـاء نفسه لنظام اجتماعى يساعد الى حد كبير على قيام نظام سياسى يكفل الحرية والمساواة ويحقق العدالة • كما يرى كنفوشيوس أيضا قيام مجتمع عالمى واحد تديره حكومة ذات كفايات وفضائل ومواهب فلسفية لانها أقدر على فهم معانيا لخير والعدالة والمساواة وتســود فى ظل هذه الحكومة عاطفة حب الغير والمشاركات الوجدانية يجد الطفل وسائل النمو والشاب وسائل العلم والعامل وسائل العمل ويجد الكهل من يرعاه فى المجتمع ويعيش الفرد فى هذا النظام الاجتماعى العـــام مواطنا عالميا حرا يعمل وينتج لصالح المجموع وليس لصالحه • وبذلك تزول عوامل الانانية • ويدل ذلك على أن كنفوشيوس قد سبق بآراءه هذه جماعة الراقيين الفلاسفة وجماعة « اليوتوبيات » Utopies الذين ذهبوا الى أن وطن الانسان هو العالم كله • كما سبق أيضـــا الفلاسفة المحدثين الذين يرون ضرورة قيام هيئة عالمية تنسق بين مصالح الدول المتضاربة وتشرف على تنسيق الجهود الدولية المختلفة ، ففكرة العالمية تعتبر فكرة قديمة قدم التفكير الاجتماعى والسياسى • ويلاحظ فى هذا الصدد أن كنفوشيوس ينتمى الى اتجاهات المدن الفاضلة أكثر من انتمائه الى رجل السياسة أو الاجتماع •

ويبدو أنه كان يحلم بمجتمع مثالى تسيره حكومة مثالية • وكـــان ينسج من خياله نظما لا يمكن أن تتحقق وليس فى التاريخ من الامثلة ما يشهد بنجاح الحكومات التى تسترشد فى أعمالها بالنظريات المثالية ، غير أنه وفق عندما وجه الانتباه الى ضرورة اصلاح النظام الأسرى لأن

اصلاح المجتمع الكبير لا يتأتى الا عن طريق اصلاح هذا المجتمع الصغير(١) •

٣ — مضامين كتب كونفشيوس :

يتبادر الى الذهن سؤال ما هو مضمون الكتاب الاول والثانى والرابع التى تعتبر اهم كتب الكنفوشيوسية ، ولعل أهمية الكتاب الاول ترجع الى أنه يختلف عن مفهوم الكتب المتعارف عليها ذلك لأن كتاب التغيرات (يى كنج) مجموعة من ثمانية مخططات ثلاثية و ٦٤ مخططا سداسيا تتألف من خطوط مستقيمة وأخرى متقاطعة وغير متقاطعة وكل واحد من هذه الخطوط شبيه بالرموز الرياضية ولكنه أعقد منها ، ويدعى الصينيون باستمرار أن هذا الكتاب يحوى علوم البشرية كلها بما فى ذلك العلوم العصرية والنظرية لو كان فى أمكان أحد أن يحللها الا أن المعنى الحقيقى لهذه الخطوط الثلاثية والسداسية قد شملها النسيان وبقيت قرونا طويلة تستعمل كرموز للسحر والعرافة ، وقد أضاف لهذا الكتاب كونفوشيوس شروحه الخاصة بعد أن تعمق فى بحثها وكان مقتنعا بالعلم الشامل الذى تتضمنه هذه الكتب وبأن المشكلة تنحصر فى توافر الوقت الكافى لدراستها • وكتب فى هذا الصدد لو كانت لدى خمسون سنة لدراسة كتاب التغيرات لكنت حريا أن أتحرر من الخطأ الجسيم ، ويمثل الشكل السداسى خطوط (لى) (وأنا) الوارد ذكره فى كتاب التغيرات والذى جمعه كونفوشيوس وحافظ عليه ويمكن صياغته بموجب النظرية الرمزية بألفاظ فى :

١ — يشير الخط الاول الى أن صاحب العلاقة أو الفرد الذى يقيم

---

(١) مصطفى الخشاب — علم الاجتماع ومدارسه — الكتاب الاول — تاريخ التفكير الاجتماعى — مرجع سابق — ص ٣٣ •

علاقات مع الآخرين فى مجتمعه بانتظام يسلك الطريق المعروف ومتى سار قدما فانه لا يخطىء •

٢ — يشير الخط الثانى الى أن الفرد فى علاقته يسلك طريقا سويا معبدا وأنه رجل هادىء وحذر وحيد وأنه اذا بقى محافظا على الحشمة والحياء واللياقة فان يصيب خطا كبيرا •

٣ — يشير الخط الثالث الى أن الفرد رجل أعور يعتقد أنه يستطيع الرؤيا ورجل أعرج يتصور انه يستطيع المشى ومن يطأ ذنب نمر فينهشه فان هذا يشير الى حظ نحس •

٤ — ويشير الخط الرابع الى أن الفرد يطأ ذيل أو ذنب النمر لكنه حذر ومتوقع للشر لكنه فى النهايةينال حظا حسنا •

٥ — الخط الخامس يشير الى أن الفرد يمشى بثبات وبالرغم من صموده وتصميمه فان هناك خطرا ينتظره •

٦ — الخط السادس يشير الى أنه ينبغى على الافراد أن يتدبروا المسلك المتبع وأن يتبينوا المحظورات فان كانت كاملة لا اخفاق فيها فانها تؤدى الى حسن حظ •

وقد أحيطت هذه الخطوط بعديد من ادفاءات من بينها أن كونفوشيوس نفسه قد اخترع بعضها ومع ذلك فهى تعتبر فى الوقت الحاضر رموزا مقدسة يعكف عليها العلماء الصينيون لدراستها دراسة جادة •

أما الكتاب الثانى أو كتاب الاحداث التاريخية (شوك آنج) فهو عبارة عن نبذة من تاريخ الصين الى آخره •

أما الكتاب الثالث فهو يتضمن الغزل (شيه ك انج) واعتقد فيه كونفوشيوس بأن الانسان اذا ما قرأ الشعر يوميا فانه لا يجنح الى الخطأ ، ويتألف هذا الكتاب من مجموعة أناشيد دينية وأناشيد الاعياد والترانيم والمدائح •

والكتاب الرابع المراسيم (لى ك انج) الذى يسمى بسفركونفوشيوس كان حريا بكونفوشيوس الذى لم يدع تعليم الدين ان يدمج كتاب المراسيم فى كتاب ديوان الغزل غير انه تقصد عدم ادماجه لتأكيد تعلقه بالطقوس الدينية والمراسيم ، كما أكد فيه على أن التقاليد أساس الحشمة والقيام بالعمل الصحيح بالطريقة الصحيحة ، وهذه هى الطريقة التقليدية فى الديانة الكنفوشيوسية ولا تكون المراسيم المتعلقة فى تصرف ما مجرد زخرف ولكنها كانت فى الواقع جزءا مهماه نه وأدرك كونفوشيوس أن الخطر يمكن فى أن يقبل الناس مراسيم الطقوس الدينية ويهملون الخلاصة والروح ،ولذلك كان موضع تحذير دائم منه لاتباعه ، ويمكن اعتبار الكنفوشيوسية مذهبا اخلاقيا أكثر منها ديانة لأنها تعتمد فى مبادئها الاساسية على الاخلاق والارشاد والنصح • كما أن كونفوشيوس نفسه يمكن اعتباره حكيما أو فيلسوفا أو مصلحا إجتماعيا وأخلاقيا ، ولعل كثيرا ممن كتبوا عنه فى ذلك ومنهم « لين توتانج » فى كتابه حكمة كونفوشيوس قد ذهب الى أن للكنفوشيوسية وتعاليمها حظا أكبر رغم المثالية أو اليوتوبيا التى احتوت عليها(١) •

---

(1) The wisdom of confocious, Modern Liberarg New York, 1930, pp. 8-25.



الفصـــــل العاشر

الهندوسية ديانة وضعية

ـ مقدمة

أولا : الله فى التفكير الهندوسى ٠

ثانيا : الطبقات فى الفكر الهندوسى

ثالثا : أهم عقائد الهندوسية

١ ـ الكارما

٢ ـ تناسخ الأرواح

٣ ـ الانطــلاق

٤ ـ وحدة الوجود

رابعا : الكتب المقدسة عند الهندوس

خامسا : كلمة ختامية عن الهندوسية



الفصـــــل العاشر

الهندوسية ديانة وضعية

مقـــدمة :

الهندوسية هى ديانة الغالبية العظمى من سكان الهند اليوم • وقد قامت على أنقاض الديانة الهندية وتشربت أفكارها ، وورثت منها الملامح الهندية القديمة والاساطير الروحانية المختلفة التى نمت فى شبه الجزيرة الهندية قبل دخول الآريين • ولهذا يعدها الباحثون ــ كما أوضـــح ذلك الدكتور أحمد شلبى ــ امتدادا للفيدية وتطورا لها(١) •

ويطلق البعض على هذه الديانة اسم البرهمية ابتداء من القـــرن الثامن قبل الميلاد نسبة الى براهما Brahma ، وهو القوة العظيمة السحرية الكامنة التى تطلب كثيرا من العبادات كقراءة الادعية وانشاد الاناشيد وتقديم القرابين • ومن براهما اشتقت كلمة « البراهمة » لتكون علما على رجال الدين الذين كان يعتقد أنهم يتصلون فى طبائعهم بالعنصر الالهى ، وهم لهذا كانوا كهنة الأمة ، لا تجوز الذبائح الا فـــى حضرتهم وعلى أيديهم •

وفيما يتعلق بتاريخ هذه الديانة فقد قررت الدراسات العديدة فى تاريخ الاديان أنه ليس لها مؤسس معين ، أو مصدر محدد ، فهى أسلوب

---

(١) انظر أحمد شلبى ، مقارنة الاديان ، المجلد الرابع بعنوان : أديـــان الهند الكبرى (الهندوسية والجينية والبوذية) ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، صفحة ٣٩ وما بعدها . وكذلك المراجع العديدة الواردة هناك • وقد اعتمدت على هذا المصدر فى عرض الهندوسية .

فى الحياة أكثر مما هى مجموعة من العقائد والمعتقدات ، وتاريخها يوضح استيعابها لشتى المعتقدات والفرائض والسنن ، وليست لها صيغ محددة المعالم ، ولذا تشمل من العقائد ما يهبط الى عبادة الاحجار والاشجار ، وما يرتفع الى التجريدات الفلسفية الدقيقة .

وكما أن الهندوسية ليس لها مؤسس معين ، فان الفيدا كذلك ، وهى الكتاب المقدس الذى جمع العقائد والعادات والقوانين بين دفتيه ، فهو الآخر ليس له واضع معين . وقد اكتشف الباحثون الغربيون وكذلك الدارسون الهندوس المعاصرون أنفسهم أن كتاب الفيدا قد نشأ فى قرون عديدة متوالية لا تقل عن عشرين قرنا بدأت قبل الميلاد بزمن طويل . وقد أنشأه أجيال من الشعراء ، والزعماء الدينيين ، والحكماء الصوفيين جيلا بعد جيل وفق تطورات الظروف وتقلبات الشئون(٢) .

والفيدا ليس فى الحقيقة كتابا واحدا ، ولكنه يشتمل على أربع كتب دينية هى :

١ — الربح فيدا : وهو أشهر الكتب الاربعة وأهمها وأشملها ، كما يبدو من مقارنة موضوعاته بموضوعات الفيدات الثلاث الاخرى . ويقال ان الربح فيدا قد تم تأليفها فى تاريخ يعود الى ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد . وتشتمل على ١٠١٧ أنشودة دينية وضعت ليتضرع بها أتباعها أمام الآلهة أو يتغنون بها عن الآلهة . وأشهر الالهة الذين ورد ذكرهم فيها هو الاله « اندرا » اله الآلهة . ثم يجىء بعده الاله « أجنى » اله النار وراعى الأسرة ، فالاله فارونا ، فالاله سورية (الشمس) وغيرهم .

---

(٢) احمد شلبى ، المرجع السابق ، نقلا عن المصدر التالى :
محمد عبد السلام ، فلسفة الهند القديمة ، فى : ثقافة الهند ، عدد مارس ١٩٥٣ ، صفحة ٣ .

ولا يزال الهنود يتغنون بأناشيد من اليربح فيدا ، يرتلونها فى صلواتهم صباحا ومساء ويتيمنون بتلاوتها فى حفلات زواجهم ، كما كانوا يفعلون منذ ثلاثة آلاف عام .

٢ — ياجور فيدا ، وتشمل العبادات النثرية التى يتلوها الرهبان عند تقديم القرابين .

٣ — ساما فيدا وتشمل الاغانى التى ينشدها المنشدون أثناء اقامة الصلوات وتلاوة الأدعية .

٤ — آثار فيدا وتشمل مقالات فى السحر والرقى والتوهمات الخرافية مصبوغة بالصبغة الهندية القديمة . فالحياة الهندية كما يصورها كتاب آثار فيدا مملوءة بالآثام ، والكون محتشد بالشياطين والكائنات الخرافية الشريرة التى ليس لها من شغل سوى تخويف الناس .. ويصور هذا الكتاب لجوء الناس الى الخرافات والرقى والسحر ليحموا أنفسهم من تلك الأخطار .

أولا : الله فى التفكير الهندسى :

يوجد فى التفكير الهندوسى فيما يختص بالاله نزعتان مختلفتان تمام الاختلاف ، وهما نزعة الوحدانية ونزعة التعدد . وان كانت نزعة التعدد أقوى وأكثر انتشارا . وقد بلغ التعدد عند الهندوس مبلغا كبيا . فقد كان عندهم لكل قوة طبيعية تنفعهم أو تضرهم اله يعبدونه ويستنصرون به فى الشدائد كالماء والنار والانهار والجبال وغيرها . وكانوا يدعون

تلك الآلهة لتبرك لهم فى ذريتهم وأموالهم من المواشى والغلات والثمر وتنصرهم على أعدائهم(٢) •

ولم يصل الهندوس الى عبادة هذه الظواهر دفعة واحدة ، مروا بمراحل انتهت بهم الى عبادتها • ويصور أحد الباحثين مراحل هذا الانتقال بقوله : وكانت المظاهر الكونية الجميلة والمناظر العظيمة باعثة لايقاظ الشعور الدينى فيهم ، فأعجبوا بهذه المظاهر واستمتعوا بها ، وشكروا لها وامتنوا ، وأثنوا عليها ، ثم ظنوا أن لهذه المظاهر أرواحا ونفوسا كما أن لهم هم أرواحا ونفوسا • واعتبروا هذه الأرواح قوى كامنة وراء المظاهر وبيدها أن تمنحهم هذه المظاهر التى أعجبتهم أو تحجبها عنهم ، فتقربوا اليها بالعبادة والقرابين واعتبروها آلهة ، ودعوها عند الحاجات •

وعلى هذا كثرت الآلهة عندهم كثرة زائدة ، ولكنهم فى وسط هذا التعدد كانوا يميلون أحيانا الى التوحيد أو اتجاه قريب منه ، فقد كانوا اذا دعوا اليها من آلهتهم أو أثنوا عليه أو تقربوا اليه بقربان ، أقبلوا عليه بكل عواطفهم وميولهم حتى يغيب عن أعينهم سائر الآلهة والارباب • ويصير الههم هو ذلك الاله لا غير ، فيسمونه بكل اسم حسن ويصفونه بكل صفة كمالية ، ويخاطبونه برب الارباب واله الآلهة تعظيما واجلالا لا تحقيقا وايقانا على نحو ما يوضح الاستاذ محمد عبد السلام(٣) واذا عطفوا على اله غيره أقاموه مقام الاول ، وجعلوه رب الارباب واله الآلهة • فهذا التعبير « رب الأرباب أو اله الآلهة » كان أولا يدل على

---

(٢) المرجع السابق ، نقلا عن محمود على خان ، فى التقديم لاناشيد الربح فيدا ، صفحة ٧٧ .

(٣) محمد عبد السلام ، فلسفة الهند القديمة ، فى (ثقافة الهند) ، عدد مارس ١٩٥٣ ، صفحة ١٠ ، مرجع مذكور عند أحمد شلبى ، فى المرجع السابق ذكره ..

العظمة والجلال • فلما مضت القرون على هذا النحو أصبح هذا التعبير ثابت المعنى ، أى أنهم اعتقدوا فعلا فى وصف الآلهة رئيسا ومرءوسين وآمرا ومأمورين ، وأن الرئيس والآمر هو وحده رب الأرباب واله الآلهة • وهـذا وصف ثابت له لا ينتقل الى سـواه ، والكائنات كلها تحت يده وسائر الآلهة تحت أمره •

وحوالى القرن التاسع قبل الميلاد وصل فكر الكهنة الهنود الـى ابراز هذه النتيجة التى تقرب من التوحيد أو تصل اليه ، فقـد جمعـوا الآلهة فى اله واحد ، وقالوا انه هو الذى أخرج العالم من ذاته ، وهو الذى يحفظه الى أن يهلكه ويرده اليه • وأطلقوا عليه ثلاثة أسماء ، فهو « براهما » من حيث موجد ، وهو « فشنو » من حيث هو حافظ ، وهو « سيفا » من حيث هو مهلك • وهكذا فتح الكهنة الهنود البـاب للمسيحيين فيما يسمى : تثليث فى وحدة ووحدة فى تثليث • غير أنـه من المهم أن نلاحظ أن هذا الثالوث الجديد قد ظهر متأخرا نتيجة للتطور الذى أشرنا اليه • ولهذا فليس له أى ذكر فى الفيدا • أما الآلهة الواردة بالفيدات فعديدة ، ولكنها اجتمعت فى ثلاثة آلهة رئيسية هم : « فارونا » فى السماء ، « واندرا » فى الهواء ، « وأجنى » على الارض •

ومن الجدير بالذكر أن هذه الآلهة التى تحدثنا عنها باختصـار فيما سبق ، انما تمثل آلهة طبقات الهندوسى الأربعة التى يتكون منهـا المجتمع الهندوسى • أما المنبوذون فلهم تفكيرهم الدينى الخاص ، اذ لم يكونوا محسوبين أعضاء بذلك المجتمع ، ولم يكونوا تابعين للمجتمـع الهندوسى • ولعل من الأفضل أن نقـدم هنا لمحة موجزة عن عقائدهم ووضعهم السياسى والاجتماعى فى عهد سيطرة الهندوسية •

المنبوذون هم عبارة عن سكان الهند الاصليين الذين لا يجرى فى عروقهم الدم التورانى أو الدم الآرى ، ويسمون — مجازا — « زنوج

الهند » ، فقد حرمهم المجتمع الهندوسى حقوق الانســـان ، ونزل بهم الى مستوى أقل أحيانا من مستوى الحيوان • ولم يسمح لهم بأن يعتنقوا الدين الهندوسى ، أو يتخلقوا بآدابه • وتركوا هكذا فى حيـــاة بدائية مريرة • ولهذا السبب اتجهوا فى تدينهم الى الأمور البدائية ، فأصبح دينهم أشبه بعبادة الارواح التى اعتصمت بها الشعوب الفطرية ذات التفكير البدائى البسيط • وهكذا نجد أن أعظم الآلهة فى مجتمـــع المنبوذين قد يكون عبارة عن كومة من الحجارة تمثل • أم القرية أو شيطانها الذى يمنح الخصب للنساء العاقرات ، ويحمى المحصول من الآفات ، ويرعى القرية بعنايته ورعايته • وقد يكون للمنبوذ فكرة غامضة مبهمة عن كائن سام عظيم ، ولكنه الى جانب ذلك يؤمن بجملة من الأرواح الشريرة[٤] •

ولا يزال المنبوذون يعانون هذا أو أكثره حتى اليوم ، فالحـــرف الحقيرة وقف عليهم ، ودور العلم لا تفتح أبوابها لهم الا قليلا • وقد دفع هذا الوضع برؤسائهم أن يهددوا باعتزال الهندوس والدخـــول فى مجتمعات الأديان الاخرى • ومن أجل هذا خفت حدة هذه المعاملة القاسية التى كان يعاملهم بها الهندوس خوفا من أن ينضموا الى الأديان الأخرى التى تحارب الهندوسية • وساعد على ذلك ما أصدرته الحكومة الهندية من قوانين المساراة • ومن المعروف أن تلك القوانين الأخيرة لم تفلح فى تحقيق المساواة الكاملة بين الهندوس (بطبقاتهم الاربع) ومجتمع المنبوذين ، ولكنها مع ذلك ساهمت فى تحسين أحوال هؤلاء المســـاكين بعض الشىء •

---

(٤) جيب سعيد ، أديان العالم الكبرى ، وصفحة ٣٨ ــ ٣٩ ، مرجـــع مذكور عند أحمد شلبى ، المرجع السابق .

وقد انتهزت فرق التبشير المسيحى هــذا الوضــع فتوغلت بين جماعات المنبوذين تدعوهم الى الدخول فى المسيحية • وما زالت جهــود المسلمين ــ للأسف ــ محدودة فى سبيل الدعوة الى الاسلام بينهــم وتقديم العقيدة الاسلامية لهؤلاء المنبوذين • والأمل أن يتنبه المسلمون الى هذه الرسالة الجليلة فى المستقبل القريب •

ثانيا : الطبقات فى الفكر الهندوسى :

كان المجتمــع الهنــدى بعد الغزو الآرى مقســما الى طبقــات لا يؤاكل بعضها بعضا ، ولا تتزاوج فيمــا بينها ، ولا تختلط اختلاطا حــرا(٥) • ثم استمر هــذا التقسيم الطبقى أمد التاريخ كله • وهــذا أمر من شأنه أن يجعل سكان الهند شيئا يخالف المجتمعات الاوروبيــة والمغولية ، تلك المجتمعات البسيطة السهلة التزواج ، فهو فى الحقيقة — وكما يسميه الدكتور أحمد شلبى ــ مجتمع مجتمعات •

ويشير أحد الباحثين المتخصصين فى دراسة الهندوسية الى نقطة هامة هى أن نظام الطبقات بدأ يظهر عندما بدأ اختلاط سمح بتكوين مجتمع موحد من هذه العناصر المتباينه • أما قبل هذا الاختلاط فلم تكن هناك ضرورة لتكوين هذا النظام • فنظام الطبقات كان وسيلة للمحافظة على سلامة العرق السامى بعد أن خيف عليه من الاندماج فى الأجناس الأخرى التى بدأ يتصل بها • ويؤكد العلامة بين Berry مؤلف كتاب « أديان العالم » على هذه النقطة ويؤيدها اذ يقرر أن نظام الطبقات لم يظهر الا فى قوانين « منو » حوالى القرن الثالث قبل الميلاد(٦) •

---

(٥) المرجع السابق ، نقلا عن ج.هـ. ويلز ، مختصر تاريخ العالم ، الطبعة الاصلية ، صفحة ١٢١ — ١٢٢ •.

(٦) المرجع السابق ، نقلا عن بيرى :
Berry, Religions of He World , p. 40.

والجدير بالملاحظة بالنسبة لقضية عدد الطبقات أو تصنيفها أن نلاحظ أن هـــذه الطبقات الأربعة ليست فى الحقيقة الا تبسيط للحديث عن نظام الطبقات فى الهند • اذ أن الهنود مجتمع تنتشر فيه الطبقـــات حتى أن عدد طبقاته الآن يبلغ حوالى ثلاثة آلاف طبقة(٧)• ويذكر بيرى أن طبقة الكهنة حافظت طويلا على نقائها • أما الطبقات الثلاثة الاخرى فقد تفتتت ونشأت عنها طبقات كثيرة • وغنى عن البيان أن المنبوذين لم يدخلوا هذا التقسيم ، ولا أى تقسيم آخر ، ولم يكونوا احـــدى طبقات المجتمع الهندوسى ، اذ لم يعدوا منه ، على نحو ما سبقت الاشارة فيما سلف •

على أن الفلسفة الهندية لم تقنع بالجنس والعنصر سببا لنشأة نظام الطبقات ، بل رأت أن تربطه بنص مقدس • فورد فى قوانـــين « منو » نص يوضح خلق براهما للكائنات : « ••• ثم خلق « البرهمى » من فمه ،« والكاسترِيا » من ذراعه ، و « الويشـــيا » من فخـــذه ، و « السودرا » من رجله • فكان لكل من هذه الطبقات منزلته على هـــذا النحو » • وبناء على هذا التفكير الذى يرى أن الطبقات خلقها الله على هذا الوضع يصبح هذا التقسيم أبديا • فهو من صنع الله ولا طريق لازالته • وعلى هذا لا يرتفع أى شخص من أى قسم الى قسم أعلى •

كما يترتب على هذه المقدمة نتيجه منتشرة مؤداها الاعتقاد بـــأن الابن يأتى على نمط أبيه ، لا يجوز لرجل أن يتزوج امرأة من طبقة أعلى من طبقته لعدم الكفاءة ، ولأن أولاده منها سيهبطون الى مستواه • وتعد هذه ــ من وجهة نظرهم ــ خسارة على التكوين الاجتماعى • ولكن يجوز

---

(٧) نقلا عن :

Weech , The Peoples and Religions of India , p. 314.

للرجل أن يتزوج امرأة من طبقة أقل من طبقته على ألا تكون من الطبقة الرابعة (أى طبقة الشودرا) التى ليست الا للخدمة ، ولا تسمو لأن يتزوج منها أحد أفراد الطبقات العليا الثلاثة • وجاء فى قوانين «منو» : « أن الرجل من الطوائف الثلاثة الشريفة ان غلبه الحب فتزوج بامرأة من غير هذه الطوائف ، فانه سوف يرى هلاك أسرته » •

وتلتقى هذه الطبقات الأربعة فى الاعتقاد بالآلهة ، وكلها تقدس البقرة ، وكلها تخضع للنظام الطبقى ، والبراهمة هم ملجأ الجميع فى حالات الميلاد والزواج والوفاة •

وقد تحدثت شرائع « منو » بالتفصيل عن وظائف كل طبقـــة على النحو الآتى :

« لكل طبقة من طبقات المجتمع الهندوسى وظائفها وواجباتها ، فعلى البرهمى أن يشتغل بالتعلم والتعليم ، وبارشاد الناس فى دينهم ، فكان هو المعلم والكاهن والقاضى • أما كشتريا فكانت وظيفته أن يتعلم ويقدم القرابين ، وينفق فى الصدقات ، ويحمل السلاح للدفـــاع عن وطنه وشعبه ، أما ويشيا فعليه أن يزرع ويتجر ويجمع المـال وينفق على المعاهد العلمية والدينية • وأما شودرا فعليه أن يخدم الطوائـف الثلاثة الشريفة »(٨) •

ولا يزال النظام الطبقى سائدا فى الهند ، وقد اتخذ أحيانا أسسا جديدة • فمن ذلك ما يذكره أحمد شلبى على سبيل المثال من ظهــور

---

(٨) أحمد شلبى ، مقارنة الاديان ، مرجع سابق ، صفحتى ٥٦ — ٥٧ ، وكذلك المراجع الواردة هناك والمنقول عنها هذا النص .

مذهب « السك » الذى أنشىء لخلق دين موحد من الهندوسية والاسلام. ولم يفلح هؤلاء فيما قصدوا اليه ، ولكنهم سرعان ما اتخذوا من مذهبهم أساسا لنظام طبقى . فقد عدوا أنفسهم طبقة مستقلة ذات كيان خاص ورفضوا التزاوج مع سواهم . ومن تلك التطورات الجديدة التى ظهرت كبديل لنظام الطائفة ما يعرف باسم « نظام القرية » الذى لا يسمح أحيانا بالزواج بين سكانها وسكان قرية أخرى .

وهناك محاولات جديدة ذات طبيعة أخرى تزعمها الزعيم الهندى الكبير غاندى للتخفيف من حدة هذه الطبقات أو ازالتها ، وكذلك لانصاف طبقة المنبوذين بوجه خاص . ولكن هذه المحاولات لم يقدر لها نجاح يذكر، وكان الزعيم الهندى نفسه ضحية من ضحاياها . وتعتمد هذه المحاولات على اتجاه فلسفى جديد لهذا التقسيم ، بأن تذكر بأنه ليس خلقيـــا ولا طبيعيا ، وليس الا توزيعا للأعمال حسب طبع كل انســان وميلة واستعداده .

ثالثا : أهم عقائد الهندوسية :

يمكن تلخيص أهم العقائد الاساسية فى الديانة الهندوسية فى أربعة عقائد سنحاول أن نشرحها بايجاز فيما يلى من وجهة نظر أبناء هذا الدين .

١ ـ الكارمـــا :

ينقل الدكتور أحمد شلبى عن الاستاذ أنزيا قوله : ان الشـــهوة أقوى عامل فى حياتنا،ولكن شهواتنا تؤثر على الآخرين . فنحن فى أعمالنا

التى تفرضها الشهوات نحسن الى الآخرين أو نسىء اليهم ، فلا بد أن ينطبق علينا « قانون الجزاء » المسيطر على حياة سائر الاحياء الحرة فى الكون ، وقانون الجزاء يسمى فى اللغة السنسكريتيه «كارما» Karma وليس لاحد أن يتملص منه • وقد جاء فى أحد الكتب الهندوسية المقدسة: ليس فى الكون مكان — لا الجبال ، ولا السموات ، ولا البحار ، ولا الجنات — يفر اليه المرء من جزاء أعماله ؛ حسنة كانت أو سيئة •

وجميع أعمال البشر الاختيارية التى تؤثر فى الآخرين خيرا كانت أو شرا لا بد من أن نجازى عليها بالثواب أو العقاب طبقا لناموس العدل الصارم ، فنظام الكون الهى قائم على العدل المحض ، وان العدل الكونى قضى بالجزاء لكل عمل ؛ وان فى الطبيعة نوعا من النظام لا يترك صغيرة ولا كبيرة من أعمال الناس بدون احصاء ، وبعد احصائها ينال كل شخص جزاءه على عمله ، ويكون الجزاء فى الحياة(٩) •

ولكن الهندوس لاحظوا من واقع الحياة أن الجزاء قد لا يقع،فالظالم قد ينتهى دون أن يقتص منه ، والمحسن قد ينتهى دون أن يحسن اليه • ولذلك لجأوا الى القول بتناسخ الارواح (وهو ما سنوضحه بعد قليل) ليقع الجزاء فى الحياة القادمة اذا لم يتم فى الحياة الحاضرة •

وتحاول فلسفة اليوجا تقريب موضوع الكارما الى الأذهان فتذكر أن حياتنا تكون سارة أو غير سارة تبعا لما وضعنا لها من أسباب بما قدمنا من أعمال • وهذا يشبه ما يقال عندما تقع مصيبة على شخص فاننا نقول : « من عمله » اذ الجزاء من جنس العمل • ولكننا نعرف هذا فى

---

(٩) المرجع السابق نقلا عن ادوارد توماس :
Edward Thomas , The Hisrory of Buddhisr Thought, p. 107.

نفس الحياة • فالظالم يظلم والمعين يعان • ولكن الكارما تجعل جزاء حياة فى حياة أخرى •

٢ ــ تناسخ الأرواح :

التناسخ هو رجوع الروح بعد خروجها من جسم الى العالم الارضى فى جسم آخر • وسبب التناسخ فى رأى الهندوس أن الروح خرجت من الجسم ولا تزال لها أهواء وشهوات مرتبطة بالعالم المادى لم تتحقق بعد • ومن أسبابه أيضا أن الروح خرجت من الجسم وعليها ديون كثيرة فى علاقاتها بالآخرين لا بد من أدائها • فلا مناص من أن تستوفى شهواتها فى حيوات أخرى ، وأن تتذوق الروح ثمار أعمالها التى قامت بها فى حياتها السابقة •

معنى هذا أن الميل يستلزم الارادة ، والارادة تستلزم الفعل فى هذا الجسد ، وان لم يصلح هذا ففى جسد غيره ، فقد خلقت الميول لتستوفى • وان لم تستوف لم ينه الانسان من عملية التناسخ هذه • أما اذا اكتملت الميول ولم يبق للانسان شهوة ما ، وأزيلت الديون فلم يرتكب الانسان اثما ولم يقم بحسنة تستوجب المثوبة ، نجت روحه وتخلصت من التناسخ (أو تكرار المولد) ، وامتزجت بالبراهما ، سواء كان الاكتمال فى جسد واحد أو أجساد متعددة •

فجسد الانسان المادى هو الذى يولد من جسدى الوالدين ، وأما الذى يحركه وينشطه ويسيطر عليه فجسد لطيف يتركب من القوى الأساسية والحواس والقوى الآلية المحركة والعناصر اللطيفة والعقل • فاذا حدث ما نسميه الموت ، مات الجسد المادى وتوقف عن العمل وبلى ، أما الجسد اللطيف فلا يموت بل يخرج ويعمل مدة من الزمن

فى آفاق الكون اللطيفة التى تشبه حالة الاحلام عندنا . فيجرب هنـاك الجنة والنار التى تكلمت عنها الكتب الدينية ، ثم يعود مسوقا بالميول والاعمال الماضية — مرة أخرى الى هذه الحياة متقمصا جسدا جديدا . وتبدأ بذلك دورة جديدة لهذه الروح ، وتكون هذه الدورة نتيجة للدورة الماضية ، فتوجد الروح فى انسان أو حيوان أو ثعبان ، ويسعد أو يشقى نتيجة لما قدم من عمل فى حياته السابقة .

ومن الشروط اللازمة لتناسخ الارواح أن الروح فى عالمها الجديد لا تذكر شيئا عن عالمها السابق . فكل دورة منقطعة تماما بالنسـبة للروح عن سواها من الدورات ، أى أن كل حياة لهذه الروح فى جسـد جديد منقطعة الصلة بما عاشته من قبل فى أجساد سابقة .

وهنـا يمكن أن نضع أيدينا على بعض أوجه الشـبه والاختلاف بين الهندوسية والعقائد الدينية الاخرى . فالديانة الهندوسية تلتقى مع الاديان السماوية فى جانب ، ولكنها سرعان ما تبتعد عنها ، وتطول بينهم المسافة . فنقطة الالتقاء هى خلود الروح وحسابها على ما قدمت . ولكن الاديان السماوية ترى الروح كائنا مستقلا بجسم . فهو يحاسب على ما ارتكب مع هذا الجسم ، ويتم الحساب بعد أن يعترف الانسان بأخطائه ويذكره بها لسانه الذى نطق ، ويده التى امتدت ، ورجله التى سارت «يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بماكانوا يعملون»(١٠) . أما فى الهندوسية فهناك انقطاع تام بين الدورتين ، الأمر الذى يعنى أن الروح تعاقب على ذنب لا تعرفه ولا تذكره . كذلك ترى الاديـان السماوية أن الارض دار بلاء واختبار ، وأن الآخرة دار حساب وجزاء . ولكن الهندوسية اعتبرت الارض دار جزاء وثواب .

---

(١٠) سورة النور ، الآية رقم ٢٤ .

وقد تسرب القول بتناسخ الارواح الى قلة من المسلمين • يقول ابن حزم :

افترق القائلون بتناسخ الارواح على فرقتين ، فذهبت الفرقة الاولى الى أن الارواح تنتقل بعد مفارقتها الاجساد الى أجسام أخرى، وان لم تكن من نوع الاجساد التى فارقت ، وهذا قول أحمد بن حافظ واحمد بن ناموس تليمذه وأبى مسلم الخراسانى ومحمد بن زكريا الرازى الطبيب الذى صرح بذلك فى كتابه الموسوم « العلم الالهى » ، وهو قول القرامطة وقال الرازى فى بعض كتبه : لولا أنه لا سبيل الى تخليص الارواح عن الاجساد المتصورة بالصورة البهيمية الى الاجساد المتصورة بصور الانسان الا بالقتل والذبح لما جاز قتل شىء من الحيوان ذبحه البته •

وعلق ابن حزم على هذا الاتجاه ، وهو القول بالتناسخ بأنه دعاوى وخرافات بلا دليل(١١) •

٣ ـ الانطلاق :

يلعب مفهوم اكتمال الميول دورا هاما فى الديانة الهندوسية ، ومعنى اكتمال الميول والشهوات هو توقفها وتغلب الانسان على نفسه بحيث لا يبقى له شهوة ولا ميلا ، بل يقنع بما حصل عليه ولا يتطلب مزيدا • فاذا تم ذلك مع انقطاع عن الاعمال وعن العلاقات الدنيوية وما فيها من ملذات وعصيان تلك التى تستلزم التناسخ أو تكرار المولد ، اذا تم له ذلك نجا من التناسخ وتكرار المولد ، وامتزج ببراهما • وهذه الحالة هى التى يعبرون عنها بالانطلاق •

---

(١١) احمد شلبى ، المرجع السابق ، نقلا عن المصدر التالى :
ابن حزم ، الفصل فى الملل والاهواء والنحل ، الجزء الاول ، صفحة ٩٠ •

فالانطلاق هو الامتزاج ببراهما كما تندمج قطرة من ماء بالمحيط العظيم • وهدف الحياة الأسمى هو الانطلاق من دورات الوجود المتوالية والاندماج فى الكائن الأسمى • وهذا الانطلاق لا يكتسب بالاعمال ، لأن الاعمال الصالحة يجازى عليها الانسان عن طريق الميلاد المتكرر (التناسخ) كالاعمال الشريرة تماما •

وقد ورد فى أحد النصوص الدينية الهندوسية ما يلى :

من لم يرغب فى شىء ولن يرغب ، وتحرر من رق الاهواء ، واطمأنت نفسه فى نفسه ، فانه لا يعاد الى حواسه ، ويتحد بالبراهما فيصير هو ، ويصبح الغانى باقيا •

ويؤخذ على هذا المبدأ أنه جعل التصوف والزهد والسلبية أفضل من صالح الاعمال • فهى الطريق للاتحاد بالبراهما • أما صالح الاعمال فتنتج دورة جديدة فى الحياة تثاب فيها الروح على ما قدمت من خير فى الدورة السابقة •

٤ — وحدة الوجود :

هذا المبدأ وثيق الصلة بالمبادىء السابقة ، بل يمكن القول ان هذه المبادىء كلها وثيقة الصلة بعضها ببعض • وقد سبق — عند الحديث عن الله فى التفكير الهندوسى • — أن أوضحنا كيف انبثق الكون عن الله • ثم أوضحنا — عند الكلام عن مبدأ الانطلاق — كيف يمكن أن يعود الانسان الى الاتحاد بالبراهما • وفى الفيدا مزيد لايضاح الصلة بين الكون وبراهما ، مما أدى الى اعتقادهم بوحدة الوجود •

وينقل أحمد شلبى عن محمد عبد السلام فى كتابه « فلسفة الهند

القديمة » عرضه للخطوات التى قادت الى هذا التفكير • فقد كان الناس يؤمنون بأن فى العالم قوة عظيمة يلزم التقرب لها بالعبادة والقرابين • وكانت هذه القوة تسمى « براهما » • وفى مرحلة تالية لم تعد القرابين المادية ضرورية ، بلحل محلها مراقبات على ظواهر كونية تخيلها الناس ضحايا ، وذلك كالشمس والنار والهواء • وفى مرحلة ثالثة راقب الانسان نفسه وتصورها قربانا يوصل الى براهما • وفى مرحلة رابعة تجردت المراقبات عن تصور القرابين ، بل صار الناس يراقبون أنفسهم على أنهم القوة الكامنة العالمية المؤثرة • ثم وصلوا من التمثيل الى العينية ، وأذعنوا أن النفس الشخصية هى عين القوة الحيوية العالمية أو البراهما • فصار الشىء الذى يفكر فيه وكذلك الموضوع الخارجى شيئا واحدا(١٢) •

وقد تسرب هذا التفكير الى بعض طوائف المسلمين من الصوفية والشيعة ، وقد رفضه جمهور المسلمين رفضا قاطعا • والمعروف أن الحلاج قد لقى حتفه بسبب اعتناقه هذا المذهب ودعوته له (١٣) •

رابعا ــ الكتب المقدسة عند الهندوس :

الفكر الهندى يتسلط عليه اتجاه روحانى • ومن هنا كثرت الآلهة لدى الهنود ، وبالتالى كثرت الكتب المقدسة حتى تجاوزت اعدادها المئات

---

(١٢) محمد عبد السلام ، فلسفة الهند القديمة ، مرجع سابق ، صفحات ١٩ ــ ٢٠ ، و ٣٠ •

(١٣) انظر مزيدا من التفاصيل عند احمد شلبى ، المرجع السابق ، ص ٦٧ وما بعدها ، وكذلك الملل والنحل لابن حزم ، الجزء الرابع ، صفحة ١٨٦ وكتاب التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية لاحمد شلبى ، الجزء الثانى ، ص ص ١٣٩ ــ ١٤٠ •

ووصلت الى الالوف • وفى الديانات السماوية يكون مصدر تقديس الكتب أنها كلام الله أوحى به الى أنبيائه ، بالمعنى فقط كالتوراة والانجيل، أو بالمعنى واللفظ كالقرآن الكريم • أما مصدر تقديس الكتب عند الهندوس فليس لانها موحى بها من الله ، فهى لم يوح بها ، بل لا يعرف لاكثرها واضع معين ، وانما اشترك فى تأليفها عدد كبير من الناس على مر القرون•

وليس مصدر التقديس ابداعها فى الفكرة أو الاسلوب ، فكثيرا ما شملت هذه الكتب أفكارا بدائية وأساليب ركيكة • بل أن مصدر تقديس هذه الكتب هو على العموم الاتجاه الروحانى لدى الفكر الهندى ، والموافقة على تأليه أى كائن أو تقديس أى كتاب دون حاجة الى ابداء الأسباب •

ومن الناحية العملية كان مصدر هذه الكثرة تفسير كتاب « الفيدا » الذى يعتبر أعظم الكتب المقدسة لدى الهندوس • فان مرور الزمن على هذا الكتاب جعله عسير الفهم غريب اللغة • فألفت كتب كثيرة لشرحه وتفسيره ، وعدها الهندوس مقدسة • ومرت قرون أخرى فاحتاجت هذه الشروح الى شروح جديدة واضافات ، فكتبت كتب أخرى • واستساغ العقل الهندوسى أن يجعلها مقدسة أيضا • وتضخمت « الفيدا » فاحتاجت الى وضع مختصرات قدسها العقل الهندوسى كذلك • هذا بالاضافة الى كتب وضعت غير متصلة بالفيدا ، بل تصف حدثا دينيا أو تاريخيا جديدا •

على أنه يتعين علينا أن نلاحظ هنا أن الكتب المقدسة لدى الهنود ليست كلها فى مستوى واحد بطبيعة الحال • فمنها كتب قليلة الانتشار ، أو لا تحظى بتقديس جميع الهندوس • ومنها كتب أقرب الى الغموض منها الى الوضوح •

ومن أشهر الكتب المقدسة عند الهندوس « الفيدا » و « قوانين منو » ، وكتاب « مهابهارتا » ، و « كيتا » ، و « يوجا واسستها » ، و « رامايانا » • وقد عرض الدكتور أحمد شلبى عرضا تفصيليا شاملا عرف فيه بهذه الكتب ، وتناول محتوياتها بالتحليل والدراسة ، مما لا سبيل لنا الى استعراضه هنا لضيق المقام (١٤) •

خامسا : كلمة ختامية عن الهندوسية :

ان دراسة الهندوسية تبرزها معقدة غير معقولة ، تهتم بالخرافات ، وتهبط فى مستواها متأثرة بالسحر وبالالفاظ الجوفاء • وهذا مأخذ يؤخذ على الهندوسية • ومما يؤخذ على الهندوسية أيضا تأثيرها البالغ فى هبوط المستوى الاقتصادى لمعتنقيها • فبعض طبقاتها لا تعمل لأن العمل لا يليق بمكانتها السامية كطبقة البراهما وطبقة الحكام والجنود • وبعض طبقاتها لا تعمل لأن مهمتها أن تخدم السادة وأن تسهر على رفاهيتهم ، ويتبقى للعمل طبقة واحدة يتحتم عليها أن تعمل للطبقات الاربع •

كما يعاب على الهندوسية أيضا تبنيها لنظام الطبقات نفسه ، لأن هذا النظام يعمل على تعطيل تكافؤ الفرص ويحرم كثيرا من الناس من حقوقهم فى السبق والتفوق اذا كانت مواهبهم تؤهلهم لذلك •

ويؤخذ على الهندوسية كذلك السلبية الشديدة العميقة الابعاد ، والتسامح الذى يصل الى درجة الرضا بالضيم،وربما عد التسامح فضيلة ، ولكن المبالغة فيه تنقله الى محيط الرذائل •

---

(١٤) أحمد شلبى ، اديان الهند الكبرى ، الجزء الرابع من كتاب : مقارنة الاديان ، صفحات ٧٥ — ٩٤ . وقد حوى العرض عددا وفيرا من النصوص المأخوذة عن هذه الكتب مما يزيد من تقريبها للاذهان .

ومن العادات المقيتة فى الهندوسية التبكير فى الزواج • فقد كـــان الاطفال يعقد لهم بالزواج وهم صغار يحبون على الارض • واذا مات الولد ، وكثيرا ما كان يموت الاطفال كما نعلم ، ترملت زوجته وأمضت حياتها أرملة حزينة عليه • وكثيرا ما كانت الزوجة تلقى بنفسها فى النار لتحرق نفسها بنفس النار التى أشعلت ليحرق بها جثمان زوجها الميت •

والهندى الذى يؤمن بالهندوسية يفضل الانفـــراد والانانيـــة • والفلسفة فى الهندوسية تدريب روحى ، وهى تتطلب من الشخص أن يهذب نفسه وما حوله أكثر من أن تتطلب منه أن يفكر • فالعلاقة بين الفيلسوف وبين العالم ليست علاقة تفاعل ومسئولية ، وانما هى علاقة ســـــحر وافتتان •

وليس للفرد أهمية تذكر فى الهندوسية ، ويكاد يكون مهمـــــلا ، لأنه ليس الا عضوا فى جماعة هى بدورها عضو فى جماعة أكبر • وكـــل العناية تتجه للجماعة لا لأفرادها • ثم أن أهداف الهندوسية الرئيسية هى الحالة العامة ، أو الموقف الاجتماعى العام • ومن ثم فانه ليس للافراد ولا حتى للجماعات أية قيمة الا فى ضوء اعتبارات المحافظة على هذا الموقف العام •

والهندوسية دين غموض وخفاء ، والصدق أهم معالم الهندوسية على اختلاف فروعها • والزهد والحرمان هما طريق الهندوسية المفتوح للجميع كوسيلة للنقاء • والهندوسية دين الحكمة • ومن أجل هذه الحكمة تأثر الاغريق بالهندوسية عندما ذهبوا الى الهند واتصلوا بثقافتها • ولا عجب فى ذلك لان الباحثين يجمعون على أن اتصال الهندوسية بالحكمة أكثر من اتصالها بالروح •

وقد مرت على الهندوسية آلاف السنين،ولا تزال محتفظة بتعاليمها، ولم يستطع أى اصلاح داخلى أن يغير من جوهرها ، ولا هى سمحت باصلاح من الخارج ليقتحم عليها أرضها • فاذا هبت حركة اصلاحية داخلية كالبوذية ، أو جاءت من الخارج حركة اصلاحية كالاسلام ، تصدت لها الهندوسية بعنف وصلابة • وفى بعض الأحيان كانت الهندوسية تؤثر فى حركة المقاومة أكثر من تأثرها بها •

على أن الهندوسية ستضطر لتنحنى أمام الافكار التى تقاوم اتجاهاتها الآن ، فلم يعد مستقبل أية أمة من الامم فى يدها وحدها • ولعل نظام الطبقات المغلقة الصارم الذى تحدثنا عنه فيما سبق سيكون أسرع نظم الهندوسية الى الزوال •

الفصــــل الحــــادى عشر

البوذيـــة ديانـــة وضعيـــة

مقدمة

أولا : الاشياء التى لفتت انتباه بوذا

ثانيا : القواعد الضابطة فى البوذية

ثالثا : انحراف البوذية

رابعا : المحرمات فى البوذية



الفصل الحادى عشر

البوذية ديانة وضعية

مقدمة :

نشأت البوذية فى اقليم نيبال شمال الهند الذى كان يسكنها قبائل الساكية ، وتنسب البوذية لمؤسسها بوذا الزعيم الهندى الذى ولد حوالى ٥٦٤ وتوفى حوالى ٤٨٣ قم وقد ولد فى أسرة عريقة من طبقة الكشاتريا وتعنى كلمة « بوذا » الملهم أو العارف بالحقائق أو صاحب الاشراق • وقد أطلق عليه أيضا « سيد هارتا » وهو الاسم الذى أطلق عليه عند ولادته •

وقد عاش بوذا حياة رغد واطمئنان ، وتزوج فى التاسعة والعشرين من عمره وانجب طفلا وقبل أن يعرف شيئا عن الشقاء الانسانى ، وبعد أن قطع بوذا هذه المرحلة من حياته نبذ حياة الترف وأصبح ناسكا يهيم على وجهه فى أماكن متعددة (١) •

أولا : الاشياء التى لفتت انتباه « بوذا » :

ويقال أن أول شعاع من قبس الهداية والحكمة دخل فى نفسه ، كان على أثر ما وقع عليه بصره فى الطريق عند خروجه فى عربته للنزهة (٢) وطلبا للذة والسرور فصادف أن رأى أربعة أشياء جذبت انتباهه وحولت تفكيره وجهة مغايرة •

---

(١) الموسوعة العربية الميسرة — مرجع سابق — ص ٤٢٧ •

(٢) السيد محمد بدوى — الاخلاق بين الفلسفة وعلم الاجتماع — مرجع سابق — ص ٢٣ •

أول الأشياء وقوع نظره على رجل طاعن فى السن مقوس الظهر خائر القوى وقد حرك هذا المشهد انتباهه وشد خياله ، فقال له سائق عربته « شانا » هكذا نهج الحياة ولا مفر لنا من هذا المصير .

والمشهد الثانى ، كان عندما صادف رجلا يعانى آلاما مبرحة من مرض مزمن فقال « شانا » أيضا هكذا نهج الحياة .

والمشهد الثالث ، كان عندما رأى جثة لم توار التراب بعد وقد انتفخت وفقئت عيناها ونهشتها الطيور والوحوش فقال شانا أيضا هكذا نهج الحياة .

وانطلق بوذا وسائقه « شانا » فى رحلتيهما ليريا أحد أولئك الزهاد المتجولين الذين كان يوجد منهم فى ذلك الحين عدد كبير بالهند ، كان هؤلاء الرجال يعيشون طبقا لقواعد قاسية ويقضون فترات زمنية طويلة فى التأمل والنقاش الدينى ، ذلك أن رجالا كثيرين ممن عاشوا حياتهم قبل بوذا فى الهند وجدوا الحياة مليئة بالخوارق والاسرار الغامضة .

وكان الرأى السائد أن هؤلاء الزهاد كلهم انما ينشدون فى الحياة حقيقة أشد عمقا وأبعد غورا وهنا تملكت بوذا رغبة جامحة فى أن ينحوا نحوهم(٣) فترك زوجته وابنه وهجر بيته باحثا عن الطريق الذى يوصله الى خلاص نفسه وخلاص الانسانية من آلامها وظل يبحث عن الحقيقة ويعيش حياة زهد بين نساك البراهمة وتحمل جسمه رياضات شاقة كالصوم الدينى والحرمان وكان يرفض الجلوس ويظل قاعدا القرفصاء

---

(٣) هـ — ج — ويلز — معالم تاريخ الانسانية ترجمة عبد العزيز جاويد — مطبعة لجنة التأليف والترجمة — القاهرة ١٩٥٦ — الجزء اثنانى — المجلد الاول — ص ٤٦٨ .

واتخذ لنومه مرقدا من الاخشاب الخشنة ، كما أنه كان يتغذى طوال يومه بحبات من الارز وقيل بحبة واحدة .

وبقى « بوذا » على تلك الحالة سبع سنوات حتى كاد ييأس ، اذ بالرغم من كل هذه المشاق فانه لم يشعر بأنه حقق لنفسه السلام ، فاقتنع بأن التعذيب البدنى لا طائل تحته ، وأن حياة الحرمان لا تختلف عن حياة الترف واللهو التى عاشها أول حياته ، وقد وضحت له الحقيقة فى ليلة مشرقة واستطاع أن يتذوق طعم الخلاص بعد أن دفع عن نفسه اغراء الشيطان مارا Mara أو شيطان الاغراء الذى دعاه لكى يدخل دون انتظار الى « النيرفانا »(٤) أو دار السلام وصمم « بوذا » على أن يبقى بين الناس لكى يعرفهم بالحقيقة التى توصل الى اكتشافها ، وهى أن الخلاص ليس بالموت كما كان يعتقد فى البداية ، فبالموت لايخلص الانسان الا نفسه ، ولكن رسالته الحقيقية تنحصر فى العمل على خلاص الآخرين ، ومن أقواله فى هذا الصدد قوله : « يامن خلصت نفسك » اعمل على خلاص الآخرين واذا كنت قد وصلت الى شاطىء الامان فساعد الآخرين على أن يعبروا « كذلك فان بوذا أدرك قيمة الطريق المعتدل وهو الوسط ، لتحقيق السعادة الروحية وأوضح بوذا ذلك بقوله « هناك طرفان يجب على كل من يريد أن يحيا حياة روحية أن يبتعد عنهما،أحدهما حياة اللهو وهى وضيعة تافهة ومخالفة للعقل،والآخر حياة الزهد والحرمان وهى كئيبة لا طائل تحتها ، والحكيم من يكتشف الطريق الذى يمر بين هذين الطرفين ، وهو الطريق الذى ييسر النظر والعقل ويؤدى الى النيرفانا أو الى الطمأنينة والسلام »(٥) .

---

(4) La Grande encylcopedie Tome septié e op. cit. p. 588.

(٥) السيد محمد بدوى — الاخلاق بين الفلسفة وعلم الاجتماع — مرجع سابق — ص ٢٤ — ٢٥ .

وعلى ذلك فاذا كان الشقاء فى التطرف بالحس الى النقيضين فان الخلاص من الشقاء لا يتأتى بغير الاعتدال بين كلا الطرفين وبهذا تزال غشاوة الخداع الذى يطرأ على ظاهر الاشياء للنفاذ الى ما وراءها من سر الوجود ، فالافراط فى ارضاء الحس والافراط فى قمعه وتجريده ، بل التوسط بين الغايتين فى أمور الحياة الثمانية (التى هى الفهم والعزم — والكلام — والسلوك والمعيشة والعمل والتأمل والفرح) .

ويؤكد بوذا أن الخالق الاعظم هو الاعلى المهيمن ، الصالح الصمد ، العليم البصير ، المالك الرب ، أحسن الخالقين .

ولم يدع بوذا فى يوم ما أنه اله الا أن مبالغة أتباعه هى التى جعلت من بوذا الها ومن مذهبه دينا .

فالبوذية قامت على أساس البراهمية فى جميع عقائدها ، لكنها تميزت عنها بتبسيط العقائد للناس فأخرجتهامن محاريب الكهان ومعابدهم الى الشعب مع اضافة توجيهات اجتماعية عامة تتصل بآداب السلوك وفلسفة الحياة (٦) .

وكان بوذا يجلس تحت شجرة عندما تم له اكتشاف الحقيقة (وسميت بشجرة العلم أو الشجرة المقدسة) وقد حظيت عند البوذيين بمكانة هامة مثل مكانة الصليب عند المسيحيين والشورنجا والنورتنجا عند البدائيين والنار عند المجوس .

واذا كان المسيحيون قد نشروا الصليب فى حياتهم ورسموه على حليهم واجسامهم ، فالبوذيون يرون فى الشجرة المقدسة شيئا يجب أن

---

(٦) سنية قراعة — الرسالات الكبرى — مرجع سابق — صفحة ١٤٠ .

يسعى الناس اليه لا أن يسعى هو للناس ، ولهذا زرعوا فى كل قطر شجرة واحدة من نوع الشجرة المقدسة يحج اليها الناس فى مناسبات مختلفة وفى معبد « بروبودور » بالقرب من « جوكجاكرتا » باندونسيا توجـد الشجرة الوحيدة فى جاوة من هذا النوع ، والبوذيون يسعون اليها للتبرك والزيارة وتحميها ادارة المعبد بسور حولها خوفا من أن يلتقط البوذيون أوراقها أو أغصانها للتبرك ، أو يعبثوا بجذعها فى تقربهم لها واحتكاكهم بهـــا (٧) .

وهذه الشجرة من فصيلة أشجار التين وتعرف باسم شجرة البو ، ولقد انتهت هذه الشجرة التى كان يجلس تحتها بوذا (جوتاما) من زمن بعيد ، ولكن لا تزال الى جوارها دوحة أخرى ، ربما كانت من فصيلتها ، ومن سوء الحظ أن تلاميذ « جوتاما » فيما يرى ويلز عنوا بحفظ شجرته أكثر من عنايتهم بالحفاظ على أفكاره التى أساءوا منذ البداية فهمها وشوهوها ومسخوها .

وقد بحث « جوتاما » فى منطقة بفارس عن تلاميذه الخمسة حتى وجدهم وكانوا ما يزالون يعيشون عيش الزهد وجرت مناقشة بينه وبينهم لمدة خمسة أيام حتى أقنعهم بمبادئه وهتفوا به ولقبوه ببوذا ، وكـان يسود فى الهند فى ذلك العهد اعتقاد بأن الحكمة سوف تعود الى الارض على فترات متباعدة وأنها سوف يكشفها للبشرية شخص مختار يســمى « بــوذا » .

---

(٧) أحمد شلبى — مقارنة الاديان — الجزء الرابع أديان الهند الكبرى — النهضة المصرية — القاهرة ١٩٦٦ — الصفحة ١٤٤ .

ونتيجة لهذا الاعتقاد الهندى ظهر كثيرون من أمثال بوذا هـذا ويعتبر جوتاما بوذا آخر فرد وآخر حلقة فى سلسلة البوذوات ، على أنه من المشكوك فيه أن بوذا نفسه قبل هذا اللقب أو اعترف بتلك النظرية فهو فى أحاديثه لم يسم نفسه على الاطلاق باسم بوذا •

وقد أسس بوذا وتلاميذه نوعا من الاكاديمية فى حديقة الغزلان ببنارس وأنشأوا لأنفسهم أكواخا وجمعوا معهم أتباعا جددا تزايد عددهم الى ستين أو أكثر ، وكانوا يتناولون فى أكواخهم الحديث والبحث أثناء موسم المطر ويتشتتون فى أنحاء البلاد أثناء موسم الجفاف ليبشر كل منهم بالتعاليم الجديدة بالصورة التى يراها ، وكان كل تعليمهم يتم عن طريق المحادثة الشفهية ، وتحتوى تعاليمه الاساسية على جوهر عقيدته التى يمكن اعتبارها ضوابط يلتزم بها أتباع هذا المذهب(٨) •

فبوذا ينسب ما فى الحياة من شقاء الى الاشياء الآتية :

فهو يقول ان الآلام ترجع الى الذاتية الجشعة المتلهفة والى العذاب الناجم عن الشهوة النهمة الى أن يستطيع المرء أن يكبح جماح نفسه من نوازع شهوانية ، ورغبات شخصية تظل حياته شقاء واضطرابا وتصبح نهايته أسى وعذابا •

وهناك ثلاثة أنواع أساسية يتخذها للتلهف على الحياة وهى أنواع كلها شرور :

أولهما : الرغبة فى اشباع الحواس وهى رغبة شهوانية •

وثانيهما : هو الرغبة فى الخلود الشخصى أو حب الحياة •

وثالثها : هو الرغبة فى النجاح والثراء والاهتمام بأمور الدنيا •

---

(8) Richard A. Gard, Buddlism, New York. 1962 pp. 107-125.

وفى رأى بوذا أنه لا بد من التغلب على هذه كلها ويعنى بذلك أن الانسان لا يجب أن يعيش من أجل نفسه ، قبل أن يتيسر للحياة الصفاء والسكينة وعندما تقهر هذه الرغبات فعلا ولم تعد تسيطر على حياة الفرد وعندما تمحى الانانية من أفكاره الخاصة فانه يكون عندئذ قد توصل الى الحكمة والى السعادة الخالدة والى النرفانا التى هى صفو الروح وسكينتها •

فالنرفانا ليس معناها الفناء كما يعتقد الكثيرون من الناس خطأ . وانما معناها انتهاء الاغراض الشخصية الباطلة التى تجعل الحياة بحكم الضرورة دنيئة أو ذليلة أو مروعة •

هكذا يبدو التشاؤم واضحا عند بوذا الذى يمكن اعتباره من الفلاسفة المثاليين أو الرواقيين أو الخياليين •

ثانيا — القواعد الضابطة فى البوذية :

وقد وضع بوذا قواعد ضابطة فى الحياة تتلخص فيما يلى :

١ — الآراء الصائبة حيث جعل بوذا مسألة فحص الآراء والافكار بامعان شديد والاصرار على الحق والصدق أول مطلب لاتباعه وشرطا أساسيا لاعتناق البوذية ، وينبغى عدم التعلق بالخرافات الزائفة وعدم الايمان والاعتقاد بتناسخ الارواح ، وكان هذا سائدا فى الديانات غير البوذية فى الهند •

٢ — الأمانى الصائبة : وتعنى ابعاد الشهوات والتلهفات واستبدالها بالرغبة فى خدمة الناس ، والرغبة فى اقامة العدل وتثبيت دعائمه ، وكان هدف البوذية فى بدايتها وقبل أن تحور من أتباعه فيما بعد ألا تجعل هدفها تدمير الرغبة بل استبدالها برغبة أخرى •

ومن الواضح أن التعلق بالعلم أو الفن أو التحسين أو الاصلاح يتفق مع الامانى الصائبة فى البوذية الحقيقية على شرط أن تكون تلك الغايات خالية من الغيرة أو التلهف على الشهوة •

٣ ــ الحديث الصائب •

٤ ــ السلوك السوى •

٥ ــ الرزق الحلال •

٦ ــ العمل المتقن ، ولم يكن بوذا متسامحا مهما كانت الظروف ازاء حسن النية المصحوب بالتوانى فى التنفيذ •

٧ ــ التنبه الصائب أو الوعى الكامل الذى يقى الفرد من الانزلاق الى الانانية أو حب الذات المنبعث عن أى شىء تم أو لم يتم •

٨ ــ الجدل الصائب الذى يبدو أنه موجه ضد النشوة العقيمة[٩] لدى القانت المتبتل ، ولعل من ذلك أن البغضاء فى العقيدة البوذية لا تتلاشى بالبغضاء أبدا بل تتلاشى بالحب ، هذا هو الدستور الخالد عندهم[١٠] •

ثالثا : انحراف البوذية :

ومع أن البوذية ديانة التأمل الباطنى وانكار الذات والرحمة ، فانها تختلف عن أى دين آخر من الاديان الوضعية ، فهى قبل كل شىء ديانة خلق وسلوك لاديانة طقوس وقرابين ولم تكن لها معابد ، وكما

---

(٩) هـ • ج • ويلز ــ معالم تاريخ الانسانية ــ مرجع سابق ــ ص ٤٧٧ •

(١٠) جوزيف كاير ــ حكمة الاديان الحية ــ مرجع سابق ــ ص ١٥ •

لم تكن لها قرابين لم يكن لها هيئة مقدسة من الكهنة ، وكذلك لم يقم لها أى لاهوت فى بدايتها وقد وقفت البوذية الاولى موقفا محايدا من آلهة الهند التى كان يعبدها الناس فى ذلك الحين ، وهى آلهة لا تعد ولا تحصى غريبة الشكل فى الغالب ، فالبوذية لم تؤكدها ولم تعترف بها ولم تنكرها بل غضت الطرف عنها جميعا .

وقد أدخلت على البوذية عدة تحويرات منها تتويج ملك كما يتمثل فى شخص « الدلاى لاما » الذى هو بوذا الحى ، ومنها اقامة معبد فخم خاص أو ملىءبالكهنةوالرهبان واللامات فى الهاصا بعد أن لم يكن لبوذا مبانى أو كهنة سوى الاكواخ ومنها اقامة صنم ضخم ذهبى فوق هيكل ومنها أيضا صلوات أو أدعية ترتل أمام الدلاى لاما ، ومنها نواميس وسنن فيها آثار مبهمة لاشياء مألوفة لديهم ويتمتمون بها على سبيل الاستجابة ، وتلعب الاجراس والبخور والسجود دورها فى هذه المراسيم العجيبة ، ويدق جرس فى لحظة من لحظات الصلاة وترفع مرآة تزيد الجماعة فى الانحناء زيادة فى المهابة والوقار ، وتوجد كثير من الآلات الصغيرة فى منطقة العبادة ، وهى عجلات هوائية ومائية صغيرة تدور وقد كتبت عليها صلوات مختصرة وكلما دارت هذه العجلات الصغيرة دورة احتسبت بمقتضاها صلاة ، وهناك أيضا من ساريات الاعلام تحمل رايات جميلة من الحرير نقشت عليها الجوهرة فى اللوتس وكلما رفرفت الراية كتبت صلاة نافعة للشخص الذى دفع ثمن الراية والمجتمع عامة ، وتحفر العبارة السابقة على جوانب الصخور والاحجار .

رابعا — المحرمات فى البوذية :

وتستند البوذية الى أسس أخلاقية يمكن اعتبارها بمثابة نواهى أو محرمات أو أوامر كما هو الحال فى بعض الديانات الوضعية التى لا

تخلو من المحذورات ، وتنحصر هذه الأسس أو القواعد الضابطة فى الآتـــى :

أولا : الاستقامة

ثانيا : التأمل

ثالثا : الحكمـــــة •

وتعتبر الاستقامة الخطوة الاولى التى يبدأ بها التابع ، وتتخـــذ شكلا سلبيا يتلخص فى الابتعاد عن كل ما هو دنس ، أما محتوياتها العملية فهى :

١ ــ لا تقتل كائنا حيا :

وهذه القاعدة هى احدى القواعد التى توجد فى الفلسفة الهندية كلها • ويجب أن يشمل احترام الحياة كل مخلوق مهما كان حتى ولو كان دودة أو نملة • كما أن هذه القاعدة ترتبط ببعض الشعائر التى تحرم شرب المـــاء اذا كان يحتوى على أثر من آثار الحياة الحيوانية والتـــى تحرم لبس الملابس الحريرية الطبيعية •

٢ ــ لا تأخذ ما لا يخصك :

وتدعو هذه القاعدة الى نبذ الملكية • ويجب على اتباع بوذا أن يقنعوا بالحاجات الضرورية التى تحفظ لهم حياتهم •

وفى اعتقادى أنه يجب الابتعاد عما يخص الآخرين من مال أو غير مال أو كل ما يتعلق بحقوق الغير عن طريق الاغتصاب أو السرقة أو الاتلاف أو الهدم أو التدمير الى غير ذلك •

٣ ـ لا تنظر الى زوجة غيرك :

وتأمر هذه القاعدة بالتعفف المطلق وقد ساعد على ذلك اعتبـار النساء فى البوذية أقل مكانة من الرجل ويعتبر النظر اليهن أكبر خطرا يهدد سعادة الانسان ، وتستنبط من هذه القاعدة عدم انتشار الزنـا والابتعاد عنه ، فالانسان لا يقدم على هذه الفاحشة قبل أن يراها ، فاذا مامنع بصره عنها منع بالتالى ما يؤدى الى ارتكابها .

٤ ـ لا تقل مالا تعتقد أنه الحق :

ويدخل تحت هذه القاعدة تفاصيل دقيقة عن أنواع الكذب ، ومنها الوشاية التى تفسد بين الاصدقاء .

٥ ـ لا تشرب مشروبات مسكرة :

حتى ولو بمقدار قليل أو بقصد الدواء .

أما التأمل فهو المرحلة الثانية التى يعود فيها من يصبو الى الحكمة الى نفسه بعد أن أمكنه تهذيبها بالاستقامة ، موقف الحكيم ازاء النفس موقف هام فاذا كان الأمر يتعلق بالذات الحسية التى تتمثل فى الجسم وتختلط بالعالم فان هذه الذات عرض زائل وتقتضى حياة الطهر التخلص من قيود هذه الذات وبعملية التطهر تبدو الذات الحقيقية ويعد كمالها أغلى ثمرات التأمل .

أما الحكمة :

وتتلخص فى الوصول الى « النيرفانا » وهى أسمى فكرة تتوج المذهب البوذى ، والنيرفانا لا يمكن تحديد معناها تحديدا صارما ، وربما

كان استعصاء الكلمة على التحليل الدقيق شــيئا مقصودا حتى يضفى عليها صفة القداسة ، ويجعل الناس يبحثون عنها ويضعونها دائما أمامهم مثلا أعلى كلما اقتربوا منه ابتعد عنهم[11] .

---

(١١) السيد محمد بدوى – الاخلاق بين الفلسفة والاجتماع – مرجــع سابق – ص ٣٢ .

الباب الثالث

الديانات المنزلـــة

الفصل الثانى عشر : اليهودية احدى الديانات المنزلة .

الفصل الثالث عشر : المسيحية ديانة كاديمة منزلة .

الفصل الرابع عشر : الاسلام خاتم الديانات السماوية المنزلة .



الفصل الثانى عشر

اليهودية احدى الديانات المنزلة

الفصل الثانى عشر

اليهودية احدى الديانات المنزلة

١ ــ مقـــــدمة :

قبل أن نعرض للضوابط الدينية فى اليهودية لا بد أن نعطى لمحـــة تاريخية موجزة عن بنى اسرائيل

هاجر يعقوب المعروف باسرائيل هو وأبناؤه من بلاد فلسطين الى مصر على أثر ما لحق بمواطنهم القديم (كنعان) من مجاعة وما أصاب مراعيها من جفاف • وكان يوسف هو الوزير الاول بمصر • ويوسف أحـــد أبناء يعقوب نفسه فأكرم وفادة أبيه واخوته وحنن عليهم قلب فرعون ملك مصر وأعطاهم بأمره أرضا فى أخصب الاماكن بها • وظلت سلالات بنى اسرائيل فى مصر فترة من الزمن تتمتع برعاية المصريين وتقديرهم حتى وصل كثير منهم الى أعلى المناصب • ثم ما لبث أن تغير موقف المصريين فيما بعد على عكس ما كان عليه لخوفهم من زيادة عددهم الذى فاق عدد المصريين أنفسهم ومن استفحال نفوذهم فى البلاد • وبقى بنو اسرائيل فترة طويلة الى أن أرسل الله اليهم والى فرعون وقومه رسولين من نسل لاوى (ليفى) أحد أبناء يعقوب هما موسى وأخوه هارون يبلغانهـــم رسالة التوحيد ويدعوانهم الى عبادة الله وحده وترك ما هم عليه من عبادة الاوثان والكواكب وأرواح الموتى والملوك والحيوان والنبـــــات ويعرضان عليهم دينا سماويا سمحا هو الشريعة الموسوية أو التوراة ، وتوضح لهم ما ينبغى أن يكونوا عليه فى أمور دينهم ودنياهم • ولقـــد آمن بهما بنو اسرائيل (موسى وهارون) وكذبهما فرعون وقومه الا قليلا منهم • وظل موسى وهارون وقومهما بنو اسرائيل بعد ذلك فى نزاع مع

فرعون وقومه حتى أمكنهم الخروج من مصر الى صحراء سيناء أو ما تعرف بصحراء التيه • وقد تحول بنو اسرائيل بعد خروجهم من مصر حتى استقرارهم فى أرض كنعان الى قبائل من البدو الرحل يجولون فى فى صحراء سيناء والمناطق المجاورة لها تائهين فى دروبها وفيافيها •

وكان موسى قد طلب الى بنى اسرائيل دخول الأرض المقدسة فلسطين وقتال أهلها ووعدهم بالنصر فتقاعسوا عن ذلك جبنا • فكتب الله عليهم هذا التيه حتى يفنى هذا الجيل الجبان الذى قال لنبيه موسى « اذهب أنت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون » • ويوجد جيل آخر ربى على الخشونة وتمرس بأمور القتال • وفى أثناء هذه الفترة توفى هارون ثم موسى • ولكن بعد أن أكمل الله لنبى اسرائيل دينهم وأتم عليهم نعمته • وبعد أن تلقى موسى من ربه التوراة وقد استوعبت جميع تفاصيل هذه الديانة عقائدها وشرائعها وأخلاقها وقصصها • ووضح القرآن ذلك بقوله « انا انزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والاحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء » (١) • « وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء »(٢) •

وفى حوالى القرن الثالث عشر ق•م أغار بنو اسرائيل بقيادة يوشع خليفة موسى بعد وفاته على بلاد كنعان فاحتلوها واستولوا على ما فيها من خيرات • بعد أن قتلوا معظم أهلها واستبعدوا من بقى منهم • وبذلك انتهت عندهم حياة البداوة والتنقل وابتدأوا حياة الحضارة والاستقرار واستوطنوا المدن والقرى والمنازل والقصور التى أخذوها من الكنعانيين

---

(١) سورة المائدة آية ٤٤ .

(٢) سورة الاعراف آية ١٤٥ .

وأخذت ممارستهم لأمور دينهم تمشى بطريق منظم تحت اشراف أحبارهم وربانيهم وفقهائم وسدنة كنسهم ومذابحهم • وكان معظم هؤلاء مؤلفين من نسل لاوى أحد أبناء يعقوب وهم رهط موسى وهارون • أما رؤساؤهم السياسيون فكانوا فى بداية هذه المدة من القضاة • وعندما اتسع نفوذ بنى اسرائيل أصبح رؤساؤهم السياسيون ملوكا أصحاب سلطان كبير • ومن هؤلاء داود وسليمان •

وفى سنة ٥٨٧ق•م أغار بختنصر ملك بابل على فلسطين وأنهى ملك بنى اسرائيل وأسر منهم عددا كبيرا أبعده الى بابل • حيث ظلوا فى الاسر قرابة خمسين سنة حتى تغلب كيروش ملك الفرس على البابليين سنة ٥٣٨ق•م فأطلق سراح اليهود ورجع منهم الكثير الى فلسطين واستعادوا حياتهم الاولى نوعا ما لكنهم فقدوا استقلالهم اذ وقعوا تحت سيطرة الفرس(٣) وظلوا كذلك قرابة قرنين من الزمن الى أن وقعوا تحت سيطرة المقدونيين خلفاء الاسكندر الاكبر ثم تحت سيطرة اليونان • وفى سنة ١٣٥ بعد الميلاد أخمد الرومان فى عهد الامبراطور هاردين الثورة التى قام بها اليهود سنة ١٣٠ الى سنة ١٣٥ بقيادة زعيمهم اسكندر جانيوس واضطر عدد كبير منهم الى الهجرة واسترد الرومانيون منهم بيت المقدس • ثم شن الرومانيون على اليهود حملة ابادة أهلكت دورهم وقضت على مؤسساتهم وبيوتهم • وأرسل الرومان زعماءهم مكبلين بالاغلال الى روما وأداروا المحاريث فى هياكلهم المقدسة •

ومن هنا بدأ تشريدهم وترك معظمهم فلسطين مهاجرين الى مختلف بلاد العالم • ويشير القرآن الى اجلاء بنى اسرائيل من فلسطين فيقول (وقضينا الى بنى اسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلن

---

(3) La grande Encyclopedie F-onziéme op cit p. 270.

علوا كبيرا • فاذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا ان أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وان أسأتم فلها فاذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا)[٤] •

٢ ـ ارتداد بنى اسرائيل :

وقد تنكر بنو اسرائيل للصراط المستقيم وخرجوا على تعاليم التوراة وعقائدها عدة مرات فى عهد وموسى وبعده حتى أنهم عبدوا العجل، وهارون يحيا بينهم وموسى يتلقى الالواح من ربه • وبعث الله منهم بعد موسى وهارون عدة رسل وأنبياء يهدونهم سواء السبيل ، ويحاولون انقاذهم مما وصلوا اليه من كفر وضلال ، ولم يلقوا منهم الا الاعراض والتكذيب وأحيانا التعذيب والتقتيل ، ويخاطبهم القرآن فى هذا فيقول (ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون)[٥] •

هذا الا أن موسى عليه السلام هو أول من رسم لليهود السلطة التشريعية ووضع أسس التشريع فى التوراة وأصبحت المرجع القانونى الذى يعتمد عليه فى الضبط الدينى آنذاك • كذلك فان موسى كان قائدا لبنى اسرائيل وكان بجانب ذلك مرشدا ومشرعا لهم وقبل هذا وذاك نبيا مرسلا •

---

(٤) سورة الاسراء اية ٣ـ٧ •

(٥) سورة البقرة آية ٨٧ •

وننبه الى أن الأسفار الخمسة المعروفة بالتوراة والموجودة الآن ليست مما أوحى الى موسى وليست من كتابته أو املائه بل هى من تأليف مشرعين متأخرين ومن وضعهم ، وأن الوصايا التسع أو كما يسمونهـا بالوصايا العشر أو بعض منها هى كل ما تبقى من التوراة التى أنزلت على موسى • وفيما عدا هذه الوصايا من تشريعات فانه من صنع الكهنـة والرهبان أبناء لاوى الذين كان لهم الحق فى وضع الاحكام للعبرانيين ولم يكن أحد غير هؤلاء يستطيع أن يقدم القرابين بالطريقة الصحيحة أو يفسر الطقوس أو الاسرار الدينية تفسيرا آمنا من الخطأ ، ولذلك وضـع الكهنة والرهبان هذه التشريعات ليقرروا بها حقوقا لانفسهم وتقاليد لقومهم (٦) •

٣ — بعض ما جاء فى الوصايا :

ويمكن أن نقتبس بعض ما جاء فى الوصايا التسع أو العشر كوصايا ملزمة أو ضبطا فى هذه الديانة •

١ — أنا الرب الهك الذى أخرجك من أرض مصر ، من بيت العبودية لا يكن لك آلهة أخرى أمامى • ويدل هذا على وحدانية الاله •

٢ — لا تصنع لك تمثالا منحوتا ولا صورة ما مما فى السماء من فوق وما فى الارض من تحت ، وما فى المـاء من تحت الارض ، لا تسجد لهن ولا تعبدهن لانى أنا الرب الهك اله غيور — افتقد ذنوب الآباء فى الابناء فى الجيل الثالث والرابع من مبغضى وأصنع احسانا الى ألوف من محبى وحافظى وصاياى •

---

(٦) أحمد شلبى — مقارنة الاديان — ١ — اليهودية — النهضة — القاهرة ١٩٦٦ — صفحة ٢٦٧ •

٣ — لا تنطق باسم الرب الهك باطلا ، لأن الرب لا يبرىء من نطق باسمه باطلا .

٤ — اذكر يوم السبب لتقدسه ، ستة أيام تعمل وتصنع جميع عملك واما اليوم السابع ففيه سبت للرب الهك ، لا تصنع عملا ما ، أنت وابنك وابنتك وعبدك وأمتك وبهيمتك ونزيلك الذى داخل أبوابك لأن فى ستة أيام صنع الرب السماء والارض والبحر وكل ما فيها ، واستراح فى اليـــوم السابع . لذلك بارك الرب يوم السبت وقدسه .

٥ — أكرم أباك وأمك لكى تطول أيامك على الارض التى يعطيــك الرب الهك .

٦ — لا تقتل .

٧ — لا تـــزن .

٨ — لا تسرق .

٩ — لا تشهد على قريبك شهادة زور .

١٠ — لا تشته بيت قريبك ولا تشته امرأة قريبك . ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولاشيئا مما لقريبك(٧) .

ويلاحظ أنه مما تقدم يتضح فى هذه الوصايا الضبط الدينى الـــذى يهدف الى اصلاح الفرد والمجتمع ، وتحديد سلوكه . ففى صلاح الفـــرد صلاح لمجتمعه . وفى الوقت نفسه تحث الوصايا السابقة على العمـــل

---

(٧) جوزيف كاير — حكمة الاديان الحية — مرجع سابق — ص ١٥٧ .

كما أنها تحارب الشرك بالله وتدعو الى الوحدانية وهو افراد الله بالعبادة وهو الدين الذى دعا اليه موسى • وسواء أكانت هذه الوصايا محرفة أو لم تحرف • فاننا قد أشرنا لما بها من ضوابط تتعلق ببحثنا هذا[٨]•

٤ — الجزاءات فى اليهودية :

وتمتلىء التوراة بأسفارها المختلفة ، الخروج واللاويين والعدد والتثنية بكثير من التشريعات التى تتضمن رسم سلوك الافراد بطريقة دينية فى المجتمع • ومن هذه الضوابط فى الاصحاح الحادى والعشرين من سفر الخروج : من ضرب انسانا فمات يقتل قتلا ولكن الذى لم يتعمد بل أوقع الله فى يده فأنا أجعل لك مكانا يهرب اليه • واذا بغى انسان على صاحبه ليقتله بغدر فمن عند مذبحى تأخذه للموت • ومن ضرب أباه أو أمه يقتل قتلا • ومن سرق انسانا وباعه أو وجد فى يده يقتل قتلا • ومن شتم أباه أو أمهيقتل قتلا • واذا تخاصم رجلان فضرب أحدهما الآخر بحجر أو بلكمة ولم يقتل بل سقط فى الفراش فان قام وتمشى خارجا على عكازه يكون الضارب بريئا • الا أنه يعوض عطلته وينفق على شفائه • واذا ضرب انسان عبده أو أمته بالعصا فمات تحت يده ينتقم منه ولكن ان بقى يوما أو يومين لا ينتقم منه لأنه ماله[٩] •

كما جاء فى سفر الخروج أيضا أنه اذا تخاصم رجال وصدموا امرأة حبلى فسقط ولدها ولم تحصل أذية يغر كما يضع عليه زوج المرأة ويدفع عن يد القضاة • وان حصلت أذية تعطى نفسا بنفس وعينا بعين

(٨) أحمد شلبى — اليهودية — مرجع سابق — ص ٢٦٨ .
(٩) الكتاب المقدس ص ١١٩ — الاصحاح العشرون — الخروج من ١٠ الى ١٧ .

وسنا بسن ويدا بيد ورجلا برجل وكيا بكى وجرحا بجرح ورضا برض •
واذا ضرب انسان عين عبده أو عين أمته فأتلفها فانه يطلق حرا عوضا عن عينه • وان أسقط سن عبده أو سن أمته يطلق حرا عوضا عن سنه(١٠) •

واذا نطح ثور رجلا أو امرأة فمات يرجم الثور ولا يؤكل لحمه ويكون صاحب الثور بريئا ، أما اذا كان الثور نطاحا من قبل وقد أشهد على صاحبه ولم يضبطه فقتل رجلا أو امرأة فالثور يرجم وصاحبه أيضا يقتل ويدفع دية فداء لنفسه من القتل ، وكذلك الحال فيما يتعلق بالابن والابنة عندما ينطحهما ثور •

وجاء فى الاصحاح الثانى والعشرين من سفر الخروج فيما يتعلق بالسرقة أنه اذا سرق شخص ثورا أو شاة فذبحه أو باعه فانه يعوض الثور بخمسة ثيران والشاة بأربعة من الغنم ، واذا وجد السارق وهو ينقب فضرب ومات فليس له دم • لكن اذا أشرقت عليه شمس فله دم ويعوض أيضا ان لم يكن له بيع بسرقته ان وجدت السرقة فى يده حية ثورا كانت أم حمارا أم شاة فانه يعوض باثنين(١١) •

وتحدد اليهودية الحياة الاقتصادية بأنه اذا رعى انسان حقلا أو كرما وسرح مواشيه فرعت فى حقل غيره فمن أجود حقله وأجود كرمه يدفع التعويض • واذا تسبب شخص فى اتلاف مزروعات غيره فانه يعوض ما أتلف • واذا أودع شخص عند آخر فضة أو أمتعة وسرقت من بيت المودع عنده ووجد السارق فانه يدفع القسط قسطين ، وان لم

---

(١٠) الكتاب المقدس الخروج الحادى والعشرين من ١٢ — ٢١ ص١٢١ •
(١١) سفر الخروج ٢١ ، ٢٢ ص ١٢٢ •

يوجد السارق يقدم المودع عنده الى الله ليحكم هل يمد يده الى ملك صاحبه . بمعنى أنه يستحلف ليتبين صدقه من كذبه . واذا استعار شخص من صاحبه شيئا ما فتلف وصاحبه ليس معه فانه يعوض ، أما اذا كان صاحبه معه وشاهد الاتلاف فانه لا يدفع شيئا وان كان مستأجرا دفع أجرته .

هذا وجاء أيضا فيما يتعلق بالاغتصاب أو الزنا أنه اذا راود رجل عذراء غير مخطوبة واضطجعها فانه يتزوجها بعد أن يدفع مهرها ، أما اذا امتنع والدها عن تزويجها له فانه يدفع مهرها فضة كما يدفع للعذارى .

وتحارب اليهودية السحر والسحرة وأكدت ذلك بقولها لا تدع ساحرة تعيش . وتؤكد أيضا على المحافظة على السلوك السوى . حيث أنها تحرم الاستمتاع بالبهائم ومن فعل ذلك من الناس فانه يقتل . كذلك من ذبح لآلهه غير الرب وحده فانه يقتل وتنهى عن الكفر والالحاد فتقول لا تسب الله ولا تلعن رئيسا فى شعبك . وفيما يتعلق بالمعاملة تحث اليهودية على عدم اضطهاد الغريب وعدم مضايقته وأكدت ذلك بما يلى : لا تضطهد الغريب ولا تضايقه . لا تسىء الى أرملة ما ولا يتيم . ان أسأت اليه فانى ان صرخ الى أسمع صراخه فيحمى غضبى وأقتلكم بالسيف فتصير نساؤكم أرامل وأولادكم يتامى . وان أقرضت فضة لشعبى الفقير الذى عندك فلا تكن له كالمرابى ، لا تضع عليه ربا وان ارتهنت ثوب صاحبك فرده اليه عند غروب الشمس . ولا تقتل البرىء والبار ولا تأخذ رشوة لأن الرشوة تعمى المبصرين وتعوج كلام الابرار .

وجاء فى الاصحاح التاسع عشر من سفر العدد ما يلى :

من مس ميتا ميتة انسان ما يكون نجسا سبعة أيام يتطهر به فى اليوم الثالث وفى اليوم السابع يكون طاهرا • وان لم يتطهر فى اليـــوم الثالث ففى اليوم السابع لا يكون طاهرا • وكل من مس ميتا ميتة انسان قد مات ولم يتطهر ينجس مسكن الرب فتقطع تلك النفس من اسرائيل لأن ماء النجاسة لم يرش عليها تكون نجسة ونجاستها لم تزل فيها • يضاف الى ذلك أنه اذا مات انسان فى خيمة فكل من دخل الخيمـــة ومن كان فيها يكون نجسا سبعة أيام وكل اناء مفتوح ليس عليه سداد بعصابة فانه نجس ، وكل من مس على وجه الصحراء قتيلا بالسيف أو ميتـــا أو عظم انسان أو قبرا يكون نجسا سبعة أيام •

٥ ــ بعض ظواهر الحياة الاجتماعية عند اليهود :

ومن المهم أن نشير الى بعض الظواهر التى تمت بصلة الى الحياة الاجتماعية كالرق والاعتراف والميراث والربا ومحارم الزواج،ونذكر موقف اليهودية من هذه الظواهر •

١ ــ فمن ناحية الاعتراف والتطهير نجد أن الخطايا تكثر فى حيـــاة اليهود وتكمن الخطيئة فى كل شهوة من الشهوات وتدنس الخطيئة من يرتكبها • كما تدنس الولادة والحيض المرأة • ويقتضى كل منهما التطهير بمراسم وأضحية وصلاة على يد الكهنة ، وتعتبر الهبات والقرابـــين وسيلة التكفير عن الخطايا وتقدم للكهنة بعد الاعتراف الكامل بمـــا ارتكبه الانسان من اثم • لذلك كان مجتمع اليهود مجتمع خطايا وتكفير وغفران معا حتى أن التاجر كان ولا يزال يغش فى الميزان ثم يحـــاول أن يكفر عن ذنبه بالتضحية والصلاة •

وقد أورد سفر العدد صورة واضحة عن المرأة التى تريد أن تكفر عن ذنبها وضرورة ذهابها للكاهن لتعترف له بخطيئتها . وذكر هذا السفر أن الكاهن يوقفها أمام الرب ويأخذ ماء مقدسا فى اناء خزفى ويتلو عليه ترانيم وأدعية ويطلب الكاهن من المرأة بأن تعترف . فاذا رفضت سقاها من هذا الماء المسمى بماء اللعنة وهددها بأن هذا الماء اذا دخل أحشاءها وهى مذنبة ولم تعترف ورم بطنها وسقط فخذها . أما اذا اعترفت فان الكاهن يستطيع أن يطهرها بالقرابين والهبات والادعية .

٢ — أما عن الرق . قد أباحت اليهودية الرق بالشراء أو بالسبى فى الحرب فجعلت لليهودى أن يستعبد اليهودى اذا فقر فيبيع الفقير نفسه للغنى أو يقدم المدين نفسه للدائن حتى يوفى له بالدين ويظل عبدا له ست سنوات ثم يتحرر .

وجاء فى سفر الخروج « اذا اشتريت عبدا عبريا فستة سنين يخدم وفى السابعة يخرج حرا مجانا . وأباح سفر الخروج للعبرى أن يبيع بنته فتكون أمة للعبرى الذى يشتريها .

أما رق سبى الحرب فهو أيسر ما ينزله اليهود بأعدائهم وقد نص كتابهم المقدس على ما يأتى :

حين تقرب من مدينة لكى تحاربها استدعها الى الصلح ، فان اجابتك الى الصلح وفتحت لك ، فكل الشعب الموجود فيها يكون لك التسخير ويستعبد لك . وان لم تسالك بل عملت معك حربا فحاصرها ، واذا دفعها الرب الهك الى يدك فأضرب جميع ذكورها بحد السيف ، وأما النساء والاطفال والبهائم وكل ما فى المدينة كل غنيمتها فتغتنمها لنفسك [١٢] .

---

(١٢) سفر التثنية الاصحاح العشرون — ص ٣١١ (الكتاب المقدس).

٣ ــ أما الختان فقد ارتبط عند اليهود بالقربان ، فقد كان الانسان نفسه يقدم قربانا من قبل • ثم اكتفت الكهنة بجزء من الانسان • وذاك الجزء هو ما يقتطع فى عملية الختان ، وقد كان الختان سنة شائعة عند المصريين الاقدمين • وكان عندهم للوقاية الصحية من الاقذار • وقد أخذه اليهود من المصريين وربطوه بالقرابين والاضحية التى تقدم للغفران وارضاء الكهنة •

وبمرور الزمن أصبح الختان لدى اليهود فريضة يحتمها الولاء للجنس • فعلى اليهود أن يقوم بعملية الختان ليبزهن على أنه يهودى • وقبيل عهد المكابيين كان الختان يجرى للذكر والانثى بصورة بسيطة تمكن الشخص من الادعاء بأنه مختون ليتقى بذلك استهزاء غير اليهود وعدوانهم ، فلما جاء المكابيون أمر الكهنة أن تزال الغلفة عن آخرها حتى لا يحاول اليهودى الاندماج فى غير اليهود •

٤ ــ وقد جاء ذكر الميراث فى التوراة وأول من يرث الميت ابنه الذكر وان تعدد الابناء الذكور فللبكر منهم حظ اثنين من اخوته ولا فرق بين المولود بنكاح صحيح أو غير صحيح من الاولاد فى الميراث • ويعطى لكل منهم نصيبه بصرف النظر عن النكاح الذى ولد منه • ولا يحرم البكر من امتياز بسبب كونه من نكاح غير صحيح •

أما البنات فمن لم تبلغ سن الثانية عشرة فلها النفقة والتربية حتى تبلغ هذه السن تماما ، وليس لها شىء بعد ذلك •

واذا لم يكن للميت ولد ذكر فميراثه لابن ابنه ، واذا لم يكن له ابن ابن انتقل الميراث الى البنت وهكذا ، ويرى القراءون أن يكون

للبنت نصيب مع الولد : سهمان للولد وسهم للبنت • فاذا لم تكن له ذرية فميراثه لأصوله ، وأحق الأصول بميراث الميت أبوه وله كل التركة • فان لم يكن له أب فجده • واذا لم يكن له أصول انتقل الميراث الى درجـــات الاقارب الفرعية من الذكور واذا لم يكن للميت وارث من فروع أو أصول أو حواشى كانت أمواله مباحة يمتلكها أسبق الناس الى حيازتها • وتظل وديعة فى يد حائزها مدة ثلاث سنوات • فاذا لم يظهر للميت وارث خلالها صارت ملكا تاما لحائزها • وعند اختلاف الدين يرث اليهودى أقاربه غير اليهود ولا يرث الاقارب غير اليهود اليهودى(١٣) •

٦ ــ النـــكاح :

هذا الى أن التوراة حددت السن القانونية لصحة الزواج بثلاث عشرة سنة للرجل واثنتى عشرة سنة للمرأة • لكنه يجوز نكاح من ظهرت عليه دلالات البلوغ قبل هذا السن • ومن بلغ سن العشرين ولـــم يتزوج يستحق اللعنة • ويجوز فى اليهودية تعدد الزوجات دون حد ، ولم يرد بالتوراة ولا بأحكام الأنبياء نهى عن تعدد الزوجات ولا عن تحديد عددهن • وعلى عكس ذلك ، فقد ورد فى التوراة ما يفيد تعدد الزوجات للانبياء وغير الانبياء وحدد الربانيون الزوجات بأربع وأطلقه القراءون •

وكان مبدأ تعدد الزوجات شائعا باستمرار عند بنى اسرائيل ولم يكن القانون المدنى أو الشرعى يعارضه • ويعتبر غير اليهود فى نظر اليهود وثنيين لذلك لا يجيزون زواج اليهودى أو اليهودية من غير اليهود •

---

(١٣) أحمد شلبى مقارنة الاديان ــ اليهودية (١) مرجع سابق • ص‌ص ٢٧٣ ــ ٢٧٨ •

٧ ــ طبقـات المحـــارم :

وعن المحرمات للزواج تمنع اليهودية أن يتزوج الرجل من كانـــت زوجة لعمه • ومن كانت زوجة لاخيه اذا أنجبت منه • ولا تجعل اليهودية من الرضاعة سببا للتحريم وفيما يتعلق بزوجة الاخ المتوفى فقد نصـــت التوراة على أنه اذا لم يكن للمتوفى ابن فلا تصير امرأة الميت الـــى خارج لرجل أجنبى بل يدخل عليها أخ زوجها ويتخذها لنفسه زوجة • والبكر الذى تلده يأخذ اسم أخيه الميت لئلا يمحى اسمه من اسرائيل • ولا يزال الربانيون يعملون بهذا التشريع •

أما القراءون فيرون أن هذا التشريع قد نسخ من زمن ولا يــزال منسوخا وبعض القرائين يحرمون امرأة زوج الأخت • فاذا تزوج زوج الاخت زوجة أخرى ثم طلقها أو مات عنها ، فانها تكون محرمة على أخوة ضرتها وبعضهم يجعل الزوج والزوجة كشخص واحد ويجرون التحريـــم على هذا الأساس •

٨ ــ موقف اليهودية من المرأة :

تنظر اليهودية الى المرأة نظرة تتسم بما يلى :

ما أسعد من رزقه الله ذكورا ، وما أسوأ حظ من لم يرزق بغـــير الاناث ، ولا ينكر أهمية الاناث فى التناسل الا أن الذرية كالتجارة سواء بسواء • فالجلد والعطر كل منهما ضرورى للناس الا أن النفس تميـــل الى رائحة العطر الذكية وتكره رائحة الجلد الخبيثة •

وقد جاء فى العهد القديم عن المرأة ما يلى :

درت أنا وقلبى لأعلم ولأبحث ولأطلب حكمة وعقلا ، ولاعرف الشر أنه جهالة والحماقة أنها جنون • فوجدت أمر من الموت المرأة التى هى شباك ، وقلبها شراك ، ويداها قيود •

ويعتبر الزواج فى اليهودية صفقة شراء تصبح المرأة بموجبها مملوكة تشترى من أبيها ، فيكون زوجها سيدها المطلق • ويتم الزواج اذا باركه أحد الكهنة وقدم للمرأة خاتما أو هدية أخرى ذات قيمة بحضور شاهدين على الاقل • ويعتبر ذلك عقدا • واذا حضر العقد عشرة رجال فأكثر أتبع العقد بصلوات وأدعية يشترك فيها الجميع •

ومن تقاليد الفكر اليهودى أن الرجل اذا تزوج لا يلتحق بالخدمة العسكرية ولا يرتبط بأعمال تبعده عن زوجته مدة عام ، فشهر العسل فى الفكر اليهودى عام كامل • وتعتبر المرأة المتزوجة كالقاصر والصبى والمجنون ولا يجوز لها البيع ولا الشراء(١٤) • وينص التشريع اليهودى على أن كل مال المرأة ملك لزوجها وليس لها سوى ما حدد لها من مؤخر الصداق فى عقد الزواج ، ويمكنها أن تطالب به بعد موت زوجها أو اذا طلقت منه • وعلى ذلك فكل ما دخلت به من مال وكل ما تحصل عليه وما تكسبه ، وكل ما يهدى اليها فى عرسها ملك حلال لزوجها يتصرف فيه كيف شاء بدون معارضة ولا منازعة •

وفيما يتعلق بوقوع الشقاق والفرقة بين الأزواج فقد استقر رأى السادة أو الأرباب على وجوب الأخذ بمشروع وقف الزوجية أى أن توقف أموال الزوجة ويصير الزوج قيما عليها يستغلها دون أن يبيعها أو يرهنها •

(14) Arthur Hertzberg, Judaism, G. Braziller, New York, 1962, p. 274.

وبذلك تصبح الزوجة مالكة لرقبة الاموال والزوج مالكا للمنفعة • ومتى تمت الفرقة رجعت الثروة الى الزوجة • وعلى الزوجة مهما بلغت ثروتها ومكانتها أن تقوم بالاعمال اللازمة لبيتها ، مهما كانت تلك الاعمال كبيرة أو صغيرة • ويحدد آرثر هيرتزبرج Arthur Hertzberg دور المرأة فيقول أن على المرأة أن تطحن الحبوب وتخبز وتغسل الملابس وتطبخ وترضع ولدها وتنظف البيت وتنظمه وتغزل الثياب وتخيطها • ولكن اذا أحضرت معها خادما تابعا لها من بيت أبيها فانها تعفى من الطحن والخبز والغسيل ، وان أحضرت خادمين معها أعفيت من الطبخ والرضاعة • واذا أحضرت ثلاثة فانها تعفى من تنظيف البيت وتنظيمه ، وان أحضرت أربعة فانها تعفى من كل الاعمال • الا أن اليازير Eliazer الكاهن يقول أن الزوجة اذا أحضرت معها مائة خادم فانها لا تعفى من الغزل ولزوجها أن يرغمها عليه لأن البطالة تؤدى الى الفساد •

ولا ترث المرأة زوجها وكل مالها بعد موته هو مؤخر الصداق • أما باقى ثروتها فتئول الى زوجها ومنه الى ورثته كما سبق ، واذا أخذت مؤخر صداقها ذهبت فى حال سبيلها • أما اذا لم تطالب به فلها الحق فى أن تعيش مع الورثة من مال التركة •

٩ — الاعياد عند اليهود :

وتبرز فى اليهودية ظاهرة الاعياد وما أكثرها عندهم ومن بينها :

١ — عيد الفصح وهذا العيد هو يوم ذكرى خروج بنى اسرائيل من مصر من العبودية التى كانوا يخضعون لها • ويذكر بعض من علماء اليهود أن هذا العيد لا يمكن نسيانه وأن الرب قد جاء بنفسه دون أن يكتفى بملائكته ، وقاد شعبه وأخرجهم من اطار العبودية التى كانوا يعيشون فيها • وكان خروجهم سريعا فلم يعدوا خبزهم كالعادة • وانما أعدوه

فطيرا دون أن يختمر • وعلى هذا ، ففى أثناء عيد الفصح الذى يستغرق الاسباع الثالث من شهر أبيب (نيسان — ابريل) ابتداء من اليــوم الرابع عشر مساء الى اليوم الحادى والعشرين مساء ويكون طعام اليهود فطيرا فى هذه الفترة أى الخبز غير المختمر • ويبدأ اليوم الاول من الاسبوع بحفل مقدس ويختم الاسبوع بحفل مقدس أيضا وتتلى فى هذين الحفلين — احتفال اليوم الرابع عشر واحتفال اليوم الواحـــد والعشرين — تتلى أدعية وتقام صلاة وتحرق القرابين(١٥) •

٢ — الهلال الجديد • يحظى الاحتفال بالهلال الجديد بعناية كبيرة عند اليهود وكان يطلق عليه عيد النفير لأن الأبواق كانت تستعمل فى اعلان ظهور الهلال وكان اليهود يتبارون فى مراقبة الهلال ، ويتسابقــون لرؤياه • وكان من يراه أولا يسرع الى البيت المقدس ليخبر به الكهنــة والرؤساء • وكان يقام أحيانا سباق بين من شاهدوا الهلال ويحاول كل منهم أن يكون له قصب السبق • وينفخ فى الأبواق اعلانا بالشهر الجديد وتشعل النيران على جبال الزيتون وعندما يراها سكان التلال البعيدة يشعلون هم أيضا النيران على تلالهم •

٣ — السبت : يعتبر يوم السبت يوما مقدسا عند اليهود ويجب احترام هذا اليوم احتراما كاملا ، ولا يمكن لليهودى أن يعمل فيه ، ومن خالف منهم احترام هذا اليوم ودنسه بالعمل فيه فانه يكون ارتكب جرمـا كبيـرا • ولـم يكـن عنـد اليهـــود خطيئـــة أكبـــر من عدم احترام يوم السبت • والســــبت يســمى فى العبريــــة (شباث Shabbath) أو بمعنى الراحة لأنه يوم الرب فيه استراح وأمر عباده بالاستراحة فيه وباركها • وقد أمرت الوصية الرابعــة بمراعاة حفظ حرمة يوم السبت كما سبق •

---

(15) Ibid p. 274. Ibid .p. 113-114.

٤ — يوم التكفير ، وهو يوم دورى يأتى مرة فى السنة ويحاول فيه اليهودى أن يعبد الله لا كانسان يعيش فى المجتمع ، وانما كملاك لا يأكل ولا يشرب • وانما يقضى وقته كله فى العبادة وتعظيم الله • وعلى اليهودى أن يعيش هذا اليوم كما تعيش الملائكة فى صوم مستمر وعبادة دائمة أثناء اليوم كله • ويسبق هذا اليوم بتسعة أيام هى أيام التوبة حيث يتطهر اليهودى خلالها تطهيرا يضمن له النقاء خلال العام القادم • ويكون اليوم العاشر هو يوم الصوم •

وتكمل العبادة طهارة اليهود وتغفر لهم سيئاتهم فى الماضى ويستعدون لاستقبال عام جديد(١٦) • وتقع هذه الايام فى الشهر السابع من شهور السنة اليهودية • وفى اعتقادى أن الشهر السابع عند اليهود هو الشهر الاول من السنة الهجرية عند المسلمين فحينما قدم الرسول الى المدينة وجد اليهود آنذاك يصومون يوم العاشر من محرم أو العاشر من عاشورة فسأل عن ذلك ، فأخبروه بأن موسى كان يصوم هذا اليوم • وقال الرسول نحن أولى بموسى منهم ، لو عشت السنة القادمة لاصوم التاسع والعاشر منه مخالفة لليهود • ولا يزال كثير من المسلمين يصومون يوم التاسع والعاشر من محرم •

ونلاحظ أن اليهود قد حرفوا وتصرفوا فى المجتمع وفى كتبهم المقدسة بالتعديل والتبديل(١٧) • حسب رغباتهم لا كما أنزله الله • كل ذلك فعلوه لخدمة مصالحهم وارجعوه الى الدين بعد أن حرفوه أيضا ليخدم مصالحهم •

---

(16) Ibid pp. 131-132.

(17) La grande Encyclopedia, Tome Dix-neuvieme, op cit, p. 919 .

ولما كان الدين هو أقوى الضوابط الاجتماعية ولا يستطيع أى فرد الخروج عليه نسبوا ما اقترفوه من اثم الى الدين والدين براء منه • وهم شعب ضال كذب رسوله ومن باب أولى أن يخرجوا على المجتمع بتحريفاتهم وتأويلاتهم ونعرتهم العنصرية •

١٠ — التفرقة العنصرية :

وأجد نفسى ملزما أن أشير الى نقطة تبدو فيها التفرقة العنصرية على أشدها ممزوجة بالقوة والدم واحتلال أرض الآخرين بغير حق وقتل رجالها وسبى نسائها وأطفالها وأموالها •

فعندما حاول اليهود انشاء دولة لمقاومة الغزو المقدونى لم ينجحوا وفشلت الثورة التى قامت بقيادة اسكندر جنيوس كما سبق •

ومن الواضح أن ادعائهم بأرض الميعاد ليس ادعاء صحيحا ففلسطين عربية منذ حياتها الاجتماعية فقد سكنها الكنعانيون وهم قبائل عربية نازحة من شبه الجزيرة العربية ، وأقاموا بها حضارة راقية ومنهم أخذت البلاد اسمها (أرض كنعان) ثم أخذت القبائل العبرانية (اليهودية) تدخل البلاد فى جماعات متفرقة نازحة من شمال العراق ، واقتصر عملها على التجارة فقط • ثم جاءت الى سواحل البلاد موجات أخرى من جزر بحر ايجه واستقرت على الشاطىء الكنعانى وأطلقت هذه القبائل على البلاد اسمها فلسطين • وتعاقب على البلاد الغزو الاشورى والكلدانى والفارسى والمقدونى • وعندما أصبحت فلسطين وطنا عربيا اسلاميا فى القرن السابع الميلادى كانت صبغتها اليهودية قد تلاشت تماما ، لأن اليهود تصاهروا مع العرب ومن ثم خضت فلسطين لكل الاحكام التى خضعت لها اجزاء الامة العربية • وقد تعرض اليهود لمجزرة رهيبة أثناء زحف

السلجوقيين على البلاد ، ولكن سرعان ما عادت اليهم الطمأنينة فى ظــل حكم الايوبيين ، وهذا مما شجع عودة الكثير منهم الى فلسطين لا سيما وأنهم كانوا أيضا ضحايا الاضهاد الدينى فى أوروبا وخاصة محاكم التفتيش فى أسبانيا والنازية فيما بعد • ولعل هذه الاضطهادات المستمرة هى التى جعلتهم يتطلعون الى الآمال والاحلام التى طالما داعبت تصوراتهم وهى العودة الى أرض الميعاد واقامة الهياكل المقدسة • وقد أصبحت هــذه الدعوى عقيدة راسخة مرتكزة على الجهود التى وردت فى الكتب المقدسة وخاصة التلمود المحرف واصطبغت هذه الدعوى بصبغة دينية بدلا من الصبغة السياسية ، وارتكزوا فى ذلك على ما كانوا يرددونه من أن الله وعد ابراهيم بأن الارض المقدسة ستبقى وقفا على ذريته • وكانــوا يقولون ذلك فى صلواتهم مبتهلين الى الله أن يبعث صهيون ويعيده الى ارض أورشليم (القدس) • هكذا اعتقدوا أن فلسطين لهم وساعدهم فى ذلك البريطانيون أيام كانوا يتحكمون فى المنطقة كلها •

ومهما يكن فاننا نلاحظ أن الديانة اليهودية الجديدة قد قامت فى أساسها نتيجة للتحريف الذى أدخله اليهود على الاسفار المقدسة ونتيجة التفرقة العنصرية وذلك أنها جعلت من اليهود الشعب المختار الــذى فضله الله على العالمين • ونظرت الى ما عداهم من الشعوب نظرتها الى شعوب وضعية فى سلم الانسانية ووضعت قوانينها ونظمها على هذا الاساس وفرقت بين هذا وذاك أمام القانون ، وفى كثير من نواحــى الحياة الاجتماعية • وهى النواحى التى تضمنتها أسفار العهد القديــم والتلمود ونظمتها تنظيما كاملا فهى لم تترك أى جانب من جوانــب العبادات والمعاملات والسياسة والاقتصاد والاسرة والتشريع والتربية والاخلاق والحرب والعلاقات الدولية وواجبات الفرد ازاء نفســـه واسرته ووطنه • لم تترك أى جانب من هذه الجوانب وغيرها الا ووضعت

له حدودا وقواعد وضوابط • ووضحت ما ينبغى أن تكون عليه وما يجب اتخاذه فى حالة الخروج عليها حتى شئون الاكل والشرب والعلاقات الزوجية والحيض والنفاس والزراعة واستخدام الانعام فى الحرث والميراث والرق • غير أن هذه الشريعة طرأ عليها كثير من مظاهر الانحراف والتضارب فمن ذلك مثلا أن الاسرائيليين محرم عليهم أن يقتل بعضهم بعضا وأن يخرج بعضهم بعضا من ديارهم ، فى حين أنه مباح للاسرائيليين وبالاحرى واجب عليهم غزو الشعوب الاخرى وخاصة شعب كنعان وواجب عليهم بعد انتصارهم أن يضربوا رقاب جميع رجالها البالغين بحد السيف فلا يبقوا على أحد منهم ، ويسترقوا جميع نسائها وأطفالها ويستحوذوا على جميع ما فيها من مال عقارا كان أو منقولا وينهبوه نهبا ، كما عبر عن ذلك الاصحاح العشرون من سفر التثنية • كذلك الاسرائيلى اذا باع نفسه بيعا اختياريا لاسرائيلى فى حالة عوزه واحتياجه الى المال فان رقه يكون لأجل يعود بعده لحريته ، فى حين أن الرق الواقع على غير الاسرائيلى يظل باستمرار •

ولا يجوز للاسرائيلى أن يتعامل بالربا مع الاسرائيلى ولا يأخذ منه رهنا بدينه • وأن أخذ منه فى الصباح رهنا من المتاع الذى لا يستغنى عنه فى حياته اليومية كالرحى وما اليها وجب أن يرده اليه فى المساء • أما غير الاسرائيلى فمباح للاسرائيلى أن يمتصه ويتعامل معه بأشنع أنواع الربا الفاحش •

وتقرر أسفارهم المزعومة أو المحرفة أن شعب كنعان قد كتب عليه فى الأزل أن يكون رقيقا لبنى اسرائيل ، وأنه لا ينبغى أن يكون لأفراد هذا الشعب وظيفة ما فى الحياة الاجتماعية غير الاسترقاق • فاذا تمردوا عليها أو حنوا الى الحرية وجب على بنى اسرائيل أن يردوهم عنها بحد السيف ، وتقرر الاسفار السابقة المحرفة أن هذا الوضع قد فرض

عليهم لدعوة دعاها نوح على كنعان ونسله ، وذلك أن نوحا بحسب ما يدعيه سفر التكوين قد شرب مرة نبيذ العنب الذى غرس كرمه بيده بعد الطوفان بدون أن يعلم خاصيته المسكرة ففقد وعيه وانكشفت سوأته فرآه حام ابنه على هذه الصورة فسخر منه • وحمل الخبر الى أخويه سام ويافث • ولكن هذين كانا أكثر أدبا منه فحملا رداء وسارا به القهقرى نحو أبيهما حتى لا يقع نظرهما على عورته ، وسترا به ما انكشف من جسمه • فلما أفاق نوح وبلغه ما كان من موقف أولاده حياله ، لعن كنعان بن حام ودعا على نسله أن يكونوا عبيدا لاولاده سام ويافث•

هذا الى أن الأسفار المذكورة تحتوى على أحكام يتناقض بعضها مع بعض فى كثير من النواحى • فقد يقرر سفر فى حادث ما حكما ويأتى سفر آخر فيقرر فى نفس الحادث حكما آخر • فيقرر سفرا الخروج والتثنية مثلا أن الاسرائيلى الذى يبيع نفسه بيعا اختياريا لاخيه الاسرائيلى فى حالة عوزه وحاجته الى المال لا يدوم رقه الا ست سنين • كما جاء ذلك فى سفر الخروج الاصحاح الواحد والعشرين • بينما يقرر سفر اللاويين أن رقه لا ينتهى الا بحلول اليوبيل الاسرائيلى (وهو العيد الذى يجىء كل خمسين سنة) أيا كانت المدة التى قضاها فى الرق قبل ذلك • فتبيح توراتهم المزعومة للاسرائيلى رجلا كان أو امرأة أن يبيع نفسه للاسرائيلى فى الحالة السابقة • ويقول سفر التثنية فى ذلك اذا باعك نفسه أحد من اخوانك سواء كان رجلا أم امرأة فانه يخدمك ست سنين[18] على حين أن أسفار التلمود لا تجيز ذلك الا للرجل وحده •

يتضح من ذلك أن كل سفر من أسفارهم المزعومة يعكس النظم والتقاليد التى كانوا يسيرون عليها فى العصر الذى ألفت فيه • ويدل

---

(١٨) سفر التثنية الاصحاح الخامس عشر الفقرة الثانية •

ذلك على مبـــدأ التناقض بين توارتهم المزعومة وبين التوراة الصحيحة التى أنزلها الله على موسى • وكتاب الله أيا كان لا يمكن أن تتضارب أحكامه بعضـــها مع بعض • كذلك فان شريعة الله لا تقول بالتفرقة العنصرية بين أفراد الآدميين « يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير » (١٩) •

ويلاحظ أن بعض شرائع العهد القديم تحمل داخلها دليلا على اضطراب الحقائق فى أذهان محرريها واختلاط بعضها مع بعض ، ونسيانهم حظـــا كبيرا منهـــا • وغفلتهم عن أصولها • فيذكر سفر التثنية بصدد القسامة فيقول اذا وجد فى بلد من البلاد التى منحكم ربكم السيطرة عليهـــا رجل قتيل ملقاة جثته فى وسط حقل ولم يمكن الاهتداء الى معرفة قاتله فان كبراءكم وقضاتكم يذهبون فيقيسون المسافات بين الجثة والبلاد القريبة منها • وعندما يصلون الى تعيين أقرب هـــذه البلاد مسافة الى الجثة يستدعون كبراءها ويطلبون اليهم أن يحضروا عجلة (بقرة صـــغيرة) لم تستخدم بعد فى عمل ما ولم تحمل بعد ســـكة المحراث (أى بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك ، لا ذلول تثير الارض و لاتسقى الحرث) ويذهبون بها الى جدول لا تجف مياهه وفى منطقة غير ذات زرع ولا بذور ملقاة فى الأرض وينحرونها من قفاها فى هـــذا الجدول وحينئذ يتقدم المشرفون على الضحايا من اللاويين (قبيلة اللاويين هم أبنـــاء لاوى وهم الذين اختارهم الرب لخدمته ولنشر البركة والرحمة باسمه وهم وحدهم الذين يحكمون فى قضايا الجنايات والجروح) • فيطلبون الى كبراء هذه المدينة أن يغسلوا أيديهم فوق العجلة التى نحرت من قفاها فى الجدول ،

---

(١٩) سورة الحجرات آية ١٣ .

ويقسمون أن أيديهم لم ترق دم القتيل وأن أعينهم لم تره وهو يراق • وبذلك لا يتحمل بنوا اسرائيل تبعة هـذا الدم[٢٠] •

ويلاحظ أن الشريعة الاسلامية تقرر كذلك أنه اذا وجد قتيل لا يعلم قاتله أجريت القسامة على أصل البـلدة التى وجد فى طرقها أو القرب منهـا • وانه اذا وجدت جثته بين بلدين أجريت القسامة على أقربهما مسافة من مكان جثته •

والقسامة فى الاسـلام هى أن يستحلف ولى الدم خمسين رجلا يتخيرهم من أهل البلدة فيحلفون أنهم ما قتلوه ولا علموا له قاتـلا ، فحينئذ يسقط القصاص ولكن تجب الدية على أهل البلدة جميعا يدفعونها متضامنين لاسرته[٢١] •

وبالمقارنة بين ما جاء فى سفر التثنية من اجراءات القسامة وبين ما تقرره الشريعة الاسلامية فى هـذا الشأن نجد أن سفر التثنية يتفق مع الشريعة الاسلامية فى اجراء القسامة على أقرب بلد الى جثة القتيل • وفى اختيار طائفة من أهل البلد ليحلفوا أنهم ما قتلوه ولا علموا له قاتلا حتى يسـقط القصاص • واتفاق سفر التثنية مع الشريعة الاسلامية فى هـذه الأمور يجعل من المرجح أن محررى هـذا السفر قد استمدوا هـذه الأحكام فى جملتها من التوراة الصحيحة وأن الله تعالى قد شرع للمسلمين فى صددها ما سبق أن شرع مثله أو قريبا منه لليهود • وأنها من الأمور المشتركة بين الشريعتين الموسوية والمحمدية والتى ذكرها الله

---

(٢٠) سفر التثنية الاصحاح الواحد والعشرون فقرات من ١ الى ٩ •

(٢١) على عبد الواحد وافى — المسئولية والجزاء — مرجع سابق ص ٧٢ — ٧٣ •

تعالى فى القرآن الكريم بقوله « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى •• » (٢٢) •

ولكن يوجد فى سفر التثنية الأجراء الغريب السابق الخاص بالعجلة المقحم على اجراءات القسامة • ويزيد من غرابة هذا الاجراء أنه لا يصلح أن يكون ولو مجرد رمز للحقيقة التى يريد أهل البلد أن يقرورها، وهى برائتهم من دم القتيل ، لأن غسل أيديهم فى جدول ملوث بدماء العجلة التى نحروها بأيديهم وصب الماء فوق هذه العجلة • كل ذلك لا يصلح أن يكون ولو مجرد رمز للحقيقة التى يريد أهل البلد أن يقرروها، يكون رمزا لاقترافهم اياها(٢٣) •

وقد ورد ذكر هذه البقرة فى القرآن ولكن بصورة مغايرة وفى حادثة قتل خاصة حدثت فى عهد موسى ولم يعلم فاعلها • وكانت البقرة عنصرا من معجزة أظهرها الله على يده وقد وردت القصة فى سورة البقرة ، حيث يقول الله فيها « واذ قال موسى لقومه ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ، قالوا اتتخذنا هزوءا ؟ ! قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين • قالوا أدع لنا ربك يبين لنا ما هى ، قال انه يقول انها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك ، فافعلوا ما تؤمرون • قالوا أدع لنا ربك يبين لنا ما لونها ، قال انه يقول انها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين • قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى ، ان البقر تشابه علينا ، وانا ان شاء الله لمهتدون • قال انه يقول انها بقرة لاذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث ، مسلمة لاشية فيها ، قالوا الآن جئت بالحق ، فذبحوها وما

---

(٢٢) سورة الشورى آية ١٣ .

(٢٣) على عبد الواحد وافى — الاسفار المقدسة — مرجع سابق — ص ٣٦ .

كادوا يفعلون •واذ قتلتم نفسـا فادارأتم فيهـا والله مخرج ما كنتم تكتمون فقلنا اضربوه ببعضـها ، كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون » [٢٤] •

يتضح من هـذه الآيات أن الله أوحى الى موسى أن يضرب قومه جثة القتيل بجزء من هـذه البقرة فضربوها به فأحياه الله تعالى وذكر لهم اسم قاتله • ثم مات ثانية فكان بذلك معجزة لموسى من جهة وبيانا عمليا من جهة أخرى لقدرة الله على احياء الموتى ، وهو الأمر الذى كان يرتاب فيه بنو اسرائيل [٢٥] • وفيه كذلك اشـارة الى أن بعث الله تعالى الحياة فى ميت لا يتوقف على سبب من الأسباب التى تدركها عقولهم ، وانما اذا أراد شـيئا أن يقول له كن فيكون ، فيحدث بدون سبب ما أو يجىء عقب أمر لا يتصور العقل أن يكون سببا له ، ذلك أن العقل لا يتصور أن ضرب جثة الميت بجزء من جثة ميت آخر يمكن أن يكون سببا لبعث الحيـاة فيه •

وتتفق أوصاف البقرة التى ذكرها القـرآن فى هـذه المعجزة فى جملتها مع أوصاف العجلة التى ورد ذكرها فى سفر التثنية عن اجراءات القسامة وأن ذبح البقرة التى ذكرها القرآن كان فى حادث قتل معين لم يعرف مرتكبه وذبح العجلة التى ذكرها سـفر التثنية يجب اجراؤه بحسب نصوصه كلما وجد قتيل لم يعرف قاتله • ويظهر أن الأمر قـد تشابه على محررى سفر التثنية فخلطوا بين ما جاء فى التوراة أو فى أثر آخر من آثارهم خاصـا بالمعجزة التى تمت على يد موسى وما جاء فيهـا خاصـا باجراءات القسامة العادية ، وجعلوا ذبح العجلة جزءا من هذه

---

(٢٤) سورة البقرة آية ٦٧ — ٧٣ •

(٢٥) على عبد الواحد وافى — الاسفار المقدسة — مرجع سابـق — ص ٣٧ •

الاجراءات على أنه غريب عنها كل الغرابة ، ولا يصلح أن يكون حتى مجرد رمز للحقيقة التى نراد تقريرها (٢٦) • وقد وصف الله تعالى اليهود فى كتابه بقوله « فيما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به »(٢٧) •

١١ — الشعائر :

هذا الى أن اليهودية ترتبط فى شعائرها ومعتقداتها وطقوسها باقامة تابوت وهيكل ووجود كهنة وقرابين • وقد ورد ذكر التابوت فى سفر الخروج فيما يلى (وقال الرب لموسى اصعد الى الجبل وكن هناك فأعطيك لوحى الحجارة والشريعة والوصية التى كتبتها لتعليم بنى اسرائيل)(٢٨) • فصعد موسى الى الجبل وهناك تلقى من الاله أوصاف التابوت التى وردت مفصلة فى سفر الخروج فيما يلى : فيضعون تابوتا من خشب السنط طوله ذراعان ونصف وعرضه ذراع وارتفاعه ذراع ونصف وتغشيه بذهب نقى من داخل ومن خارج وتصنع عليه اكليلا من ذهب حواليه وتسبك له أربع حلقات من ذهب وتجعلها على قوائمها الاربع على جانب الواحد حلقتان وعلى جانبه الثانى حلقتان وتصنع عصوان من خشب السنط وتغشيهما بذهب وتدخل العصويين فى الحلقات على جانبى التابوت ليحمل التابوت بهما وتبقى العصوان فى حلقات التابوت لا تنزعان منها ، وتضع فى التابوت الشهادة التى أعطيك • وعلى غطاء التابوت يوجد طائران لم ير الناس مثلهما وينسبون

---

(٢٦) المرجع السابق — ص ٣٨ .

(٢٧) سورة المائدة آية ١٣ .

(٢٨) سفر الخروج ٢٤ فقرة ١٢ .

لموسى القول بأنه رأى هذا النوع من الطيور بالقرب من عرش الله • وحراسة التابوت موكولة لهذين الطائرين •

وتذكر الأسفار أن موسى نزل من الجبل ولوحا الشـــهادة فى يده لوحان مكتوبان على جانبيهما ، واللوحان هما صنعة الله والكتابة كتابة الله منقوشة على اللوحين [٢٩] ع ويرتبط التابوت بالمذبح المخصص لايقاد البخور • وقد وصفه العهد القديم بأن طوله ذراع وعرضه ذراع وارتفاعه ذراعان • ويصنع من خشب الســـنط ويغشى بذهب نقى سطحه وحيطانه ويوضع قدام الحجاب الذى أمام تابوت الشـــهادة ويوقد عليـــه هارون بخورا وعطرا كل صباح حين يصلح السرج وحين يصعدها هارون فـــى العشية يوقده بخورا دائمـــا أمام الرب ويصنع هارون كفارة على قرونه مرة فى السنة من ذبيحة الخطية التى للكفارة[٣٠] •

وقد صنع بنو اسرائيل التابوت على صفته تلك وأن موسى وضـــع اللوحين فى التابوت كما وضع فيه ذهبا وفضة وبعض المواثيق وسماه تابوت العهد وقال لبنى اسرائيل انه فى هـــذا التابوت توجد روح الاله يهوه • ولم يكن يسمح لأحـــد أن يلمسه بل كان يحمل عن طريق العصوين السابقين ولمـــا مسه عزة الصالح بأن مد يديه الى التابوت ليمنعه من السقوط على الأرض وأمسكه برهة قصيرة غضب الرب على عزة وضربه الرب هنـــاك لأجل أنه يمد يديه الى التابوت فمات هنـــاك أمام الله[٣١] • ويبدو أن قادة بنى اسرائيل كانوا يحتفظون بأغلى ما يملكون من ثروات

---

(٢٩) خروج ٣٢ — ١٦١٥ .

(٣٠) خروج الاصحاح الثلاثين ص ١٣٧ •

(٣١) صموائيل الثانى ٦ — ٧ •

فى التابوت ويوهمون الناس أن من مسة مات ليضمنوا سلامة هذه الثروات • وقد أخذ العرب فى احدى جولاتهم التابوت من بنى اسرائيل ولم يمت الذين أخذوه • ويرى غوستاف لوبون أن تابوت العهد اقتبس من المجتمع المصرى الذى كان به نظائر لهذا التابوت المقدس(٣٢) •

١٢ — بنـاء الهيكل :

بقى أن نشير الى الهيكل ونربطه بالتابوت ويرجع ذلك الى أن داود اتخذ مدينة أورشليم عاصمة لملكه (القدس) ويقص سفر أخبار الأيام الأول أن داود جمع رؤساء اسرائيل ورؤساء الفرق الخادمين للملك ورؤساء الألوف ورؤساء المئات ووقف على رجليه وخاطبهم بقوله : اسمعونى يا أخوتى وشعبى كان فى قلبى أن أبنى بيت قرار لتابوت عهد الرب ولموطىء قدمى الى هنا وقد هيأت للبناء ولكن الله قال لى لا تبن بيتا لاسمى انما اختار سليمان ابنى ليجلس على مملكة الرب بعدى وقال لى أن سليمان ابنك هو يبنى لى بيتى وديارى لأنى اخترته لى ابنا وأنا أكون له أبا(٣٣) •

وقال داود الملك لكل المجمع ان سليمان ابنى صغير وغض والعمل عظيم لأن الهيكل ليس لانسان بل للرب الاله وأنا بكل قوتى هيأت لبيت الهى الذهب والفضة والنحاس والحديد والخشب وحجارة الجزع وحجارة الترصع وحجارة كحلاء ورقماء وكل حجارة كريمة وحجارة الرخام بكثرة • ثم حث داود الشعب أن يباركه الرب الههم وأن يسهموا بما يستطيعون

---

(٣٢) غوستاف لوبون — مقدمة الحضارات الاولى — ترجمة محمد صادق رسمى — القاهرة — ١٣٤١ — ص ٦١ — ٦٢ •

(٣٣) أخبار الايام الاول الاصحاح الثامن والعشرين •

من مال فى بناء هــذا الهيكل • وتذكر احدى الروايات أنهم تبرعوا بخمسة آلاف وزنة من الذهب وبضعفها من الفضة وبكل ما يحتاج اليــه الهيكل من الحجارة والحديد ، وقام سليمان ببناء هــذا الهيكل الذى يحوى أروقة وبيوتا وخزائن وغرفا ومخادع وأمتعة وموائد وكئوسا وأقداحا ومذابح •

وقد وصف سفر الملوك هــذا الهيكل بالآتى ·

فبنى سليمان البيت وأكمله وبنى حيطان البيت من الداخل ، بأضلاع أرز من أرض البيت الى حيطان السقف • وغشــاه من داخل بخشب • وفرش أرض البيت بأخشاب سرو ، وبنى عشرين ذراعا من مؤخر البيت بأضلاع أرز من الأرض الى الحيطان • وبنى داخله المحراب أى قدس الأقداس وهيأ محرابا فى وسط البيت من داخل ليضع هنــاك تابوت عهد الرب • وأقام تمثالين لملكين يحرسان قدس الأقداس ، وغشى المحراب بذهب وغشى المذبح بأرز • وغشى ســليمان البيت من الداخل بذهب خالص • وسد بسلاسل ذهب قدام المحراب(٣٤) •

ويذكر ول ديورانت : ان طراز الهيــكل هو الطراز الذى أخــذه الفينيقيون عن مصر وأضافا اليه ما أخذوه من الاشوريين والبابليــين من ضروب التزين • ولم يكن هــذا الهيكل كنيسة بالمعنى الصحيح • بل كان سياجا مربعا يضم عــدة أجنحة • ولم يكن بناؤه الرئيسى كبير الحجم • فقد كان طوله حوالى مائة وأربع وعشرين قدما • وعرضه حوالى خمسة وخمسين وارتفاعه حوالى اثنين وخمسين قدما • وقد أختير

---

(٣٤) الملوك الاول ٦ ، ١٤ الى ٢١ .

مكان تشييد الهيكل فوق ربوة وقد اندثر هـــذا الهيكل ولم يبق منه شيء على الاطلاق •

أما بنـــاة الهيكل فقد أتى بهم سليمان من حليفه ملك حيرام . لأن اليهود لم يكونوا يعرفون فن الهندسة والعمارة وكانوا يجهلون أيضا أنواع الفنون الأخرى نظرا لبداوتهم ولأن موسى حرم عليهم التصوير والنحت حتى لا يخلقوا أشـــياء تناظر ما خلق الله • وعندما تم بنـــاء الهيكل جمع سليمان شـــيوخ اسرائيل وحمل الكهنة تابوت عهد الرب وأدخلوه الى مكانه فى محراب البيت فى قدس الاقداس تحت جناحـــى الكروبين •

وأصبح الهيكل منـــذ ذلك الوقت تقـــدم فيه القرابين وكانت من قبل تقـــدم لرب اسرائيل فى هياكل محلية أو هياكل بدائية فوق التلال ولم يكن دخول الهيكل مباحا للجميع وانما كان مقصورا على الكهنة أما قدس الأقداس فلا يفتح الا مرة فى السنة ولا يدخله الا كبار الأحبار •

١٣ — الكهنـــة :

ونأتى الى الكهنة ، ويقال انهم كانوا من أبناء لاوى أحـــد أبنـــاء يعقوب وكان الواحد منهم يمر بتدريبات وتقاليد يعرف من خلالها الطقوس والأسرار الدينية ، ويبرهن على استحقاقه على المنصب الكبير ، وكان للكهنة وحدهم حق تفسير النصوص • ولم تكن القرابين مقبولة الا اذا قدمت على يد أحـــد الكهنة • وكانوا معفون من الضرائب ويقـــدم لهم العشر من نتائج الضأن • ويأخذون ما يبقى فى الهيكل من القرابين ، وبذلك جمعوا ثروة طائلة • وتميزت هـــذه الثروة بأن أصبحت مقدسة وأصبحت شخصياتهم وسيلة الـــى الله • وجـــاء وقت كان فيـــه

هؤلاء الكهنة أقوى من الملوك أنفسهم • وكان المجمع الكهنوتى الذى يدير شـــئون المجتمع اليهودى مكونا من مجلس كبار الكهنة يبحث النواحى الهــامة التى تهم اليهود • وهـــذا المجلس امتداد للمجمع الذى أمر يهوه موسى أن يؤلفه من سبعين من كبار اليهود ليلتقى بهم يهوه فى خيمة الاجتماع(٣٥) • على أن بعض الباحثين لا يوافق على هـــذا الرأى • ويرى أن هنـــاك فرقا كبيرا بين مجمع موسى الذى يمثل القبائل والسلطات وبين مجمع الكهنة الذى يمثل مجموعة من العلماء والمفكرين من أبنـــاء لاوى(٣٦) • ويرجع مجمع الكهنة هـــذا الى عهد السيطرة اليونانيـــة والرومانية ، وما ترتب عليهـــا من ثورات يهودية(٣٧) • ورأى القائمون بهذه الثورات أن من الضرورى أن يكون لهم مجلس يدير أمر هذه الثورات ويرعى مصـــالح اليهود • وتمتد عضوية هـــذا المجلس مدى الحيـــاة •

أما طريقة اختيار أعضائه فليست بواضحة ولم يكونوا فى مستوى واحد من ناحية مكانتهم وانما كان منهم أعضـــاء ذوو نفوذ كبير على الآخرين • وسلطة هذا المجلس سلطة أدبية وكانت تمتد الى الاماكـــن التى كان يقيم فيهـــا اليهود • أما سلطته المادية فكانت تضيق وتتسع حسب الظروف وكان هـــذا المجلس يبحث فى كل الشـــئون ذات العلاقة بالدين فهو يضع قوانين المعاملة ويحدد قوانين الزواج والأعياد ومواعيدها ويحارب الهرطقة • وكان هـــذا المجلس أيضا يقوم بدور الوساطة أحيانا اذا وجد نزاع بين طائفتين من اليهود • ويحكم فى القضايا الجنائية الكبرى ويصدر أحكام الاعدام على الزنادقة بشرط موافقة الحاكم الرومانى •

---

(٣٥) سفر العدد ١١ — ١٦ •

(٣٦) احمد شلبى — اليهودية — مرجع سابق — ص ١٨١ •

(37) Max Weber, the Sociology of Religion, Methuen and Col. London,1966, p. 246.

وقضى هــذا المجلس باعدام عيسى[٣٨] • واحتاج فى هــذا الى موافقة هــذا الحاكم وكان هــذا المجلس سلاحا قويا فى يد طبقة الكهنة وما أكثر ما استعملوه لبسط نفوذهم على اليهود واملاء كلمتهم • وأصبحوا بواسطة هــذا الســلاح يأمرون وينهون يحللون ويحرمون • ولم يكتفوا بمد سيطرتهم على المســائل الدينية وحدها وانما راحوا يحولون كل مشكلات الحيــاة الاجتماعية الى مسائل دينية • وكان الكهنة هم رعاة المعبد وخدمه وحقق لهم هــذا الوضع امتيازا دينيا واداريا ، وتمتع الكاهن الأكبر بنفوذ كبير فى الأمور الدينية والمــادية معا لا سيما فى عهد كانت الحدود بين الســياسة والدين غير واضحة ، وعن طريق هــذا النفوذ أصبح الكاهن الأكبر ملكا غير متوج • وكان الكاهن الأكبر يختار من أشــهر فروع أسرة لاوى • وكان يضفى على جماعته مجدا وعظمة مما يجعلها تدعم سلطته وتقوى نفوذه وتحرص على بقائه فى هــذا المنصب حتى لا يضيع مركزه وأمنه وثراؤه •

١٤ ــ القــــرابين :

أما القرابين فكانت تشــمل الضحايا البشرية ، فكان الانســـان يقدم مع القرابين الاخرى كالحيوان والثمار ، واستمر اتبــاع هــذه العادة فترة طويلة امتدت الى عهد الانقسام الذى قدم فيه الملك « أحاذ » ابنه قربانا للآلهة • وممن قدموا ضحايا للآلهة أيضا ابنة جفته[٣٩] • ثــم اقتصرت الآلهة على جزء من الانسان بدلا من الاضحية بالانســـان كله ، بل بما يقتطع منه فى عمليــة الختان التى بقيت رمزا للتضحية

---

(٣٨) المرجع السابق ــ ص ١٨٢ .

(٣٩) أحمد شلبى ــ اليهودية ــ مرجع سابق ــ ص ١٨٣ .

بالانســان وبقى مع الختان الحيــوان والثمار فأصبح يضحى بالبقر والخراف أو ببواكير الثمار وتحرق أمام المعبد • وكانت القرابين عبارة عن هدية يتقرب الشخص بها للاله رجاء قضاء حاجة يريدها ، وكانــت أحيانا للشــكر والاعتراف بعون حصل عليــه الشخص قبل تقديمها • وكانت القرابين هى الحدث اليومى الشــديد الصلة بالمعبد • فكان هناك قربان يقــدم فى الصباح وآخر فى المســاء • وكان يصحبه احتفال طويل وشــعائر يؤديها الكهنة ، وفى يوم السبت وأيام الأعياد تقــدم قرابين اضافية واحتفالات دينية أكمل وأشمل • وكان تقــديم القرابين ليهوه دليــلا على الارتباط بين الشعب والاله ، ودليــلا على وجود يهوه بين الشعب • وقد كان تقــديم القرابين مرحلة من مراحل التقــدم عند اليهود الذين كانوا يلجأون للســحرة والعرافين • وكان الكهنة يقاومون هــذا الاتجاه بين الناس ودعوا الناس الا يعتمدوا الا على قوة سحرية واحــدة[٤٠] ، هى قوة القربان والصلوات والتبرعات وكانوا يعتقدون أن القرابين تكفر ذنوب الناس وخطاياهم ما دامت يد الكاهن قد باركتها •

وارتبطت القرابين السابقة بالتطور الفكرى لدى اليهود عن الاله فقد كان يهوه فى بادىء الامر الها يحب الدم وكانت اليهودية دين فزع وخوف ولم يكن يطفىء حقد الاله الا الدم المسفوك فى رأيهم • فلما تطورت فكرة اليهود عن الاله وقالوا باله بر وصلاح أصبحوا يكتفــون بالختان بالاضافة الى الحيــوان والثمار • وكان بعض بنى اسرائيل يثورون أحيانا على الطقوس والقرابين والعبادات الشكلية فى المعبد ولكن أغلبهم ظل خاضعا لها أطول فترات تاريخهم •

---

(40) Alfred Kuhn, The study of society, op cit. pp. 224-228.

ومما ساعد على تقليل الثقة بالمعابد قبل بنـــاء الهيكل تبادل التكذيب والتحقير بين المعبد والآخر فى تنافسهما • وكانت هــذه كلها مؤثرات حاولت أن تفك عقال أذهان الناس وتفتح أمامهم آفاقا أوســع وأكثر حرية فى النظرة الدينية • وكانت الكنوز الذهبية الضخمة تجذب الناس فى عهد من العهود وتفعل فعلها السحرى فى نفوس البســطاء ، ثم أصبحت هــذه الكنوز نفسها احدى عوامل التراخى فى العبادة ولم يكن الجائع يستطيع أن يشد بطنه ويخضع لثراء الأغنياء بعد أن تفتح ذهنه نوعا ما •

ومما أضعف نظام الكهنة هــذا • قيام المركزية الدينية ببنــاء الهيكل ووضع التابوت فيه • وأصبح هناك معبد واحــد ومجلس كهنة واحــد ، وصحى بعض الكهنة على صــوت وجدوا أنفسهم معه أنهم قد فقدوا كل نفوذهم وحقدوا على أولئك الذين لم يفقدوا مكانتهم ، وأخذ كل منهم يقلل من قيمة الآخر • وهكذا وضع كهنة اليهود أنفسهم بين الناس وبين الله فلم تكن تقبل توبة ولا قرابين الا اذا باركها الكاهن الذى كان مفتاح الســماء فى يده كما كانوا يعتقدون • وهــذا التصرف المشين كان من أهم المآخذ الذى جاء المسيح لمحاربتها • ولكن المسيحية سرعان ما سارت فى نفس الطريق بعد المسيح فقام القسس يمثلون نفس الدور الذى مثله اليهود من قبل بعد موسى وتحريف التوراة •



الفصل الثالث عشر

المسيحية ديانة سماوية منزلة

١ ـ مقـــدمة

٢ ـ المبــاح والمحظور

٣ ـ انتشار المسيحية

٤ ـ الصراع والاتفاق

٥ ـ التشريع فى المسيحية

ـ المرحلة الأولى

ـ المرحلة الثانية

ـ المرحلة الثالثة

ـ المرحلة الرابعة

ـ المرحلة الخامسة

ـ المرحلة السادسة

٦ ـ العبــادات

٧ ـ الكنيسة مؤسسة دينية

٨ ـ الأسرار السبعة للكنيسة

٩ ـ التثليث فى المسيحية



الفصل الثالث عشر

المسيحية ديانة سماوية منزلة

١ — مقـــدمة :

كانت الدعامة الأساسية التى قامت عليهـا المسيحية عند ظهورها هى الدعوة الى المحبة سواء كانت محبة الله أو محبة الانســان • وكانت المسيحية تهدف من هــذا المبدأ الى أن تجعل من المجتمع البشرى أسرة واحدة تستظل برحمة رب واحد • لذلك حاول المسيحيون أن يحققوا مثلا أعلى واحدا شاملا ، وأخذت المسيحية بالنظرية الرواقية ، ولم يكن لها أى مطمع اقليمى وانما كانت تستند الى أفكار روحية خالصة تنحصر فى طاعة الله ومحبته وخدمة الانســان • واهتمت بالجانب الروحى فى حياة الانســان ، ولم تعلق أهمية تذكر على اقامة الشــعائر فى الظاهر أو الاشتراك فى العبادات الخارجية ، بل نفذت بقوة الى النواحى الداخلية الاساسية فى الحياة والسلوك ولذلك لم تســمح المســيحية لاتباعهــا بالاشتراك فى أية عبادة أخرى سواها حتى فى الطقوس الرسمية التى كانت تفرضها المدينة • ومنعتهم أيضا من الاشتراك فى تقديس الأباطرة رغم ما نالهم من ألوان العذاب وقد أدت هــذه الاجراءات بالمجتمعات الوثنية وبالحكومات الرومانية الى اضطادهم وتشتيت شــملهم ومقاومة دعوتهم(١) •

ولقد نشأت المســيحية فى ظل الامبراطورية الرومانية وفى وقت تحجرت فيه الديانة اليهودية واستحالت طقوسا جامدة لا حياة فيهــا ،

---

(١) مصطفى الخشــاب — تاريخ الفلسفة والنظريات السياسية — لجنة البيان العربى القاهرة ١٩٥٣ — الطبعة الاولى صفحة ٢٢٤ .

ومظاهر خاوية لا روح فيهـا • وكان للامبراطورية الرومانية قوانينها المشـهورة التى لا تزال منبعا للقوانين الأوربية الحديثة • وكان للمجتمع الرومانى نظمه الوضعية ، ومقوماته الاجتماعية • ولم تكن المسـيحية كما وصلت الى الدولة الرومانية اذ ذاك بقادرة على أن تضـع للدولة الرومانية الوطيدة وللمجتمع الرومانى المعقد قوانين ونظما وحدودا للسير على هديها فى الدولة والمجتمع ، فانصرفت بحكم هـذه الظروف الى التهذيب الروحى والتطهير الوجدانى ، وعنيت بهذا الجانب بقدر ما كانت تعنيه بنقد الطقوس الجامدة والمظاهر الخاوية فى شـعائر اليهودية ورد الروح والحيـاة الى الضمير الاسرائيلى • والمسيح انما جاء داعيا للصفاء الروحى والرحمة واللين والتسامح والعفة والزهد وتخفيف بعض القيود المفروضة على بنى اسرائيل أو التى ابتدعوها للتشديد ، وكان يرى من تصرفاته وتصريحاته أنه لا يستريح الى قيود التقاليد من الكهان اللاويين والكنس لأنها أعمال ظاهرية •

٢ ـ المبـاح والمحظور :

وكان هو موكلا بالبواطن والأرواح ، فقد أباح لتلاميـذه سبت بنى اسرائيل وأحل لهم كل ما يدخل الفم لأنه لا ينجس • أما الذى يخرج منه من غش وزور وفسق فهو الذى ينجس • وأباح للتلاميذ الأفطار فى أيام الصوم اليهودية • ولم يرجم الزانية التى جىء له بها معترفة لأن الذين سيتولون رجمها حسب شريعة موسى ليس منهم من هو خال من الذنب • فمن أقواله (سمعتم أنه قيل عين بعين • وسن بسن ، وأما أنا فأقول لكم : لا تقاوموا النسر ، بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضـا ، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضاء • ومن سـخرك ميلا واحدا فاذهب معه اثنين • ومن سألك فاعطه

ومن أراد أن يقترض منك ، فلا ترده) ، وتبدو هـذه الروح أيضا فى قوله (قد سمعتم أنه قيل للقدماء(٢) : لا تقتل ، ومن قتل يكون مستوجب الحكم •• وأما أنا فأقول لكم : ان كل من يغضب على أخيه باطلا يكون مستوجب الحكم ، ومن قال لأخيه رقا يكون مستوجب المجمع • ومن قال يا أحمق يكون مستوجب نار جهنم ! فان قدمت قربانك الى المذبح • وهنـاك تذكرت أن لأخيك شـيئا عليك • فاترك هناك قربانك قدام المذبح واذهب أولا أصطلح مع أخيك • وحينئذ تعال وقدم قربانك : كن مراضيا لخصمك سريعا ما دمت معه فى الطـريق)(٣) • وقولـه (قد سمعتم أنه قيل للقدماء : لا تزن وأما أنا فأقول لكم : أن كل من ينظر الى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها فى قلبه ! فان كانت عينك اليمنى تعثرك فاقلعها والقها عنك ، لأنه خير لك أن يهلك أحـد أعضائك ولا يلقى جسـمك كله فى جهنم •• وان كانت يدك اليمنى تعثرك فاقطعها والقها عنك لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقى جسدك كله فى جهنم) • وقوله أيضا (سمعتم أنه قيل للقدماء لا تحنث بل أوف للرب أقسامك وأما أنا فأقول لكم لا تحلفوا بالسـماء لأنها كرسى الله • ولا بالأرض لأنها موطىء قدميه • ولا بأورشليم لأنها مدينة الملك العظيم • ولا تحلف برأسك لأنك لا تقدر أن تجعل شـعره واحدة بيضاء أو سوداء بل ليكن كلامكم نعم نعم • لا لا • وما زاد على ذلك فهو الشرير) •

فبسبب من طبيعة الدعوة ذاتها مضافا اليها الظروف التى وصلت فيهـا الى الدولة الرومانية اتجهت بكليتها الى التطهير الروحى والتهذيب

---

(٢) متى ٥ : ١٧ — ٤٢ •

(٣) فتحى عثمان ، مع المسيح فى الاناجيل الاربعة — الدار القومية للطباعة والنشر — القاهرة — ١٩٦٦ — الطبعة الثانية ص ١٨٤ •

الوجدانى وصاغت نفسها على أســاس أن الدين صلة بين العبد والرب وأن القانون صلة ما بين الفرد والدولة ، وكان ذلك منطقيا مع نشــأة المســيحية فى كنف الامبراطورية الرومانيــة وعلى فترة من الديانة اليهودية[٤] • ولقد بلغت المسيحية فى التطهر الروحى والتجرد المــادى والسماحة الوجدانية غاية كبرى وأدت واجبها فى هــذا الجانب من حياة الانســانية الروحية ، بقدر ما تستطيع ديانة أن تسمو بالروح وأن ترتفع بالوجدان وأن تطهر القلب والضمير ، وأن تكبت الغرائز وتسمو على الغرورات وتهدف الى أمانى مقدسة فى عالم المثال والخيال تاركة المجتمع للدولة تنظمه بقوانينها الأرضية فى عالم الواقع اذ كانت هى معنية بعالم النفس والضمير • وكانت بذلك منطقية مع نشأتها فى بيئة خاصــة مع حاجة المجتمع الاسرائيلى الذى بعث له عيسى وهى جزء من كيان الدولة الرومانية الكبيرة[٥] • منطقية مع الفترة الموقوته المقدرة للمسيحية حتى يظهر الدين العالمى الأخير •

٣ ـ انتشار المسيحية :

ثم انتقلت المسيحية من الشرق الى أوربا[٦] بكل سماحتها وتطهرها وتجردها عن عالم المــادة • وهنــاك وجدت الرومان ورثة الحضارة الاغريقية المــادية والوثنية كما وجدت أقواما فى أنحاء أوربا حديثى العهد بالبربرية يتناصرون بجموعهم الكثيفة على رقعة ضيقة من الأرض ذات طبيعة قاسية وعرة شحيحة لا يستطيع من يعيش فيهــا أن ينعم بالراحة فترة ولا أن يلقى سلاحه لحظة ولا يركن فى واقع الحيــاة الى

---

(٤) العدالة الاجتماعية فى الاسلام ـ مطابع دار الغد ـ بيروت ـ ص ٨ بدون تاريخ •

(٥) المرجع السابق ـ صفحة ٩ •

(6) Max Weber., The Sociology of Religion op. Cit.,p. 1131.

نظريات المسيحية السمحة المتمثلة فى من لطمك على خدك الأيمن ...(٧) الخ . وقد رأى هؤلاء الأقوام أن الدين لا يصلح للحياة فقالوا ان الدين صلة ما بين العبد والرب وأنه لا بأس عليهم أن يستظلوا بظله فى الكنيسة وأن يستروحوا نسـماته فى الهيكل المقدس وأن يواجهوا صراع الحياة بعد ذلك فى المجتمع بتقاليدهم البربرية وأن يدعو السيف يقضى بحكمه ابان همجيتهم ويتركوا القانون المدنى يقضى بحكمه بعد أن تحضروا . أما الدين فقد بقى فى عزلته الوجدانية هنـاك فى القلوب والضمائر وفى الهيكل المقدس وكرسى الاعتراف . ومن هنـا كانت العزلة بين الدين والدنيا فى حياة الاوروبيين ، بل كانت الحقيقة الواقعة التى تنطق بهـا طبائع الأشـياء وهى أن أوربا لم تكن مسيحية قط فى يوم ما . وقد بقى الدين فى عزلة عن تكيف الحيـاة وتنظيمها من يوم دخوله الى يومنا هذا . لكن القساوسة والكرادلة والباباوات لا يستطيعون أن يضمنوا مصالحهم ولا أن يحافظوا على نفوذهم اذا بقيت الكنيسة فى عزلة عن الحيـاة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية(٨) . لابد اذن أن تكون الكنيسة سلطة تقابل سلطة الملوك والأمراء ، ولابد أن تستغل سلطانها الروحى فى ميدان الحياة العـامة ، وجاءت عصور كان للكنيسة أملاك وجيوش وسلطان لا تقل عن أملاك الملوك وجيوشهم وسلطانهم .

٤ ــ الصراع والاتفاق :

ووقع الصراع بين الكنيسة والسلطة بين الباباوات والاباطرة(٩) . وكان الدهماء فى الغالب فى صف الكنيسـة ، ثم وقع الوفاق بين هاتين

---

(٧) على عبد الواحد وافى ، الاسفار المقدسة ، مرجع سابق ، ص ٧١.
(٨) العدالة الاجتماعية ــ مرجع سابق ــ ص ١٠ .
(٩) مصطفى الخشاب ــ النظريات والمذاهب السياسية ــ لجنة البيان العربى ــ القاهرة ١٩٥٧ ــ الطبعة الاولى ــ ص ٥٩ .

السلطتين لالتقاء مصلحتيهما فى تسـخير الجماهير واستغلال الدهماء ما دامت مصالح مادية واقتصادية فى حقيقتها ، وما دام النزاع من أساسه على السلطة الزمنية • وكان هـذا عندما قيل ان الدين مسخر لاخضاع الملايين للمستبدين ورجال الدين لأنه هكذا كان عند الأوربيين • ولقد ظلت الكنيسة سـلطة مقدسـة تملك رقاب الناس فى الدنيا وفى الآخرة أيضا ، وظلت تبيع صكوك الغفران وتصدر قرارات الحرمان وظلت تتحكم فى مشـاعر الناس وأفكارهم على السواء ومن خلفها محاكم التفتيش تقتل وتحرق كل من يرفع رأسه اذا ما اتهم بالزيغ والالحاد(١٠) • حتى جاء عصر النهضة (الاحياء) ورأت الكنيسة ما يهدد سلطانهـا من تفتـح البصائر والمشـاعر بعد القرون المظلمة ، ولم يكن هينا عليهـا أن تفقد سلطانها أمام تيـار الفكر الحديث والعلم الآخذ فى النمو فانطلقت تقاوم وتجاهد لتكميم الأفواه الجريئـة وتقييد الأفكار الحـرة التى تناقض النظريات البالية العتيقة فكان العداء الشنيع بين الكنيسـة وحرية الفكر منـذ ذلك الحين • ولـما كانت الكنيسـة لا تريد أن تكتفى بالدين كما هى طبيعة المسيحية ولا أن تقنع بالتحـكم فى الآخرة كما جرت عليـه البابوية • فقد اصدمت نظرياتها عن الأرض والأفلاك والمواد بنظريات العلم القائمة على الدرس والتجربة(١١) • وتمتاز الديانة المسيحية بنزعتها الى تنظيم صفوف معتنقيها تنظيما محكما • وهناك نوعان من الكنائس المسـيحية :

١ ـ كنائس تقليدية تسـير على تقليد متصل فى شىء من التطور والتدرج •

---

(١٠) العدالة الاجتماعية ـ مرجع سابق ص ١٠ •

(١١) المرجع السابق ـ ص ١١ •

٢ — وكنائس مصلحة تحاول أن تعود.الى ما كانت عليه المسيحية الاولى • والكنيستان الكاثوليكية والارثوذكسية هما أكبر الكنائس عددا وأكبرهما أهمية وتدخل الكنائس الأرمنية والقبطية واليعقوبية والنسطورية ضمن النوع الأول • وقد نشأ معظم كنائس الاصلاح الدينى فى الغرب وأهمها البروتستانتية • ويقوم تاريخ المسيحية فى القرون الثلاثة الأولى على الكتب الروحية التى تدافع عن الدين•وفى القرن الرابع ظهر بوضوح نظام الكنيسة كمؤسسة دينيةضابطة لتأدية الشعائر الدينية • كما ظهر نفوذ المطران فى ابراشية كفرع من الكنيسة • وتحدد الطقوس الدينية وعد بابا روما رئيسا للكنائس كلها • ولقد كانت أول مشكلة واجهت المسيحية هى مشكلة عدوى الأفكار الوثنية كالغنوصية والمانوية • وكانت الماسونية والمونتانية فى القرن الثانى الميلادى أول الانحرافات ، وقد تصدت لها الكنيسة بشدة وقوة وحاربت الهراطقة والزنادقة فأخرجتهم من حظيرتها • وقد عاشت الكنيسة مدة ٢٥٠ سنة فى اضطهاد مستمر من الحكام وهو ما أدى الى موت عدد كبير من المسيحيين لقولهم ولرفضهم الخضوع لتأليه الدولة والامبراطورية وممن اضطهدها نيرون وتراجان ومكسميان من أباطرة الرومان • وفى سنة ٣١٣ م أعلن قسطنطين الأول وليكينيوس فى مرسوم ميلان بداية التسامح الدينى مع المسيحيين • وانتقلت الكنيسة فى الشرق من مرحلة الاضطهاد الى رقابة القيصرية البابوية كمؤسسة عامة تخضع لها بقية الكنائس وتأتمر بأمرها • وأول من أقام ذلك الامبراطور قسطنطين وتتبعه يوستنيان وتميزت بذلك الكنيسة الأرثوذكسية أما فى الغرب فقد احتفظت الكنيسة بحريتها وسلطانها ازاء السلطة المدنية وربما ذلك يرجع الى ضعف الحاكم وازدياد قوة البابا فى روما • وأثناء ثلاثة قرون بعد ٢٥٠ سنة شغلت الكنيسة الشرقية

بعـــدة مناقشات تتصل بالعقيدة وأدت الى ظهور الأريوسية والنسطورية والمونوفيسية والمونوتيلية ، وكانت هـــذه المناقشات تدور حـــول صلة المسيح بالله وبالانســـان ، وأيد كل رأيه بآيات وردت على ألسنة الرسل وعقدت عدة مجامع لمناقشة تلك الخلافات الدينية والبت فيهـــا ، وألف قانون ايمان نيقية وهو ملخص رسمى للديانة المسيحية • وفى هـــذه الفترة ظهر عـــديد من المفـــكرين والكتاب الذين دافعوا عن العقيـــدة مثـــل (أويجـــينوس واثناســـيوس وبســـليوس وغريغوريوس النـــازيانزى وأمبرسيوس وايرونيموس وأغسطين) •وظهرت الرهبنة فى القرن الثالث الميلادى وكانت عنصرا هاما فى تطور الحياة الروحية فى الكنيسة التـــى نظمها فى الشرق القديس باسيليوس ودعا اليها فى الغرب القديس مارثان فى القرن الرابع فى الغال • والقديس باترك فى ايرلندا فى القرن الخامس • وأخذت الرهبنة صـــورتها النهائيـــة على يـــد القديســـين بنديكتوس وغريغوريوس الكبير • وأدخل هـــذا الأخير نشـــاطا كبيرا فى الكنيســـة الكاثوليكية أبطأت الغارات الجرمانية لغرب أوربا من تقدم المسيحية ، لكن اعتنق الأوربيون برئاسة كلوفس الكاثوليكية وثبتوا حكمهم وعلى رأسهم شارلمان الذى تحالف مع البابوية وأعلن الامبراطورية (سنة ٨٠٠) وبذلك رسم مثلا أعلا للقرون الوسطى •

وفى القرن السابع والثامن فقدت الكنيسة الشرقية آسيا باجمعها ما عدا آسيا الصـــغرى واعتنق سكانها الاســـلام ، وتتميز الكنيســـة الشرقية عن الكنيســـة الغربية بأمور تتعلق بالعقيدة والعبادات • فكانت تحرم الأيقونات وترفض بعض طقوس الكنيســـة الغربية واستفحل الأمر بينهما مما ترتب عليـــه انشقاق رسمى ســـنة ١٠٥٤ ونهجت كل كنيســـة نهجها الخاص من ناحية التطور الثقافى والعادات الدينية[١٢] •

---

(١٢) الموسوعة العربية الميسرة — مرجع سابق — ص ١٧٠٣ •

٥ — التشريع فى المسيحية :

مر التشريع فى المسيحية بمراحل متعددة هى :

المرحلة الأولى : اتباع التشريع عند اليهود ، تعتبر المسيحية التوراة وأسفار الأنبياء السابقين عليها كتبا مقدسة ويطلق عليها العهد القديم كما سبق . ولذلك فان المسيحيين فى عهودهم الأولى كانوا يتبعون شريعة اليهود والوصايا التسع أو العشر عندهم . وقد روى عن عيسى ابن مريم قوله (أننى لم أجىء لأغير الناموس ولكن لأقرر) . ولذلك فان عيسى لم يأت بتشريع جديد غاية ما هنالك أنه اهتم بالوعظ والوصية والتسامح وحاول أن يصلح ما فى المجتمع من فوضى ويتبين ذلك مما يأتى :

طوبى للمساكين بالروح فان لهم ملكوت السموات .

طوبى للحزانى فانى يتعزون .

طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض .

طوبى للجياع والعطاش الى البر لأنهم يشبعون[١٣] .

طوبى للرحماء لأنهم يرحمون .

طوبى لأنقياء القلوب فانهم يعاينون الله .

طوبى لصناع السلام لأنهم عباد الله يدعون .

---

(١٣) أحمد شلبى — مقارنة الاديان .
المسيحية : النهضة المصرية ، القاهرة — ١٩٦٥ — (الطبعة الثانية) ص ١٧٤ .

طوبى للمطرودين أبناء البر لأن لهم ملكوت السماوات •

طوبى لكم اذا عيروكم وطردوكم وقالوا عنكم كل كلمة شريرة من أجلى كاذبين •

افرحوا وتهللوا لأن أجركم عظيم فى السماوات فانهم هكذا طردوا الأنبياء الذين قبلكم •

ولم يتحرر عيسى من التشريعات السماوية بل انه الزم أتباعه بالأخذ بما جاء به العهد القديم ويرجع ذلك الى أن الشريعة الموسوية أو التوراة أو ما يعرف عند المسيحيين بالعهد القديم تشريع مفصل وواضح به كثير من الضوابط كما أشرنا الى بعضها ، وقد جاء فى القرآن ما يلى (ثم آتينا موسى الكتاب تماما على الذى أحسن تفصيلا لكل شىء وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون) وتلك هى الشريعة التى وجدها المسيح بين يديه (ومصدقا لما بين يدى من التوراة ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم) (١٤) • والقصد من الآية أن المسيح سوف يتناول شريعة موسى بالتعديل ويحل ما كان محرما ، والناظر فيما ورد فى القرآن عن المحرمات على بنى اسرائيل يجد أن منها ما حرم كعقوبة الهية على التمرد والعصيان دون أسباب موضوعية ثابتة (فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم ، وبصدهم عن سبيل الله كثيرا • وأخذهم الربا وقد نهوا عنه ، وأكلهم أموال الناس بالباطل ، وأعتدنا للكافرين منهم عذابا اليما) (١٥) « وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ، ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما الا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما

---

(١٤) سورة الانعام آية ١٥٤ .

(١٥) سورة النساء آية ١٦٠ — ١٦١ .

اختلط بعظم — ذلك جزيناهم ببغيهم وانا لصادقون »[١٦] ••• ومن هذه المحرمات ما حرمه اسرائيل على نفســه وفاء بالنذر وشــكر على النعمه وقربى الى الله : « كل الطعام كان حلا لبنى اسرائيل الا ما حرم اسرائيل على نفســه من قبل أن تنزل التوارة »[١٧] •

المرحلة الثانية : وهى مرحلة عظات عيسى التى أشير اليها سابقا • وأهم العظات عظة الجبل ، والتى يرى المسيحيون أنها وما شابهها نقلــت التشريع فى المســيحية الى مرحلة جــديدة • وعقدوا لذلك مقارنة بين الشريعتين اليهودية والمسيحية من ناحيتين : ناحية التشابه ، تتضمن أن كلا الشريعتين صادر عن الله وكلا الشريعتين يأمر بوجوب حفظ الوصايا القديمة التى تسلمها موسى من الله على الجبل • وهــذا ما ذكر به المسيح الشــاب الغنى عندما سأله عن وســيلة لدخول الحياة الأبدية فقال ان كنت تريد أن تدخل الحيــاة الأبدية فاحفظ الوصايا المتعلقة بالله وهى الوصايا التسع أو العشر التى ذكرت فى الفصل الســابق فى اليهودية •

أما ناحية الخلاف فهى أن الكتاب المسيحيين أوردوا صورا لم تكن فى الحقيقة تشريعا جديدا ولم تكن معارضة لشريعة موسى ولكنها فى الغالب أنواع من التسامح وليس فيهــا تعديل للتشريع الا فيما يتعلق بالطلاق كما سيأتى ، وتبدو هذه المقارنة فيما يلى :

(أ) نهت شريعة موسى عن القتل ، أما المســيح فقد ذهب الى أبعد من ذلك ، فنهى عن التفكير فى الاســاءة على العموم ، وحقــر الغضب والبغضاء واحتقار الغير فقال : « وقد سمعتم أنه قيل للأولين لا تقتل فان من قتل يستوجب الدينونة » •

---

(١٦) سورة الانعام آية ١٤٦ .

(١٧) سورة آل عمران آية ٦٣ .

(ب) ونهت شريعة موسى عن الزنى ، أما المسيح فقد نهى عن كل فكرة دنس تداعب الحس والخيال فقال : « قد سمعتم أنه قيل للأولين لا تزن أما أنا فأقول لكم : ان كل من نظر الى امرأة لكى يشتهيها فقد زنى بها فى قلبه » الخ .

(جـ) واكتفى باتمام واجبات العدل ليحظى الانسان بالنجاة ، أما المسيح فقد أفهم الناس آن العدل وحده يحجر القلوب ان لم تمازجه رفقة من محبة .

ويعلق على ذلك أحمد شلبى بقوله (من الواضح أن هذا ليس تشريعا ولكنه تهذيب وتسامح . ومن الواضح كذلك أن المسيحيين فى الغالب لم يتبعوا فى ذلك هذا الاتجاه بل لم يقنعوا بالعدالة التى قالت بها التوراة وراح أكثرهم يستعمرون ويظلمون) (١٨) .

المرحلة الثالثة ـ الرسل والتشريع :

بعد عيسى بمدة قصيرة اتضح لرجال المسيحية أن التشريع اليهودى قد صعب على الاتباع الجدد لا سيما من غير بنى اسرائيل . وكان الختان من أهم ما صعب على هؤلاء . فأخذ المسيحيون يقللون من التكاليف والحرمان وحصروها فى الزنا وأكل المخنوق وأكل الدم وأكل ما ذبح للأوثان وأباحوا الخمر ولحم الخنزير والربا وهى محرمة فى التوراة .

---

(١٨) أحمد شلبى : مقارنة الاديان ـ المسيحية ـ مرجع سابق ـ ص ١٧٦ .

المرحلة الرابعة ــ بولس والتشريع :

وجاء بولس فلعب دورا هاما فى التشريع المسيحى فكان يفسر أحيانا ما روى عن عيسى وأحيانا يقترح من عنده هو • فهو الذى أوصى بما هو سائد اليوم فى الكنائس من التسابيح والأناشيد الروحية والمزامير والتراتيل • وهو الذى قال بعدم وجوب الختان ويدلل على ذلك بقوله (دعى أحد وهو مختون فلا يسير أغلف ودعى أحد فى العزلة فلا يختتن ليس الختان شيئا وليس العزلة شيئا بل حفظ وصايا الله) [١٩] • ويجيز بولس الزواج للأساقفة بقوله (يجب أن يكون الأسقف بلا لوم بعل امرأة واحدة وليكن للشمامسة كل بعل امرأة واحدة) • وتكلم بولس عن العلاقة الزوجية وعن واجبات الزوجة بقوله (أربعة أن تعلموا أن رأس كل رجل هو المسيح وأما رأس المرأة فهو الرجل ورأس المسيح هو الله • الرجل لا ينبغى أن يغطى رأسه لكونه صورة الله ومجده ، أما المرأة فتغطى رأسها لأنها مجد الرجل والرجل ليس من المرأة بل المرأة من الرجل • ان الرجل لم يخلق من أجل المرأة بل المرأة من أجل الرجل) [٢٠] • (أيها النساء اخضعن لرجالكن كما للرب لأن الرجل هو رأس المرأة كما أن المسيح أيضا هو رأس الكنيسة ، أيها الرجال أحبوا نسائكم كما أحب المسيح أيضا الكنيسة وأسلم نفسه لأجلها) الى آخر ما استحدثه بولس فى الديانة المسيحية من تحريف وتعديل وآخرون كثيرون • فمما استحدثوه نقل الديانة المسيحية من التوحيد الى التثليث والقول بألوهية المسيح وألوهية الروح القدس واختراع

---

(١٩) كورانشوس ٧ : ١٧ ــ ١٩ •

(٢٠) كورانشوس ١١ : ٣ ــ ١٠ •

قصـــة النذر للتكفير عن خطيئة البشر والغاء المعالم التى نادى بها عيسى نفســـه كالختان وعدم أكل لحم الخنزير • وباختصار فانهم خلقوا ديانة جديدة تخالف المسيحية وذلك بطمسهم معالم هذه الأخيرة •

المرحلة الخامسة ـ دور الرؤساء الروحانيين والمجامع فى التشريع :

لقد تسلم الرؤساء الروحانيون تراث التشريع من الرسل ومن بولس وظلوا يمارسونه الى أن تم الاعتراف بالمسيحية فانتقل حق التشريع الى المجامع التى لم تكتف بالتقنين حول أمور الدنيا بل ذهبت تخلق الآلهة وتقرر حق الغفران وعصمة البابا ••

المرحلة السادسة ـ الكنائس والتشريع :

فى ســـنة ١٨٦٩ قرر مجمع روما عصمة البابا فانتقل حق التشريع اليه بصفته رأس الكنيســـة ، وعن طريقه تمتعت الكنيســـة بهذا الحق • وقد نسب المسيحيون عصمة الكنيســـة الى عيسى • ويذكر الأب بولس الياس ما يلى : « لقد خول السـيد المسيح كنيسته عين السلطان الذى تلقاه من أبيه الســـماوى عندما قال لتلاميذه : كما أرسلنى الأب ، هكذا أنا أرسلكم وذلك يشـــمل سلطان الكهنوت والتدبير والتعليم •• وعصمة الكنيســـة هذه امتياز تنعم به هى والبابا رأسها ونائب المسيح المنظور • ولا يعتبر البابا معصوما من الضلال الا عندما يلعن أو يرذل بطريقة احتفالية عقيدة من عقائد الايمان ، أو تعليما له مساس بالآداب المسيحية • ولا تزال هـــذه المرحلة معمولا بها حتى الآن • على أن المسيحيين عندما أثبتوا عصمة البابا انتقلت ســـلطة أصدار القرارات وتحديد المعتقدات والأحكام الى حبر روما الأعظم الجالس على كرسى الخلافة وأصبح حكمه

قطعيا نافذا[٢١] • وهكذا باشرت الكنيسة سلطاتها التشريعية وما زالت تباشرها • ومن القرارات التى اتخذتها حديثا تبرئة اليهود من دم المسيح ، وهو قرار لعبت السياسة دورا لاتخاذه • ويرى كثير من الباحثين أن عددا من الكرادلة الذين اشتركوا فى تأييد هـذا القرار ينحدرون من أصل يهودى • وأنهم اعتنقوا المسيحية لغرض خدمة اليهودية • وقد يقال ان المسلمين يرون أن الله نجى عيسى من اليهود ولم يقتلوه والرد أن اليهود لا يعترفون بأن شبيها لعيسى حل محله ، ونكرانهم لذلك يتضمن اعترافهم بقتله لأن هنـاك شخصا قتل قطعا ولكنه دأب اليهود يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون بالبعض الآخر [٢٢] : (ما قتلوه وما صلبوه ولكن شـبه لهم ، بل رفعه الله اليه) [٢٣] •

٦ ــ العبـــادات :

ومن التشريعات المسيحية العبادات كما تتمثل فى الصـوم والصلاة وتحديدهما غير متفق عليـه • ويرى كثيرون من المسيحيين أن الانتظام فى الصوم والصلاة توجيه اختيارى لا اجبارى • فالصوم عندهم هو الامتناع عن الطعام من الصباح حتى منتصف النهار ، ثم تناول طعام خال من الدسم ويشـمل الصوم عند المسيحيين صوم يوم الأربعاء وهو يوم المؤامرة التى انتهت بالقبض على عيسى كما يعتقدون • ويوم الجمعة لأن المسيح صلب فيه وصوم الميلاد وعدد أيامه ٤٣ يوما تنتهى بعيد الميلاد • والصوم المقدس وعدد أيامه ٥٥ يوما هى عبارة عن الأربعين

---

(٢١) عبد الاحد داود ــ الانجيل والصليب ، ترجمة مسلم عراقى، القاهرة ١٣٥١ هـ ، ص ٢٣ .

(٢٢) أحمد شلبى ــ المسيحية ــ مرجع سابق ــ ص ١٧٨ .

(٢٣) سورة النساء آية ١٥٧ .

يوما التى صامها المسيح مضافا اليها أسبوعا الاستعداد والآلام • ويمتنع فى هذا الصوم أكل كل حيوان أو ما يتولد منه أو ما يستخرج من أصله • ويقتصر على أكل البقول • وصوم الرسل وعدد أيامه يزيد وينقص حسب الطوائف المسيحية وتتراوح مدته بين ١٥ يوما و ٤٩ يوما • وصوم أهل نيونى ومدته ٣ أيام ويبدأ يوم الاثنين • وصوف العذراء ومدته خمسة عشر يوما تبتدىء من أول شهر مسرى • أما الصلاة فهى سبع صلوات فى اليوم والليلة وهى صلاة البكور وصلاة الساعة الثالثة والسادسة والتاسعة والحادية عشرة والثانية عشرة ومنتصف الليل • ويهتمون بالصلاة أكثر مما يهتمون بالصوم • وليس للصلاة عندهم ترتيب خاص • وانما هى أدعية تختلف من مكان لآخر ، وغاية ما ينبغى أن تشتمل عليه أن تكون على نمط الصلاة الربانية التى قدمها لهم المسيح وهى (أبانا الذى فى السموات ، ليقدس اسمك ليأت ملكوتك لتكن مشيئتك كما فى السماء كذلك على الأرض ، خبزنا كفافنا أعطنا كل يوم واغفر لنا خطايانا ، لأننا نحن أيضا نغفر لكل من يذنب الينا ولا تدخلنا فى تجربة ولكن نجنا من الشر) (٢٤) •

ومن التشريعات الخاصة بالأسرة أن يترهب الناس رجالا ونساء ولكن لما كان ذلك غير ممكن أجيز الزواج • وكان تعدد الزوجات سائدا فى بداية المسيحية طبقا للتعدد الذى قالت به اليهودية ولكن للجمع بين اتجاه المسيحية للرهبنة وبين ضرورة الزواج خوفا من الزنا أصبح الزواج مباحا من واحدة فقط ولا يجوز الطلاق الا فى حالة الزنا • فاذا تم الطلاق نتيجة الزنا فانه لا يجوز لأى من الزوجين أن يتزوجا مرة أخرى • أما اذا كان الفراق بالموت فان الحى يمكنه أن يتزوج • وهم فى موضوع الطلاق يخالفون اليهودية التى تبيح الطلاق بدون زنا • وهناك حالة

---

(٢٤) احمد شلبى — المسيحية — مرجع سابق — ص ١٧٩ •

أخرى يجوز فيهـا الطلاق وهى اذا كان أحـد الزوجين غير مسيحى . ويصح الفرقة عند هجرهما لبعضهما وعدم الألفة بينهما . ولا يعترف المسيحيون بتحديد النسل معتمدين فى ذلك على ما جاء على لسـان البابا بيوس الثانى عشر سـنة ١٩٥٨ قوله (ان خصب الزواج شرط لسلامة الشـعوب المسيحية ودليل على الايمـان بالله والثقة بعنايته الالهية ومجلبة للأفراح العائلية) . ويزيد اهتمامهم بكثرة النسل فى البـلاد التى يكونون بها أقلية أو مساوين فى العدد تقريبا لاتباع غير المسيحية فى هـذه المجتمعات . ولذلك يحاولون فى الشرق بالخصوص أن يكثروا نسلهم بينما اتباع الديانات الأخرى غير المسيحية يحاولون تنظيم نسلهم .

٧ — الكنيسة مؤسسة دينية :

ليست الكنيسة كما يعتقد الكثيرون أنها مجرد مبنى معين تقام فيه الطقوس على سـبيل التخصيص لكنها فى معناها الشامل تضم مجموع المسيحيين بل أنها المسيح نفسـه وجسده ولحمه ودمه كما يعتقدون . ويستند المسيحيون فى ذلك على ما جاء فى انجيل يوحنا من أن (الحق أقول لكم ان لم تأكلوا جسـد ابن الانسـان وتشربوا دمه فليس لكم حيوة فيكم من يأكل جسـدى ويشرب دمى) « الاصحاح السادس انجيل يوحنا » . ولمـا كانت الكنيسـة هى القادرة وحدها على أن تمد المؤمنين بجسد المسيح ودمه فان عملية الغداء قد تمت لحسابها . ولا عجب أن توصلت الكنيسـة الأوروبية فى العصـور الوسطى الى هـذا النوع من السيطرة على شـئون المسيحيين كما سـبق فهى وحدها الحيـاة والجنة والنعيم [٢٥] . فالكنيسـة ككيان قائم ومؤسسة اجتماعية بارزة فى حياة المسيحيين ذات شكلين واضحين فى اطار واحد وهما :

---

(٢٥) أحمد حسين — الاسلام ورسوله بلغة العصر — المجلس الاعلى للشئون الاسلامية القاهرة — ١٣٨٨ — ص ٧٥ .

أولا . شكل غير طبيعى وخارق لما له من صفات يتقاسمها مع حياة العبادة •

ثانيا : شكل انسانى تتخذه حياة العبادة من الناس على الأرض •

وتعتبر الكنيسة بمثابة قالب انسانى يشكل الحياة الدينية الداخلية الدفينة وهى كذلك مؤسسة قانونية دينية ضابطة وبناء اجتماعى قائم على الرعاية الدينية والتقسيم الوظيفى وعلى قمة هذا البناء الروحانى يكون البابا بمثابة الخليفة بطرس نائب المسيح • الا أن البابا ليس بخليفة المسيح ، ولكنه نائبه فى الارض ويكون المسيح على رأس الكنيسة فى كل الأوقات ، والبابا ممثله فيها كما يعتقدون • واذا نظرنا الى طبيعة الكنيسة كمؤسسة فان هذه النظرة تتسم بكونها اجتماعية وتهدف الى خدمة الصالح العام لجميع أعضائها • وليست الكنيسة مجمعا منفصلا عن جماعة القديسيين لكنها تمثيل دينى ودنيوى لتلك الجماعة • وحينما تتمم الكنيسة رسالتها فى المجتمع فستنمى صفتها الدنياوية وذلك بانتهاء الخليقة من الأرض الا أن حياتها الروحية ستظل دون تغير فى المجتمع كما يعتقدون أيضا •

فالكنيسة اذن جسم واحد لا يتجزأ لكن أعضاءه متعددون وهذه الأعضاء مجتمعة تكون هيكل الكنيسة المترابط • وتعتمد الكنيسة الكاثوليكية فى تعاليمها ورسالتها على التبشير فى جميع المجتمعات المختلفة ، وتقوم الكنيسة الكاثوليكية هذه على التفرقة بين الحاكم والمحكوم والآمر والمطيع • ولكل من هؤلاء مكانته ويعمل بما تمليه عليه من واجبات وحقوق ، وهى بذلك كالجسم الانسانى لكل عضو فيه وظيفته الخاصة ودوره المحدد •

وللكنيسة ثلاثة وظائف رئيسية فرضها عليهـا المسيح كما يعتقدون وهـذه الوظائف هى :

١ — تفتح عقل الانسـان وتفتح أفق تفكيره بالعلم •

٢ — حكم الانسـان بالقانون المستمد من التشريع الدينى •

٣ — تقديم المساعدة لتطهير أرواح الناس استعدادا للآخرة •

ويتم هـذا التطهير الروحى من خلال أنشـطة الكنيسـة المختلفة والتى تقوم بدور رئيسى فيهـا ليمكن للانسـان أن يحيا حياة فاضلة كريمة تتسم بالعفو والغفران والحسن والجمال • وتعتبر الكنيسـة سلطة ضابطة قوية ورحيمة تدعم المجتمع وتبنيه بنـاء راسخا ، وتطهر الروح لتعم نعمة الله ومغفرته على المجتمع • وبما أن الكنيسـة قوى حاكمة ضابطة (٢٦) كما فى أى بنـاء اجتماعى فلابد أن تكون لها آداة تنفذ بهـا أحكامها وتنشر تعاليمها ، وبما أنها سلطة حاكمة فانها تتمتع بالنواحى التشريعية والقضائية متى لزم الأمر ذلك وفى أى ظرف يعترى فيه المجتمع هزة أو تغير • وكما أن هنـاك مبدأ روحى لنشر المبـادىء والتعاليم الدينية فان هنـاك أيضا درجات وظيفية للقيـام بالأعمال القضائية والتشريعية من أولئك الذين يعملون من أجل طهارة أنفسهم • ولكى تكون الكنيسـة مجتمع كامل وعام ينبغى أن يكون لهـا السـلطة التشريعية أو السـلطة القضائية ، وتوضع هـذه السـلطات فى يد من يشـغلون الوظائف الكنيسية • وللحكم فى الكنيسة جانبين هما التشريع والقصاص . أما التشريع فهو تنظيم أعمال الكنيسة وتنظيم طرق نشر تعاليمها وتعتبر قوانينها وقراراتها فعالة وقائمة على الذين يؤمنون بها •

---

(26) R. H. Tawney, Religion and the Rise of capitalism, Penguin book . London, 1966, p. 155.

أما القصاص ، فهو عبارة عن محاكم قضـائية ذات صبغة دينية وظيفتها اصدار الأحكام فى المسائل الأخلاقية المتعلقة بالدين وأحكامه ولها حق العفو وحق توقيع العقوبة • وأشـد أنواع العقوبة هو فصل الفرد عن الكنيسـة وسحب يدها منه ولا تعمل على تطهير نفسـه وروحه كما هو متبع فيها (٢٧) • أما البروتستانت فيؤمنون ايمانا مطلقا وكاملا بما جاء فى الانجيل وفى الوقت نفسـه يؤمنون بما يقوله لهم القساوسة وأنه ينبغى على اتباع المذهب البروتستانتى اتيان الأعمال الصالحة من أجل الله ومن أجل اظهار شكرهم اليه • ولقد اتفق اتباع مارتن لوثر وكالفن على مبادىء ومعتقدات أساسية تعبر عن حرية الانسان ومسئوليته التى عرفها فى عصر الاصلاح وهى أن الله قد عمل لصالح الانسـان عن طريق ارسال المسـيح ليكون منقذا للانسـانية ، وعن طريق الايمان بالمسـيح وحده يستطيع الانسـان أن يكون مطيعا لله • ويعنى ذلك اعتماد الانسـان على الانجيل ليكون دليله ومرشده الى التأمل فى تحقيق مطالب الله • والواقعة الأساسية فى حياة البروتستانت هى أن الانسـان يعيش بالايمان ودليله المسيح ، وقد تحدث المصلحون بعد ذلك عن الكهانة وعنوا بذلك أن كل انسـان كاهن لنفسه وكاهن لأخيه الانسـان • وأن كل انسـان يستطيع أن يتعامل مباشرة مع الله ويتعامل الله أيضا مباشرة مع الانسـان دون حاجة الى وسيط أو منظمات دينية (٢٨) •

٨ — الأسرار السبعة للكنيسة ، وهى :

أولا — المعمودية ، ثانيا — الميرون ، ثالثا — التنـاول ، رابعا — التوبة والاعتراف ، خامسا — المسحة ، سادسا — الزواج ، سابعا — الكهنوت •

---

(27) George Brantl, Catholicism, New York, 1962, p. 89.
(28) Leslie Dunston, Protestantism; 1962, P. 72.

١ — أما المعمودية فتنحصر فى الولادة الجديدة التى يتطهر بها من خطيئة آدم ومن لا يعمد يظل حليفا للخطيئة وواقعا بين يدى الموت وهذه النعمة الخفية تمنحها الكنيسة فى صورة حسية وهى رش الماء فى بعض المذاهب ، والتغطيس فى الماء ثلاثة مرات فى المذاهب الشرقية . وقد اختلف حول وقت التعميد ، فيرى البعض ضرورة تعميد الطفل المسيحى بمجرد ولادته حتى لا يموت قبل أن ينال هذه النعمة ، ويرى البعض الآخر وجوب تأخيرها ، لأنها كفارة من الذنوب وطهارة . ويتفق الجميع على أن أى مسيحى يجب أن يعمد مرة على الأقل فى حياته .

٢ — ويتمثل السر الثانى أو الميرون فى حلول روح القدس على الانسان الذى عمد ، وهذه النعمة المعنوية تمنحها الكنيسة عن طريق كهنتها ، وذلك بأن يمسح المؤمنين بدهن الميرون المقدس . والميرون هو الحنوط والطيب الذى دهن به جسد المسيح فيما يروون عند دفنه ، ثم نظموا شعائر خاصة يقومون بها كلما وجدوا أن ما بقى لديهم من الميرون لا يكفى حاجة الكنائس أى أنهم يحتفظون باستمرار بخميرة الموجود لديهم من الدهن او الميرون ويضيفون اليها حنوطا وطيبا جديدين لتبقى البركة الأولى الناتجة عن ملامسة الحنوط لجسد المسيح باقية على مر السنين .

٣ — أما التناول أو العشاء الربانى(٣٠) فهو أكبر الاسرار لأن المؤمن يتناول فيه جسد المسيح ودمه وعندما يتلو الكاهن على القربان والخمر يتحول هذا القربان وينتقل الى جسد الرب المقدس والخمر الى دمه تحولا حقيقيا كما يعتقدون ، فلقد جرت العادة أن تعد الكنائس خبزا وخمرا بطقوس خاصة يتناولهما المصلون .

---

(٢٩) على عبد الواحد وافى — الاسفار المقدسة — مرجع سابق — ص ١١٦ .

٤ ـــ أما التوبة أو الاعتراف فمعناه الحصــول على المغفرة بعــد أن يبوح المذنب للكاهن بما اقترفه من آثام •

٥ ـــ وتعتبر المسحة سرا ينال به المؤمن الشفاء الجســدى والروحى بعد أن يتلو الكاهن صلاة القنديل ثم يدهن المريض بالزيت المقدس •

٦ ـــ أما الزواج فهو ربط الزوجين برباط الزوجية المقدس الذى لا ينفصم • وكل زواج يتم خارج الكنيســة لا تعترف به وبالتالى يشكل علاقة فاسدة آثمــة •

٧ ـــ أما الكهنوت فهو السر الذى يحصل به الانسان على النعمة التى تؤهله لأن يؤدى رسالة السيد المسيح بين الناس وهو سر يمكن صاحبه من اتمام الأسرار الست الأخرى وليس فى الكنيسة من يستطيع أن يكمل شــعائر المعمودية أو مراسيم الزواج أو غير ذلك من الأسرار ســوى الكاهن الذى وضعت عليــه اليد وتليت عليــه الصلوات الخاصــة بزعامة الكهنة • ويعتبر الكهنوت فى الكنيسة خلافة رسولية أخذها الآباء الاولون عن الرسل أنفسهم وسلموه لمن أتى بعدهم • وقد أخذ الرسل هذا السر المقدس عن المسيح •

هــذا وتنفرد الكنيســة الكاثوليكية بسر ثامن (٣٠) مارسته طوال تاريخ وجودها وهــذا السر هو عصمة البابا واستحالة ارتكابه لأية خطيئة لأن روح القدس ينطق من خلاله فهو خليفة بطرس الرسول الذى أعطاه المسيح مفاتيح الســماء والأرض وكل ما ربطه على الأرض يكون معلقا فى الســماء وكل ما حله على الأرض يكون محلولا فى الســماء • ولم تكن

---

(٣٠) أحمد حسين ـــ الاسلام ورسوله بلغة العصر ـــ مرجع ســابــق ص ، ١٢٨ ، ١٢٩ .

عصمة البابا محل أى اعتراض من مسيحى أوربا خلال القرون العديدة الأولى الا عندما قامت البروتستانتية فى العصور الحديثة حيث وجد من ينكر هذه العصمة . ولذلك فقد احتاج البابا الى مجمع مسكونى كاثوليكى عقـد فى روما سـنة ١٨٦٩ لتأكيد السر من جديد .

ولقد ذكر ول ديورانت Durant بأن المسيحية لم تقض على الوثنية بل تبنتها حينما خرجت عن تعاليم موسى ، ذلك أن العقل اليونانى المحتضر عاد الى الحيـاة فى صورة جـديدة فى لاهوت الكنيسـة وطقوسها . ويختتم ديورانت كلامه بقوله ان المسيحية كانت آخر شىء عظيم ابتدعه العالم الوثنى القديم .

وقد علق بالمسيحية من الشوائب ما علق باليهودية ، فبمجرد نظرتنا الى الديانة المسيحية نجد انسانا معلقا على صليب ودماء تنزف من جراحه وألمـا باديا على وجهه وأكليلا من الشوك يغطى رأسه . والمؤمن بالعقيدة المسيحية مطالب بأن يعتقد أن هـذه الصورة هى صورة المسيح الحى بذاته يركع لها ويسجد . ولقد أثارت فكرة حلول الله فى جسـد المسيح عيسى بن مريم عدة مشاكل أساسية فى التعاليم المسيحية الأولى ، وسالت من أجلها دماء كثيرة ، وانقسم المسيحيون الى فرقتين كل منهـا تعمل على ابادة الأخرى . ويدور هـذا الخلاف حول طبيعة جسد المسيح البشرى الذى تجلى به على البشر وهل كان جسـدا كبقية الأجسـاد يفنى بعد رفع روح المسيح الى السماء أم أنه كان صورة الهية بحتة لا يتطرق اليها التلف والفناء . وبعبارة أخرى هل كان عيسى وهو يسير بين الناس هو الرب ، وقد ارتدى ثوب انسـان . وعلى هـذا تكون له طبيعتان طبيعة الرب من حيث الجوهر وطبيعة الانسـان من حيث المظهر . أم أن عيسى وهو يسير بين الناس كان يتكون من طبيعة واحـدة وهى طبيعة الله . ولقد أخذت هـذه الخلافات الكثير من جهود المسيحيين الأول وأوقعوا

بأنفسهم مذابح كثيرة نتيجة لهذا الخلاف • على أن طبيعة المسيح ونظرية اللاهوت والناسوت لم تكن هى الصعوبة التى اصطدمت بهـا المسيحية ، وانما اصطدمت أيضا بفـكرة التثليث التـى لا تزال حتى اليوم أكبر ما يحمل المسيحيين المثقفين على الانسلاخ من الديانة المسيحية •

٩ ـ التثليث فى المسيحية :

وقد بدأ تلاميذ المسيح لا سيما بولس الرسول يبشر بالمسيح باعتباره ابن الرب وبالأب باعتباره الرب الأكبر وبروح القدس ربا ثالثا • وما هذه التعاليم الا أثرا من آثار العقائد القديمة التى كانت تسـود العالم فى ذلك التاريخ وأشهرها ثالوث مصر ايزيس وأزوريس وحوريس • وقد دبت الخلافات بين المسيحيين الأوائل حول أهمية الآلهة الثلاثة وهل هم متساوون تماما أم أنه ينبغى تقـديم الأب على الابن باعتباره الأصل الأول ثم تقـديم الابن على روح القدس • وقد كانت هنـاك خلافات وصدامات انتهت الى تقرير المسـاواة المطلقة بين الأب والابن والروح القدس • ومن هنا وجد المسيحيون أنفسهم أمام مشـكلة تعدد الآلهة وهو ما جاءت المسيحية بالذات للقضاء عليـه فانتهى الأمر بهم الى القول بأن الاب والابن وروح القدس ليسوا الا أقانيم ثلاثة لاله واحد أو معانى ثلاثة لحقيقة واحدة كأن تقول الشمس ونور الشمس وقرص الشمس • وقد توصل المسيحيون الى القول بأن الأقانيم الثلاثة ما هى الا أسماء مختلفة لله الواحد وتقوم المسيحية على هـذه الكلمات الثلاثة الأب والابن وروح القدس لتجعل منهـا الها واحدا هو الله • وينتقد عبد الكريم الخطيب هـذه الفكرة (وأنت ترى بادىء ذى بدء أن وضع هـذه القضية فى معادلة رياضية أمر لا يقبله منطق العقل ولا يصدقه وان جلبت له الحيل من كل وجـه فالثلاثة لا تكون واحدا والواحد لا يكون ثلاثة أبدا ومع هـذا فتلك هى القضية) • فالمسيحيون يسلمون سلفا بأن هـذه المسألة

كما أشرنا ليس مجالها العقل وأنها حين تعرض عليـــه فليس المطلوب أن يتمعن فيهـــا بمنطقه وأن يردها الى حكمه وانما يلقاها من أول الأمر بالتسليم من غير بحث أو جدل والا فخير له أن يدع النظر فيها فيريـــح أو يستريح(٣١) .

واذا كان الانجيل قد غير فيه وبدل وكان شأنه شأن التوراة فان القرآن جاء فيه ما يوضح لنا ما هو غامض وليكشف لنا الحقيقة واضحة جلية فجاء فى القرآن قوله تعالى يســـأل المسيح عما نسب اليه (واذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق ان كنت قلته فقـــد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك انك أنت علام الغيـــوب ما قلت لهم الا ما أمرتنى به ان اعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شـــهيد) (٣٢) .

كما جاء فى القرآن أيضا (لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة وما من اله الا اله واحد وان لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم)(٣٣) . وجاء أيضا « ما المسيح ابن مريم الا رسول قـــد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام) (٣٤) .

---

(٣١) عبد الكريم الخطيب — المسيح فى القرآن والتوراة والانجيـــل دار الكتب الحديثة القاهرة — الطبعة الاولى — ١٩٦٦ — ص ٢١٠ .

(٣٢) سورة المائدة آيات ١١٥ — ١١٦ — ١١٧ .

(٣٣) سورة المائدة — آية ٧٣ .

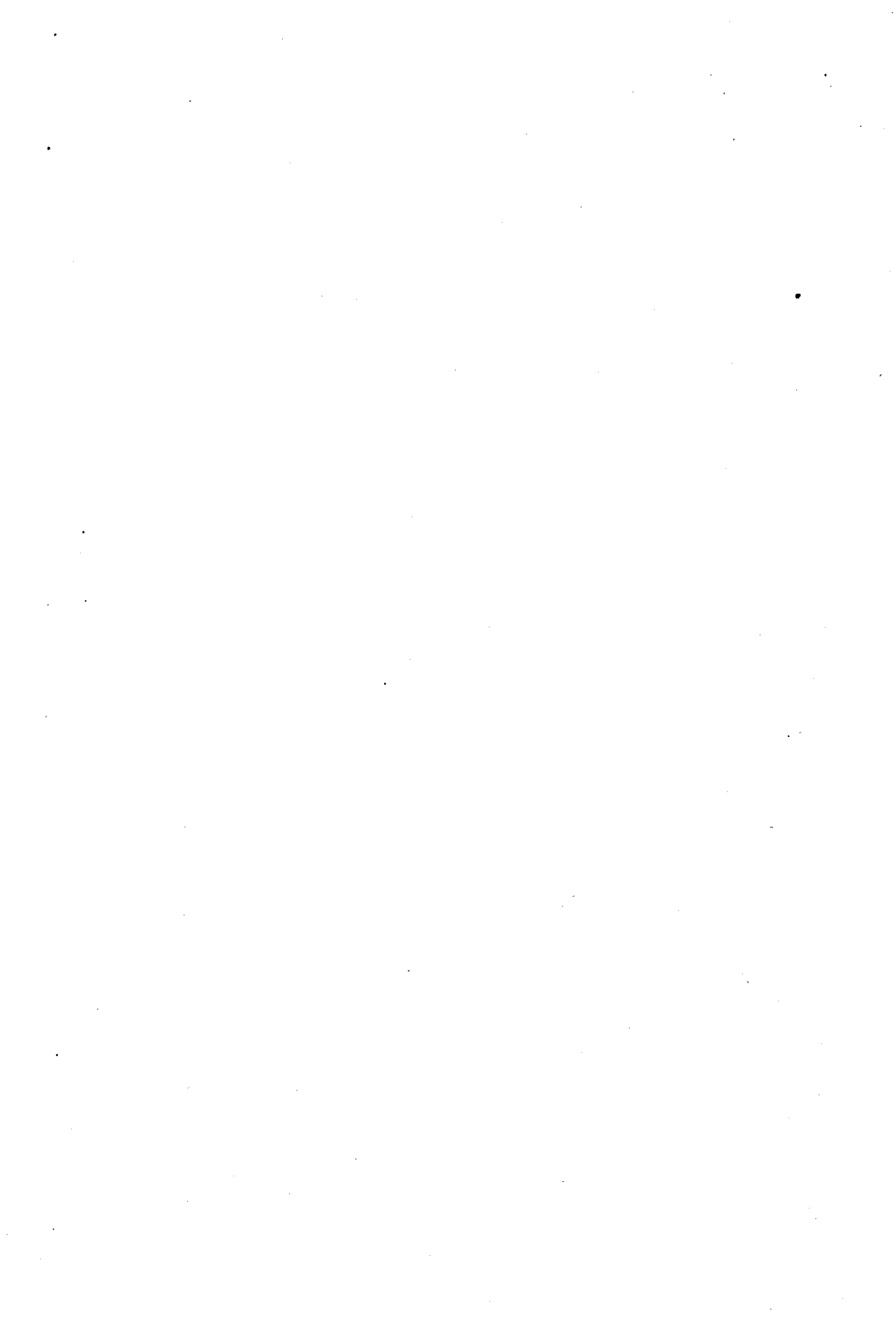
(٣٤) سورة المـــائدة — آية ٧٥ .

وكل ما بأيدينا من التشريع فى المسيحية يعتمد على الوضع أكثر مما يعتمد على التنزيل • وساهمت المجامع الدينية مجمع نيقيــة ومجمــع القسطنطينية ومجمــع روما فى وضع هــذا التشريع بعد تحريفه وتحريف ما جاء فى الانجيل • ومن ضمن هذا التحريف ما يذكره المسيحيون عن قصة صلب المسيح لتكفيره عن الخطيئة التى ارتكبها آدم • ونحن نعلم أن الله عز وجل قد غفر لآدم وصفح عنه حينما أخرجه من الجنــة الى الأرض ، والمسيح نفســه لم يصلب ولم يقتل ولكن شــبه لهم بل رفعه الله اليه كما جاء فى القرآن • وأستطيع أن أقول ان الديانة المســيحية خلطت بين ما هو وضعى وما هو ســماوى فى تشريعها اليوم كما أشير الى أن المســيح اتبع شريعة موسى[٣٥] والقرآن يشير الى ذلك فيقول (واذ قال عيسى ابن مريم يا بنى اسرائيل انى رســول الله اليكم مصدقا لمــا بين يدى من التوراة ومبشرا برســول يأتى من بعدى اسمه أحمد) • والرسل من عهد نوح حتى محمد عليــه الصلاة والسلام جاءوا بالدعوة الى أفراد الله بالعبادة وجاءوا بتشريعات تهدف الى اصلاح المجتمــع وضبطه من الفوضى والانحراف • والقرآن ملىء بسور عديدة توضح كيف كانت الديانات الســماوية السابقة على الاســلام ، ومهما يكن فان الدين يلعب دورا هاما ضابطا لجميع أفراد المجتمعات المختلفة ازاء أنفسهم وازاء الآخرين كما هو الحال فى الديانات الوضعية وازاء الله عز وجل كما هو الحال فى الديانات المنزلة • الا أن الديانات أيا كانت تختلف باختلاف الزمان والمــكان أى باختلاف العصــور والمجتمعات • ففى العصــور القديمة كان الاعتقاد الســائد هو أن الشرائع تقوم على المبادىء الدينية وأنها مبلغة للانســان بطريق الوحى والالهام • وقد كان من المستحيل ايجاد أى تغيير فى نص هذه الشرائع الدينية الوضعية مهما كانت عليه •

---

(35) La Grand Encyclopedia, Tome-onziéme, op . cit., p. 270.

فالمصريون القدماء الذين ينسبون شرائعهم الى توت معبد الحكمة واله العلم والقلم بأمر من الاله الأعظم كما يزعمون هو الذى سن لهم نظمهم الدينية والدنيوية وعلمهم مبادىء العلوم • ثم جاءت بعد ذلك قوانين الرومان واليونان وكانت فى الأصل عقائد دينية منسوبة الى الآلهة التى كانوا يعبدونها • وقد كان من المتعذر ايجاد الحد الفاصل بين المبادىء المؤسسة على الدين والأصول المبنية على الأسس التى نشأت منها العادات • وكان هذا الاعتبار من أكبر الدواعى لتقديس هذه القوانين واحترامها • ولكن ما أن أخذت هذه العقائد فى الاختصار والانكماش بتوالى الزمن خاصة بعد انتشار المسيحية وظهور عصر النهضة • وبظهور الدين المسيحى وانتشاره فى معظم أنحاء أوربا منذ حقبة طويلة من الزمن كان من أهم مبادئه التفرقة بين السلطتين الدينية والسياسية • وبرغم انتشار هذا الدين فلم يتعرض لأمور الدنيا بل اقتصر على الأمور الدينية وهى سنة المسيح كما يقال (اعطوا ما لله لله وما لقيصر لقيصر) وهذه القاعدة هى أساس النظم التى تفرق بين السلطتين المدنية والدينية ، ثم ظهرت الديانة الاسلامية وهى تختلف عنها اختلافا جوهريا فى أنها لم تقتصر على المسائل الدينية فقط بل تفرعت عنها القوانين المدنية والجنائية وغيرها من معاملات كما سنرى فى الفصول التالية •



الفصل الرابع عشر

الاسلام خاتم الديانات المنزلة

أولا : الموقف النظرى للاسلام من الديانات الأخرى

ثانيا : الموقف العملى للاسلام من الديانات الأخرى

ثالثا : التشريع

١ ــ الأحكام الاعتقادية
٢ ــ الأحكام الخلقية
٣ ــ الأحكام العملية

رابعا : دعائم التشريع فى الاسلام

١ ــ نفى الحرج
٢ ــ قلة التكاليف
٣ ــ التدرج فى الأحكام
٤ ــ مسايرة مصالح الناس
٥ ــ تحقيق العدالة

خامسا : أهم المبادىء التى جاء بها التشريع الاسلامى

سادسا : العبادات

١ ــ الشهادة
٢ ــ الصلاة
٣ ــ الزكاة
٤ ــ الصوم
٥ ــ الحج



الفصل الرابع عشر

الاسلام خاتم الديانات المنزلة

أولا : الموقف النظرى للاسلام من الديانات الأخرى :

يحتل الاسلام مكانة بارزة بين الديانات السماوية المنزلة(1) . فاذا أخذنا كلمة الاسلام فى معناها القرآنى نجد أنها لا تدع مجالا للسؤال عن العلاقة بين الاسلام وبين الديانات الأخرى . فالاسلام فى القرآن ليس اسما لدين خاص بل اسم للدين المشترك الذى نادى به الأنبياء جميعهم واعتنقه اتباع الأنبياء كلهم . لذلك نرى نوحا يقول لقومه (وأمرت أن أكون من المسلمين) (2) . ويوصى يعقوب أبناءه (فلا تموتن الا وأنتم مسلمون) (3) . وأجاب أبناء يعقوب أباهم (نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحاق الها واحدا ونحن له مسلمون) (4) . وقال موسى لقومه (يا قوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين) (5) . ويقول الحواريون (نحن أنصار الله آمنا بالله وأشهد بأنا مسلمون) (6) . بل أن فريقا من أهل الكتاب عندما سمعوا القرآن (قالوا آمنا به انه الحق من ربنا انا كنا من قبله مسلمين) (7) وعلى الجملة ترى أن اسم الاسلام شعار عام يدور

---

(1) La grand encyclopedia, T. Vingtiéme, op. cit., p. 1006.

(2) سورة يونس الآية ٧٢ .

(3) سورة البقرة آية ١٣٢ .

(4) سورة البقرة آية ١٣٣ .

(5) سورة يونس آية ٨٤ .

(6) سورة آل عمران آية ٥٢ .

(7) سورة القصص آية ٥٣ .

فى القرآن على ألسنة الأنبياء وأتباعهم منــذ أقدم العصور التاريخية حتى عصر نبوة محمد • ثم نرى أن القرآن يجمع بين هــذه القضايا كلها فى قضية واحدة يوجهها الى قوم محمد ، ويوضح لهم فيهــا انه لم يشرع لهم دينا جديدا وانما هو دين الانبياء من قبلهم :(شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) (٨) • ثم بعد أن يسرد سيرة الأنبياء وأتباعهم ينظمهم فى اتجاه واحد ويجعل منهم كلهم أمة واحدة لها اله واحــد ولها شريعة واحدة (ان هــذه أمتكم أمة واحــدة وأنا ربكم فاعبدون) (٩) • ان من يقرأ القرآن يعرف حقيقة الدين الاسلامى فهو عبارة عن التوجه الى الله رب العالمين فى ضوع تام ليس به شرك وفى ايمان واثق مطمئن بكل ما جاء من عنده على أى لســـان ، وفى أى زمان ومكان دون رفض لحكمه ودون تفرقة شخصية أو طائفية أو عنصرية بين كتاب وكتاب من كتبه أو بين رسول ورسول من رسله • يقول القرآن (وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) (١٠) • ويقول أيضــا (قولوا آمنا بالله وما انزل الينا وما انزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) (١١) فالاسلام بمعناه القرآنى الموضح ســلفا لا يصلح أن يكون محلا للسؤال عن علاقة بينه وبين مختلف الأديان الســماوية ، اذ لا يســأل عن العلاقة بين الشىء وبين نفســه • وتبدو الوحدة هنا تامة لا انقسام فيها ولا تثنيه • الا أن كلمة

---

(٨) سورة الشورى آية ١٣ •

(٩) سورة الانبياء آية ٩٢ •

(١٠) سورة البينة آية ٥ •

(١١) سورة البقرة آية ١٣٦ •

الاســلام أصبح لها مدلول معين عند الناس هو مجموعة الشرائع والتعاليم التى جاء بها محمد أو التى أخذت مما جاء به • كما أن كلمة اليهودية أو الموسوية تخص شريعة موسى وما اشتق منهـا ، وكلمة النصرانية أو المسيحية تخص شريعة موسى وما تفرع عنهـا • فالسؤال الآن انما هو عن الاسلام بمعناه الجديد أى عن العلاقة بين المحمدية وبين الموسوية والمسيحية ، وللاجابة عن هــذا السؤال يمكن ملاحظة مرحلتين : الأولى هى علاقة الشريعة المحمدية بالشرائع الســماوية السابقة لها فى صورتها الأصــلية التى لا تبعد عن منبعها ولم يتغير شىء فيهــا بمرور الزمن أو بواسطة الانســـان • والثانية فى علاقته بها بعد أن طال بها الزمن وطرأ عليها نوع من التطور

ففى المرحلة الأولى يخبرنا القرآن بأن كل رسول مرسل وكل كتاب منزل انما يجىء مصــدقا ومؤكدا لمــا قبله ، فالانجيل مصــدق ومؤيد للتوراة ، والقرآن مصــدق ومؤيد للانجيل والتوراة ولكل ما بين يديه من الكتب(١٢) •

وقد أخذ الله ميثاقا على كل نبى اذا جاءه رسول مصدق لما معــه أن يؤمن به وينصره(١٣) • ويتبادر الى الذهن هنا سؤال هو أليست قضية هــذا التصادق الكلى بين الكتب الســماوية أن تكون الكتب المتأخرة انما هى تجديد للمتقدمة وتذكير بها فلا تبدل فيهــا معنى ، ولا تغير حكما ؟ والا كيف يقال أنها تصدق بينما هى تبدل وتعدل . واذا كان من قضية التصادق الكلى بين الكتب الا يغير المتأخر منها شيئا من المتقدم فهل ذلك هو الواقع ؟ ليس الواقع ذلك لأن الانجيل جاء بتعديل بعض أحكــام

---

(١٢) سورة المائدة آية ٤٦ — ٤٧ — ٤٨ .
(١٣) سورة آل عمران آية ٨١ .

التوراة وأعلن عيسى أنه جاء ليحل لبنى اسرائيل بعض الذى حرم عليهم(١٤) •

وكذلك جاء القرآن بتعديل بعض أحكام الانجيل والتوراة حيث أعلن أن محمدا جاء ليحل للناس كل الطيبات ، ويحرم عليهم كل الخبائث ، ويضع عنهم اصرهم والاغلال التى كانت عليهم(١٥) • ولكن ينبغى أن نفهم أن هـذا وذاك من المتأخر لم يكن نقضا للمتقدم ولا انكارا لحكمة أحكامه فى وقته ، ولكن كان وقوفا بها عند وقتها المناسب وأجلها المحدد •

فالشرائع السماوية كلها صدق وعدل فى جملتها وتفصيلها وكلها يصدق بعضها بعضا من أولها الى آخرها • وهـذا التصديق على نوعين . تصديق القديم مع الاذن ببقائه واستمراره ، وتصديق له مع ابقائه فى حدود ظروفه الماضية • ذلك ان الشرائع السماوية تحوى نوعين من التشريعات • تشريعات خالدة لا تتبدل بتبدل الأماكن والأوضاع « كالوصايا التسع » ونحوها • فاذا فرض أن أهل شريعة سابقة تناسوا هـذا النوع من التشريع جاءت الشريعة التالية بمثله وأعادت مضمونه وتذكيرا وتأكيدا له ، وتشريعات موقوته بآجال طويلة أو قصيرة تنتهى بانتهاء وقتها ، وتجىء الشريعة اللاحقة بما هو أنسب للأوضاع الناشئة الطارئة وهـذا هو تأويل قوله تعالى (ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منهـا أو مثلها) (١٦) ، ولولا احتواء الشريعة السماوية لهذين النوعين ما اجتمع فيهـا العنصران الضروريان لسعادة المجتمع البشرى ، وهما عنصر الاستمرار الذى يربط حاضر البشرية بماضيها ، وعنصر

---

(١٤) سورة آل عمران آية ٥٠ •

(١٥) سورة الاعراف آية ١٥٧ •

(١٦) سورة البقرة آية ١٠٦ .

الانشــاء والتجديد الذى يمهد لتطور الحاضر والرقى به الى مستقبل أفضل وأكمل ، فاذا نظرنا الى سير التشريع الســماوى من خلال الشرائع الثلاث نجد فيهــا هذين العنصرين واضحين تماما • اذ نجد كل شريعة جديدة تحافظ على الأسس الثابتة التى أرســتها الشريعة الســابقة ، ثم تضيف اليها ما يشــاء الله اضافته • فنرى شريعة التوراة مثلا قد اهتمت بوضع المبادىء الاولية لقانون السلوك « لا تقتل ، لا تسرق ، لا تزن •• الخ » ونرى الطابع البارز فيهــا هو طابع تحديد الحقوق واقامة العدل والمســاواة بينها • ثم نرى شريعة الانجيل تجىء بعدها ، فتقرر هــذه المبادىء الاخلاقية وتؤكد عليهــا • ثم تترقى وتزيد عليهــا آدابا مكملة : حث الناس على فعل الخير ، أحسن الى من أســاء اليك • ونرى فيها الطابع البارز التسامح[17] والرحمة والايثار والاحسان • وأخيرا تجىء شريعة القرآن لتقرر كلا المبدأين فى نسق واحد « ان الله يأمر بالعدل والاحسان » [18] • محددة لكل منهما درجته فى ميزان القيم الأدبية مميزة بين الفاضل منها والمفضول « وجزاء ســيئة ســيئة مثلهــا فمن عفــا وأصلح فأجره على الله » [19] وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » [20] • ثم أضافت اليها اضافات جديدة صاغت فيهــا مبادىء آداب اللياقة ورسمت بهــا مناهج الســلوك القويم فى المجتمعات الراقية فى التحية والاستئذان والمجالسة والمخاطبة الى غير ذلك • هــذا المثال فى سير التشريعات الســماوية يوضح عنصر المحافظة على القديم الصالح ، وعنصر الأخذ بالجديد والأصلح • ولقد

---

(17) Khuda Bakhsh, An introduction to the Islamic civilisation, 2nd Edn., M. Ashraf Lahor, 1943, p. 30.

(١٨) سورة النحل آية ٩٠ .

(١٩) سورة الشورى آية ٤٠ .

(٢٠) سورة النحل آية ١٢٦ .

كانت الشرائع السماوية مراحل متصاعدة ولبنات متوالية فى هيكل الدين والأخلاق والسياسة ، وكانت مهمة اللبنة الأخيرة منها أنها أكملت البنا وملأت ما بقى فيه من فراغ ، وأنها فى الوقت نفسه كانت بمثابة حجر الزاوية الذى يشد أركان البناء ، وقد وصف القرآن خاتم الأنبياء بأن جاء بالحق وصدق المرسلين »(٢١) • ووصف اليوم الأخير من أيامه بأنه كان اتماما للنعمة واكمالا للدين : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » (٢٢) وقد صور رسول الله محمد الرسالات السماوية أحسن تصوير فقال « مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وجمله الا موضع لبنة فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ، فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين » (٢٣) اذن فالشرائع كانت سياسة حكيمة رسمته العنايةالالهيةلتربية البشرية تربية تدريجية لا طفرة فيها ولاثغرة ولاتوقف فيها ولا رجعة ، ولا تناقض ولا تعارض بل تضافر وترابط وثبات واستقرار ونمو واكتمال وتطور •

أما المرحلة الثانية التى هى بحث العلاقة بين الرسالة المحمدية والشرائع السماوية ، فان القرآن ذكر عن نفسه أنه جاء مصدقا لما بين يديه من الكتب وأضاف القرآن الى هذه الصفة صفة أخرى ، فذكر أنه جاء مهيمنا على تلك الكتب وحارسا أمينا عليها ، ومن مهمة الحراسة الأمينة على هذه الكتب الا يقتصر الحارس على تأييد ما خلده التاريخ فيها من حق وخير ، بل عليه الى جانب ذلك أن يحميها من

---

(٢١) سورة الصافات آية ٣٧ .

(٢٢) سورة المائدة آية ٣ .

(٢٣) البخارى ، كتاب المناقب ، باب خاتم النبيين .

الدخيل الذى يمكن أن يضاف اليها دون حق وأن يبرز ما تدعو اليه الحاجة من الحقائق التى يمكن أن تكون قد أخفيت منهـــا ، فكانت مهمة القرآن أن ينفى عنهـــا الزيادات وأن يتحدى من يدعى وجودها فى تلك الكتب « قل فأتوا بالتوراة فاتلوها ان كنتم صادقين » (٢٤) • وكان من مهمة القرآن أيضا أن يبين ما يجب توضيحه مما كتبوه منهـــا « يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب » (٢٥) •

ثانيا : الموقف العملى للاسلام من الديانات الأخرى :

ان علاقة الاسلام بالديانات الســماوية فى صورتها الأولى هى علاقة تصديق وتأييد تام ، وأن علاقته بهـــا فى صورتها المرئية علاقة تصديق لـــا بقى من أجزائها الأصلية ، وتصحيح لـــا طرأ عليهـــا من البدع والاضافات الغريبة عنها • وهذا الطابع الذى تتميز به العقيدة الاسلامية هو طابع الانصاف والتبصير الذى يتقاضى كل مسلم بأن لا يقبل جزافا ولا ينكر جزافا ، وأن يصـــدق دائما عن بصيرة وبينة فى قبوله ورفضــه ليس خاصا بموقفها من الديانات الســماوية ، بل هو شأنها ازاء كل رأى وعقيدة ، وكل شريعة وملة ، حتى الديانات الوثنية حللها القرآن وفصلها • استبقى ما فيهـــا من عناصر خيرة واستبعد ما فيهـــا من عناصر سيئة •

هذا هو موقف الاسلام من الديانات الأخرى من الناحية النظرية • بقى أن نعرف موقفه من الناحية العملية هل وقف منهـــا موقف السكوت عليهـــا اكتفاء بالأمر الواقع ؟ أم وقف منهـــا موقف المحارب حتى يطهر الأرض منهـــا ومن أهلها ؟

---

(٢٤) سورة آل عمران آية ٩٣ .

(٢٥) سورة المائدة آية ١٥ .

وأجاب قليل من الكتاب الغربيين بالشق الأول حتى قال بعضهم فى كتاب له « أخلاق المسلمين وعوائدهم » ان المسلم أنانى ، وان الاسلام يشجعه على هـذه الأنانية فالمسلم لا يعنيه ضل غيره أم اهتدى ، سعد أم شقى ، ذهب الى الجنة أم الى السعير • ذلك ما ذهب اليه « جوتييه » فى كتابه المذكور[٢٦] • وأجاب أكثر الكتاب بالشق الثانى اذ الاسلام فى نظرهم يريد أن يفرض نفسه على الناس بالقوة ويأمر القرآن فى نظرهم المسلم بأن يضرب عنق الكافر أينما وجده • والواقع أن كلا الفريقين لم يصب الحقيقة فى تصوره لموقف الاسلام • ليس الاسلام فاترا ولا منطويا على نفسه كما أدعت الأقلية • فالدعوة الى الحق والخير ركن أساسى من أركان الاسلام • والنشاط فى هـذه الدعوة فريضة مستمرة فى كل زمان ومكان يأمر الله نبيه بتبليغ كلامه وبأن يبذل جهده فى هـذا التبليغ « وجاهدهم به جهادا كبيرا » [٢٧] • ويحرض القرآن المؤمنين على هـذه الدعوة « ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله » [٢٨] • بل يجعل الفلاح والنجاة وقفا على هؤلاء الدعاة . « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » [٢٩] « والعصر ان الانسان لفى خسر ، الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » [٣٠] ولكن الاسلام فى الوقت نفسه ليس كما تزعم الأكثرية عنيفا أو متعطشا للدماء وليس من أهدافه أن يفرض نفسه على الناس فرضا حتى يكون هو الديانة العالمية الوحيدة • ورسول الله ونبى الاسلام هو أول من يعرف

---

(٢٦) محمد عبد الله دراز — الدين — مرجع سابق — ص ١٩٠ .
(٢٧) سورة الفرقان آية ٥٢ .
(٢٨) سورة فصلت آية ٣٣ .
(٢٩) سورة آل عمران آية ١٠٤ .
(٣٠) سورة العصر آية ٢ — ٣ .

أن كل محاولة لفرض ديانة عالميــة وحيدة هى محاولة فاشــلة بل هى مقاومة لســنة الحياة وعناد لارادة رب الوجود « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحــدة ولا يزالون مختلفين » (٣١) . « وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين » (٣٢) . « ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين »(٣٣) . « انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشــاء » (٣٤) ومن هنا نشأت القاعدة الاســلامية المحــكمة فى القرآن ، وهى حرية العقيــدة « لا اكراه فى الدين » (٣٥) ومن هنا أيضا حدد القرآن طريقة الدعوة ومنهاجها فجعلها دعوة بالحجة والنصيحة فى رفق ولين « أدع الى ســبيل ربك بالحكمة والموعظة الحســنة » (٣٦) . على أن الاســلام لا يكتفى منا بهذا الموقف السلمى السلبى وهو عــدم اكراه الناس على الدخول فيه بل يذهب بنا الى أبعد ، فيرسم لنا الخطوات الايجابية التى نكرم بها الانســانية فى شخص غير المسلمين : هل ترى أسمى وأنبل من تلك الوصية الذهبية التى يوصينا بها القرآن فى معاملة الوثنية التى هى أبعد الديانات عن الاسلام فضلا عن الديانات التى تربطنا بها أواصر الوحى السماوى « وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه »(٣٧). فهو لا يكتفى منا بأن نجير هؤلاء المشركين ونؤويهم ونكفل لهم الأمــن فى جوارنا فقط ، ولا يكتفى منا بأن نرشدهم الى الحق ونهديهم ســواء

---

(٣١) سورة هود آية ١١٨ .

(٣٢) سورة يوسف آية ١٠٣ .

(٣٣) سورة يونس آية ٩٩ .

(٣٤) سورة القصص آية ٥٦ .

(٣٤) سورة القصص آية ٥٦ .

(٣٥) سورة البقرة آية ٢٥٦ .

(٣٦) سورة النحل آية ١٢٥ .

(٣٧) سورة التوبة آية ٦ .

السبيل ، بل يأمرنا بأن نضمن لهم كذلك الحماية والرعاية حتى يصلوا الى المكان الذى يأمنون فيه كل غائلة . ثم هل ترى أعدل وأرحم وأحرص على وحدة الأمة وتماسكها من تلك القاعدة الاسلامية التى لا تكتفى بأن تكفل لغير المسلمين فى بلاد الاسلام حرية عقائدهم وعاداتهم وحماية أشخاصهم وأموالهم وأعراضهم ؟ بل تمنحهم من الحرية والحماية ومن العدل والرحمة قدر ما تمنحهم للمسلمين من حقوق العامة فلهم مالنا وعليهم ما علينا ؟ ثم هل ترى أوسع أفقا وأرحب صدرا وأسبق الى الكرم وأقرب الى تحقيق السلام العالمى والتعايش السلمى بين الدول من تلك الدعوة القرآنية التى لا تكتفى فى تحديد العلاقة بين الأمة الاسلامية وبين الأمم التى لا تدين بدينها ولا تحتكم بقوانينها ، لا تكتفى فى تحديد هذه العلاقة بأن تجعلها مبادلة سلم بسلم « وان جنحوا للسلم فاجنح لها » (٣٨) « فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا اليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا » (٣٩) بل تندب المسلمين أن يكون موقفهم من غير المسلمين موقف رحمة وبر ، وعدل وقسط « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين » (٤٠) ، ليس هذا هو كل شىء فى تحديد موقف اجتماعى نبيل يقفه الاسلام فعلا من غير أتباعه . فالاسلام لا يكف لحظة واحدة عن مد يده لمصافحة أتباع كل ملة ونحلة فى سبيل التعاون على اقامة العدل ، ونشر الأمن وصيانة الدماء من أن تسفك وحماية الحرمات أن تنتهك ، ولو على شروط يبدو فيها بعض الاجحاف . وقد ضرب لنا رسول الله مثلا رائعا فى هذا المعنى حين قال فى الحديبية « والله لا تدعونى قريش الى خطة توصل فيها الارحام

---

(٣٨) سورة الانفال آية ٦١ .

(٣٩) سورة النساء آية ٩٠ .

(٤٠) سورة الممتحنة آية ٨ .

وتعظم فيها الحرمات الا أعطيتهم اياها » هذا هو مبدأ التعاون العالمى على السلام يقرره نبى الاسلام ورسول السلام[٤١] • ولقد ورد فى القرآن « ان الدين عند الله الاسلام » فالدين اذن هو الجزاء كما جاء فى سورة الفاتحة ، ويوم الدين معناه يوم الجزاء وهو يوم الحساب فى يوم القيامة • بعبارة أخرى أن الدين هو الجزاء ويوم الدين هو يوم الجزاء وهو القيامة ، كما جاء ذلك فى تفسير المصحف المفسر فى سورة الفاتحة •

وتعريف الدين عند علماء المسلمين ، هو أنه اسم جامع للايمان والاسلام والاحسان كما ورد فى كتاب المنتخب من السنة المجلد الأول ص ٣٥٣ • وعرف الايمان والاسلام والاحسان من نص الحديث النبوى الذى رواه عمر • فالاسلام أن تشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله واقامة الصلاة وايتاء الزكاة وصوم رمضان والحج ان استطعت اليه سبيلا • أما الايمان فهو أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره • ويتمثل الاحسان فى أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك[٤٢] •

ثالثا : التشريع :

ان مصدر هذا التشريع الرئيسى فى الاسلام هو كتاب الله (القرآن) والسنة من أقوال وأفعال الرسول • وقد أطلق الفقهاء المسلمون « السنة » على الأحكام التى سنها الله لعباده على لسان

---

(٤١) محمد عبد الله دراز — الدين — مرجع سابق — ص ١٩٢ .

(٤٢) المجلس الاعلى للشئون الاسلامية — المنتخب من السنة — المجلد الاول — دار التحرير للطبع والنشر — القاهرة — ١٩٦٦ — الطبعة الثانية — ص ٣٥٣ — ٣٥٤ .

رســوله ليعملوا بها عن ايمان سواء أكانت متعلقة بالأفعال أم بالعقائد أم بالاخلاق ، ويقصد من وضع الشريعة اخراج المكلف عن داعية هواه واحساسه بضرورة الخضوع لهذه الاوامر أو الضوابط والالتزام بهـا لحفظ كيان المجتمــع وذلك بالمحافظة على الضرورات الخمس ، الدين والنفس والعقل والنسل والمــال(٤٣) • ولذلك فان الاســلام هو خاتم الشرائع وأعمها وأشملها لأحكام الدين والدنيا ، وقد تناول كل ما يتصل بالعقيــدة والأخلاق ومعاملة النفس أو ما يمكن تســميته بالعبادات والمعاملات وما تشــتمل عليــه من نواه ومحرمات ومبــاح وحلال •

وتنقسم الأحكام الى :

١ ــ **الأحكام الاعتقادية** : وهى المتعلقة بذات الله وصفاته ورسله والبعث والثواب والعقاب الى غير ذلك من الأحكام التى يجب على المكلف اعتقادها والايمان بها والتى يدرسها علم الكلام •

٢ ــ **الأحكام الخلقية** : وهى المتعلقة ببيان الفضائل الواجب التحلى بها والتى تصور الانســانية الكاملة ، وهــذا النوع يدرسه علم الأخلاق • فلقد روضت الشريعة الاســلامية النفوس ، على حب الخير ورغبتها فى التواضع ، وأرشدت الى آداب التزاور والمجالسة ، كما نفرت الناس من التكاسل • وتناولت ما يدعو اليه الخلق القويم والعمل المجدى والتعامل مع أفراد المجتمع فالقواعد العــامة للأخلاق ليست من صنعنا بل أننــا قد تلقيناها عن المشرع الأسمى ، ونستطيع أن نستنبطها من كتابه العزيز وســنة رسوله الكريم • أما الواجبات الخاصــة فاننا نكيفها تبعا لظروف

---

(٤٣) محمد سلام مدكور ــ المدخل للفقه الاسلامى ــ دار النهضة العربية ــ القاهرة ــ ١٩٦٣ ــ الطبعة الثانية ــ ص ٩ •

حياتنا على شرط الا نخرج بها عما رسمه لنا المثال الأعلى ، وأن نبذل فيها الجهد لنتبين وجـه الحق والعدل[٤٤] •

٣ ــ **الأحكام العملية** : وتتعلق بما يصدر عن الشخص المكلف من أقوال وأفعال وتصرفات • فالشريعة بعد أن هذبت نفوس الناس وهيأتهم لتقبل الأحكام العمليــة بينت لهم من هو المكلف الذى يخاطب بأحكام الشريعة ويلزم بهــا ، وما هى العوارض التى تؤثر على الشخص فتجعله غير مكلف ، وبينت فهم الصحيح والباطل والحلال والحرام فى تصرفاتهم واتصالاتهم أفرادا وجماعات ودولا فى السلم والحرب • كما بينت للناس أحكام العبادات التى يتقربون بهــا الى الله من طهارة وصــلاة وصوم وغــير ذلك •

رابعا : دعائم التشريع فى الاسلام :

لكل تشريع دعائم يستند اليها ويتوقف عليهــا بقاؤه وعدمه وتعلق الناس به وانصرافهم عنه • والواضح أن التشريع الاســلامى يجذب الناس اليه بسرعة هائلة فهم يتقبلونه باطمئنان وانقياد ، وما ذلك الا لأنه يخاطب العقــل ويحث على العمل فى الحيــاة ويساير الفطرة السليمة « فطرة الله التى فطر الناس عليهــا لا تبديل لخلق اللــه ذلك الدين القيم » [٤٥] ، كما أنه يرمى الى التسامح والمساواة والحرية ، فالمساواة ترجع أهم مظاهرها الى ثلاثة أنواع • أحدها المساواة فى القيمة الانسانية المشتركة ، وثانيها المساواة أمام القانون وفى الحقوق العامة السياسية

---

(٤٤) السيد محمد بدوى ــ الاخلاق بين الفلسفة وعلم الاجتماع ــ مرجع سابق ــ ص ٨٥ .

(٤٥) سورة الروم آية ٣٠.

وغيرها ، وثالثها المساواة فى الشـئون الاقتصادية[٤٦] • كما يرمى أيضـ الى الأمر بالمعروف والنهى عن المنـكر • وتنحصر الدعائم الذى ينبنى عليها التشريع الاسلامى فيما يلى :

١ ـ **نفى الحرج** : وقد راعى المشرع من ذلك التيسير على الناس ورفع الحرج عنهم • فجاءت تكاليف الاسـلام فى حـدود الاستطاعة البشرية « وما جعل عليكم فى الدين من حرج » [٤٧] • « لا يكلف اللـه نفسـا الا وسعها » [٤٨] • وقد انتقلت هـذه المعانى الى الرسـول فقال « بعثت بالحنفية السمحة » • وقد ثبت عنه عليـه السلام أنه ما خير بين أمرين الا اختار أيسرهما ما لم يكن اثما • ومظهر رفع الحرج أن أصول التشريع الموحى بها والمستقرة ليس فيهـا ما يضيق به صـدور الناس ، ويصعب عليهم آداؤه • وليس معنى ذلك انتفاء أصل المشقة ؛ لأن التكليف لا يتحقق الا مع شىء منها ، اذ فيه تحكم فى النفس وحـد من جموحها ، ولذلك فان التشريع الاسلامى خلا من الحرج والمشـقة الزائدة التى تضيق بها الصدور وتستنفذ الجهد • ومع كثرة النصوص الدالة على التيسير فى التكاليف فانه ينجم أثناء التطبيق أحيانا شىء من الحرج والمشـقة باعتبار أن الأحكام انما جاءت عامة دون نظـر لفرد أو جزئية • ومن أجل رفع هذا الحرج أيضا عن الافراد أو فى هذه الجزئيات فان الشارع قد سن لعباده رخصا عند الضرورة دفعا للضرر والمشقة ؛ فشرع الصيام وأباح الفطر للمسافر والمريض والحامل والمرضع • وأباح لمن لا يستطيع القيام فى الصلاة أن يصلى قاعدا أو حسب مقدوره ، وجعل

---

(٤٦) على عبد الواحد وافى ــ حقوق الانسان فى الاسلام ــ مرجع سابق ــ ص ٣ •

(٤٧) سورة الحج ـــ آية ٧٨ •

(٤٨) سورة البقرة آية ٢٨٦ •

للضرورة حكما يختلف عنه وقت السعة والاختيار فأباح عند الضرورة ما كان محذورا ويكون التخفيف باسقاط العبادة كالحج عند عدم الأمن والصلاة للحائض والنفساء ، أو نقص المفروض كتقصير الصلاة من أربع ركعات الى ركعتين المسافر ، أو بالترخيص للضرورة كاباحة الخمر لازالة الغصة . الى غير ذلك ، أو بالتأجيل كالصيام للمسافر والمريض .

٢ — **قلة التكاليف** : اقتصر التشريع الاسلامى فى التكاليف حتى لايرهق الناس ولاتشق عليهم وحتى تبقى أمورهم تستنتج أحكاما من القواعد العامة مع مراعاة مصالح الناس تخفيفا عليهم . ويؤكد هذا المعنى قول الرسول « ان الله فرض فرائض فلا تضيعوها وحد حدودا فلا تعتدوها وحرم أشياء فلا تنتهكوها وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها . ولعل من أثر ذلك أن الصحابة وفقهاء المدينة كانوا يكرهون السؤال عما لم يحدث بعد . وجاء فى القرطبى أن عمر بن الخطاب كان يلعن من سأل عما لم يكن [٤٩] . وباستقراء القرآن نجد من الأوامر والنواهى والضوابط ما لا يرهق كاهل الانسان ، فنجد فى القرآن فى معرض ذكر المحرمات أنه يعددها ويبينها لتصير محدودة فيقول مثلا « حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع الا ماذكيتم وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالازلام »[٥٠] . ويقول « حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم » الآية ، بينما عندما يبين ما هو حلال ، يقول « وأحل لكم ما وراء ذلكم » دون بيان وتحديد . ويقول « اليوم أحل لكم الطيبات ثم ينكر على من

---

(٤٩) الفخر الرازى — كتاب الاربعين فى أصول الدين — حيدر اباد ١٣٥٣ هجرية ص ١٠٤ .

(٥٠) سورة المائدة آية ٣ .

يشق على الناس فى أمر دينهم فيحـرم عليهم ما لم ينص على تحريمه بقوله « وقد فصل لكم ما حرم عليكم » •

والى جانب ما تقدم فان الرسول أمر بغسل الاناء الذى شرب منه الكلب سبع مرات احداهن بالتراب • وهذه المحرمات تعتبر غاية فى التدبير والوقاية لصالح الصحة الانسانية • ووقاية صحة الناس من هدف الاسلام ، فالطب فى عصر محمد لم يكن يعرف أن لسان الكلب يحمل ميكروب ديدان كثيرة ، وأن هذا الميكروب لا يقتله الا الكافور وأن التراب يضم ضمن عناصره مادة الكافور [٥١] •

٣ ــ التدرج فى الأحكام : ظهر الاسلام بين العرب وقد تأصلت فى نفوسهم غرائز ليس من السهل اقتلاعها مرة واحدة والا لتحقق الحرج من أجل هذا جاء القرآن على مراحل وجاءت أحكامه التكليفية متتابعة بعد جدوث أسباب تقتضيها حتى يكون ذلك أوقع فى النفس وأقرب الى الانقياد وتتهيأ النفوس بالحكم السابق لتلقى الحكم اللاحق فيسهل عليها الأمر • فالخمر والميسر ظـواهر متمكنة فى نفوس العرب عنـد بداية التشريع ، وعندما أراد الشـارع تحريمها تدرج فى ذلك فبعـد أن قال « ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا » [٥٢] • جاء قوله تعالى « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس واثمهما أكبر من نفعهما» [٥٣] •وما كثر اثمه ينبغى تركه اذ العبرة فى الحل والحرمة بغلبة نوع المصلحة أو المفسدة•ثم بعد أن مهد نفوسهم بذلك

---

(٥١) عبد الرحمن العيسوى ــ لماذا أنا مسلم ــ القاهرة ــ ١٩٥٠ ــ ص ٦٤ •

(٥٢) سورة النحل آية ٦٧ •

(٥٣) سورة البقرة آية ٢١٩ •

وبعده قال : « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى »[٥٤] قال تعالى « انما الخمر والميسر والأنصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون » [٥٥] • وكانت عقوبة الزنا فى أول الأمر الايذاء بالقول أو التشهير والحبس فى البيت « واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فان شهدوا فأمسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا ، واللذان يأتيانها منكم فآذوهما فان تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما أن الله كان توابا رحيما »[٥٦] • ثم تعدل الحكم بعد هذا التدرج الى ما هو أشد من ذلك « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين »[٥٧] ولا يجوز أن تأخذ أحدا رأفة على زان بأن يسقط الحد أو يخففه عنه [٥٨] • والصلاة فرضت فى الأول ركعتين بالغداة وركعتين فى العشية ثم عندما اعتادها الناس والفتها نفوسهم أصبحت خمس صلوات ، وقيل أن الصيام أول ما شرع كان ثلاثة أيام من كل شهر ، ثم فرض صيام شهر رمضان بعد ما اعتاد الناس الصوم •

---

(٥٤) سورة النساء آية ٤٣ •

(٥٥) سورة المائدة آية ٩١ •

(٥٦) سورة النساء آية ٣ •.

(٥٧) سورة النور آية ٢ •.

(٥٨) ابن العربى — أحكام القرآن — تحقيق على محمد البيجاوى — الجزء الثالث — دار احياء الكتب العربية — القاهرة — ١٩٥٨ — الطبعة الاولى — ص ١٣١٤ •

٤ ــ **مسايرة مصالح الناس** : عمد التشريع الاسلامى الى ان تساير أحكامه مصالح الناس فى المجتمع ، ولذلك فانه شرع بعض الأحكام ثم نسخها عندما اقتضت الضرورة ذلك • وقد وقع النســخ فعلا فى بعض الأحكام الشرعية ، فالوصية مثلا فرضت فى القرآن من قبل نزول الميراث للوالدين والأقربين ، ثم نسخت بآيات المواريث • وكانت القبلة الى بيت المقدس أولا ، ثم نسخت بعد ستة عشر شهرا تقريبا الى الكعبة •كما وقع النسخ فى بعض أحكام السنة فقد روى عن رسول الله أنه قال « كنـت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها فأنها ترقق القلب وتدمع العين وتذكر بالآخرة ولا تقولوا هجرا »(٥٩) •

فالحكم الناسخ يحقق غرض الشارع بعـد أن هيأ الناس ووطد نفوسهم • ومع هذا قد يكون النسخ من الأخف الى الأشد ، وقد يكون العكس وهو فى كلتا الحالتين يراعى مصـالح الناس أثناء التشريـع • والنسخ وان كان قد انتهى بنهاية الوحى فان الشارع علل الأحكام لكى يرشدنا الى أن الحكم يتبع علته ويتغير بتغيرها فى أكثر الأحيان لا سيما فى مواضيع المعاملات التى كثيرا ما تتأثر باختلاف المكان وتغير الزمان • ومراعاة مصـالح النـاس فى نواحى معاملاتهم أمر هـام فى التشريع الاسـلامى •

٥ ــ **تحقيق العدالة** : يعتبر الناس فى نظر الشريعة سواء لا تفاضل بينهم نتيجة الحسب أو النسب أو المال أو الجاه أو الجنس أو النـوع أن اللون ، ليس فيها حاكم يحميه السلطان أو القوة متى أرتكب ظلمـا وتحميه الأوضاع متى ارتكب اثما ، بل الجميع سواء أمام الله • وفى هذا

---

(٥٩) محمد سلام مدكور ــ المدخل الى الفقه الاسلامى ــ مرجـع سابق ــ ص ١٧ •

المعنى يقول الرسول عندما أرادت قريش أن تعفى شريفة من اقامة حد ، « ان ما هلك الذين من قبلكم أنهم كانوا اذا سرق الشريف تركوه واذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » وفى هذا المعنى ذكرت الآية « ولا يجر منكم شنآن قوم على ألا تعدلوا أعدلوا هو أقرب للتقوى » (٦٠) • والآية كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين أن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهمـــا » (٦١) والآية « واذا حكمتم بين النـــاس أن تحكموا بالعدل » (٦٢) والآية « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا أن أكرمكم عند الله أتقاكم » (٦٣)• ويقول الرسول فى خطبة الوداع التى جعلها دستورا للمسلمين من بعده وجمع فيها أسس الدين الاسلامى ، « أيها الناس أن ربكم واحـــد وان أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب ان أكرمكم عند الله أتقاكم وليس لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى ولا لأحمر على أبيض ولا لأبيض على أحمر فضل الا بالتقـــوى ألا هل بلغت اللهم فاشـــهد • ألا فيبلغ الشـــاهد منكم الغائب » (٦٤) •

هذه النصوص قرآنية ونبوية لم تقصر العدالة على طائفة أو جنس وانما شملت الجميع بل وحذرت من ترك العدل أيا كان السبب • وقـــد

---

(٦٠) سورة المائدة آية ٨ .

(٦١) سورة النساء آية ١٣٥ .

(٦٢) سورة النساء آية ١٥٢ .

(٦٣) سورة الحجرات آية ١٣ .

(٦٤) على عبد الواحد وافى — حقوق الانسان فى الاسلام — مرجـــع سابق — ص ٤ .

كانت مراعاة هـذه العدالة سببا فى دخول الناس فى الاسـلام • وجاء مصرى الى عمر بن الخطاب يشكو ابن حاكم مصر عمرو بن العاص لأنه ضربه من غير حق فاستدعى الحاكم ابنه الى مقر الخلافة ليقتص للشاكى ويقول لعمرو « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا »[٦٥] فهو يعتبر نفسه مسئولا عن تصرفات عماله ويقول ايما عامل لى ظلم أحدا وبلغتنى مظلمته فلم أغيرها فأنا ظلمته • وقال أبو بكر فى أول خطبـة له « الضعيف منكم قوى عندى حتى أرد عليه حقه أن شاء الله ، والقوى منكم ضعـيف عندى حتى آخذ الحق منه ان شـاء الله » • فالعدالة فى الاسلام مطلوبة من الحاكم ومن القاضى ومن الأب والزوج ومن الشاهد ومن كل راع مسئول عن رعيته •

خامسا : أهم المبادىء التى جاء بها التشريع الاسلامى :

يتضمن التشريع الاسلامى المبادىء التالية :

١ — مبدأ التوحيد الذى يجمع الناس نحو اله واحد « قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله »[٦٦] •

٢ — مبدأ الاتصال المباشر بالله دون وساطة أو سـيطرة روحية « وقال ربكم ادعونى استجب لكم »[٦٧] ويقول « فانى قريب أجيـب دعوة الداع اذا دعانى »[٦٨] •

---

(٦٥) عباس محمود العقاد — عبقرية عمر — دار الهلال — القاهـرة — ص ٤٥ .

(٦٦) سورة آل عمران — آية ٦٤ .

(٦٧) سورة غافر آية ٦٠ .

(٦٨) سورة البقرة آية ١٨٦ .

٣ ــ مبدأ التخاطب مع العقل : جعل التشريع الاسلامى من العقول مناطا للتكاليف لا سيما فيما يتعلق بأمور الدنيا وبمعرفة الخالق « فاعتبروا يا أولى الأبصار » وروى أن الرسول قال « انما يرتفع العباد غدا فى الدرجات الزلفى من ربهم على قدر عقولهم » ، ولما كان العلم دعامة تزيد من نور العقل دعا الله اليه وحث الناس على التزود منه « وقل ربى زدنى علما » (٦٩) • ويقول الرسول « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » ويقول الشافعى « العالم والمتعلم فى الاجر سواء وسائر الناس همج لا خير فيهم » •

٤ ــ مبدأ احاطة العقيدة بالأخلاق الفاضلة المهذبة للنفس : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » (٧٠) •

٥ ــ مبدأ جعل التكاليف الشرعية لاصلاح الروح وتطهيرها ، وليس لارهاق البدن وتسخيره « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم » (٧١) •

٦ ــ مبدأ التآخى بين الدين والدنيا فى التشريع : فقد جاءت أحكامه بأمور الدين والدنيا ودعا اليهما « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا » (٧٢) وقد روى عن أحد الصحابة أنه قال

---

(٦٩) سورة طه آية ١١٤ .

(٦٩) سورة طه آية ١١٤ .

(٧٠) سورة الفرقان آية ٦٣ .

(٧١) سورة المائدة آية ٦ .

(٧٢) سورة القصص آية ٧٧ .

« اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » ، وقد كان الذهن منصرفا الى أن الأديان انما تدعو الى حرمان النفس وعدم الاهتمام بالنواحى المالية •

٧ — مبدأ الشورى : جعلت الشورى أساس الحكم فى الاسلام فى وقت كان الحكام فيه هم أصحاب السلطة منفردين يقول تعالى « وشاورهم فى الأمر » (٧٣) ، « وأمرهم شورى بينهم »(٧٤) •

٨ — مبدأ التسامح : هو أسمى وأعم بما يعرف اليوم بمبدأ التعايش السلمى ، وحينما يدعو الاسلام الى التسامح فانه يدعو اليه فى عزة واباء دون أن يعطى هذا التسامح سلطانا لأحد أو ولاية « لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين » (٧٥) ، ومع ذلك فان الله يقول « انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم أن تولوهم » (٧٦) • أى أنه ينهاكم عن اتخاذ هؤلاء أولياء • وهذا لا يمنع من برهم والاحسان اليهم واقامة علاقة طيبة بينهم ، بالرغم مما صدر عنهم •

٩ — مبدأ الحرية : وقد نادى الاسلام بالمحافظة على الحرية الفردية دون مساس بالصالح العام سواء فيما يتعلق بالعقائد « لا اكراه

---

(٧٣) سورة الشورى آية ٣٨ •

(٧٤) سورة آل عمران آية ١٥٩ •

(٧٥) سورة الممتحنة آية ٨ •

(٧٦) سورة الممتحنة آية ٩ •

فى الدين » (٧٧) ، وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر »(٧٨) ، أم فى مطلق الرأى ، وهذا واحد من عامة الشعب يقول لعمر بن الخطاب : والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناك بسيوفنا ، وهذه امرأة تقاطع عمر وهو يخطب حاثا الناس على عدم التغالى فى المهور ، وتقول : أيعطينا الله ويمنعنا عمر .

١٠ — مبدأ التكافل الاجتماعى : جعل الاسلام الزكاة حقا للفقير فى مال الغنىء وهى ليست فضلا وامتنانا ، فلا تعاظم ولا استجداء لها بل وكفل الاسلام نفقة الفقير العاجز عن الكسب وجعلها فى بيت مال المسلمين دون اعتبار لديانة الفقير (٧٩) .

هذه المبادىء تنبىء عن متانة البناء الاجتماعى وقوة أركانه وصلاحيته للرجوع اليه والاحتكام له فى كل زمان ومكان بين جميع الناس. فلقد ازدهرت الأمة الاسلامية وقويت شوكتها حينما كانت ترجع للفقه الاسلامى فى حياتها التشريعية . من عرضنا السابق للتشريع مررنا بضوابط لها أهميتها فى المجتمع وسوف نعالج فيما يأتى ضوابط دينية تصلح لكل مجتمع على حدة ، وللجماعات وللافراد أنفسهم أيضا ، فاذا صلح الفرد صلح المجتمع .

وتتصل هذه الضوابط بالفرد المسلم أساسا وتنحصر فيما يلى :

١ — المسلم لا يسخر من الناس : « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر

---

(٧٧) سورة البقرة آية ٢٥٦ .

(٧٨) سورة الكهف آية ٢٩ .

(٧٩) محمد سلام مدكور — المدخل للفقه الاسلامى — مرجع سابق — ص ٢٢ .

قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابذوا بالألقاب بئس الاثم الفسوق بعد الايمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون »(٨٠) •

٢ — المسلم لا يظن ولا يتجسس : « يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن أن بعض الظن اثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا » الآية (٨١) •

٣ — الاسلام يدعو الى الاتحاد فى داخل المجتمع : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » (٨٢) ، « ولا تنازعوا فتفشلوا » (٨٣) •

٤ — الاسلام يدعو الى الأمانة والوفاء بالعهد : « ان الله يأمركم أو تؤدوا الأمانات الى أهلها (٨٤) • « والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » (٨٥) ، وقال على بن أبى طالب « كنا جلوسا عند الرسول فأقبل علينا رجل من أهل العالية فقال أخبرنى يا محمد عن أشد شىء فى هذا الدين وألينه ، فقال له يا أخا العالية : الين شىء فى هذا الدين شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله وأشده يا أخا العالية الأمانة ، الا أنه لا دين لمن لا أمانة له وان صام وصلى •

---

(٨٠) سورة الحجرات آية ١١ •

(٨١) سورة الحجرات آية ١٢ •

(٨٢) سورة آل عمران آية ١٠٢ •

(٨٣) سورة الانفال آية ٤٦ •

(٨٤) سورة النساء آية ٥٨ •

(٨٥) سورة المؤمنون آية ٨ •

٥ ــ الاسلام يحذر من الغش ومن تطفيف الكيل : « وأوفوا الكيل اذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم » [٨٦] ، « ويل للمطففين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون » [٨٧] .

٦ ــ الاسلام ينهى عن الحسد : « ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض » [٨٨] أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله » [٨٩] « ومن شر حاسد اذا حسد » [٩٠] .

٧ ــ الاسلام ينفر من القسوة على اليتيم ومن أكل ماله ، وتوضح الآيات التالية ذلك : « فأما اليتيم فلا تقهر » [٩١] . « أرأيت الذى يكذب بالدين فذلك الذى يدع اليتيم » [٩٢] ، « وآتوا اليتامى أموالهم ، ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ، ولا تأكلوا أموالهم الى أموالكم ، انه كان حوبا كبيرا » [٩٣] « ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما انما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا » [٩٤] .

---

(٨٦) سورة الاسراء آية ٣٥ .

(٨٧) سورة المطففون آية ١ ــ ٣ .

(٨٨) سورة النساء آية ٣١ .

(٨٩) سورة النساء آية ٥٤ .

(٩٠) سورة الفلق آية ٥ .

(٩١) سورة الدين ١ــ٢ .

(٩٢) سورة الضحى آية ٩ .

(٩٣) سورة النساء آية ٢ .

(٩٤) سورة النساء آية ١٠ .

٨ ــ الاسلام يأمر بالعدل وينفر من الظلم ، « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى » [٩٥] ، « واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى » [٩٦] .

٩ ــ الاسلام ينفر من الرشوة : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالاثم » [٩٧] .

١٠ ــ الاسلام ينفر من شهادة الزور : « فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور » [٩٨] ، « والذين لا يشهدون الزور واذا مروا باللغو مروا كراما » .

١١ ــ الاسلام يوصى بالجار : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين احسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب [٩٩] ، وعن ابن عمر ان الرسول قال « ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » فاذا وجدت الألفة فى المبنى الواحد أو فى الحى الواحد بين الجيران زاد الترابط بين الناس وانعدمت أو تلاشت العداوة والبغضاء بينهم وتغلب عنصر الخير على عنصر الشر ، وبهذا يكون المجتمع بالتالى صالحا .

---

(٩٥) سورة النمل آية ٩٠ .

(٩٦) سورة الانعام آية ١٥٢ .

(٩٧) سورة البقرة آية ١٨٨ .

(٩٨) سورة الحج آية ٣٠ .

(٩٩) سورة النساء آية ٣٦ .

١٢ — الاسلام يدعو للتعاون والايثار : فالتعاون لفظ قديم عرفته لغة الأديان فقد جاء فى القرآن « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » (١٠٠) وجاء فى الحديث « الله فى عون العبد مادام العبد فى عون أخيه » (١٠١) « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » (١٠٢) « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون »(١٠٣) ، « فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون ، الذين هم يراءون ويمنعون الماعون » (١٠٤) .

١٣ — الاسلام يوصى بالحط عن المدين وعدم تعجله : « وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة » (١٠٥) . « رحم الله رجلا سمحا اذا باع واذا اشترى واذا اقتضى » ، « من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة فيلنفس عن معسر أو يضع عنه » كما جاء ذلك فى الحديث ، وجاء فيه « من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر يسر عليه الله فى الدنيا وفى الآخرة ، ومن ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة(١٠٦) .

---

(١٠٠) سورة المائدة آية ٢ .

(١٠١) جابر جاد عبد الرحمن — اقتصاديات التعاون — الجزء الاول — النهضة العربية — القاهرة — ١٩٦٤ — ص ٢٧ .

(١٠٢) سورة آل عمران آية ٩٢ .

(١٠٣) سورة الحشر آية ٩

(١٠٤) سورة الماعون آيات ٤ ، ٧ .

(١٠٥) سورة البقرة آية ٢٨٠ .

(١٠٦) دار الكتب الشرقية — صحيح الاحاديث النبوية — على السيد سليمان ص ٣٣ — ٣٤ .

١٤ — الاسلام يدعو الى البر بالوالدين وصلة الرحم « ووصينا الانسان بوالديه احسانا » (١٠٧) . « واتقوا الله الذى تسـاءلون به والارحام » (١٠٨) ، وقال رسول الله « لا يجزى ولد والدا الا أن يجده مملوكا فيشتريه فيعتقه » ، وعن ابن مسعود انه قال « سألت النبى أى العمل أحب الى الله تعالى ، قال « الصلاة على وقتها قلت ثم أى ، قال بر الوالدين ، قلت ثم أى ، قال الجهاد فى سبيل الله » ، وقال الرسول « من أحب أن يبسط له رزقه وينسا له فى أثره فليصل رحمه » (١٠٩) .

١٥ — حكم الاسلام فى القتل : تقرر الشريعة الاسلامية كما جاء فى القرآن ما يلى « وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا الا خطأ » (١١٠). « ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها » (١١١) . فالفرد لا يعاقب الا على ما يرتكبه عن قصد وارادة . وقد رفع عن أمة محمد الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه . لكن الشريعة خرجت عن هذه القاعدة فيما يتعلق ببعض الجرائم وخاصة القتل فهى تعاقب على نوعين من القتل غير المقصود » أحدهما القتل الخطأ كما يسميه الفقهاء ، وثانيهما ما يسمونه الشبيه بالخطأ ، أو الذى هو فى معنى الخطأ . فالقتل الخطأ هو القتل غير المقصود الذى ينجم بطريق عن عمل مقصود كأن يرمى شخص هدفا أو صيدا فاذا هو انسان . وهذا النوع من القتل تقع فيه

---

(١٠٧) سورة الاحقاف آية ١٥ .

(١٠٨) سورة النساء آية ١ .

(١٠٩) محمد عبد الحميد مراد — اتحاف المسلمين — مطبعة المدنى القاهرة — ١٩٦٣ الطبعة الثانية — ص ٥٣ — ٥٤ .

(١١٠) سورة النساء آية ٩٢ .

(١١١) سورة النساء آية ٩٣ .

بجسب الشريعة على القاتل مسئولية كبيرة تتمثل أحيانا فى الدية والكفارة معا ، وفى الدية فقط أحيانا ، والدية تعويض مالى محدد المقدار يعطى لأهل القتيل ويجب مبدئيا على القاتل ولكن تتحمله عنه غالبا عائلته التى تتكون من أقربائه فى خط الذكور • وأما الكفارة فيتحملها القاتل وحده دائما ، وهى تتمثل فى تحرير رقبة مؤمنة أو صيام شهرين متتابعين عند عدم ملكية الرقيق وعدم القدرة المالية على شرائه • ويحرم القاتل أيضا فى أغلب أنواع القتل الخطأ من ميراث القتيل ومن وصيته اذا كان مستحقا لأحدهما ، كما يحرم من ذلك مرتكب القتل عمدا • ويعلل الكاسانى تبرير الكفارة فى هذا القتل فيقول « لأن فعل الخطأ جناية ولله تعالى المؤاخذة عليه بطريق العدل ، واذا كان جناية فلابد لها من التكفير والتوبة فجعل تحرير العبد فى القتل الخطأ بمنزلة التوبة الحقيقية فى غيره من الجنايات (١١٢) • وأما القتل الشبيه بالخطأ فله ثلاثة أنواع ، أحدها ما يصفه الفقهاء بأنه شبيه بالخطأ من جميع الوجوه ، وهو الذى ينتج بشكل مباشر من عمل لم يحدث عن قصد ، كأن ينقلب النائم على شخص فيقتله ، أو يسقط انسان من سطح على قاعد فيميته أو يمشى انسان حامل سيفا أو حجرا فيسقط ما يحمله عفوا ، فيؤدى بحياة من سقط عليه ، أو يسير فى الطريق راكبا على دابة فتجمح فتطأ فتصدم انسانا فيلقى بذلك حتفه • ويترتب على هذا النوع جميع النتائج المترتبة على القتل الخطأ من وجوب الدية والكفارة وغير ذلك •

وثانيها ما يصفه الفقهاء بأنه شبيه بالخطأ من بعض الوجوه ، وهو القتل غير المقصود المتأتى من عمل غير مشروع كأن يحفر شخص بئرا فى الطريق العام ، أو فى المسجد ويتردى فيه شخص فيهلك ، لكنه اذا

---

(١١٢) بدائع الصنائع — الجزء السابع القاهرة ١٣٢٨ هـ ص ٢٥٢ .

حفر هذه البئر فى ملكه أو فى صحراء لا يكون مسئولا عما يترتب على فعله هذا ، لأن عمله لا ينطوى على تجاوز حدود حقوقه المشروعة ، وهذا النوع تجب فيه الدية فقط .

وثالثها أن يهلك شخص نتيجة لعمل جماعى ايجابى غير مقصود به الايذاء ، أو نتيجة لعمل جماعى سلبى يتمثل فى تقصير الجماعة فى أداء بعض الواجبات ، ومثال النوع الاول الايجابى أن يموت شخص فى الزحام نتيجة لضغط الجماهير عليه وقد ذهبت طائفة من فقهاء المسلمين الى وجوب ديته على جميع الحاضرين ، ومثال الثانى السلبى أن يموت انسان جوعا فى بلد اسلامى ، فقد ذهبت طائفة من فقهاء المسلمين وعلى الأخص ابن حزم الى مسئولية هذا البلد عما نجم عن تقصيرهم فيؤدى أهل البلد جميعهم الدية متضامنين الى أسرته ، كما لو كانوا شركاء فى موته [113] . أما القتل العمد فلابد من قتل مرتكب القتل ولا كفارة فيه ، بل أن قتله هو كفارة . واذا تنازل أهل القتيل فلا كفارة له . ويقيم الحد الحاكم المسئول فى هذا المجتمع ولا يأخذ أهل القتيل الثأر حتى لا يكون المجتمع فوضويا . ويجوز للحاكم أن يخير أهل القتيل أو وليه بالدية أو تنفيذ الحد « ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل أنه كان منصورا » [114] وجاء أيضا « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والاذن بالاذن والسن بالسن والجروح قصاص ، فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » [115] .

---

(١١٣) على عبد الواحد وافى — المسئولية والجزاء — مرجع سابق — ص ١٠٢ .

(١١٤) سورة الاسراء آية ٣٣ .

(١١٥) سورة المائدة آية ٤٥ .

١٦ ــ الاسلام ينهى عن السرقة : جــاء فى القرآن « والسـارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جـزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيـز حكيم » (١١٦) وروى أن النبى قطع فى مجن قيمته ثلاثة دراهم • وعن عائشة أنها سمعت رسول الله يقول « تقطع اليد فى ربع دينار فصاعدا ، وعنها أيضا أن قريشا أهمهم شأن المخزومية التى سرقت ، فقالوا : من يكلم فيها رسـول الله ، فقالوا ومن يجترىء عليه ، الا أسامة بن زيد فكلمه أسامة ، فقال أتشفع فى حد من حدود الله • ثم قام فخطب فقال : انما أهلك الذين من كانوا قبلكم أنهمكانوا اذا سرق منهم الشريف تركوه، واذا سرق منهم الضعيف أقاموا عليه الحد • وأيم الله لو ان فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت، يدها • وفى لفظ كانت امرأة تستعير المتاع وتجحده فأمر النبى بقطع يدها (١١٧) • وروى عن أنس ابن مالك قوله « قدم ناس من عكل فاجتوا المدينة فأمـر لهم النبى بلقاح وأمرهم أن يشربوا من أبوالها والبانها فانطلقوا فلما صحوا قتلوا راعى النبى واستاقوا النعم ، فجاء الخبر فى أول النهار فبعث فى آثارهم ، فلما ارتفع النهار جىء بهم فأمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف ، وسمرت أعينهم وتركوا فى الحرة يستسقون فلا يسقون،قال أبو قلابة فهؤلاء سرقوا وقتلوا وكفروا بعد ايمانهم وحاربوا الله ورسوله (١١٨) •

هذه لمحات من الضوابط فى التشريع الاسلامى تؤيد أن الدين هو أهم وسيلة ضابطة فى المجتمع ولا يخلو أى مجتمع من الدين ولا يخلو

---

(١١٦) سورة المائدة آية ٣٨ •

(١١٧) محمد حامد الفقى ــ النفائس ــ مطبعة السنة المحمدية ــ القاهرة ــ ١٩٥٣ ــ الطبعة الثانية ــ ص ٣٤ الى ٣٥ •

(١١٨) المرجع السابق ــ ص ٣٣١ ــ ٣٣٢ •

أى دين من ضوابط • أن الضوابط الاسـلامية لا حصر لها فيما يتعلق بالعبادات والمعاملات • وتجدد الاشارة الى أن التشريع الاسـلامى يتضمن :

أولا — العبادات وهى التى سنتناولها فى هذا العرض •

ثانيا المعاملات وسنتناولها فى موضع لاحق عند الكلام عن النظام الاقتصادى فى الاسلام •

سادسا — العبادات :

أما العبادات فتتمثل فى أركان الاسلام الخمسة وسوف نشير الى هذه الاركان بشىء من الايجاز :

١ — **الشهادة** : لا يعتبر الفرد مسلما حتى يشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، فاذا شهد بذلك أصبح مسلما ، وكلمة التوحيد هى التى نادى بها الرسل من نوح الى محمد ، قال تعالى « أنا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده » [١١٩] وقال تعالى « ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى اثما عظيما » [١٢٠] •

والتوحيد اذن هو أفراد الله بالعبادة وهو دين الرسل والانقياد له بالطاعة والخلاص من الشرك • وكلمة « لا اله الا الله » لا اله نافيا جميع ما يعبد من دون الله الا الله مثبتا العبادة لله وحده لا شريك له فى عبادته.

---

(١١٩) سورة النساء آية ١٦٣ .

(١٢٠) سورة النساء آية ٤٧ .

كما أنه ليس له شريك فى ملكه ، فالوحدانية فضيلة الفضائل ، وشهادة أن لا اله الا الله هى شهادة الحق ، فوحدة الاله فى الاسلام تعنى الوحدة فى الوجود أى أنه اله واحد ، فليس فى الاسلام تعدد آلهة ، وتعنى كذلك الوحدة فى التركيب فليس الله مكونا من أجزاء ، كما تعنى الوحدة فى العبادة ، فليس هناك معبود الا الله ، وليس هناك صاحب سلطان مطلق يصرف الأمر كله ونتجه اليه خاضعين ساجدين الا الله الواحد القهار ، فالتوحيد عظيم الفائدة للمجتمع البشرى ، لأنه يجمع البشر حول اله واحد • وفى ذلك توحيد لاتجاههم وتدعيم نظام الأخوة بينهم ، أما تعدد الآلهة فمعناه تفرق البشر وذهاب كل فريق الى التعصب لما وجه قلبه اليه ، وفى ذلك فساد للمجتمع وخسارة للبشرية ، ومن فوائد عبادة الله وحده عبادة مباشرة دون وساطة ودون زلفى ، تحرير العقل البشرى من الخضوع لغير الله من انسان أو حيوان أو جماد ومن نبات وأجرام سماوية وقوى طبيعية (١٢١) •

ففى تخليص الانسان من هذه العبادات وضع له فى مكانه الطبيعى سيدا لما سخر له لا عبدا أمام مخلوق ينقص فى تكوينه عن مستوى الانسان، وتوحيد الله وعبادته تكسب المسلم الأنفة والعزة والشجاعة ، ما دام يدرك أنه لن يصيبه الا ما كتب الله له ، وما دام يدرك أن موته وحياته بيد الله « وما كان لنفس أن تموت الا باذن الله كتابا مؤجلا » (١٢٢) • ولما كان التوحيد ضروريا فانه كان قاعدة الأديان السماوية (١٢٣) • وكلها قبل أن تفسدها الأفكار الطارئة الضالة قال تعالى « وما أرسلنا من قبلك

---

(١٢١) سنية قراعة — الرسالات الكبرى — مرجع سابق — ص ٤٦٥ .

(١٢٢) سورة آل عمران آية ١٤٥ .

(123) Max Weber, The sosiology of Religion, op. cit. p. 262.

من رسول الا نوحى اليه أنه لا اله الا أنا فاعبدون » (١٢٤) ، وقد لجأ القرآن الى تحكيم العقل فيما يتعلق بالتوحيد ، ويثبت بأسلوب منطقى أن خالق الكون لابد أن يكون واحدا « لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا »(١٢٥) « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله اذن لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض » (١٢٦) « ولا تدع مع الله الها آخر لا اله الا هو كل شىء هالك الا وجهه » (١٢٧) ، « قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد » (١٢٨) .

ويقدم علماء الكلام دليلا على وحدانية الله ، هو اذا كان هناك تعدد آلهة فهل يستطيع اله أن يعمل وحده كل شىء ، وأنه عاجز وحده عن ذلك ، فاذا كان يستطيع وحده أن يعمل كل شىء فما فائدة الآلهة الاخرى ، وان عجز وحده عن ذلك كان بعيدا عن صفة الالوهية فالاله لا يمكن أن يكون عاجزا ، ولا أن تتوقف قوته على سواه (١٢٩) .

٢ — الصلاة : هى الصلة الخالصة التى قضى الله أن تكون بينه وبين العبد ، وأن مظهر فرضيتها والأمر بها يدل على الرأفة والرحمة والحنان البالغ من رب كريم يريد دائماأنتكون الصلة بينه وبينعبادة قائمةودائمة، ليشعروا بأنه قريب منهم وأنه معهم فى كل زمان ومكان ، ينادى لها فى

---

(١٢٤) سورة الانبياء آية ٢٥ .

(١٢٥) سورة الانبياء آية ٢٢ .

(١٢٦) سورة المؤمنون آية ٩١ .

(١٢٧) سورة القصص آية ٨٨ .

(١٢٨) سورة الاخلاص .

(١٢٩) أحمد شلبى — الاسلام — مرجع سابق — ص ١٠٠ .

اليوم الواحد خمس مرات محددة المواقيت يكون المسلم خلالها فى حضرته القدسية يضرع اليه ويناجيه ويسأله الرضى والعافية والسلامة والعفو . فاحساس المسلم بأنه مع ربه دائما وفى رحابه وفى كل لحظة ، احساس يدفع المسلم الى التفانى فى ارضاء ربه بأن يتقدم الى ذاته متقربا بكل عمل صالح وكل فعل محمود لينال الرضى وهو أقصى ما يرجوه المسلم الذى يأبى أن يتدنى الى الزلل أو يقرب من الخطأ ، لأن صلاته انما تنهاه عن كل قبيح وتدفع به الى مواطن الفضيلة والكمال ، وبهذا تصبح الصلاة أداة ضابطة فى المجتمع للافراد وازاء خالقهم وازاء الناس . «ان الصلاةتنهى عن الفحشاء والمنكر والبغى » ، والصلاة لا تقتصر على الأداء الموقوت بالخمس مرات المعينة كل يوم عند الفجر والظهر والعصر والمغرب والعشاء ، اذ هناك صلوات أخرىأكثرتعميماوأكثرتبيانا لحكمتها من وجود اجتماع المسلمين ووقوفهم فى صف واحد أمام الله ، كصلاة الجماعة والجمعة ، والعيدين ، حيث تظهر بوضوح على جلائل هذه الصلة وما تهدف اليه من تحقيق أسمى الأغراض . وقد تكون الصلاة يومية كما هى الحال فى المواقيت الخمس ، وقد تكون أسبوعية كالجمعة ، أو دورية كصلاة العيدين ، وصلاة الاستسقاء التى يقصد بها النفع العام فى الأوقات التى تشح فيها المطر ، وصلاة خسوف القمر وكسوف الشمس الى آخر ما هنالك من صلوات فروض الكفاية والسن ، فاذا نظرنا الى المسلمين فى أوقات الصلاة لرأينا دوائر عديدة بين المتعبدين تدور حول مركز واحد هو الكعبة وتنتشر فى مساحة تزداد قدرا وحجما (١٣٠) .

---

(130) Hitti philip K., History of the Arabs, Macmillan London, 1950, Vol. Ip. 130-131.

٣ ــ الزكاة : فرضت الزكاة فى السنة الثانية من الهجرة ودليل فرضيتها الكتاب والسنة والاجماع (١٣١) ، وهى الركن الثالث من أركان الاسلام الخمس • فالزكاة لغة هى التطهير والنماء ، جاء فى القرآن « قد أفلح من زكاها »(١٣٢) ، أى طهرها من الأدناس ، فيقال زكا الزرع اذا زاد ونما • أما شرعا فهى حق واجب فى مال خاص لجماعة معينة فى وقت مخصوص ، أما حكمها فانها فرض عين تجب على كل من توفرت فيه شروطها ، قال تعالى « وآتوا الزكاة » ، « وفى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » (١٣٣) ، وسيأتى تفصيل الزكاة فى الباب الثالث من هذا البحث عند تناولنا للنظام الاقتصادى والاجتماعى فى الاسلام •

٤ ــ الصوم : يعتبر الصوم امساكا عما يدخل فى الجوف من طعام وشراب ، وأن ادخل من أى مكان شيئا ما عدا احليله ، يفسد الصوم ، وعن اتيان النساء ويحرم على الحائض والنفساء ، وهو فرض فى رمضان الا لعذر كالمرض والسفر والرضاع أو الحمل ، وعلى من أفطر أن يعيد الأيام التى لم يصمها ، واذا أفطر معتمدا مختارا من غير عذر وجبت عليه الكفارة وهى ، عتق رقبة ، أو صيام شهرين متتابعين أو اطعام ستين مسكينا ، ومن عجز عن الصيام ولا أمل له فى القدرة من مرض أو هرم يفطر ولا يقضى ، وعليه فدية عن كل يوم وهى اطعام مسكين ، ويحرم الصوم فى يوم عيد الفطر ، وعيد الاضحى ، وأيام التشريق ، والصوم مطلوب

---

(١٣١) عبد المغنى المنشاوى ــ نفحات الرحمن ــ دار التحرير للطبع والنشر ــ القاهرة ــ ١٩٦٥ ــ ص ١٤ •

(١٣٢) سورة الشمس آية ٩ •

(١٣٣) سورة المعارج آية ٢٤ •

فى بعض احوال الكفارات ومن نذر الصـوم وجب عليه (١٣٤) ، ويؤكد فرضية الصوم ما جاء فى القرآن،«يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم » (١٣٥) ، وجاء فى الحديث القدسى « كل عمل ابن آدم له الا الصوم فهو لى وأنا أجزى به » « من صام رمضان ايمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه » (١٣٦) .

ويجب صيام رمضان لرؤية هلاله من عدل أو اكمال عدة شعبان ويصام ثلاثين يوما ما لم يظهر هلال شوال قبل اكمالها ، واذا رآه أهل بلد لزم سائر البلاد الموافقة . وعلى الصائم النية قبل الفجر ، قال تعالى « ومن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضا أو على سفر فعـدة من أيام أخر »(١٣٧) ، وجاء فى الحديث « لا تسبقوا رمضان بصوم يـوم ولا يومين الا رجلا كان يصوم صوما فليصمه » ، « اذا رأيتموه فصوموا واذا رأيتموه فافطروا وان غم عليكم فأكملوا شـعبان ثلاثين يوما ثم صوموا » . « تسحروا فان فى السحور بركة » ، « وعن عائشة أن رسول ألله كان يدركه الفجر وهو جنب من أهله ثم يغتسل ويصوم » وعن أبـى هريرة أن النبى قال « من نسى وهو صائم فأكل أو شرب فليتم صـومه فانما أطعمه الله وسقاه » ، « وعن أبى هريرة قال ، بينما نحن جلوس عند النبى اذ جاءه رجل فقال يا رسول الله هلكت ، فقال:مالك ، قال وقعت على امرأتى فى رمضان وأنا صائم ، وفى رواية أصبت أهلى فى رمضان ، فقال الرسول : هل تجد رقبة تعتقها ، قال لا ، قال فهل تستطيع أن تصـوم

---

(١٣٤) الموسوعة العربية الميسرة — مرجع سابق ص ١١٢٧ .

(١٣٥) سورة البقرة آية ١٨٣ ..

(١٣٦) محمد عبد الحميد مراد — اتحاف المسلمين — مرجع سابق ص ١٦٥ .

(١٣٧) سورة البقرة آية ١٨٥ .

شهرين متتابعين ، قال لا قال هل تجد اطعام ستين مسكينا ، قال لا قال سكت النبى ، فبينما نحن على ذلك اذ أتى النبى بعرق فيه تمر ، والعرق « المكتل » قال أين السائل ، قال أنا ، قال خذ هذا وتصدق به ، فقال اعلى أفقر منى يا رسول الله ؟ فوالله ما بين لابتيها أهل بيت أفقر من أهل بيتى ، فضحك النبى حتى بدت انيابه ، ثم قال أطعمه أهلك » (١٣٨)٠
« لا تزال أمتى بخير ما عجلت الفطور وأخرت السحور » ٠

لقد شرع الشارع الصيام شهرا من كل عام ليحبس الجسد عن شهواته ويخفف عن الروح أثرها المادى البغيض وأن تتزود من علمه الأقدس بنوره ليكون لها خير دليل فى سفرها الى الآخرة ، ذلك السفر الشاق الطويل فتقوى على التقوى ، ولا تودع شهر الصوم الا وهى أطهر وأنضر وأصبر وأشكر ، من هذه العبادة نلمس أشياء ضرورية للمجتمع فالانسان الصائم يشعر مهما كان لديه من امكانيات حرمت عليه أثناء الصيام بما يلاقيه الآخرون فى هذا المجتمع ، فيذوق ألم الجوع وهو شىء عملى ، وبالتالى يكون قريبا من مجتمعه يشعر بما يشعر ويحس بما يحس به ، فالرسول كان جوادا وأجود ما يكون فى رمضان فعلى المسلم الاقتداء به، ، قال تعالى « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » (١٣٩) ، وقال أيضا « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة » (١٤٠) ووقت الصيام هو كما حدده القرآن فى هذه الآية « وكلوا وأشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر

---

(١٣٨) النفائس — مرجع سابق — ص ٢٨٣ — ٢٨٤ ٠

(١٣٩) سورة الحشر آية ٥٧ ٠

(١٤٠) سورة الاحزاب آية ٢١ ٠

ثم أتموا الصيام الى الليل » [١٤١] والصيام ثلاث درجات ، صوم العموم وصوم الخصوص ، وصوم خصوص الخصوص ، أما صوم العموم : فهو كف البطن والفرج عن قضاء الشهوة ، أما صوم الخصوص ، فهو كف السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام ؛ أما صوم خصوص الخصوص : فصوم القلب عن الهمم الدنية والأفكار الدنيوية وكفه عما سوى الله عز وجل » [١٤٢] .

وزيادة فى التوسعة على المعوزين وجوب اخراج زكاة الفطر قبل العيد بيوم أو يومين عنه وعمن يعولهم ، والسنة فى اخراجها بعد صلاة الفجر وقبل بزوغ شمس يوم العيد ، وزكاة الفطر هى ، كما فرضها الرسول « فرض رسول الله صدقة الفطر وقال هى على الذكر والانثى ، والحر والمملوك صاعا من تمر ، أو صاعا من شعير ، وفى رواية أن تؤدى قبل خروج الناس الى المصلى » ، وعن أبى سعيد الخدرى قال « كنا نعطيها فى زمن الرسول صاعا من طعام ، أو صاعا من تمر ، أو صاعا من شعير ، أو صاعا من أقط « اللبن المجفف » أو صاعا من زبيب ، فلما جاء معاوية وجاءت السمراء « القمح » قال أرى مدا من هذه يعدل مدين ، قال أبو سعيد أما أنا فلا أزال أخرجها كما كنت أخرجها على عهد رسول الله » [١٤٣] وصيام العبد معلق ما بين السماء والارض ما لم يخرج زكاة

---

(١٤١) سورة البقرة آية ١٨٧ .

(١٤٢) الامام الغزالى — احياء علوم الدين — مصطفى الحلبى — القاهرة — ١٩٣٩ — الجزء الاول — ص ٢٤١ .

(١٤٣) النفائس — مرجع سابق ص ٢٨٢ .

الفطر ، وتسـقط على من لبس فى مقدوره اخراجها وتجب على كل من يوجد عنده زاد فى ليلة العيد ويومه •

٥ ــ **الحـج** : للحج فوائد عديدة يستفيد منه الناس وخاصة من شهد الحج وقد أشار القرآن الى تحقق هـذه المنافع والفوائد فى رحلة الحج بقوله « وأذن فى الناس بالحج يأتون رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم (١٤٤) » على أن كلمة منافع عـامة وشاملة تفيد التعارف بين المسلمين بلقائهم هذا ، كما تفيد التعاون فى مختلف الميادين سياسية أو إقتصادية أو ثقافية أو روحية أو اجتماعية أو غير ذلك •

لقد قرر الاسلام منذ حوالى أربعة عشر قرنا اجتماعا سنويا ، حدد زمانه ومكانه ليلتقى فيه المسلمون من شتى أنحاء المعمورة ، لكى يبحثوا مشاكلهم وليشهدوا منافع لهم ، ومرت العصور وتطورت المدنية وخطت الانسانية خطوات هائلة نحو المعرفة والتقدم فى جميع المجالات ، الا أن هذه الانسانية فى أقصى درجات رقيها لمتجد بدا من أن تستوحى التعاليم الاسلامية وان تسير على نهجها ، فقررت الامم المتحدة اجتماعا سنويا لها حددت زمانه ومكانه يذهب له مندوبون من الأقطار المختلفة بهدف التعاون أيضا فى مختلف الميادين • ولكن المدنية الحديثة حينما حـذت حذو الاسلام وسايرت تعاليمه لم يكن فى وسـعها أن تستمد اتجاهات الاسلام بالكامل ، فأكتفت الأمم المتحدة بأن أخذت من الحج جـانبه المادى وهو الاجتماع السنوى ، ونسيت أن التشريع الاسلامى قـد هيأ الحج تهيئة روحية ، وأحاطه بظرو فـتحقق له أقصى درجـات النجـاح

---

(١٤٤) سورة الحج آية ٢٧ ــ ٢٨ •

فالحج لم يقتصر على أفراد محدودين أو مندوبين معينين ، انما يشمل كل من استطاع اليه سبيلا من المسلمين فى ظروف روحية تتميز بالحب والصفاء ، وتختلف عن الرحلة التى تتم من منطقة الى أخرى ومن مجتمع الى آخر سواء كانت رحلات سياحية أو اقتصادية أو اجتماعية وما بها من رياضة وفن وغير ذلك .

فالمكان الذى أختير للحج والرحلة التى يقوم بها الحجيج اليه تختلف عما عداها من الرحلات ، لأن هذا المكان هو منزل الوحى الذى درج عليه محمد وسار على ثراه وتلقى فيه رسالة ربه وهو مكة وعند بيت الله الحرام ، حيث الصراع الطويل الذى دار بين الحق والباطل ، وهو الموطن الذى شهد رسول الاسلام وهو يقهر الاحداث ويهزأ بما حسبه المشركين انتصارا لهم فى نضالهم ضد النور المنبثق . ولهذا المكان ايحاءاته وصفاؤه وقدسيته وتاريخه اذ يهيىء حجاجه الى نوع من التطهر والنقاء يصغر معه متاع الحياة وادياتها . فالحج فرض على كل مكلف مستطيع أو قادر فورا ، أما اعتبار الاستطاعة فلنص القرآن « ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا » [١٤٥] ، وأما كونه فورا جاء فى الحديث « تعجلوا الى الحج فان أحدكم لا يدرى ما يعرض له » . وجاء فى الحديث أيضا « من لم يحبسه مرض أو حاجة ظاهرة أو مشقة ظاهرة أو سلطان جائر فلم يحج فليمت ان شاء يهوديا أو ان شاء نصرانيا » ، وجاء أيضا « من ملك زادا أو راحلة يبلغه الى بيت الله ولم يحج فلا عليه أن يموت يهوديا أو نصرانيا » [١٤٦]

---

(١٤٥) سورة آل عمران — آية ٩٧ .

(١٤٦) محمد بن على الشوكانى — الدرارى المضية — مرجع سابق ص ٣١ — ٣٢ .

المواقيت المكانية للحج والعمرة :

يجب تعيين نوع الحج من الميقات بالنية من تمتع أو قرآن أو أفراد والأول أفضله ويكون الاحرام من المواقيت المحددة ومن كان دونها فمهلة من أهله حتى أهل مكة من مكة ، وميقات أهل المدينة ذو الحليفة ، وميقات أهل الشام ومصر الجحفة وهى قريبة من رابغ ، وميقات أهل نجد قرن المنازل ، وميقات أهل اليمن يلملم ، وميقات أهل العراق ذات عرق ، جاء فى الحديث « وقت النبى لأهل المدينة ذو الحليفة ولأهل الشام الجحفة ، ولأهل نجد قرن المنازل ولأهل اليمن يلملم،قال فهن لهن ولمن أتى عليهن من غير أهلهن لمن كان يريد الحج والعمرة (١٤٧) ، وقد حدد عمر بن الخطاب ذات عرق لأهل العراق .

أنواع الحج :

(أ) التمتع : هو من يؤدى العمرة فى أشهر الحج وهى شوال وذى القعدة وعشرة من ذى الحجة .

(ب) المقرن : هو من أهل بالحج والعمرة معا .

(جـ) المفرد : هو من أهل بالحج فقط .

أركان الحج : للحج أربعة أركان :

(أ) الاحرام الذى هو نية الدخول فى النسك .

(ب) الوقوف بعرفة « الحج عرفة » .

---

(١٤٧) المرجع السابق ص ٣٤ .

(جـ) طواف الافاضة « وليطوفوا بالبيت العتيق » .

(د) السعى بين الصفا والمروة « ان الصفاة والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما (١٤٨) ، واذا ترك ركن منها بطل الحج .

الواجبات : المراد من الواجبات الأعمال التى لو ترك أحدها لوجب على تاركه دم ، أو صيام عشرة أيام ان عجز عن الدم .

كيفية الحج والعمرة :

أن يقلم من أراد الاحرام بأحد النسكين أظافره ويقص شاربه ويحلق عانته وينتف ابطيه ، ثم يغتسل ويلبس ازارا ورداء أبيضين نظيفين ويلبس نعلين ، واذا وصل الى الميقات صلى فريضة أو نافلة ، ثم بنوى نسكه قائلا « لبيك اللهم لبيك حجا » هذا ان أراد الأفراد ، وان أراد التمتع قال « عمرة » .

وان أراد الاقران قال « حجا وعمرة » وله أن يشترط على ربه فيقول « ان محلى من الأرض حيث تحبسنى » (١٤٩) ، فانه ان حصل له مانع حال بينه وبين مواصلة الحج أو العمرة كمرض ونحوه ، تحلل من احرامه ولا شىء عليه ، ثم يواصل التلبية رافعا بها صوته فى غير اجهاد الا أن تكون امرأة فانها لا تجهر بها ، ولا بأس أن ترفع صوتها بقدر ما تسمع رفيقتها معها .

---

(١٤٨) سورة البقرة آية ١٥٨ .

(١٤٩) أبو بكر الجزائرى — منهاج المسلم — مرجع سابق ص ٢٠١ .

ويستحب له أن يدعو ويصلى على النبى كلمــا فرغ من التلبية ، كما يستحب له أن يجدد التلبية كلما تجددت حال من ركوب أو نزول أو صلاة أو ملاقاة رفاق ، وينبغى أن يكف لسانه عن غير ذكر الله وبصره عما حرم الله عليــه ، كما أن يكثر فى طريقه من البر والاحسان رجاء أن يكون حجه مبرورا وليبتسم هاشا باشا فى وجوه الرفاق ، واذا وصل مكة استحب له أن يغتسل لدخولها ، واذا وصلها دخلها من أعلاها ، واذا وصل الى المسجد الحرام دخله من باب بنى شيبه « باب السلام حاليا » ويقول « باسم الله وبالله ومن الله والى الله اللهم افتح لى أبواب فضلك ورحمتك ، واذا رأى الكعبة رفع يديه وقال « اللهم أنت السلام ومنك السلام فحينا ربنا بالسلام » ويقول اللهم زد هــذا البيت تشريفا وتعظيما وتكريما •• ويقول « الحمد لله الذى بلغنى بيته ورآنى لذلك أهلا •• اللهم انك دعوتنى لحج بيتك الحرام وقد جئتك لذلك •• اللهم تقبل منى واعفوا عنى واصلح لى شأنى كله » ، ثم يتقــدم الى المطاف متطهرا مضطبعا(١٥٠) فيأتى الحجر الأســود فيقبله أو يلمسه أو يشــير اليه ، ثم يستقبل الحجر ويقف معتدلا ناويا طوافه قائلا باسم الله والله أكبر •• ثم يأخذ فى الطواف الى أن يحاذى الركن اليمانى فيلمسه بيــده وهكذا يطوف بقية الأشــواط ، ولمــا يشرع فى الشوط الرابع يترك الرمل وهو الاسراع فى الطواف مهرولا ، ويمشى الهوينى حتى يتم الأربعة الأشـــواط الباقية ، واذا انتهى من طوافه أتى باب الكعبة واضعا يده على أعتابها داعيا بما شاء ، ثم يأتى مقام ابراهيم فيصلى خلفه ركعتين ، قال تعالى « واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى » ثم بعد الانتهاء يتجه الى زمزم فيشرب منه مســتقبلا البيت ويدعو بمــا شــاء ، ويستحب أن يقول

---

(١٥٠) الاضطباع . هو اخراج اليد والكتف من الاحرام وجعلها من تحتهما .

« اللهم انى أسألك علما نافعا ورزقا واسعا وشفاء من كل داء ثم يتجه الى الصفا خارجا من بابها « باب الصفا » ثم يرقى الصفا مستقبلا البيت قائلا : « الله أكبر ثلاثا » ، ثم ينزل قاصدا المروة فيمشى فى المسعى ذاكرا داعيا الى أن يصل الى بطن الوادى المشار اليه الآن بالعمود الأخضر ، فيخب مسرعا الى أن يصل الى العمود الأخضر الثانى ثم يعاود المشى ، فى سكينة حتى يلقى المروة ، ثم يفعل ذلك كله فى الاشواط السبعة ، ويقف فى كل من الصفا والمروة ثمانى وقفات ، أربع فى كل منهما ، ثم ان كان معتمرا قصر شعره وحل من احرامه وقد تمت عمرته ، وكذا ان كان متمتعا بالعمرة الى الحج ، فقد تمت عمرته بمجرد فراغه من السعى وتقصيره من شعره ، وان كان مفردا أو قارنا وجب عليه أن يبقى على احرامه حتى يقف بعرفات ويرمى جمرة العقبة يوم النحر وعندئذ يتحلل ، واذا كان يوم التروية ثامن الحجة أحرم بنية الحج اذا كان متمتعا وأما المفرد أو القارن فانهما على احرامهما الاول . وخرج ملبيا الى منى ضحى ليقيم بها يومه وليلته فيصلى بها خمس أوقات حتى اذا طلعت شمس يوم عرفه ، خرج من منى ملبيا قاصدا نمرة بطريق ضب فيقيم بها الى الزوال ثم يغتسل ، ويأتى المسجد مصلى الرسول فيصلى مع الامام الظهر والعصر قصرا وجمع تقديم . فاذا قضيت الصلاة ذهب الى عرفات للوقوف بها ، وله أن يقف فى أى جزء منها لقول الرسول « وقفت ها هنا وعرفات كلها » (١٥١) . واذا وقف عند الصخرات فى أسفل جبل الرحمة فحسن وله أن يقف راكبا أو راجلا أو قاعدا داعيا الله حتى تغرب الشمس ويدخل جزء يسير من الليل أفاض فى سكينة ملبيا الى مزدلفة بطريق المأزمين فينزل بها ويصلى المغرب والعشاء قصرا وجمعا ، ويبيت بها حتى اذا طلع الفجر صلى الصبح وقصد المشعر

---

(١٥١) المرجع السابق — ص ٣٠٣ .

الحرام .. حتى اذا أسـفر الصبح وقبل طلوع الشمس التقط الحصى ليرمى به جمرة العقبة ويندفع الى منى ملبيا ، فاذا وصل وادى محسر حرك دابته أو مركبته وأسرع فى سيره نحـو رمية حجر ، وعندما يصل الى منى يذهب رأسا الى جمرة العقبة فيرميها بسبع حصيات ، يرفع يده اليمنى وقت الرمى قائلا « اللهم اجعله رضاء للرحمن وغضبا للشيطان الله أكبر .. اللهم اجعله حجا مبرورا وسعيا مشكورا وذنبا مغفورا فحسن ، ثم ان كان معه هدى ذبحه أو أناب من يذبحه عنه ، وله أن يذبح فى أى مكان شـاء لقول الرسـول « نحرت ها هنا ومنى كلها منحر ، ثم يحلق أو يقصر أو يمرر الموس على رأسه اذا كان أصلعا والمرأة تأخذ قدر أنملة من أطراف شـعرها ، وهنا يكون قد تحلل التحلل الأصغر ، ولا يبقى محرما عليـه سوى النسـاء لقول الرسول : « اذا رمى أحدكم جمرة العقبة وحلق فقد حل له كل شيء الا النساء ، ثم يلبس ثيابـه ويسير الى مكة ان أمكن ليطوف طواف الافاضة الذى هو أحد أركان الحج الاربعة ، فيدخل المسجد متطهرا فيطوف على نحو طواف القدوم . غير أنه لا يضطبع ولا يرمل فى الأشـواط الثلاثة الأولى ، فاذا أتم سبعة أشـواط صلى ركعتين خلف المقام ، ثم ان كان مفردا أو قارنا وقد سعى مع طواف القدوم فان سعيه الأول يكفيه ، وان كان متمتعا سعى بين الصفا والمروة سبعة أشـواط ، فاذا انتهى المتمتع من سعيه تحلل كامل التحلل ولم يبق محرم عليه أى شيء ثم يعود من يومه الى منى فيبيت بها ، واذا زاغت الشمس من أول أيام التشريق وهو اليوم الحادى عشر من ذى الحجة ، ذهب الى الجمرات فرمى الجمرة الأولى وهى التى تلى مسـجد الخيف بسبع حصيات ، ثم يسير الى الجمرة الوسطى فيرميها كما رمى الأولى ، ثم يسير الى جمرة العقبة فيرميها بسبع حصيات وهى الأخيرة ، ويستحب له اذا فرغ من كل رمية أن يتجه الى القبلة ويدعو

بما شاء ، واذا زالت الشمس من اليوم الثانى فعل ما فعله فى اليوم الأول فى رميه للجمرات الثلاث ، ثم ان تعجل نزل مكة من يومه قبل غروب الشمس ، وان لم يتعجل أو غربت الشمس وهو فى منى فعليه المبيت بها ، ثم يفعل بعد زوال الشمس من رمى للجمار كما سبق ، ثم يرحل الى مكة ، واذا عزم على السفر الى أهله طاف طواف الوداع سبعة أشواط وصلى بعده ركعتين خلف المقام ، وانصرف راجعا الى بلده وهو يقول « آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون » ويسقط طواف الوداع عند بعض المذاهب ، على المرأة اذا حاضت . تلك هى العبادات فى الاسلام ومنها يتضح أنها تهذب الناحيتين المادية والروحية فى الانسان ، وهى متجددة متكررة حتى يظل المسلم أقرب الى الطهر وحتى تجذبه العبادة الى رحاب الله كلما دفعته مادية الحياة الى البعد عن هذه الرحاب ، وتهدف هذه العبادات الى توجيه المسلم نحو خالقه وأن لا يجعل لله ندا أو شريكا وفقا لما جاء به الدين الاسلامى من أوامر ونواه ضابطة على الافراد أن يتبعوها ، ولذلك فان المسلمين يعتبرون الشريعة الاسلامية تنظيما شاملا جامعا ، لكل نواحى الحياة الدنيا والآخرة . والحديث هو الجزء المتمم للقوانين التى جاء بها القرآن ويعمل بها المسلمون(١٥٢) .

---

(152) John Alden Williams, Islam, B. George, New York 1962. p. 81-83 .



الباب الرابع

الأنثروبولوجيا الدينية

الفصل الخامس عشر

الأنثروبولوجيا الدينية

(دراسة الدين فى المجتمعات البدائية والبسيطة)



الفصل الخامس عشر

الأنثروبولوجيا الدينية

(دراسة الدين فى المجتمعات البدائية والبسيطة)

١ ــ التعريف الأنثروبولوجى للدين

٢ ــ مفهوم القوة غير المشخصة

٣ ــ الكائنات فوق الطبيعية المشخصة

٤ ــ الكائنات فوق الطبيعية عند الباجندا : أرواح الموتى

٥ ــ آلهة الأزتك

٦ ــ ممارسو الشعائر الدينية عند الشعوب البدائية : الشامان

٧ ــ ممارسو الشعائر الدينية فى المجتمعات البدائية : الكاهن

٨ ــ السحر والدين فى المجتمعات البدائية

٩ ــ الطقوس والشــعائر

١٠ ــ دور الدين فى المجتمعات الانسانية

الفصل الخامس عشر

الأنثروبولوجيا الدينية

(دراسة الدين فى المجتمعات البدائية والبسيطة)(*)

١ — التعريف الأنثروبولوجى للدين

تضم الثقافات الانســانية فى أى مجتمع انسانى أنماطا من التنظيم الاجتماعى توضع لتنظيم التفاعل الاجتماعى بين الأفراد • ففى أى مجتمع يستطيع الأفراد فهم ســلوك معظم النــاس ، وقد يستطيعون كذلك التنبؤ برد فعل الفعل فى مواقف معينة • وكذلك فان كل ثقافة تضم مجموعة من الفنون — أو التكنولوجيا الخاصة بها — يستطيع بوساطتها أفراد الثقافة انتاج طعامهم وملبسهم ومساحتهم وأدواتهم وأسلحتهم • وداخل هــذا المجال من المعرفة يمكن التنبؤ بالأحداث بوجه عام : فالخشب الذى يعالج معالجة صحيحة يمكن تشكيله الى أقواس أو مآو ، والصلصال الذى يختار ويعالج على النحو الصحيح يمكن تحويله الى أوان فخارية ، كما أن الحجارة التى تقطع وتسحق بطريقة سليمة يمكن تصنيعها وتحويلها الى أدوات وأســلحة ومصنوعات مادية أخرى •

لكن من الصحيح أيضا أن الكائنات الانســانية قد يصدر عنهــا ضروب من الســلوك لا يمكن توقعها ، كما أن الفنون التى تستخدمها قد

(*) اعتمدنا فى عرض مادة هذا الفصل على المرجع التالى :

بيلز وهويجر ، مقدمة فى الأنثروبولوجيا العامة ، المجلد الثانى ، دار نهضة مصر (ترجمة الدكتور محمد الجوهرى وزميله) ١٩٧٧ ، صص ٥٨٤ — ٦٢٤ •

يصعب الاعتماد عليهـــا ، فالشخص العادى ذو المزاج المعتدل قد يجد نفســـه فى حالة ثورة وهياج لا يمكن تفسيرها ، والزوجه أو الزوج المخلص قد يهجر فجأة قرينته ، كما أن الفرد الذى يبدو ــ ظاهريا ــ متمتعا بصحة جيدة قد يمرض ويموت دون سبب واضح • وقد تتحطم القوس المفضلة التى ظلت متينة طوال فترة استعمالها ، وقد يصعب تشكيل قطعة الحجارة ــ برغم معالجتها الدقيقة ــ وتحويلها الى أداة أو ســـلاح • كذلك قـــد يصعب تحويل قطعة الصلصال ــ برغم معالجتها بالطريقة العادية ــ لتصبح وعاء ملائما • ولا يؤدى الصيد (القنص) الجيـــد الى الحصول على فرائس ، كما أن المطر أو العواصف العارضة قد تأتى على محصول الموسم ، أو أن يقضى على قطيع المـــاشية بسبب المرض • وبرغم اتخاذ كل الاحتياطات ، وبرغم المعرفة وأساليب ضبط الوقت ، فان كثيرا من النشاطات اليومية تكون عرضة للاخفاق ــ لا الاخفاق الذى يرجع الى ضعف المهارة أو قلة المعرفة ، بل الاخفاق الذى يصعب تفسيره والتنبؤ به ، وبالتالى يصبح غامضا •

وازاء مثل هـــذه الأحداث ــ التى قد تتغلغل فى نسيج النشاطات اليومية ــ فان كل مجتمع نعرفه يطور أنماطا معينة من الســـلوك ليواجه بها ــ بشكل أو بآخر ــ تلك الأمور غير المتوقعة وليعمل من خلالها على احكام السيطرة على علاقات الانسان بالكون الذى يعيش فيه • ويطلق الأنثروبولوجيون على هذا الجانب من الثقافة مصطلح « الدين » •

ولأنه لا يوجد شعب حقق نجاحا أو يقينا كاملا فى مجال العلاقات الشخصية أو التكنولوجيا ، فان الدين يصبح حتما جزءا من كل ثقافة • والمؤكد أن أشـــكال السلوك الدينى تختلف اختلافا كبيرا من مجتمع الى آخر ، فهناك فروق لا تحصى فيما يتعلق بالمعتقدات والشعائر والجوانب

الأخرى من الممارسة الدينية • ولكن يجب ألا تخدعنا هــذه الفروق ، بحيث تجعلنا ننظر اليها على أنها كيانات مؤلفة من ممارسات ســحرية وخرافات • ففى ضوء معرفتنا الطبية ، فانه قد يبدو غريبا أن أحد أفراد قبائل النافاهو يأمل فى الشفاء من الدرن بأداء طقس دقيق يســتغرق تســعة أيام ، كما أنه قد يبدو غريبا أن علاج المرض عند الشــعوب غير المتعلمة يتطلب دائما ممارسة الصلاة ، والرقص ، والغناء ، أكثر مما يتطلب علاجا دقيقا فى مستشفى أو عيادة • وواقع الأمر — وهذا شىء طبيعى — أن عددا قليلا من الشــعوب غير المتعلمة هو الذى يملك معرفة طبية صحيحة • فالداء والمرض — باستثناءات قليلة — يمكن معالجتهما كأحداث غير متوقعة فقط لا يمكن التحكم فيهما بالوسائل العادية • كذلك يجب ألا ننسى أن كثيرا من أفراد بعض المجتمعات المتقــدمة يعتقدون اعتقادا صادقا بأن المرض يمكن علاجه على نحو أفضل بالصلاة والايمان اذا ما قورنا بالمعرفة الطبية •

وعلى ذلك فان أنماط الســلوك الدينى تدور حول عدم السيطرة والتحكم فى الحيــاة ، وأنها تتضح على وجــه الخصوص فى أوقات الأزمات • ويطلق على هــذه الأزمات فى بعض الأحيان أزمات أو أحداث الحياة ، كالميلاد ، والمراهقة ، والزواج ، والمرض ، والوفاة • وفى كــل المجتمعات تقريبا تعدبعض أو كل هــذه المناسبات دافعا لممارسة الطقوس والشــعائر • وهنــاك أحداث أخرى تؤثر فى المجتمع برمته • مثال ذلك نقص الطعام فى قرية من قرى الاسكيمو • وعندما يحدث ذلك فان أسر القرية تتجمع وتحاول — تحت توجيه زعيم دينى يطلق عليــه الشامان أن تكتشف — بالوسائل الســحرية — سبب نقص الطعام • وهنــاك طقوس جماعية مماثلة تقام عنــد تغير الموســم ، خاصة حينما يؤدى هــذا التغير — فى مجتمع محلى زراعى — الى تغير جذرى فى النشاطات •

ومن الأمثلة على ذلك طقوس الحصاد ، وشعائر اعداد الحقول للزراعة . والنشاطات الدينية — كما هى الحال بالنسبة لرقصة الثعبان عند شعب الهوبى — التى تتم بهدف اسقاط الأمطار لكى تنمو المحصولات .

ويترتب على ما سبق ذكره أن الدين — شأنه شأن جوانب الثقافة الأخرى — ليس منفصلا عن الاطار الثقافى الكلى . فالواقع أن أنماط السلوك الدينى ترتبط ارتباطا معقدا بكل من التكنولوجيا والتنظيم الاجتماعي ، كما أنها تكتسب معناها الكبير من خلال هذا الارتباط . ولتوضيح هذه النقطة ننتقل — لفترة قصيرة — الى نشاطات فلاحة البساتين عند سكان جزر التروبرياند ، وهم شعب ميلانيزى يعيش فى شمال الطرف الشرقى من غينيا الجديدة .

ويعد سكان جزر التروبرياند — كما يقول مالينوفسكى — زراع بساتين مهرة يعملون بجد ودأب من أجل انماء محصولاتهم التى هى أساسا : اليام (نوع من البطاطس) ، والتارو ، وجوز الهند . وتتميز أراضيهم بالخصب ووفرة الرى ، كما أن أدواتهم — برغم أنها مصنوعة من الحجارة والصدف والخشب — صالحة لمعالجة التربة . والواقع أن الفنون المحلية لفلاحة البساتين ملائمة بالنسبة لهم الى حد كبير . ويخبرنا مالينوفسكى أن سكان جزر التروبرياند « ينتجون أكثر مما يحتاجون اليه بالفعل ، وأنهم فى السنة العادية يجنون كمية محصولات تبلغ ضعف ما يستطيعون تناوله » (١) .

---

(1) Bronislaw Molinowski, Argonauts of the Western Pacific (New York and London. E.P. Dutton. L. Co ; Inc, and Routledge and kegon Paul ltd, 1932), p. 58.

الا أنه من الخطـأ وصف فلاحة البساتين عنـد جزر التروبرياند فى ضوء مفهومات تكنولوجية خالصة • ففلاحة البساتين بالنسبة لأحـد السكان الاصليين تتطلب القيام بسلسلة اجراءات حقيقية ذات جوانـب فنية وأخرى سـحرية — دينية ، وكلتاهما لا تنفصل عن الأخرى • ويعد سـاحر البستان — كما أشار الى ذلك مالينوفسكى — موظفا هاما فى القرية • حيث لا يتفوق عليه فى المكانـة الا رئيس القرية والمشـعوذ ، ويقوم ساحر البستان كل عام « بسلسلة من الشعائر ، كما يقوم بتعويذ البسـتان ، وتلك أمور تتم بالتوازى مع العمل • ويفتتح — فى حقيقة الامر — كل مرحلة من مراحل العمل وكل تطور جديد فى حياة النبات • وحتى قبل بدء زراعة البساتين على الاطلاق ، فان على الكاهن أن يحدد الموقع باقامة طقس كبير يشترك فيه كل رجال القرية • وبهذا الطقس يبدأ — رسميا — موسم زراعة البساتين ويستطيع القرويون فقط بعد اتمام هذا الطقس ازالة الحشائش من أراضيهم • وعلى ذلك فان الكاهن — خلال سلسلة من الشعائر — يفتتح على التوالى كل المراحل المختلفة المتتابعة — حرق الحشائش ، وتنظيف الأرض ، وزراعة النباتات ، وازالة الأعشاب ، ثم جنى المحصول • كذلك فان الكاهن فى سلسلة أخـرى من الطقوس والتعاويذ — وبطريقة سحرية — يساعد النبات على التنبيت ، وظهور البراعم ، والتحول الى أوراق ، وكذلك التسـلق وتكوين فروع غنية بالأوراق ، وانتاج درنات صالحة للطعام(٢) •

ويشير ما سبق أن ذكرناه الى أن كل ثقافة تقسم العالم ، أو الكون ، الى مجالين : الاول هو ما يطلق عليه باصطلاحات مختلفة — المجـال العلمانى أو الدنيوى أو مجال « الشعور العام » فى مقابل المجال المقدس :

---

(2) Ibid , p. 300.

أو فوق الطبيعى ، وهو الذى يمثل موضـوع الدين على أن المسـائل المرتبطة بهذا المجال وكيفية دراستها تحظى باتفاق أقل من جانب علمـاء الأنثروبولوجيا • فالبعض قد يركز على الطقوس التى تؤدى مؤكـدا محتـواها الرمزى • ولقد فسرت هـذه الرموز على أنهـا تصورات للجوانب المختلفة من المجتمع نفسـه • كما يؤكد البعض الآخر الوظيفة الاجتماعية للطقوس التى تتمثل فى تحديد وتدعيم الجوانب المختلفة من الثقافة ، واتاحة الفرصة لظهور مناسبات للتعبير عن التضامن الاجتماعى • على أن الجانب الأكثر أهمية للأنساق الدينية — فى نظر فريق ثالث من علمـاء الأنثروبولوجيا — هو نسق المعتقدات ، الذى يضم — غالبا — الأفكار المفسرة للكون • وقد تكشف الأساطير عن جانب هام من هـذا النسق التفسيرى ، كما تسوغ أو تفسر — فى نفس الوقت — الشعائر والجوانب الأخرى من النسق الدينى • وتضم الأنساق الدينية عموما — وان لم يكن دائمـا — مفهوم القوة فوق الطبيعية ، سـواء فى شكل غير مشخص نفاذ أو فى صورة أشباح وآلهة وأرواح وأخيرا فان طبيعة القائمين على الدين الذين يوجدون فى معظم الثقافات قد تكون محورا للدراسـة • ويتمتع هؤلاء الأشخاص (الذين هم عادة من الرجال وان كانت النساء كثيرا ما يتمتعن بهـا أيضا) كالشامان ، والقساوسة ، والسـحرة ، والمشعوذين ، بقوى خاصـة تمكنهم من الاتصال والتأثير فى الكائنات فوق الطبيعية •

وسـوف نتناول فى الفقرات التالية بعض الجوانب الأساسية ، وبشىء من التفصيل ، حتى نستطيع الحصول على فهم أكبر لكل من طبيعة وأشـكال المعتقدات والممارسات الدينية •

٢ — مفهوم القوة غير المشخصة

من أكثر الظواهر الدينية أهمية وانتشارا الاعتقاد فى وجود قوة ، أو تأثير ، أو سيطرة عامة وغير مشخصة ، توجد بطريقة غير ملموسة فى مختلف أنحاء الكون ، وقد تكون مملوكة — بدرجة تقل أو تكبر — للآلهة ، أو الرجال ، أو القوى الطبيعية (كالشمس ، والقمر ، والمطر ، والرعد) . وكذلك أشـــياء طبيعية (كالبرك والأنهار ، والعصى ، وقطع الحجارة) . ويجب أن نؤكد أن هذه القوة غير مشخصة تماما ، أى أنها لا تتجســد بذاتها أبدا فى شكل اله أو معبود . وقد تمتلك الآلهة فى تلك المجتمعات البدائية مقادير من القوة تكبر أو تصغر ، ولكنها لا تمثل تجسيدات للقوة على الاطلاق .

على أن مفهوم القوة غير المشخصة يمثل فى حقيقة الأمر أساسا تفسيريا ، يستخدم لتفسير الخبرات الخارجة عن نطاق الحيـــاة العادية أو الأحداث التى لا يمكن تفســيرها . وعلى ذلك فان مفهوم هنــود الالجونكين عن القوة غير المشـــخصة — مانيتو — لا ينطبق فقط على الكائنات المقدســة (الآلهة أو الأرواح) أو ممارسى الشـــعائر الدينية (القساوسة والشامان) ، ولكنه ينطبق أيضا على أى شىء ملحوظ وعجيب أو أى شىء غير عادى يصعب تفسيره . وبنفس الكيفية يذهب تودر فتون الى المانا (وهو المصطلح الميلانيزى الذى يستخدم للاشارة الى القـــوة غير المشخصة) هى القوة التى « تعمل على التأثير فى أى شىء يتجاوز قوة الناس العادية أو يخرج عن نطاق العمليات الطبيعية المشتركة » ويوضح كودرنجتون هذه النقطة على النحو التالى :

واذا ما أحرز شخص نصرا فى القتال ، فان هـذا النصر لا يرجع الى القوة الطبيعية لذراعيه ، أو النظرة السريعة لعينيه ، أو سرعة بديهته • لقد حصل ــ بالتأكيد ــ على « مانا » الروح أو المـانا الخاصة بمحارب متوفى حتى أكسبته القوة ، وذلك بنقلها فى حجاب حجرى يدور حول الرقبة أو مجموعة من أوراق الشـجر فى حزامه ، أو قد تنتقل فى سـنة معلقة على الأصبع التى تمسك بقوسه ، أو قد تنتقل فى صورة كلمـات يجلب معها لجانبه مسـاعدة قوى فوق طبيعية • فاذا ما كثرت الخنازير التى يمتلكها الشخص أو ازداد انتاج بستانه ، فان ذلك لا يعود الى كده وجهده واهتمامه بملكيته ، بل بسبب قطع الحجارة المليئة بروح المـانا المتعلقة بالخنازير وأشـجار اليام (نوع من البطاطس) التى ينتجها • ومن المعروف جيدا أن نبات اليام ينمو بطريقة طبيعية حينما يزرع ، ولكنه لا يكبر بدرجة كبيرة ما لم تلعب روح المـانا دورها ، فالزورق لا يصبح سريعا ما لم تستطع روح المـانا أن تدخل فيه ، كما أن شبكة الصيد لن تصطاد أسماكا كثيرة ، ولا يستطيع السهم تحقيق الاصابة القـاتلة[٣] •

ويعمل مفهوم « المـانا » فى بولنزيا أيضا على تسويغ وترشيد نسق اجتماعى معقد ، بمقتضاه يتدرج الناس طبقـا لميلادهم وانجازاتهم • فالمجتمعات المحلية فى بولينزيا تنقسم ــ على وجـه التحديد ــ الى طبقات اجتماعية تبدأ فى قمة السلم الاجتماعى من الرئيس وأسرته مرورا بمراتب وسيطة وصـولا الى أسرى الحرب والرقيق فى قاع السـلم الاجتماعى • وتعد المرتبة ــ الى جانب القدرة على أداء مهامها بنجاح ــ دليلا مباشرا على امتلاك « المـانا » ووسـيلة لقياس مقاديرها • ويتمتع

(3) R. H. Codrington, The Melanesions (Oxford, clarendon Press, 1891) pp. 118 - 120 .

الرؤســـاء بمقادير أكبر من المـــانا ماداموا ناجحين فى أداء أعمالهم ، ولا يتفوق عليهم الا بعض القساوسة فقط ، حينما يتمتعون ــ بالفعل ــ بمقادير كبيرة من « المانا » ، وذلك بفضل العناية الالهية • وفى أحيـــان أخرى قد يحتل القساوسة مكانة أدنى من مكانة الرؤساء • ومن الطبيعى أن يتمتع الآلهة ــ بحكم طبيعتها الالهية ــ بقدر أكبر من « المـــانا » اذا ما قورنت بالكائنات الانســـانية • ولكن الآلهة تتدرج فيما بينها أيضا ، ومن ثم فانها لا تتمتع بقدر واحد من « المـــانا » •

وعلى ذلك فان « المـــانا » تفسر الوضع الاجتماعى كمـــا تفسر الانجاز الناجح ، ولكنها تفسر أيضا الفشل أو الاخفاق ، فاذا ما قتل أحد الاعداء محاربا شهيرا وأكله ، فان من الواضح أن المحارب قد فقـــد « المـــانا » التى جعلت منه محاربا شهيرا • ويعتقد أن « المـــانا » الخاصة بالرئيس تحميه وتحمى قريته من الكوارث ، ولكن اذا ما منيت القرية بالهزيمة فى احـــدى الحروب ، أو تعرضت لأمراض ووفيات ومصائب أخرى كثيرة ، فان المؤكد أن الرئيس فقد « المـــانا » الخاصـــة به ، وبالتالى يتعين أن يستبدل به رئيس آخر •

ويصدق ذلك أيضا على «المـــانا» التى تمتلكها الأشياء أو المصنوعات الطبيعية • فقطعة الحجر ذات الشـــكل غير المألوف قد تدفن فى الحديقة ، ولكن اذا ما تحقق محصـــول وفير ، يكون هناك « مانا » خاصة بقطعة الحجر • أما اذا انخفضت كمية المحصولات فيما بعد ، فان قطعة الحجر تكون قد فقدت « المـــانا » الخاصة بها ، وأصبحت بذلك شـــيئا عاديا لا قيمة له • ويعتقد أن الســـلاح الذى يستطيع بوساطته المحارب احراز النصر ، أو الزورق السريع ذا المجاديف الجيدة ، لديه « مانا » خاصة به ، وأنه بذلك يزيد فى أهميته • ولكن اذا ما حدث أن تحطم الســـلاح لسبب

عير واضح ، أو أخفق الزورق فى أداء وظيفته ، فان « المانا » الخاصة بهما تكون قد تبددت •

وفى مناطق من بولينزيا يمكن الحصول على « المـــانا » عن طريقة الارث : فالطفل يحصل على « المـــانا » من أبويه ، وبالتـــالى • فان « المـــانا » الخاصة به تكون أكبر وأقوى من تلك الخاصـــة بأى من الأبويين • وفى مناطق أخرى من بولينزيا يتعين الحصول على « المـــانا » من خـــلال الرعاية أو الاشراف الدقيق على الممتلكات ، وكذلك الانجاز الناجح الذى يقدمه الشخص بوصفه محاربا ، أو قسيسا ، أو رئيسا ، أو صانعا • وحينما لا تورث « المـــانا » فان الانجاز يعد هاما أيضا ؟ ذلك لأن امتلاك « المـــانا » يمكن أن يتحقق فقط ويتضح فقط من خـــلال الانجاز الناجح على نحو ما رأينا •

وكذلك فان المصنوعات ــ كالأدوات والأسلحة والزوارق والأشياء المشـــكلة الأخرى ــ تحصل على « المـــانا » بفضل التصنيع ، أو التشكيل الدقيق ، والأداء التفصيلى لكل الطقوس اللازمة لصنعها • فبناء زورق مثلا يتطلب فن الصانع وفن ممارسى الشـــعائر الدينية (اذ أن الصانع يعد عادة كاهنا فى فنه) ، بحيث ان كل خطوة من العملية الطويلة الشاقة اللازمة لبنـــاء الزورق قد يصاحبها طقس ملائم • واذا لم تؤد هـــذه الطقوس والشعائر ، فان الزورق لا يحصل ــ حينئذ ــ على « المـــانا » ، وبالتالى فانه لا يعدو أن يكون مجموعة من قطع الخشب المتناثرة • واذا ما أخفق زورق مبنى بطريقة صحيحة فى ابراز « المـــانا » ، التى يفترض أن يكون قد حصل عليهـــا فى أثنـــاء بنائه ، فانه يكون من الطبيعى ــ مثلا ــ أن يتحول ليصبح قاربا بطيئا ردىء الصنع ، ذلك لأن الاختبار الحقيقى للمانا يكمن فى أدائها فى نهاية الأمر •

وهناك وظيفة أخرى للمانا — وتعد دليلا على قوتها — هى التابو • فالشخص الذى يمتلك « المـــانا » قد يفرض تابو — أو تحريما — على ممتلكاته • وبالتالى يحرم على الآخرين (ذوى « المـــانا » الأقل) لمسها أو اســـتعمالها بسبب الخوف من العقـــاب فوق الطبيعى • ويقـــدم لنا لنتون مثالا طريفا لاحظه فى دراسته لشعب الماركيزان(٤) • ففى هذه الجزر يتمتع الأطفال بقدر كبير من الحرية ، كما أن المولود الأول قد يحصل على مكانة تفوق مكانة أبويه • وفى احدى المناسبات تشاجر ابن أحـــد الرؤساء ، ويبلغ من العمر ثمانيا أو تسع ســـنوات مع والده ووضع تابو على المنزل بأن أسماه باسمه من بعده • وكان الطفل — وهو ينظر نظرة كآبة وانتصار — يجلس فى المنزل ، فى حين كان الرئيس وأفراد أسرته يعسكرون فى مدخل المنزل • وهم لا يستطيعون دخول المنزل حتى يزيل الطفل التابو •

ويوجد التابو أيضا فى داخل الآلهة والرجال والمصنوعات المـــادية التى تمتلك قدرا كبيرا من روح « المـــانا » • فلا يمكن لشخص لديه قدر أقل من روح « المـــانا » أن يلمس رئيســـا أعلى يتمتع بقدر أكبر من روح « المـــانا » ، ذلك لأن شـــخصه يعد تابو ، كما يعتقد بأنه ضار جسميا بالنسبة للآخرين • وعند بعض الجماعات البولينزية ، نجد أن الرئيس المقدس الأعلى يعيش منفردا ، ذلك لأن أى شخص لا يستطيع الاقتراب منه ، أو اســـتخدام أى شىء يستخدمه ، أو دخول منزله ، أو حتى اتاحة الفرصة لخيال الرئيس بأن يقع عليـــه • وبنفس الكيفية فان أسلحة المحارب الشهير — الذى يمتلك « مانا » قوية بسبب انجازاته

---

(4) Rolph Linton , « Marqueson Calture » , The Individual and His society, by Abram kardiner (New York : Columbia University Press , 1939) . pp. 158 - 159.

الناجحة فى الحرب أو تكون محرمة على المحاربين الذين لديهم مانا أقل أو أضعف من تلك التى لدى مالكى الأسلحة .

وباختصار يبدو الآن واضحا أمامنا أن مفهوم القوة غير المشخصة — سواء أكان متمثلا فى مفهوم « المانا » عند الميلانيزيين والبولينزيين ، أو مفهوم المانيتو عند هنود الالجونكين ، أو أية مفاهيم مشابهة عند شعوب أخرى — هو فى جوهره محاولة لتنظيم وتسويغ كل ما هو مجهول وغير منتظم داخل الخبرة الانسانية . وكأساس تفسيرى فان مفهوم القوة غير المشخصة يعد كاملا وكافيا فى حد ذاته . فهو يفسر كل شىء فى الماضى والحاضر ويقدم كذلك تفسيرات مسبقة لكل الاحداث المقبلة . أما النجاح الساحق أو القيادة الحكيمة أو الأداء غير العادى وكذلك كل ما هو الهى وفوق طبيعى وعجيب فيكتسب معناه هذا لأنه يمتلك القوة . والقوة ليس لها طابع أخلاقى — فهى ليست خيرة أو شريرة . لذلك فهى تساعد — بنفس الدرجة — الآلهة والشياطين والكهنة والمشعوذين والرجل الطيب البارز ، وكذلك الأوغاد الناجحين . وعلى الرغم من أن القوة قد تكون وراثية أو مكتسبة من خلال الأداء الناجح ، الا أنها قد لا تفقد دائما . وعلى ذلك فان مفهوم القوة يسوغ كلا من النجاح والاخفاق ، ذلك لأنه برغم أن النجاح يشير الى امتلاك القوة ، فانه يعنى — حتما — افتقاد هذه القوة .

٣ — الكائنات فوق الطبيعية المشخصة :

على الرغم من أن المعتقدات فى وجود قوة غير مشخصة منتشرة على نطاق واسع فى المجتمعات البدائية ، فيجب ألا نفترض أن مثل هذه المعتقدات تقف حائلا دون وجود مفهوم يتعلق بالآلهة والأرواح وغير ذلك

من كائنات علوية مشخصة أخرى مماثلة.فبينما نجد فى ميلانيزيا وبولينزيا مثلا — كما سبق أن لاحظنا — أن « المانا » تشكل نمطا دينيا سائدا ، فاننا نجد أيضا تشكيلة كبيرة من الكائنات العلوية المشخصة . ونفس الشىء يصدق بازاء غير ذلك من المجالات . والواقع أنه قد يقال ان الدين لا يقتصر على حدود مفهوم القوة غير المشخصة فى أى من المناطق التى امتدت معرفتنا اليها .

ويعرف تيلور — وهو واحد من أوائل من استخدموا لفظ المذهب الروحى Aanimism وهو أكثر المعتقدات العامة ارتباطا بوجود كائنات علوية ، يعرفه على النحو التالى « لقد وجد بصفة دائمة أن المذهب الروحى ينقسم الى عقيدتين كبيرتين ، مشكلة أجزاء من مذهب واحد متسق : الأولى — تتعلق بأرواح مخلوقات فردية ، وهى أرواح قادرة على الوجود المستمر بعد الموت ، أو بعد فناء الجسد . والثانية — تتعلق بأرواح أخرى تتدرج فى معارج الرقى الى مرتبة الآلهة القوية . ويعتقد الانسان البدائى أن الكائنات الروحية تؤثر أو تتحكم فى أحداث العالم المادى ، وفى حياة الانسان فى الدنيا والآخرة ، ويعتقد أن تلك الأرواح تجرى اتصالا بالناس ، وتستمد الرضا والسخط من التصرفات الانسانية . وطبيعى أن يؤدى الاعتقاد بوجودها الى ابداء الاحترام لها واسترضائها عاجلا أو آجلا . ولقد يمكن أن نقول أن ذلك يحدث بلا محالة تقريبا . وهكذا نجد أن النزعة الروحية فى منتهى ما وصلت اليه من تطور تتضمن الاعتقاد فى وجود الأرواح ، وفى حالة مستقبلية ، وآلهة مهيمنة ، وأرواح خاضعة . وهذه المعتقدات تنتهى من الناحية العملية الى نوع معين من العبادة الايجابية(٥) .

(5) E. B. Tylor, Primitive Calture (Boston : Estes and Laurlat, 1874) . Vol . 1. p. 426-427.

ويجب أن نلاحظ أن الروحية وبخاصة حيث تتضمن الاعتقاد فى وجود أرواح تسكن فى البرك وعلى الأشجار وغير ذلك من أشياء شبيهة ، يجب أن تميز بعناية عن المذهب الحيوى anim ism ، وهى الاعتقاد فى أن أشياء معينة أو ظواهر طبيعية معينة مما يجب أن نعتبره أشياء غير حية ، هى ذاتها قادرة على التصرف والتحرك كأشياء تضطلع بالاحساس • والظاهر أن المذهب الحيوى لا يؤدى بحال الى نشوء عواطف دينية ، كما أنه لا يحمل على عبادة الشىء الذى يعتقد أنه منعم بالحياة • وهكذا ، فان الهندى بكاليفورنيا الذى يعتقد أن احـــدى الأشجار قد تقتله اذا ما رغبت فى ذلك ، بأن تسقط أحـــد فروعها عليـــه ، لا يخشع بسبب ذلك أمام الشجرة ، ولا يعتقد فى أن الشجرة تتضمن روحا ينبغى عبادتها • انه لا يعدو مجرد تجنب الاشجار ، أو ابداء حذر شديد لدى مروره تحتها • ولكن من جهة أخرى فان نفس ذلك الهندى قد يتحاشى بركـــة معينة ، بسبب الاعتقاد فى أنها مأهولة بروح حاقدة سوف تسحبه الـــى قاع البركة لاغراقه ، ولقد يحاول أكثر من ذلك استرضاء تلك الروح بتقديم القرابين اليها • فالروحية التى تتضح فى المثال الثانى اذن هى اعتقاد أو مجموعة من الاعتقادات فى كائنات علوية ، ســـواء نشأت فى أرواح مخلوقات سبق لها أن عاشت على الأرض ، أم وجدت بادىء ذى بدء ككائنات علوية ، وهى التى قد تقطن فى بعض الظواهر الطبيعية مثل : الأشـــجار ، والبرك ، والجبال ، أو فى بعض الأشـــياء المصنوعة ، مثل : الأسلحة ، أو المنازل ، أو القوارب • أو قد توجد فى حالة غير مرئية فى قسم معين من الكون ، أو فى الكون بأكمله •

أما تشكيلة وأنماط الكائنات العاوية التى يعتقد الناس فى وجودهـــا فهى كبيرة جـــدا بحيث تكاد تتحدى الحصر أو التصنيف • فثمة أولا الآلهة ، أو المعبودات العظيمة ، والتى تبعد كثيرا فى المكان ، وهى التى

يعتقد غالبا فى أنها تتحكم فى الكون ، أو فى جانب منه ، والتى يعتقد فى كثير من الأحيان أنها هى الخالقة للعالم الراهن . ويأتى بعد ذلك قسم هائل من الأرواح التى توجد فى تشكيلات كثيرة ، وبخصائص متباينة الى حد بعيد . والأرواح تكون فى الغالب أقرب الى الانسان وأكثر كلفا بأعماله اليومية . وهى قد تكون أرواحا خيرة ، أو أرواحا شريرة ، أو أرواحا حيادية بتجاه الناس . وهى قد تقطن أماكن معينة (البرك والجبال والمدن والمنازل ونحوها) ، أو قد تمتد عبر الكون بغير حدود ، وهى قد تعمل كأرواح حارسة للهياكل والبيوت أو حتى الاشخاص . ولقد تكون مخيفة ، أو مرعبة ، أو لطيفة ، أو مؤذية أو قد تجمع فى نطاقها بعض هذه الوظائف والخصائص أو جميعها .

وأخيرا فثمة فئة واسعة النطاق من الكائنات العلوية تضم أرواح الموتى — الاشباح — التى صارت متحررة من الجسم بالموت ، ولكنها مع ذلك ما تزال محتفظة باهتمام ايجابى بمجتمع الأحياء ، بل ما تزال محتفظة بعضويتها به . وهذه قد تكون أيضا خيرة أو شريرة ، وتشتمل على كثير من وظائف الأرواح وخصائصها . ولكنها تختلف عن الأرواح ، لا من حيث أصلها فحسب ، بل وفى صلتها الروحية الكبيرة بالمجتمع الانسانى ، وفى أنها تشبه الانسان الى حد بعيد فى الميول والاحساس والانفعالات والسلوك .

ولعلنا نعود مرة أخرى الى تناول تشيريكاهوا أباتشى حتى لمجرد القاء الضوء على تنوع الكائنات العلوية فى نطاق ثقافة واحدة ، وأن نطبق تصنيفا الفج جدا بازاء ذلك . والواقع أن التشيريكاهوا كما سبق

(*) Chiricahua Apaches

أن أشرنا — هم قوم من البدو الذين يقومون بجمع الغذاء ، ويعيشون فى مجتمعات صغيرة فى قطر جبلى شبه قاحل من أقطار المكسيك الحديدة والأريزونا •

وعلى الرغم من أن آلهة التشيريكاهوا لم يصنفوا التصنيف الثقافى ، فان من الممكن أن نقع لديهم بشكل عام على فئاتنا الثلاث للكائنات العلوية : — الآلهة ، والأرواح ، والأشباح(٦) فبالنسبة للفئة الأولى نجد أربعة آلهة رئيسية هى : واهب الحياة والمرأة المطلية بالأبيض ، وطفل الماء ، وقاتل الأعداء • أما واهب الحياة فهو اله ناء عن الناس ، محدد بطريقة مهوشة ، وقد نيط به خلق الكون • ولكنه لا يوصف على الاطلاق كشخصية ، ونادرا ما يشار اليه فى كل من الأسطورة والاحتفال الدينى • ومن الأرجح فقط أن يكون رمزا لمستودع القوة العلوية التى تتدفق منها الاحتفالات الدينية والقوى الأخرى • ومن الممكن أن نكون هذه البداية الظاهرة لاحالة القوة العلوية وغير الشخصية الى معبود علوى مشخص نتيجة للاتصالات بالأوربيين •

ومن بين هذا التصنيف نجد أن المرأة المطلية بالأبيض ، وطفل الماء ، وقاتل الأعداء ، يتكرر ذكرها كثيرا مع غيرها من معبودات فى ثنايا الأساطير ويمثل لها فى الاحتفالات الدينية ، الا أن أهميتها تكمن فى الماضى وهكذا نجد أن طفل الماء وقد حظى بمساعدة أخيه الاقل منه فاعلية قاتل الأعداء ، فاستطاع جعل الأرض قابلة لاستيطان الانسان ، وذلك بقتل تلك المخلوقات العلوية الشائهة مثل : العملاق ، والنسور الكبيرة ، وفحل

---

(6) Morris Opler, An Apache Ufe - way (chicugo - univer sity of chicayo press, 1941) .

الجاموس ، والظبى • واليوم فعلى الرغم من كثرة ذكر هذه المعبودات بالأساطير ، فانها لا تمس شئون التشيريكاهوانيين بشكل مباشر •

أما الارواح عند تشيريكاهوا أباتشى ، فانها متعددة أكثر بكثير من الآلهة ، وتكلف بالناس الحاليين بطريق مباشر فأكثر • ومن بين أكثر هذه الكائنات أهمية أرواح الجبل التى تمثل « شـــعبا » يقال انه بعيش فى الجبال المقدســـة وأرواح الجبل تزور الأباتشى مرات عـــديدة ، ليست بالقليلة ، وبخاصة فى موسم الاحتفالات • وتلعب دورا بعيـــد المدى فى الأساطير ، وتعد مصدرا لما يسمى بطقوس الراقص المقنع • وهى مرهوبة الجانب ، وتحف بالخشوع ولا ينظر الى أرواح الجبل باعتبار أنها تقطن مكانا بالذات فحسب ، بل أيضا كحراس للحيوانات الموجودة فى المنطقة المجاورة • وثمة فى القصص حيوانات متعددة للصيد تعيش فى « بيوتها المقدسة » • فالواحد من الاباتشى ممن يعيشون فى منطقة قريبة من مكان يعتقد أنه مأهول بشعب الجبل ، ســـوف يعمد الى تذرية غبـــار الطلع يتجاهلها وهو يصلى طلبا للحماية من الاعداء ، أو من ضرر آخر قد يقـــع عليه • أما الناس الذين تعتريهم مشكلة ، أو خطر ، فانهم قد يضرعون الى شعب الجبل فيخرجون من الجبال لحماية المتوسلين اليهم •

وثمة أيضا كائنات الماء (روح خيرة تسمى المشرفة على الماء ، وروح شريرة هى مسخ المـــاء) وحشد من الكائنات الاخرى التى ترتبط بالظواهر الطبيعية ، أو بالحيوانات التى تعتبر هامة بصفة خاصة كمصدر للقـــوة الشافية • وثمة من بين الأرواح الحيوانية كويوتى الذى يستحق الذكر بصفة خاصة لمكانته المرموقة بالأساطير فكويوتى يلعب أدوارا كثيرة فى هذه القصص ، ولكنه أضحوكة المخـــادعين ، فهـــو يتجاهل أخلاقيات تشيريكاهوا وينتهكها بفظاعة ، وهو يلعب بين الفينة والفينة دور المبتكر الذى يحضر للتشيراكاهونيين أكثر مقتنياتهم الثقافية قيمة •

وأخيرا فاننا نجد أشباح الموتى تشكل الفئة الثالثة للكائنات العلوية لدى تشيراكاهوا • فالتشيراكاهوانيون يخافون من الموتى الى حد بعيد ، وهم يبذلون كل جهد من أجل ازالة ذكرياتهم بأسرع وقت ممكن • بيد أن أشباح الموتى لا تظل فى بعض الأحيان تحت الأرض فى العالم الأخروى ، حيث يجب أن تنكفى ، بل انها تعود لزيارة أصدقائها وأقربائها الاحياء عن طريق الاحلام غالبا • ومثل تلك الزيارات تلقى هلعا شديدا باعتبار أنها دلالة على أن الشخص الذى يزار سرعان مايموت هو نفسه • لذا فثمة احتياطات لا تحصى تتخذ للحيلولة دون أية اثارة الى الأموات ، وذلك حتى يتم القضاء على العقوبات التى يمكن أن توقعها الأشباح عليهم •

وفى الجملة يتضح أن الكائنات العلوية التى أسميناها بالأرواح تلعب الدور الاكبر فى ديانة التشيريكاهوا أباتشى فالآلهة قليلة وبعيدة عن معظم النشاط اليومى ، فلقد كان دورها الذى لعبته متعلقا بخلق العالم وجعله ملائما لاستيطان الناس وعلى الرغم من أن الأشباح كائنات علوية، فانها تلقى بالخوف فى القلوب ولكنها لا تعبد ، فالتشيريكاهوانيون لا يجلون أشباح الموتى ، بل بالأحرى يتجنبونها ويطمسون كل ذكرى تتعلق بها •

أما الأرواح فانها من جهة أخرى تسود فى كل شئون الحياة اليومية، وبخاصة فى الطقوس والاحتفالات الدينية ، التى تكرس بصفة خاصة لاحراز الشفاء • فكل بالغ من الأباتشى سواء أكان رجلا أم امرأة ، قد تكون لديه روح على ألفة بها ، يستطيع أن يتلقى منها الاتصال بالقوة العلوية الضرورية لاحراز الشفاء • وهكذا يستمد البعض القوة من البومة ومن الحية ومن الغزالة وهى ثلاثة أرواح حيوانية يخشى بأسها وتلقى

احتراما بفضل قوتها . وثمة آخرون يستمدون القوة من أرواح حيوانات القنص التى لها أهميتها فى الحيـاة الاقتصادية للأباتشى . أما القـوة المستمدة من أرواح الجبل فانها تمكن الانسان من تقديم طقس الراقص المقنع ، وهو حفل هام للاستشفاء ولرفاهة المجتمع . فجملة القول اذن أن الأرواح تعبير بين التشيريكاهوانيين الوسائط التى يتسنى للناس من خلالها احراز القرب من القوة العلوية ومن ثم القـدرة على الابلال من المرض ، ودرء الموت وسوء الحظ ، الى جانب التخفيف من حدة مشكلات الوجود المرهقة .

٤ — الكائنات فوق الطبيعية عند الباجندا : أرواح الموتى :

على الرغم من أن هناك كثيرا جـدا من الديانات الشـبيهة بديانة التشيريكاهو أباتشى فى التأكيد على الارواح ، فان ثمة ديانات أخرى تلعب فيها أشباح الموتى الدور الأكثر أهمية ويتبدى هذا بصفة خاصة بين الشعوب الأفريقية جنوب الصحراء الكبرى وثمة مثال جيد سنقوم بوصفه فيما يوجد فى ثقافة الباجندا بشرق أفريقيا .

والمعروف أن أبناء شعب الباجندا يشتغلون بالبستنة ورعى الماشية ويعيشون فوق أراضى أوغندا الكثيرة التلال والتى تكثر بها المياه . أما آلهتهم فانها متعددة جدا وأكثر تجديدا من آلهة الاباتشى وهى تقع فى فئات رئيسية : آلهة العشيرة ، والاشباح المؤلهة للملوك السابقين ، وآلهة القبيلة . أو الآلهة « القوميون » . وكل من آلهة العشيرة واله لكل ست وثلاثين عشيرة ، والآلهة المتألهة عن الملوك السابقين هى بصفة رئيسية أسلاف مؤلهون : انها أشباح للموتى الذين لا يتناسخون فى هيئة أشـباح عادية ، بل ترتفع الى مقام الآلهة . وتمثل آلهة العشيرة الجد الاعلى

للعشيرة ، ولا يعبدها سوى ذريتها أعنى أفراد العشيرة الأحياء الذين يمثلونها • ويلقى الآلهة الملكيون الاجلال من الجميع ــ كما كانوا كذلك خلال حياتهم كملوك • ولكنهم يوقرون بصفة خاصة ويستخدمون كمستشارين للعشيرة المالكة • اذن فلربما يمثل الملوك المؤلهون امتدادا لآلهة العشيرة ، وهم الأكثر عددا والأكثر أهمية بسبب الوضع الذى يمكن أن تحتله سلطة العشيرة المالكة • ويتضح أن كلا من آلهة العشيرة والملوك المؤلهين انما ينشأون عن عبارة أشباح الموتى التى سنصفها فيما بعد •

فكل مما يسمى بالآلهة القومية أو آلهة القبيلة له معبد وطائفة من رجال الدين تدعمهم اعتمادات الخزانة الملكية بالمال • وتشكل هذه الآلهة السند للمملكة والبلد • وتلقى توقيرا واجلالا من الجميع سواء من أفراد الاسرة المالكة أو من الرعية • وتنتظم الآلهة القومية بصفة عامة فى نوع من التسلسل الطبقى ، بحيث يحظى كل اله بقطاع معين له يمارس فيه أعظم تأثير له وله وظائف محددة مسئول عنها •

ومن أكثر الآلهة أهمية من الناحية التاريخية « أبو الآلهة » كاتوندا الذى يقال انه خلق الكون وكل ما به ، بيد أن كاتوندا ــ وقد أنجز الخلق ــ فانه ترك الكون لسلالته ، وتبعا لذلك فليس له اليوم سوى طائفة صغيرة وغير هامة نسبيا • ولذلك فهو ناء عن حياة أبناء الباجندا الحديثة ، وبالأحرى هو اله خالق مجرد لم يعد يؤثر بشكل ملحوظ فى شئون الحياة اليومية •

أما موكاسا ــ اله بحيرة فكتوريا ــ فهو بحق معبود باجندا السائد فى الوقت الحاضر • فهو الذى يوفر السمك ويتحكم فى الزوابع • وأكثر من هذا فهو اله الاخصاب • انه يرسل التوائم التى تستقبلها باجندا بفرح كبير ، وهو الذى يرزق النساء العقيمات أطفالا • وهو المسئول

عن توفير المحصولات الجيدة وزيادة قطعان الأبقار ، كما أنه يساعد بصفة عامة فى استنهاض الحياة الجيدة للجميع ويحافظ عليها . وحتى الملك فانه كثيرا ما يستشير موكاسا ، وبخاصة فى الاوقات المتأزمة ، ويقدم الأموال بسخاء لمعابده ويوفر له الكثير من الأضحيات الدسمة .

أما الآلهة المتبقية فان لها وظائف أقل : فثمة والومبى اله الموت ، وثمة كومبولى اله الطاعون الذى يظل مختبئا فى جحر بالارض على أيدى كهنته ، وثمة كيبوكا ونندى اله الحرب مما يعتبر نشاطا اقتصاديا هاما بين الباجندا . وثمة دونجو اله القناصة ، وموسوكا اله القوس قزح والحارس الخاص لصيادى السمك ، وجولو اله السماء ، وكيتاكا اله الأرض ، وموزيزى الذى يعيش فى مركز الأرض ويتحكم فى الزلازل ، وناجاوين الآلهة التى ترسل المطر وتحافظ على المحصول فى نموه وتتلقى الثمار الأولى من الحصاد ، ونابوزانا الآلهة التى تضطلع برعاية خاصة للنساء الحوامل والتى تشتغل كاهناتها كمولدات للباجندا .

والأرواح أيضا توجد بين الباجندا ، وهى ترتبط بصفة خاصة بالأنهار والبحيرات والآبار والأشجار والتلال وجميع ظواهر الطبيعة المشابهة وتشيد المزارات غالبا للأرواح لكى تصير بمثابة أماكن اقامة لها وكمذابح جانبية للقرابين . وعندما يقوم واحد من الباجندا بعبور أحد الجداول أو عندما يأخذ ماء أو سمكا من أحد الأنهار أو احدى البحيرات ويقوم بقطع شجرة ، أو عندما يغير المنظر الطبيعى للارض بطريقة أو بأخرى ، فانه يكون حريصا على الضراعة للروح المقيمة هناك ، وذلك بأن يترك قربانا لها . وتعد التلال مقدسة بصفة خاصة بفضل الكثير من الأرواح التى تسكنها ، حتى لدرجة اقامة المذابح لتلك الأرواح التى استهدفت لسخط الملك أو رجالاته .

بيد أن أشباح موتى الباجندا تعد فى نظرهم هى الأهم بين جميع الكائنات العلوية • فعندما يموت شخص ، فان روحه تغادر جسده ، وسرعان ما تستحيل الى شبح غير مرئى ، ولكنه مع ذلك يكون خاضعا للكثير من نفس الميول والعواطف والأحاسيس شأنه فى ذلك شأن الانسان الحى • فالشبح يحس بالبرد والألم والحر ، وهو قد يكون ودودا ومتجاوبا ، أو قد يكون غاضبا ومنتقما ، بل انه قد يعانى من موت ثان بوساطة النار أو الغرق • فهو ما يزال فى الواقع أحد أفراد المجتمع سواء كان عشيرة أم أسرة كان ينتمى اليها عندما كان حيا ، وعلى الرغم من أنه باق كما كان شأنه قبلا ، ولكن على مستوى أعلى من مستوى الطبيعة ، فان تلك الحقيقة تدعم أهميته لا أن تقلل من قيمته فى نظر أقربائه وأصدقائه •

والشبح المصنوع حديثا يذهب أولا الى «والمبى» اله الموت ، وهناك يقدم تقريرا عن حياته ، ثم انه يرجع بعد ذلك الى القبر الذى دفن فيه جسده السابق حيث يتخذ له مقاما فى قرار صغير بنى له فى رأس القبر أما الزوجات اللائى أنجبن له أطفالا ، واللائى ما يزلن على قيد الحياة ، فانهن يسكن أيضا عند القبر ويعتنين بحدائقه وبحيواناته الاليفة وبمزاره• فاذا ما صينت هذه الممتلكات على نحو جيد ، واذا ما قدمت القرابين المناسبة بالمزار ، فان الشبح لا يزعج أقرباءه وأصدقاءه الاحياء ، بل يلعب نفس الدور الذى سبق له أن لعبه خلال حياته على الرغم من أن ذلك يتم بطريقة غير مرئية •

بيد أنه اذا ما تضايق أحد الاشباح بسبب اهمال مزاره أو قبره ، أو سبب أى تصرف غير لائق يصدر عن الذين تركهم على قيد الحياة ، فانه قد يصير حاقدا ويجلب المرض وسوء الحظ ، أو حتى الموت على

أقربائه وأصدقائه . وفى ظروف كهذه فان الشـــامان (ممارس دينى)* يدعى للاستشارة . ويسعى الشامان الى استرضاء الشبح بالقرابين وباصلاح أى أخطاء حدثت مع احترامه للقداسة والقبر . واذا فشل ، واستمر المريض يعانى المرض ، يحاول الشامان الامساك بالشبح وحرقه أو اغراقه . ان أشباح اخوات الاب بخاصة لا بد وأن تكون مؤذية ، وتكون ميالة الى ذلك مـــرارا . وتعمد الأشـــباح المؤذية الى احـــتلال الأشخاص من الأحياء ، مما ينتهى بهم الى نوبات الجنون . وفى مثل تلك الحالات يسعى الشامان الى اخراج الشبح ، وذلك بحمل المريض على أن يستنشق دخان العشب المحترق .

وبعد موت أحد الأشخاص بعامين ، فان شبحه يتناسخ ، وذلك بأن يدخل جسم طفل وليد يكون من نفس العشيرة والأسرة وتتحدد هوية كل طفل فى حفل التسمية عندما يتلو والد الوالد أســـماء أقربائه المائتين من أفراد العشيرة فى حضرة الطفل ، فى حين يؤدى الطقس المناسب لذلك . ويعتقد أن الطفل سوف يضحك عندما ينطق بالاسم الصحيح كاشارة الى أنه قد أدرك الاسم الذى سبق أن حمله فى تناسخ سابق . وعندما يكون شبح أحد الموتى قد تناسخ على هذا النحو ، فان قبره ومزاره يهملان ، ذلك أن الشبح وقد صار الآن مرة أخرى روحا فى جسم انسانى ذاته لم يعد يخدم ويستعطف .

وواضح أن الباجندا يحزرون من خـــلال معتقداتهم فى الأشباح والتناسخ استمرارا اجتماعيا دوريا يعمل على ربط مجتمع الأحياء بكل من الأموات وأولئك الذين لم يولدوا بعد . ومعظم الباجندا لا يتركون

(*) الشامان : كاهن يستخدم السحر لمعالجة المرض ولكشف المخبأ وللسيطرة على الاحداث .

مجتمع الاحياء الا بصفة مؤقتة ، بغرض أن أشباحهم تعامل معاملة لائقة بالطبع وبذا تشجع على العودة مرة أخرى • وعلى الرغم من قلة المعلومات بهذا الصدد فالمرجح أن الأشباح المؤذية لا تتناسخ ، وبخاصة اذا ما تعرضت لموت ثان ، وبهذه الوسيلة يجد المرض وسوء الحظ لهما تفسيرا معقولا •

ويلاحظ أيضا أن الزعماء الكبار لا يتناسخون ، بل يستحيلون فى الحال الى آلهة فى نظر الباجندا • وليس من المستحيل — على الرغم من قلة الشواهد التاريخية — أننا نجد فى هذا التأليه للزعماء الكبار المصادر التى تتأتى عنها الآلهة القومية ، فهى ربما تكون أسلافا مؤلهين ممن لهم شهرة ذائعة وقد نسى ما يتعلق بذكراهم بالنسبة للباجندا فى الوقت الحاضر •

٥ — آلهة الأزتك :

لقد لاحظنا أن ثمة بين الباجندا بواكير تسلسل للالهة بوجود عدد من المعبودات القبلية أو القومية ، وقد أخذ كل منها يتخصص فى وظيفة معينة ، وكل منها يلقى تبجيلا بواسطة معبد وطائفة من رجال الدين • ومع هذا فان آلهة الباجندة أقل قيمة بصفة عامة من أشباح الموتى ، كما أن الآلهة القوميين يمثلون بالفعل — اذا جاز التعبير — شكلا من التخصص الدينى ، ووجود دائرة اختصاص لعدد محدود من الكهنة أو غيرهم من الممارسين الدينيين •

أما الميل نحو التخصص فى المعتقد الدينى فانه متقدم جدا بين الأزتك بالمكسيك ، الذين سف نصف كائناتهم العلوية فى هذا القسم • كان الأزتك شعبا قويا ومولعا بالحرب ، وهم الذين كانوا يسيطرون على

معظم المكسيك الحالية حتى الوقت الذى تم فيه الفتح الأسبانى عام ١٥٢٠ • وعلى الرغم من اعتمادهم الاقتصادى الأساسى كانا على البستنة ، فاننا لاحظنا أيضا وجود تجارة واسعة النطاق لديهم بالخارج والداخل ، وحربا عدوانية مستمرة للسيطرة ، وتطور العديد من الفنون والحرف المتخصصة •

والأزتك شأنهم شأن غيرهم من شعوب سبق أن قمنا بوصف كائناتهم العلوية ، ربما يكونون أيضا قد حشدوا الكون من حولهم بالآلهة والأرواح والأشباح • ونحن لانعرف الا القليل عن المفهومات المتعلقة بالأشباح ، بيد أنه من الواضح أن أرواح معظم الموتى قد ذهبت الى ما كان يسمى « ميكتلان » ، وهو بيت يقطنه الموتى فى الجحيم • وأنه على الرغم من أن هذا لم يكن مكانا لتوقيع العقوبة ، فانه مع ذلك قد صور كبقعة موحشة غير جذابة ولقد كانت هناك أشباح أخرى أكثر حظا • أما أولئك الذين ماتوا غرقى أو بسبب البرق أو بسبب بعض الأمراض كالاستسقاء والجذام فانهم ذهبوا الى فردوس يسمى « تلالوكان » ، وهو مقر آلهة المطر أو « تلالوكس » حيث استمتعوا بصيف دائم وكان كل ما أرادوه هو الأكل والشرب • أما المقاتلون الذين لاقوا حتفهم فى الحرب والنساء اللائى متن فى عملية الولادة ، والضحايا الذين قدموا كقرابين للآلهة ، فانهم ذهبوا الى بيت الشمس ، وهو مكان أكثر جاذبية حتى من بلاد « تلالوكس » • وكان ثمة اعتقاد فى أن أرواح المقاتلين تظهر خلال النهار ، بعد أن تكون قد صاحبت الشمس الى السمت فى هيئة الطيور الطنانة ، فى حين تظهر أرواح النساء اللائى متن فى أثناء الولادة، فانها واكبت الشمس فى نزولها الى الأفق ثم قضت لياليها على الارض فى هيئة عثة الملابس • ولكن على الرغم من أن القرابين تقدم الى الموتى فى حفلات دينية تقام فى أوقات مقررة بعد موتهم ، فليس ثمة شاهد على

أن الأزتك كان لديهم عبادة متصلة بالأشباح كتلك العبادة التى وصفناها بازاء الباجندا •

ولقد لعبت الأرواح أيضا دورا معينا فى ديانة الأزتك على الرغم من أن معرفتنا بها معرفة ناقصة • فثمة حسد من الارواح قد تم وصفها خاصة بالينابيع والحقول وقمم الجبال والبيوت الأفراد (الأرواح الحارسة) • ويبدو أنه كان هناك أيضا كثير من المعبودات الأقل مرتبة تشبه آلهة العشيرة لدى الباجندا ، قد لعبت دورا كمعبودات حارسة للاسر وللجماعات التى تشتغل فى الوظائف والتجارة وكثير من القطاعات الاجتماعية المماثلة • وجدير بالملاحظة أن المعبودات الحارسة الاخيرة تبدو أكثر ارتباطا بالارواح منها بالاشباح كما هى الحال عند الباجندا •

ولكن آلهة الأزتك قد فاقت هذه الكائنات العلوية الأقل مرتبة • ولقد كان هناك بالفعل مئات من الآلهة قد تخصصت فى مجموعة كبيرة من الوظائف • ويبدو أنها لم تكن منتظمة بشكل جيد جدا فى تسلسل أو فى بانثيون (مجموعة من الآلهة) ، بل كان ثمة آلهة منفردون يظهرون غالبا تحت مجموعة من الأسماء ، بل ويمثل لهم فى التصوير والتحف بأشكال مختلفة • أما خصائص الآلهة فانها أيضا مختلطة الى حد بعيد ، مع تداخل بعيد المدى بين اله وآخر • وينشأ جانب من هذا الخلط بلا شك عن التقارير غير الكافية ذلك أن تقاريرنا الوحيدة المباشرة عن ديانة الأزتك مستقاة من القساوسة والجنود الاسبان • والى حد ما أيضا فان من المحتمل أن الأزتك قد اتخذوا لهم آلهة كثيرة غريبة عن آلهتهم الأصلية التى يحتمل أنها كانت محدودة العدد ، وذلك كنتيجة لسنوات من السيطرة واستيعابهم التدريجى لشعوب أخرى •

وليس من بين آلهة الأزتك واحد قد برز كمعبود فائق • والواقع أن فكرة وجود مجموعة منظمة من الآلهة مع وجود واحد منها بمثابة الحاكم الأعلى لهى فكرة نادرة نسبيا • ويبدو أن هذا المنحى قد أخذ به الانكا فى بيرو ، وقد اعتبروا أن الشمس على الأقل معبودة سائدة ، ولكن هذه الفكرة أكثر شيوعا فى الديانات القديمة بالشرق الأدنى وفى فروعها التى وجدت عند اليونان والرومان القدماء • أما مفهوم الاله الوحيد فانه أكثر ندرة ويبدو أنه مفتقد بين جميع الشعوب الأمية • وكما نعلم فانه يبدو فى تاريخ العالم القديم أن هذا المفهوم قد ظهر لأول مرة فى مصر حوالى عام ١٤٠٠ ق • م ، ثم انتشر بعد عدة قرون الى آسيا الصغرى وظهر هذا المفهوم هنا حوالى عام ٨٠٠ ق م فى اليهودية والزرادشتية ، ثم بعد ذلك فى المسيحية والاسلام ، حيث نجد باطراد أن ثمة مفهوما قد أخذ يبزغ عن معبودات أخرى مناهضة مثل مبدأ الشر المرموز له بالشيطان ، وكائنات علوية متعددة أقل مرتبة ، كتلك التى يمثل لها بالملائكة ، ورؤساء الملائكة ، والقديسيين • ويعتبر هؤلاء — اذا جاز التعبير — معبودين اشتقاقين وليسوا معبودين فى حد ذاتهم ، فهم لا يحرزون القوة الالهية الا بفضل ارتباطهم بالكائن الأعلى •

واذا ما عدنا الى الأزتك ،فيبدو واضحا أن ثمة أربعة من معبوداتهم تمتاز عن المعبودات الباقية بأنها أكثر قوة وأهمية منها • ومن هذه المعبودات ما يسمى « تزكا تليبوكا » الذى يقال انه كلى المعرفة وكلى الرؤية وقد حاز شبابا أبديا • وهو فى واحدة من شخصيتيه المزدوجتين قد شخص نفس الحياة وصارت له مهمة محاكمة الخطاة ومعاقبتهم والحط من قدر المتغطرسين والمستبدين • ورئاسة الولائم والمآدب ، وقد صار ظهيرا للمدارس العسكرية • أما فى شخصيته الثانية ، فانه بالرمز له بتمثيله فى وجه وأطراف وجسم سور ، فان « تزكاتليبوكا » كان الـه

الظلام ، بل والعدو المؤذى للجنس البشرى ، وقد صار ظهيرا لأولئك المتمرسين بالسحر الأسود والشعوذة والعرافة • فهنا اذن نجد أن الاله قد جمع فى شخصية واحدة مبدأ يجمع بين الخير والشر أو على الأقل مبدأ مناهضا للمجتمع •

أما « كوكيز الكواتل » أو « الثعبان المزين بالريش » فله مجال واسع فى المكسيك وأمريكا الوسطى ، وقد وجد تحت أسماء مختلفة بين كثير من الشعوب • ولقد كان « كوتيز الكواتل » عند الأزتك هو اله الريح والهواء ، وهو الشفيع الخاص للكهنوت • وتبعا للخرافة السائدة والأسطورة ، فانه أحضر التقويم للأزتك مع جميع فنونهم وعلومهم الكهنوتية • وهو فى ذات مرة رأس امبراطورية غنية ومسالمة بالمكسيك ، ولكنه بخضوعه للاغراء تحت وطأة مكائد الأعداء ، فانه سقط من مكانته العالية ورحل بتجاه الشرق واختفى فى المحيط • بيد أن الأزتك يتوقعون بثقة عودة « كويز الكواتل » كمنقذ لاعادة العصر الذهبى ، وعندما ظهر كورتس الفاتح الاسبانى لاول مرة ، فان الأزتك ظنوا لفترة أنه كان « كوكيز الكواتل » • وهذا بالطبع أعطى كورتس ميزة عظيمة ، على الرغم من أن الأزتك بسرعان ما اكتشفوا خطأهم •

أما الثلاثة الآلهة من بين الآلهة الأربعة الكبرى للأزتك ، فقد كانت « هويتز يلوبوكتلى » ، اله الحرب وهو أكثر بعدا عن الشمس والسنة• ولقد كان هاما بصفة خاصة للأزتك ، وربما يكون أصيلا لديهم وليس مستعارا من شعوب غريبة عنهم • وتكمن أهميته الكبرى فى ارتباطه بالحرب التى كانت — كما رأينا — نشاطا أساسيا لدى الأزتك وفى حمايته للفنون الزراعية التى كانت تعد أساسية أيضا فى الاقتصاد الأزتيكى •

أخيرا فاننا نجد « التلالوكس » ، ويبدو أنها مجموعة من المعبودات التى تتحكم فى المطر والماء والرعد والجبال • وكما لاحظنا قبلا ، فان أرض « تلالوكس » كانت واحدة من « السمارات » الخاصة للأزتك ، وكانت مخصصة للناس الذين ماتوا بطرق خاصة معينة • وحيث أن «التلالوكس» كانت آلهة للمطر والمـــاء ، فانها احتلت أهمية خاصة لأمة من المزارعين •

وبالاضافة الى هؤلاء ، فقد كانت هناك كثير من الآلهة المتفرقة : لكل طور من أطوار نمو نباتات الذرة وجميع النباتات المنزرعة الأخرى ، وللنار والبرق والكواكب والشمس والقمر ، ولكثير من الأقسام الاقليمية للامبراطورية • ولقــد كان هناك اله الموت والجحيم ، واله القناصـــة ونجمة الصباح ، والآلهة المســئولة عن الخطايا الجنســية والاعتراف والتطهر • وأخيرا الآلهة الكثيرة المسئولة عن المحاربين والنساجين والتجار وغير ذلك من مجموعات مشابهة فجميع هذه وغــيرها لها طوائف دينية خاصة وكهنة واحتفالات دينية • ولقــد كان تقويم الأزتك واحتفالاتهم الدينية طويلا ومعقدا ، ولقد نقول ــ اذا جاز لنا التعبير ــ انه كان فى مسئولية كهنوت مدرب من الرجال والنساء الذين كرسوا حياتهم لهــذه الدعــوة •

ولربما يكون من الجدير بالذكر هنا أنه ما دامت الآلهة تتخذ أهمية أكبر فى دين ما ، فيكون الجو اذن مهيأ أيضــا لتنظيم أبعــد شــأوا للاحتفالات الدينية ولقيام جماعة متخصصة من الكهنة لقيادتها والمرجح غالبا أيضا حدوث توسع فى النزعة الغيبية بالمجتمعات التى تنتج وفــرا اقتصاديا وتكون بالتالى قادرة على دعم الكهنة والمعابد والطوائف الدينية المتضمنة ولسوف نرجع الى هذه النقطة فى الفقرات التالية •

٦ ـ ممارسو الشعائر الدينية عند الشعوب البدائية : الشامان .

أنه فى جميع النظم الدينية نجـد أن الأفراد مطالبون بأن يؤدوا ـ أو على الاقل أن يساعدوا ـ فى أداء مناشط معينة يتم عن طريقهـا استرضاء الكائنات العلوية (الآلهة أو الارواح أو الاشباح) أو التأثير فيها بطريقة ما •وتشكل صلوات الأفراد وغير ذلك من مناشط مماثلة فى كثير من المجتمعات معظم الاعمال الدينية ، ولكن ثمة قليلا من المجتمعات ـ أو لا توجد مجتمعات على الاطلاق ـ لا يكمل فيها هذا السلوك ويوجه بوساطة الممارسين الدينيين • ويكاد يكون هناك دائما بعض الاشخاص فى المجتمع ننظر اليهم باعتبار أنهم أكثر مهارة من الآخـرين فى التأثير فى الكائنات العلوية أو الاتصـال بها بفضـل ما يتلقونه من تدريب خاص وبفضل خصائصهم الشخصية ، أو بفضل التدريب والخصائص جميعا • فتتجه مجموعة أو أحد الأفراد الى أولئك الأفراد طلبا للمساعدة • ويبدو أن الممارسين الدينيين منتشرون بجميع المجتمعات وقد كرسوا كل حياتهم لذلك (أو كرسوا بعض الوقت لذلك فى المجتمعات ذات الثقافات الأبسط نسبيا) •

ويشير لفظ شامان فى أوسع معنى له الى الرجل أو المرأة التى تخدم مجتمعا ما بممارسـة دينية لبعض الوقت • وفى بعض الأحيان كما هى الحال بين الاسـكيمو ، يبدو أن الشـامان لا يكون متزنا من الناحيـة الانفعالية الى حد ما ، ويكون عرضة بسـهولة لنوبات شبيهة بالصرع أو أنواع الخبـل والتنويم الذاتى • بيد أن هـذه ليست الحالة فى كل المجتمعات ، ذلك أن الشامان فى كثير من المجتمعات لا يطلب منه فى ضوء مهنته أن يفعل أكثر من أن يؤدى شعائر روتينية الى حد ما • ولسوف نقدم أمثلة لكلا النوعين مستخدمين الاسـكيمو لكى نلقى الضـوء على

الاجراء الشامانى الانفعالى ثم نتناول الشيركاهوا الأباش لايضـــاح النوع الثانى •

فنحن نجن بين الاسكيمو القطبين أن الشامانيين متعددون • فلكل أسرة تقريبا شامان خاص بها ، ولقد يكون هناك منهم عديدون فى كل قرية شتوية• والرجال والنساء جميعا يمكن أن يصيروا شامانيين ، ولكن على الرغم من أن هؤلاء الممارسين يتقاضون أجرا عن خدماتهم ، فليس ثمة أحد منهم يكرس كل وقته للشامانية فالشامانيون يكونون دائما أشخاصا مسنين ويلقون احتراما بالغا ، كما أنهم يكونون ناجحين فى وظائف أخرى كنجاحهم فى مناشطهم الدينية •

ولكن يصير الشخص شامانا فيجب أن تزوره الأرواح ، فى حـــين يكون سائرا وحده • فعندما تتم له مثل تلك الزيارة ، فانه يسعى للحصول على النصح من شامان أكبر منه سنا ومعترف به تماما ، ويمارس عددا من الخبرات الدينية ــ تحت توجيهه ــ يوجـــه كلامه خلالها لمعبودات مرموقة ــ هى أكثرها قدما وأكثرها قوة من بين الأرواح • وهذا الوضع يعطى الشامان المبتدىء روحه الحارسة الشخصية أو الجنى ويقفه على الاجراءات الشامانية •

والمعتقد أن الشامانيين حائزون على قدرات غير عادية ، فيقال انهم يقدرون ــ من بين ما يقدرون عليه ــ أن يأمروا بانطلاق الزوابع أو أن يأمروها بالهواء ، وأنهم يبعدون أو يجلبون حيوانات الصيد • بيد أن أهم وظيفة يضطلعون بها هى شفاء المرض ، الذى يعتقد أنه ينجم عن فقدان الروح • وفقدان الروح أمر خطير ، ذلك أن المريض اذا لم يسترجع روحه فانه سوف يموت فى النهاية •

أما طقوس الشفاء فانها لا تجــرى الا اذا طلبها أحد المرضى من الشامان • فعندئذ يبدأ الشامان الطقس بأن يتحدث الى روحه الجنــى بلسان معين مخصص لهذه المناسبات وهو مختلف جدا من حيث المفردات والاسلوب عن اللغة العــادية • ويقوم الشامان بخرط نفسه تدريجيا فى حالة جنون مؤقت وذلك بأن يغنى أغانى خاصة بالروح ، وهو يقرع طبلة، ويرقص بطريقة عاصفة وغير منضبطة • وحالما يصل الى حالة من الجنون المؤقت ، فانه يرتعش ويتأوه ، وقد يزيد فى بعض الاحيان من فمه ، أو قد يصير متخشــبا ويبدو أنه لا يكون قابلا للاحساس بالألم • وهو يكرر عوته لروحه الجنى ويلح عليه فى اعادة روح المريض •

فاذا ما شفى المريض ، فان الاحتفال الدينى يكون اذن قد نجح • وعلى الرغم من أنه لا توجد عقوبة محددة توقع على الشامانيين الذين يخفقون فى تحقيق الشفاء ، فان ما يقع باطراد هو أن الشامان الفاشل ، يعجز عن استقبال طلبات من المرضى ، شأنه شأن الطبيب الفاشــل فى مجتمعنا ، وبذا فانه يقع تحت وطأة الخســارة المالية وانخفاض المكانة جميعا • ويستطيع الشامانيون — اذا ما أرادوا — أن يحيلوا قوتهم الى أهداف شريرة ، وذلك بأن يسرقوا أرواح ضــحاياهم ويخبئوها ، وبذا فانهم يبتلونهم بالمرض أو الموت ما لم يقم شامان آخر باعادة الروح الى صاحبها • وتبعا لذلك فان الشامانيين الاقوياء — بصفة خاصــــة — يلقون الاحترام والخوف جميعا ويعاملون بحذر شديد خوف أن ينتقموا بالوسائل السحرية •

وأى بالغ من الشيريكاهوا أباتشى قد يصير شامانا ، شأنه فى ذلك شأن البالغ من الاسكيمو . ومعظم البالغين قد مروا بالخبرة المرئية فى وقت أو آخر وهى الخبرة الضرورية لكى يصير الشخص شامانا • وفى الخبرة

المرئية عند الأباتشى التى قد تقع فى الأحلام أو فى اليقظة ، فان الروح — وهو يكون غالبا على هيئة أحد الحيوانات أو على هيئة واحد من شعب الجبل يتحدث الى الرائى ويمنحه ارتباطا بالقوة العلوية . فاذا كان الشخص الذى يتم له ذلك مستجيبا ، فانه ينقل فى خياله الى بيت الكائن العلوى حيث يعلم ممارسة أحد الاحتفالات الدينية أو أحد الطقوس ، ثم يعاد بعد ذلك الى المكان الذى بدأ منه . فاذا تم تعليمه على هذا النحو فانه يكون غالبا قد أعد لخدمة الطقس حالما يعطى روحه الجنى (الكائن العلوى الذى ظهر فى الرؤيا) الاشارة . بيد أن الاتصال بالروح يتم بصفة خاصة فى الأداء العملى للطقس أو فى الاستعدادات التى وضعت .

والاحتفالات الدينية قد يتم تعلمها أيضا من الشامانيين الآخرين بغير المرور فى خبرة الرؤيا . ويزعم فى هذه الحالات أن الروح الذى نقل الاحتفال أولا يوافق على نقل الخبرة كما يوافق على الشخص الذى تنتقل اليه ما لم تظهر علامات تدل على عكس ذلك . وحالما يتقدم الشامانيون فى السن فانهم غالبا ما ينقلون خبراتهم المتعلقة بالاحتفالات الى أقربائهم وأصدقائهم الاصغر سنا .

وكما هى الحال بين الاسكيمو فان الوظيفة الاساسية للشامان الاباتشى هى شفاء المرض . وهو قد يستخدم قوته أيضا للبحث عن الاشياء المفقودة ، واكتشاف موقع المحاربين من الاعداء ، والعثور على الفارين من يد العدالة والقاء القبض عليهم ، واحراز النجاح فى الحرب والقنص وغير ذلك من مشروعات ، واضعاف العدو وتوفير المناعة ضد الهجوم . ولكن احتفالات الأباتشى والدور الذى يؤديه الشامان فيها انما تجلى عن تباين حاسم بالمقارنة مع احتفالات وأدوار الشامان عند الاسكيمو ، كما سوف يتضح فى الوصف العام التالى .

فالشامان الاباتشى لا يتقدم نحو العمل الا عندما يطلب منه أحد المرضى ذلك ، وذلك بأن يتقدم اليه ببعض هدايا احتفالية معينة ، وليس محتما عليه أن يقبل كل حالة تقدم اليه ، بل له أن يختار تلك الحالات التى يريدها • وحالما يقبل الشامان أحد المرضى ، فانه يحدد أيضا وقت الاحتفال ومكانه،بل وقد يحدد حتى عدد المشتركين والزوار الذين يسمح لهم بحضور الحفل •

وبعد أن تتحدد هذه الاجراءات التمهيدية ، فان الشامان يبدأ بأن يلف سيجارة وينفخ الدخان نحو الجهات الاربع قائلا فى كل اتجاه « لتكن الحال على ما يرام » ، وربما يرنم صلاة قصيرة من أجل السلام والطمأنينة • وبعد ذلك يوجه صلاة روحه الجنى للمساعدة على شفاء المرض ، ويصف كيف تعلم الاحتفال ويسهب فى ذكر مزاياه • وعند هذه النقطة ، فان الشامان قد يقوم بمسح المريض بعلامة — والآخرين الموجودين بالاحتفال — بغبار الطلع أو بغيره من مادة مقدسة مشابهة •

وبعد ذلك يبدأ الشامان فى ترديد سلسلة من الترانيم ويكون قد تعلمها من روحه الجنى،تتخللها بعض الصلوات•وبهذه الطريقة فانه يسعى لدعوة الروح ويحمله على أن يعطى اشارة ، بعلامة معينة (لا تظهر غالبا الا للشامان) تدل على طبيعة مرض المريض ، والاساليب التى يجب أن تستخدم فى شفائه • وعندما تأتى ضده العلامة ، فان الشامان يؤدى أى تصرف من التصرفات معتمدا فى ذلك على التعليمات التى يتلقاها • ولقد يقدم للمريض أعشابا طبية وقد يمتص أشياء غريبة من جسم المريض ، أو قد يزيد ببساطة من حدة الغناء والصلاة تمهيدا لانجاز عمليات طقسية أخرى متنوعة • وفى نهاية الاحتفال ، فان الشامان يفرض فى أحيان ليست قليلة قيودا معينة على المريض بازاء ما يتناوله من طعام

أو يعطيه تعويذة يلبسها بقصد أن يوفر له وقاية أكثر • وفى جميع هـذه نوجه انتباها اصا الى طبيعة تصرفات الشامان المدروسة ، اذا ما قورنت بالسلوك المخبول الذائع لدى الشامانيين الاسكيمو • وعلى الرغم من أن الشامانيين الأباتشى قد « يتصارعون » فى بعض الأحيان مع الأرواح الجنية ، ملحين ومتقربين اليهم بتراتيم وصلوات متكررة ، فانهم لا يلقون بأنفسهم على الاطلاق فى نوبات أو فى غشيات •

والشامانيون الأباتشى — شأنهم شأن الشامانيين الاسكيمو — يؤجرون على خدماتهم ، على الرغم من أن أيا منهم لا يعتمد فى رزقه بالكلية على هذه الوسائل وحدها • والاخفاق دون تحقيق الشفاء لايؤذى مكانة الشامان بطريقة قاصمة ما لم يحدث ذلك بالطبع كثيرا جدا • والشامانيون الأباتشى أيضا قد يستخدمون قوتهم فى بعض الاحيان —أو حتى باستمرار—فى ممارسة الشعوذة والسحر الاسود،لايذاء أو قتل الناس بدلا من شفائهم • وأكثر من هذا فان الشامانيين الذين ينجحون بشكل منقطع النظير فى الشفاء ، فان عليهم أن يدفعوا فى نهاية المطاف لارواحهم الجنية عوضا عن نجاحهم — ومثل هذا البدل يتشكل اما من روح الشامان نفسه ، أو حياة واحد من أقربائه الصغار • وتبعا لذلك فان الشامان الناجح ، وبخاصة اذا كان مسنا وما يزال بادى الصحة ، قد ينظر اليه من جانب أقربائه والمتصلين به باحترام مشوب بخوف يكاد يكون مرضيا — وهو خوف من أنهم قد يطلبون للتعويض عن مصدر قوته •

وخلاصة القول أن الشامان قد يوصف أولا بأنه مختص لبعض الوقت فى الوظائف الدينية ، خلافا للكاهن الذى يكرس كل وقت عمله لهذه الأهداف كما سوف نرى فيما بعد • فالشامان يضطلع بواجباته

الدينية ، بالاضافة الى واجبات أخرى ضرورية لكسب الرزق ، وذلك لأنه يوجد فى مجتمعات لا تحوز تسهيلات اقتصادية للانفاق على مؤسسة دينية منظمة •

ومن جهة ثانية ، فان الشامان يحصل على قدراته اما من خلال خبرة مباشرة مع كائنات علوية فى الأحلام أو الرؤى ، أو فى حالات أقل من ذلك من شامان آخر سبق أن كانت له مثل تلك الخبرة المباشرة • وقد لا يتلقى القوة ببساطة بالتدريب وبالانخراط فى عضوية مجموعة دينية كما هى حال الكاهن ، لان المجتمع الذى ينتمى اليه غير حاصل على مثل تلك المجموعات •

ومن جهة ثالثة فحيث أن الشامانية تتضمن اتصالا مباشرا بكائنات علوية ، فان الشامان يظهر غالبا باعتبار أنه شخص أقل ثباتا من الناحية الانفعالية عن أقرانه ، وبالتالى فانه يكون أكثر قابلية للرؤى والاحلام من الأشخاص العاديين • وهذه الخصائص السيكولوجية تحظى بتأكيد بالطبع فى مجتمعات مثل مجتمع الاسكيمو حيث تتطلب الممارسة الشامانية من الشامان أن ينخرط فى نوبات وألوان من الخبل والغشيات ونحوها • بيد أنه فى بعض الحالات يكون المطلوب أن يتم اكتساب هذه الأساليب السلوكية بالتعليم ، وفى نطاق مجتمعهم ، فان مثل تلك الأساليب السلوكية عندما يمارسها الشامان ، فانها لا تعتبر غير عادية أو متطابة لنمط شخصية فيه انحراف • وباختصار فان تفسير سلوك الشامان وشخصيته ، قد ظل اسقاطا زائفا للاراء السيكولوجية عند الغربيين •

أخيرا فقد نذكر أن الشامان يمارس عمله فى احتفالات صغيرة خاصة نسبيا تقام بناء على طلب شخص واحد يلتمسها لأن صعوبات

تعثوره ولا يستطيع أن يتحكم فيها بغير مساعدة خارجية • بيد أن هذه ليست الحالة دائما كما هو مشاهد عندما يقيم الشامان الاسكيمو احتفالا لقرية بكاملها بقصد التخفيف من حدة الظروف غير المواتية فى الشتاء ، أو عندما يقود الشامان الاباتشى طقس بلوغ احدى الفتيات ، وهو حفل عام يشهده جميع الناس فى المجموعة المحلية وأحيانا بواسطة أعضـــاء مجموعات محلية أخرى أيضا • والشامان فى هذه الوظائف يكون أقرب ما يكون الى الكاهن الذى يكون عادة حاملا لمسئولية احتفالات المجموعة •

٧ ــ ممارسو الشعائر الدينية فى المجتمعات البدائية : الكاهن :

ان الكاهن فى مقابل الشـــامان يكون ممارسا دينيا لكل الوقت فى الغالب ، وهو يكتسب سلطاته الى حد بعيد من خلال ارتباطه بمجموعة دينية منظمة وليس فقط من خـــلال قدرته على اقامة علاقات بكائنات عاوية • والكهنة يكونون معدين غالبا لمهنتهم بتدريب يكاد يكون عنيفا • وعلى الرغم من أن مهنتهم لا تختلف فى بعض المناســـبات عن مهنـــة الشامان ، فانها تكون غالبا نتيجة لذلك التدريب ، وليس نتيجة للالهام أو لحلول اله أو روح فيه • على الرغم من أن الطبيعى أن يقوم الكهنـــة بتوجيه الطقوس والاحتفالات ذات الطبيعة الخاصـــة نسبيا ، فانهم يكونون فى الأغلب مســـئولين عن تنفيذ تقويم رســـمى خاص بالشعائر ، وضعته الطائفة الدينية التى ينتمون اليها ، وهى شـــعائر تؤدى فى فترات منتظمة بواســـطة جميع الطائفة الدينية أو بعضهم • اذن فوجود الكهنة فى مجتمع ما يفترض غالبا درجة عالية نسبيا من التنظيم الدينى •

ونحن بالطبع على ألفـــة بالممارسين الدينيين من هـــذا النوع فى مجتمعاتنا المعاصرة ، وذلك لأن الوصف الذى سبق تقديمه ينطبق بوجه

عام على كهنة كنيسة روما الكاثوليكية وعلى الكنائس الأورثودكسية الشرقية ، كما ينطبق على قساوسة ورعاة الأبروشيات والوعاظ بالكنائس البروتستنتية بل وعلى الحاخامات فى المنظمات الدينية اليهودية • وتوجد فى كثير من المجتمعات بين الشعوب غير المثقفة نظم ناضجة خاصة برجال الدين ، وبخاصة فى غرب وشرق أفريقيا (مثلا بين أهالى داهومى وباجندا على التوالى) وبين الأزتك والانكا فى الأمريكتين • ويجب أن نلاحظ أن هذه المجتمعات متقدمة من الناحية التكنولوجية بدرجة طيبة وتمارس نظما اقتصادية تسمح بتخصص بعيد المدى ، وتقسيما للعمل يكاد يكون معقدا • أما فى المجتمعات التى يعوزها مثل هذا التنظيم الاقتصادى ، فان النظم المتعلقة برجال الدين والمجموعات الدينية المنظمة لا تكاد تكون موجودة أيضا •

بيد أن هناك مجتمعات متعددة يشارك فيها ممارسوها الدينيون فى بعض خصائص كل من الكهنة والشامانيين • وهذا يصدق مثلا بازاء الزونى ، وهم شعب المكسيك الجديدة الذين يشتغلون بالبشنة ويقطنون قرى خاصة بالهنود الحمر ، وتنظيمهم الاقتصادى والاجتماعى ليس مغايرا لتنظيم الهوبى •

وجميع البالغين الذكور من الزونى هم أعضاء فى جمعية الكيفة(*) التى تؤدى رقصات مقدسة فى فترات محددة • ولقد يصير الذكر أيضا عضوا فى جمعية العلاج ، وبخاصة اذا كان قد عولج من مرض بوساطة

(*) الكيفة Kiva حجرة واسعة واقعة كلها أو جزءا منها تحت الارض فى قرية من قرى الهنود الامريكيين ، تؤدى فيها الطقوس الدينية ولكنها فى السياق الحالى تعنى فئة دينية .

الجمعية ، ومن ثم يشارك فى شعائرها • فاذا ما أبدى بدرجة عاليــة خصائص الشخصية التى يقدرها الزونى ، كالرزانة فى السلوك والتقــوى وتجنب العــدوانية الاجتماعية ، فانه قد يعطى منصبا رســميا بالكيفة أو جمعية العلاج من قبل قادتها — الذين يســمون فى الغالب بالكهنة • وتبعا لذلك فحالمــا تحدث خلوات ، فانه قد يرتقى — خلال سلسلة من الوظائف — لكى يصير رئيس كهنة لاحدى الجمعيات ، واذا كانت تلك الجمعية واحدة من الجمعيات البارزة بصفة خاصة ، فانه قد يصــير واحدا من المجموعة الصغيرة لرؤساء الكهنة الذين يحكمون بالفعل قريــة الزونى •

وعلى الرغم من أن سلوك كهنة الزونى ليس مغايرا فى أنحــــاء متباينة لســلوك الشامانيين ، فانه نتيجة لتلمذة طويلة ودقيقة فى الكيفة وشــعائر جمعية العلاج • وهــذا السلوك يتسم فى المقام الأول بالاتزان والوقار والاحترام ، ويتضــمن الأداء المتقن والدقيق لشــعائر طويلة ومعقدة ، وتلاوة أو ترنيم صلوات تستظهر بدأب وتراتيل مقدســة • وباختصار فان الممارس الدينى من الزونى ، يستمد قدراته الخاصــة وتأثيره من عضويته فى طائفة دينية منظمة (الكيفة أو جمعية العــلاج) وليس من اتصال كائنات علوية به فى الأحلام والرؤى • فالرجل — بين الزونى الذى يمارس عن طريق الالهامات الشخصية بالطريقة التى يتمرس بها الشامان الاسكيمو مثلا — يحتمل أن يعتبر مخبولا ، وربما أيضا يقتل أو يعذب بتهمة ممارسة الســحر • أما الخاصية الوحيدة التى يشترك فيهــا الممارس الدينى الزونى مع الشامان ، فهى أنه متخصص لبعض الوقت ، شأنه شأن الرجال الذين ليسوا بكهنة ، ولكن يجب عليــه أن يشتغل بالزراعة والقنص وجمع الثمار لكسب الرزق • والكهنة الزونى

لا يحرزون سوى الاحترام والمكانة العالية بسبب عملهم ، ولكنهم لا يحصلون على أجر كأصحاب مهن تؤجر •

وكما سبق أن قلنا فان دعم الكهنوت لا يتم الا فى المجتمعات التى يسمح فيها النظام الاقتصادى بتخصص لكل الوقت فى المناشط الدينية • وثمة مثال يوجد بين أهل داهومى الذين يعيشون فى غرب أفريقيا • فهم — شأنهم شأن الباجندا بشرق أفريقيا — ينتظمون فى هيئة مملكة(٧) • فالداهوميون مزارعون بدائيون ، وعلى الرغم من افتقارهم الى نظام متطور لرعاية الماشية كما هى الحال لدى الأفريقيين الشرقيين ، فانهم حاصلون على عدد من الحيوانات الأليفة التى يتغذون عليها ، بما فى ذلك الغنم والماعز والخنازير والدواجن وقليل من الماشية • وبالنسبة للتنظيم الاقتصادى فان المجتمع متقدم بدرجة كافية ، كما هى الحال فى الباجندا مع تجارة لا بأس بها وتنظيم معقد للعمل •

وعلى الرغم من أن الديانة الداهومية تسيطر عليها عبادة الأسلاف فانها تتسم أيضا بعدد كبير من الآلهة العظام أو الشعبيين ، التى يعتقد أنها تدعم المملكة والشعب وتحافظ عليهما • وهى تنقسم الى ثلاث طبقات أو مجموعات من الآلهة : آلهة للسماء ، وثانية للارض وثالثة للرعد • وأهم منها جميعا — ولكن ليس بأى حال أسماها — الآلهة ماوو الهة القمر التى تحكم آلهة السماء مع زوجها ليزا اله الشمس • فهذان هما والدا معظم الآلهة الأخرى التى قام ماوو بتحديد مجالات نفوذها • ومن بين المعبودات الكثيرة ، الأقل مرتبة فى مجموعة آلهة السماء ، نجد أن جو اله المعادن والحرب ، وواهب الادوات والاسلحة ، وهو أكثرها

---

(٧) نحن نشير بالطبع الى تنظيم داهومى فى الوقت الذى اتصلوا فيه بالاوروبيين لاول مرة ، وليس الى داهومى الحديثة .

أهمية • ولا تكاد تكون بنا حاجة الى أن نضيف أن الحرب هى واحدة من الدعائم الاقتصادية الرئيسية بالملكة •

أما مجموعة آلهة الأرض فانها محكومة بوساطة زوج من التوائم يسمى « ساجياتا » ، المولود الأول لماوو الذى أنتج زواجه جميع الآلهة الاخرى • وجميعهم من الذكور • « وساجياتا » هام للغاية للداهوميين ، لأن هذا الاله ، أو الاله المزدوج ، هو الذى يضمن الحصاد الوافر • ويقوم « ساجياتا » أيضا بمعاقبة الأشرار ، وذلك بأن يحدث طفحا جلديا على شكل حبوب أو ثآليل على أجسادهم ، وهناك أيضا اله الجدرى ، وغير ذلك من أمراض جلدية • وأخيرا فان مجموعة آلهة الرعد محكوث بوساطة « اكسفيوزو » الابن الثانى لماوو • وله الاشراف الكامل على : المطر ، والرعد ، والنار والبحر ولكنه يكل بعضا من هذا الاشراف لأجبى ، وهو اله خاص بالبحر ، وللعديد من الآلهة الأقل لتكون مسئولة عن أنواع متعددة من المطر والرعد والأمواج وغير ذلك من جوانب المحيط وأجسام معينة من الماء •

ولكل مجموعة آلهة رجال دينها ، ومجموعة من المشايعين لها • ولكن ليس جميع الداهوميين منتمين الى طائفة معينة ، وكثير منهم أعضاء بالاسم فى طائفة أو أخرى • وأفراد العشيرة المالكة لا يلتحقون بالطوائف على الاطلاق — انهم لا يعبدون الا آلهة عشيرتهم وأسلافهم — وثمة معارضة شديدة للطوائف من جانب الحكومة التى تتهمها بالقيام بمناشط تخريبية ، ومع هذا فان الطوائف تضم اعدادا كبيرة من المشايعين الذين يتوزعون فى مجموعات متعددة بعدد المعابد • ويبدو أن الطوائف متساوية من حيث مكانتها ، على الرغم من أن طائفة السماء بما تشتمل عليه من أكثر الطقوس توسعا ، تضم أعضاء أقل عددا مما تضمهم الطائفتان الأخريان •

أما اقامة أحد المعابد ــ وهناك عشرات منها فى داهومى وكل منها مكرس لاله بالذات من مجموعات الآلهة ــ فانه يتطلب سلسلة طويلــة ومعقدة من الطقوس والاضحيات ــ و فىسياق هذا ، فان صورة الآلهــة تنصب على منصة بداخل بيت دائرى مصنوع من الطين والقش • ولكل هيكل رئيس كهنة ، أو رئيسة كهنة لكل الوقت ، وعدد من الكهنة المساعدين لجزء من الوقت ، يستقدمونهم من أفراد الطائفة الذين لهم علم بالشعائر ، ومجموعة من العلمانيين يدشنون ويسمون بزوجات الآلهة ، وجماعة من المبتدئين الذين يستعدون للتدشين ، وهم يعيشون فى مساكن خاصــة مقامة على أرضيات المعبد ، ويدعم الكهنة والمعابد بالعطايا التى يقدمها مشايعوهم ، الذين يجب أن تقــدم أسرهم قدرا كبيرا من المــال لدى تدشينهم ، كما أنهم قد يتلقون أيضــا بعض الدعم من الحــكومة • أما الاحتفالات فانها تنقسم الى ثلاثة أنواع : طقوس سرية تؤدى بداخل المعبد على يد رئيس الكهنة وحــده ، وطقوس تؤدى بالمعبد للأعضــاء المبتدئين ، وعدد كبير من المشاهدين من الشعب • وعلى الرغم من أن ثمة طوائف دينية مشابهة لهذه ، توجد فى قطاعات أخرى من غرب أفريقيا تسمى بالجمعيات السرية ، فانها غالبا ما تكون أدوات قوية فى يد الحكومة ، فملوك داهومى قد جردوا طوائفهم من أية قوة سياسية وجعلوها تحت رقابة صارمة •

وواضح بالطبع أن الكهنوت الداهومى قد نظم تنظيما قليلا ، اذا ما قورن مثلا بهيئات الكهنوت الدقيقة فى الحضارات الغربية • وحالمــا تنمو الثقافات فى الأهمية ، وفى عدد المشاركين فيهــا ، فان المنظمات الدينية ــ شأنها شأن الاشكال السياسية ــ تنحو الى النمو ســواء من حيث عدد المشايعين ، أو من حيث تعقد تنظيمها • وتقف المنظمة الدينية الداهومية فى أول طريق التطور ــ اذا جاز التعبير ــ على حين نجد أن

الجماعات الدينية فى المجتمعات المتقــدمة ثمار لقرون طويلة من النمو والتخصص •

٨ — السحر والدين فى المجتمعات البدائية :

لا يمكن عمل فاصل حاسم ممكن بين الدين والسحر فى المجتمعات البدائية • فكلاهما يعتمد على الاعتقاد فى وجود قوى علوية ، ولكن من المفيد أن نميز بين الاثنين لتحقيق أهداف تحليلية • والسحر على حد تعبير فريزر يتضمن زعمين أساسيين : أولا « أن الشبيه ينتج شبيهه » أو أن الأثر يشبه سببه ، وثانيا — أن الأشــياء التى كانت ذات مرة على صلة بعضها ببعض تستمر فى التأثير بعضها فى بعض عن بعد ، حتى بعد أن يستبعد الاتصال الفيزيائى بينها » (٨) • والزعم الأول تبعا لفريزر يشكل الأساس لما يسمى بالسحر بالتقليد ، والثانى يشــكل الأساس للسحر بالعدوى •

وثمة حالة معروفة جيدا ومنتشرة على نطاق واسع للسحر بالتقليد ، توجد فى الاعتقاد بأن أى عدو قد يجرح أو يقتل بوساطة جرح ، أو تحطيم تمثال له • فالساحر يعد التمثال بعناية شــديدة ، ويصنعه من الطين ، أو الصلصال أو الخشب ، أو من مادة أخرى مماثلة • ولقد تتلى تعزيمات أو رقى متعددة ، لكى تطابق بين التمثال وبين الضحية المقصودة • وبعــد ذلك يشوه التمثال أو يحطم • فيعتقد بالطبع أن الضحية سوف تعانى من نفس تلك المواضع بجسمها الذى أوذى فيها التمثال • وهكذا فــان

---

(8) Sir James Frazer, The Golden Bough, One-Volume Edition, (New York, The Macmillon Company, 1928) , p. 11.

اختراق سكين أو مدية فى ذراعى أو ساقى التمثال سـوف يحدث جروحا فى ذراعى وساقى الضحية • وعلى نفس النحو ، فاذا ما حطم التمثال ، فان الضحية سـوف تموت •

أما السحر بالعدوى فانه يتضح فى اعتقادى ذائع آخر ، هو أن الضرر أو الخير الذى يحمل لشىء ما كان ذات مرة فى ارتباط مباشر مع أحد الافراد (مثلا ظفر من أظفاره ، أو جدائل من شعره) سوف يؤثر فى ذلك الفرد أيضا • فمثلا بين الشيريكاهوا أباتشى نجد : « أن المشيمة تجمع كلها فى سترة ، أو فى قطعة من قماش قديم تكون المرأة قد ركعت عليهـا • ويوضع معها الحبل السرى •• فهذه يجب أن تحرق أو تدفن • فاذا ما دفنت ثم نبش عنهـا وأكلتها الحيوانات ، فان الضرر يصيب الطفل • والطريقة المعترف بها فى التخلص من تلك الأشـياء هى وضع الصرة فى شـجيرة تحمل فاكهة أو شـجرة « لأن الشـجرة تعود الى الحيـاة كل سـنة ، وهم يريدون أن تتجدد الحيـاة فى الطفل مثـل الحيـاة فى الشـجرة » • وقبل القرار النهـائى تقوم القابلة بمباركة الخرقة ، وتقول للشجرة : « فليعش الطفل لينم ليراك وأنت تحملـين ثمرا مرات عديدة » (٩) •

ويسمى كلا النوعين من السحر بالسحر المتجانس ، وغالبا ما يوجدان فى نفس الاجراء • ويقال ان السحر فى بالى يستخدمون السحر المتجانس • « الذى بوساطته يمكنهم السيطرة على حالة الشخص الجسمية والعقلية ، وذلك باحرازهم لشىء ما كان من ممتلكات الضحية ، أو كان يشكل جزءا منه كالملابس ، وخصلات الشعر ، وقلامات الأظفار واللعاب ، وحتى

---

(9) Morris Opler , An Apache Lite-way (Chicago : Univ. of Chicago Press, , 1941), p.8.

الطين المأخوذ من أثر القدم • فمن خلال التجانس بين الضحية وبين شيء من خصوصياته — صورته سواء كانت صورة فوتوغرافية أم دمية تتضمن أي شيء من المقومات السابقة — فان روحه تؤسر وتعذب لأنه يحس بالضرر الذي يوقع على صورته » (١) •

وعلى الرغم من أن الاجراءات السحرية قد تظهر كجزء من الطقوس التعبدية ، وقد تستخدم بوساطة مختصين دينيين ، فانها تميز تحليليا بأنها تفترض وجود علاقة وطيدة بين السبب والمسبب بدون وساطة أو تدخل من جانب كائنات علوية • وأكثر من هذا فانها قد تستخدم عادة بواسطة أي شخص يكون قد تعلم الصيغ المناسبة • ولقد أدى هذا بفريزر وغيره الى التفرقة بين السحر وبين الجوانب الاخرى من الدين، والى النظر اليه باعتبار أنه مناظر للعلم ، مع اعتماده على قدم المساواة على افتراض بأن الكون مرتب وفق نهج معين • بيد أننا يجب ألا نعتبر السحر باكورة للعلم ، كما يزعم أحيانا • فالجذور الاولى للعلم لا تكمن فى السحر ، بل بالأحرى فى المعرفة العملية المتعلقة بالعالم الخارجى ، فى الاساليب المألوفة المتعلقة بالمحاولة والخطأ ، وفى اختبار الفروض بوساطة تجريب متأن أو ملاحظة منضبط •

ولكى نوضح دور فنون السحر فى النظم الدينية فى المجتمعات البدائية ، علينا أن نقدم تقريرا موجزا جدا عن العلاج بين النافاجويين ، كما هى الحال بين الشيريكا هوا أباتشى ، وهو الذى يعد أهم وظيفة يضطلع بها الممارس الدينى • فالنافاجو يعتقد أن المرض هو نتيجة لاهمال قيود معنية على سلوكه ، ونتيجة سحر وملامسة أجساد الموتى أو الاشباح ،

(10) Miguel Covarrubias, Island of Bali (New York: Alfred A. knopf, Inc, 1938) p. 351.

وعدد من العوامل المشابهة التى تفسد انسجامه مع الكون • وعندما يصير مريضا فانه يلجأ أولا الى العرافة ، وهى اجراء سحرى حيث يقوم الشامان بتحديد طبيعة مرضه • وتتخذ العرافة بين النافاجو بين غالبا شكلا من شكلين : الارتجاف الطقسى والتفرس • ففى الارتجاف الطقسى يبدأ جسم العراف فى الارتعاش ، ويكون فى بادىء الامر ارتعاشا خفيفا فى الذراعين والساقين ، ولكن يتزايد شدة الى أن يرتجف الجسم كله بشدة • وفى سياق هذه النوبة فان العراف يرى الرمز المتعلق باحتفال معين ، وذلك بتوجيه من قوته أو روحه الجنى ، وهكذا فحيث أن الاحتفالات مرتبطة بأمراض معنية ، فانه يتمكن من تشخيص مرض المريض • أما التفرس فيعنى النظر بتركيز فى الشمس أو القمر أو فى أحد النجوم • فيكون التفرس مصحوبا فى بعض الاحيان بارتجاف ، ولكن العراف فى هذه الممارسة يرى غالبا رمز الاحتفال المشخص للمرض كصورة بعدية(*) للشىء الذى ركز عليه تحديقه •

أما الخطوة الثانية فهى نيل الشفاء من المرض ، وهذا أولا بأن يستعرض المريض سلوكه السابق مع الشامان لاستكشاف الاعمال المسئولة بالذات عن المرض ويعترف بها • وبعد هذا فان الاحتفال المناسب للمريض يجب أن يقام،وذلك لطرد الشر الذى نتج فى المريض بسبب أعماله ولجذب الخير ليحل محله • والشر يطرد بطريق حسى ، وذلك بتناول عقاقير مقيئة ومسهلة ، وبأن يعرق المريض ويصوم ويستحم ، وأن يكبح النفس عن الشهوة الجنسية بصرامة • وفى أثناء الاحتفال ، فان الخير ينجذب الى المريض ، بأن يوضع على صورة رملية ، وبذا يسمح له بأن يمتص قوة الآلهة المرسومة على الرمل •

(*) الصورة البعدية after image احساس بصرى عادة يحدث بعد أن يكون المنبه الخارجى الذى سببه قد كف عن العمل

فهنا نجد مثالا رائعا للسحر المتجانس ، وذلك لأن الصور الرملية للآلهة تشتمل على قوة للشفاء حيث أنها ممثلات دقيقة لهذه الآلهة . ويوضع المريض على الصورة الرملية ، ويدلك جسمه بالرمل المأخوذ من صور الآلهة ، ويلمس المريض بأشياء متباينة مما يوجد فى صرة الشامان الخاصة بالاحتفالات وبذا فان قوى الكائنات العلوية التى رمز لها على هذا النحو تنتقل الى جسم المريض لملئه بالخير واعادته الى الصحة .

وخلاصة القول أن السحر هو مجموعة من الفنون والطرائق التى يتسنى بوساطتها التحكم فى الكون ، وهو يقوم على الزعم بأنه اذا ما اتبعت اجراءات معينة بالتفصيل ، تتأتى نتائج معينة بلا محالة وهو يفترض مقدما وجود كون منتظم يرتكز على السبب والمسبب ، وليس كونا قد تقع فيه الاحداث بشكل لا يمكن التنبؤ بها حسب أهواء وميول الكائنات العلوية . ومع هذا فان السحر يكون مصحوبا فى الغالب بالدين كأسلوب ينسنى به التوصل الى غايات معنية مرغوبة . انه فى الواقع طريقة لتحتيم مساعدة الكائنات العلوية بمالهمن منطق خاص به: فبالنسبة للنافاجو فان التصاق المريض بالصور الرملية الخاصة بالكائنات العلوية ينتهى — بلا مناص — الى انسياب قوة شفائية من هذه الآلهة والارواح الى المريض .

ومن السهل بالطبع التوصل الى الاعتقاد فى أن السحر يوصل الى النتائج المرجوة .. فالعدو الذى تحطم صورته قد يموت اتفاقا ، كما أن سكب الماء من اناء فخارى يتبع أحيانا بهطول المطر ، وكذا فان المريض النافاجو كثيرا ما يحظى بالشفاء . واذا ما أخفق السحر ، فيكون لذلك أسباب كثيرة : قد يكون الاجراء المعقد الموصوف أجرى بطريقة غير صحيحة ، أو أن سحرة آخرين أكثر قوة قد لعبوا دورا فى اتجاه هدف مضاد ، كما أن الكون ضخم وغير معروف معرفة تامة . وبذا فان ثمة قوى معادية معينة قد تكون حالت دون احراز النجاح . فالحالات الناجحة

تظل عالقة بالذاكرة ، على حين تنسى حالات الاخفاق ، وحيث لا توجد وثائق مدونة ، فان حالات النجاح تلقى مغالاة فى التقدير بسهولة • أخيرا فانه بالنسبة للناس الذين لا يعرفون ولا يفهمون الا القليل عن الكون، فان الاعتقاد فى السحر يجلب لهم الراحة • وعلى الرغم من المناحى التى يخفق فيها السحر ، فانه يوفر الامل فى أنه اذا ما اتبعت المعالجات الصحيحة ، واذا ما سردت الصيغ الصحيحة فان الكون قد يصير أكثر خضوعا للتنبؤ والأمكن الوقوف عليه ، ومن ثم فى النهاية يتم فهمه والتحكم فيه • وهكذا فان السحر يعنى بطرق متعددة بكل من الوظائف السيكولوجية للدين والوظائف العملية للعلم •

٩ ـ الطقوس والشعائر :

ان السحر بقدر ارتباطه بالشعائر الدينية ، يشكل فى المجتمعات البدائية احدى الطرق التى يسعى الناس بوساطتها الى التحكم فى القوى العلوية • وثمة طريقة أخرى ترتبط ارتباطا أشد وثاقة بالدين ، توجد فى الطقس والاحتفال ، وكلاهما يوجه نحو التضرع الى القوى العلوية واسترضائها • وبينما يحتم السحر ـ كما سبق أن لاحظنا ـ مساعدة القوى العلوية بطرق مختلفة، فان الطقوس والشعائر تعمل على أساس افتراض أن الكائنات العلوية ـ شأنها شأن الناس ـ يمكن أن تحرك للشفقة وتحتكم للعدالة ، وتسر بالاضحيات والتقدمات ، واذا ما كانت ميالة الى الحقد ، فانها تستعطف ، بل ترتشى بأن تشبع رغباتها وميولها • وربما يكون أفضل تعريف للطقوس بأنها طرق مرسومة لأداء تصرفات دينية ـ أعنى الصلوات ، وترنيم بعض الترانيم المقدسة ، والرقص للآلهة وتقديم الأضحيات أو اعداد التقدمات • ومن جهة أخرى فان الاحتفال يتضمن عددا من الطقوس المتصلة بعضها ببعض والمترابطة والمؤداة فى وقت

معين • فخدمة الاحد الصباحية والمؤداة فى الكنائس البروتستانتينية مثلا، تمثل احتفالا قد يتضمن مثل تلك الشعائر ، كتلاوة الصلاة الربانية ، وترنيم تراتيل معينة ، وأداء سر القربان المقدس • ومن الجدير بالاهتمام أن نذكر أن كثيرا من الطقوس والشعائر المتضمنة لمثل تلك الاحداث كاحتفالات تنصيب وتعيين الضباط هى أحداث علمانية وليست دينية ، على الرغم من أن الخط الفاصل بين المقدس والعلمانى لا يتحدد بدقة دائما •

بيد أن ثمة تمييزا أكثر فائدة يمكن أن يعمل فى ضوء الوظائف التى تؤديها الشعائر والاحتفالات • فثمة من جهة تلك الشعائر والاحتفالات التى تتمركز حول أزمات الحياة المتعلقة بالفرد — الشعائر والاحتفالات التى تسم مناسبات معينة ، كالميلاد والتسمية ، والبلوغ ، والزواج ، والمرض ، والموت • وتسمى هذه غالبا بطقوس الانتقال من حالة الى أخرى • ومن جهة مقابلة ثمة ما يسمى بطقوس التشديد (أو التقوية)، أعنى الطقوس والاحتفالات التى تسم مناسبات أو أزمات فى حياة المجتمع المحلى ككل ، كالحاجة الى المطر والدفاع ضد وباء أو طاعون ، والاستعدادات للزراعة ، وجنى المحصولات والشروع فى قنص جماعى أو مناشط تتعلق بصيد السمك ، ورجوع جماعة من المقاتلين الظافرين بالنصر • وقد تكون هناك بعض الطقوس والاحتفالات التى تخدم الوظيفتين جميعا • وثمة مثال لذلك يوجد فى احتفال النافاجو يسمى « أغنية الليل » ، وهى أغنية تردد ويزعم أنها تشفى الفرد من بعض ما ابتلى به من مرض ، ولكنها فى الواقع تستخدم أيضا فى دعم رفاهة المجتمع المحلى ككل • وجدير بنا أن نصف بعضا من الجوانب البارزة من « طقس » « بلوغ الفتاة » ، وهو من احتفالات التشير يكاهوا أباتشى الهامة حتى تتضح هذه المسائل أكثر تفصيلا •

فعندما توالى الدورة الشهرية الفتاة الاباتشى لاول مرة ، يحتفل بهذه الحادثة التى تدل على انتقالها من حالة « البنوتية » الى حالة النسوية الصغيرة بطقس الانتقال من حالة الى أخرى • ويسمى هذا « بالاحتفال الصغير » لتمييزه عن طقس البلوغ الاكثر تعقيدا والذى يعتبر شكلا موجزا له الى حد بعيد • وهو يستمر ساعات قليلات فقط ، ولا يحضره سوى أفراد أسرة الفتاة وبعض أصدقائهم • وتلعب احدى النساء الكبيرات كضامنة للفتاة ومرافقة لها ، وتأخذها خلال طقس قصير لضمان الصحة الجيدة والعمر الطويل لها ، فى حين يرنم الشامان عددا من الترانيم المقدسة المخصصة لنفس الغرض • وفى نهاية هذه الطقوس ، تقوم أسرة الفتاة بتوزيع الهدايا المكونة من الطعام والتبغ وغير ذلك من أشياء أخرى على الضيوف والمشاهدين • وتقام «الاحتفالات الصغيرة» فى فترات غير منتظمة بالضرورة لأنها تتحدد عندما تحدث تغيرات فسيولوجية لافراد معينين ، بيد أن الفتاة تنخرط فيما بعد خلال « طقوس بلوغ الفتاة » وهو طقس أطول وأكثر تعقيدا ، وهو يتم غالبا فى صحبة مجموعة من الفتيات الاخريات اللائى يكن قد مررن بدورتهن الشهرية الاولى ، وأقيم لهن « الاحتفال الصغير » • وعلى الرغم من أن هذا الاحتفال يمجد فى الواقع بداية البلوغ ، فانه أيضا طقس للتقوية ، اذ أنه ليس مجعولا لاستنزال البركات على الفتيات وحدهن ، بل على المجتمع كله ، وللترحيب بأولئك النساء الصغيرات كزوجات وأمهات مرتقبات • واليوم فان « طقس بلوغ الفتاة » لا يقام الا مرة واحدة كل عام كواقعة سنوية منتظمة ، ويحتمل أن يكون ثمة انتظام مشابه — ولكن قد يكون لمرات أكثر — قد اتسمت به اقامته فى العصور البدائية •

ويتشكل « طقس بلوغ الفتاة » من عدة شعائر • ففى صباح اليــوم الاول ، يشرف الشامان المسئول على توجيه اقامة التنظيم الاحتفالى ، فتبنى خيمة كبيرة مخروطية من الجلد خصيصا لهذه المناســبة • وتجمع الادوات اللازمة بعضها مع بعض ، وتدق الحفر لكى تغرس بها القوائم الاربعة الرئيسية ، وتختار أشجار راتنجية طويلة لتشكل هذا الاساس • ويقوم الشامان بتلاوة صلاة ، ويرنم التراتيل المقدسة التى يجب أن تصاحب عملية البناء وذلك وسط ضوضاء عالية • وهذا طقس مهيــب يقصد به تحقيق هدف احتفالى مرتبط ــ رمزيا بالمرأة المدهونة بالابيض ، وهى آلهة هامة عند الشيريكا هوا •

وثمة كثير من الشعائر المتبقين تتمركز بالطبع حول الفتاة المراهقة ، فهى يجب أن ترتدىبعض الملابس بطريقة محددة بالذات وتقوم المرأة الملازمة لها بالباسها وتمرنها على مراعاة القيود الطقسية فى تناولها للطعام والشراب وغير ذلك من مناشط • وفى كل صباح من أيام الاحتفال الاربعة، تقوم المرأة الملازمة باقتياد الفتاة الى مكان أمام مدخل خيمة الاحتفـــال وتدهنها بغبار الطلع المقدس ، وتعطيها رسالة طقسية ، أو « قالبا » وهى تدعو فى أثناء ذلك للفتاة بأن تنتهج حياة صالحة وأن تعيش عمرا مديدا • وبعد ذلك تقوم الفتاة بممارسة الجرى الاحتفالى أربع مرات نحــو الشرق وهى تمر باتجاه حركة عقارب الساعةحول سلة بها أشياء شعائرية موضوعة على بعد خطوات قليلة من النصب الاحتفالى • وهناك كثير من المشاهدين قد يجرون معها ، للمشاركة فى بركتها ، وهم يدعون فى أثنــاء جريهم طلبا للصحة الجيدة والعمر الطويل • وحالما ينتهى الطقس ، فــان أسرة الفتاة تلقى بالهدايا من الطعام الى الحشد •

وفى أثناء الليل يقوم الشامان بتوجيه الفتاة ومرافقتها حسب الطقس الى الخيمة الجلدية • هناك يرنم الشامان سلسلة من الترانيم الطويلة ،

على حين تتناوب الفتاة بين الجلوس على جلد حيوان غير مدبوغ وبين الرقص ببطء الى الخلف والى الامام • ويقطع الشامان ترانيمه بالصلوات وهو يقود الفتاة « رمزيا خلال حياة طويلة وناجحة » • وكما يقول واحد من رواة أبلر :

« اننا نعتقد أن حياة المرأة تنقسم الى مراحل هى مرحلة « البنوتية » ومرحلة النسوية الصغيرة ، ومرحلة العمر الاوسط ، ومرحلة الشيخوخة • ويفترض أن الترانيم تحملها خلال تلك المراحل • والترانيم الاولى تصف البيت المقدس والاحتفال ، وبعد ذلك تأتى ترانيم تدور حول الازهار والاشياء النامية • وهذه ترمز لشبابها ، وحالما تسير الترانيم عبر الفصول ، فان الفتاة تأخذ فى النمو ، وتصل الى سن الشيخوخة»[11] •

وفى أثناء ذلك ، تمارس سلسلة هامة أخرى من الشعائر فى الساحة الفضاء قبل اقامة الاحتفال • فهنا يظهر عدد من الراقصين الملثمين وقد ارتدوا الملابس لتمثيل أرواح الجبل ، وهم يقومون باضرام نار هائلة فى أثناء وقيام مجموعة من الرجال الجالسين بالقرب من مدخل الخيمة الجلدية بالترانيم والقرع على الطبول ، أما الراقصون الملثمون فانهم يكونون فى مسئولية شامان ثان ، يكون قد قضى عدة ساعات فى اعدادهم طقسيا لقيامهم بالرقص • وفى أثناء الحفل ، فان الراقصين قد يحققون حالات من الشفاء اذا ما طلب منهم المرضى من الحاضرين ذلك ، فهم يباركون النار وحلقة الاحتفال ، كما أنهم يحضرون هالة من القداسة والرفاهية لجميع الموجودين •

---

(11) Morris Opler, An Apache life - way , p. 117.

اذن فمن الواضح أن « طقس بلوغ الفتاة » يتشكل من طقوس كثيرة ، لكل منها وظيفة محددة ترتبط بكل منظم تنظيما مرنا • أما هدف الاحتفال فمزدوج : ضمان العمر الطويل والسعادة والصحة الجيدة للفتيات لدى انخراطهن فى النسوية الصغيرة ، واستنزال بركات مشابهة للمجتمع المحلى ككل • وأخيرا فان الاحتفال يوفر للناس الحاضرين فرصة اجتماعية يترقبونها بشغف قد يجتمعون خلالها حول الموائد ، ويغنون ويشتركون فى رقصات اجتماعية ، كما أنهم يجددون الصداقات القديمة •

١٠ — دور الدين فى المجتمعات الانسانية :

سبق أن عرضنا للوظيفة الاولى للدين فى سياقات أخرى : فهو صورة منظمة للكون ويقيم علاقة منظمة تقريبا بين الانسان والبيئة • وهكذا فان الدين يقلل من المخاوف وأنواع القلق ولا يعطى الانسان شعورا أكبر بالطمأنينة فى حاضر غير جدير بالثقة فحسب ، بل يعطيه أيضا الامل فى مستقبل محتمل • وكثيرا ما يعكس تنظيم الكون بوساطة الدين علاقات وثيقة ومباشرة بطريقة غير عادية ، ليس فقط بالعالم الغيبى ، بل وأيضا بالحيوانات والنباتات وغير ذلك من جوانب بالطبيعة •

ولقد سبق أن لاحظنا مثل هذا الارتباط ممثلا فى عبادة الاسلاف عند شعب الباجندا • وتوجد عبادات مماثلة بين كثير من الشعوب الافريقية والميلانيزية ، وربما تكون متطورة بدرجة أكبر من التعقد بين الصينيين • وثمة أمثلة متعددة أكثر بساطة لذلك • فبين اليهود الياكويين والمايويين بشمال المكسيك مثلا ، ينظر الى الموتى باعتبار أنهم أعضاء بالاسرة ، كما كان شأنهم قبلا بمعنى الكلمة • وثمة احتفالات خاصة يزعم فيها أن الموتى يعودون ويأكلون جواهر الطعام المعد لهم ، كما أن الصلوات لاجل

الموتى تحتل مكانة هامة فى كل احتفال • وتحتفظ الاسر المثقفة بكتب تشتمل على أسماء موتاها على مذبح البيت ، وتتلى هذه الاسماء فى الصلوات ، مصحوبة بصلاة خاصة من أجل أولئك الذين ربما تكون أسماؤهم قد نسيت • بيد أن الموتى ليست لهم قدرات كبيرة على الرغم من أنهم قد يثأرون ضد الاهمال ، وكثيرا ما يتوسطون مع كل من القديسين الهنود وآلهة الغابة • أخيرا فهنا ، كما هى الحال بين الباجندا ، يعتقد معظم الناس أن الاطفال المولودين حديثا هم أسلاف متقمصون ، وبذا فانهم يجعلون دورة تضم الميلاد والموت والتقمص •

ونجد بين الزونى بالمكسيك الجديد مفهوما مماثلا لهذا • فهنا يصير الاموات أعضاء فى مجتمع كبير لارواح المطر يسمى « كاتشيناز » — ولهذا المجتمع أدوار هامة فى انزال المطر على المحصولات ، وهو شىء جوهرى لاستمرار وجود الزونى • والكاتشيناز وغير ذلك من آلهة ترجع الى القرية خلال فصل الشتاء الاحتفالى للاختلاط فى مؤانسة مع الناس ، حيث يتلبسون بشخصيات أخرى ، ويشاركون فى حلقة احتفالات طقوسية طويلة • فهنا اذن لا نجد مرة أخرى حدا فاصلا بين الانسان وبين أمواته ، حتى على الرغم من أن أولئك الاموات لا يتناسخون من جديد فى مجتمع الاحياء •

أما التوتمية الاسترالية ، فانها تقدم مثالا ممتازا للعلاقة بين كل من الانسان وأرواح الموتى والطبيعة • فهناك أماكن مقدسة متعددة تسمى بمراكز التوتم ، فى قطر لزمرة استرالية تعد بقعا مفضلة لانواع معينة من الحيوانات ، أو مناطق تتمركز فيها أنواع من النباتات ، وهى التى فيها تكمن أرواح الموتى • ويحدث الحمل عندما يدخل أحد هذه الارواح فى جسم امرأة • فالطفل اذن ليس سلفا متناسخا فحسب ، بل يرتبط أيضا

بالمركز التوتمى الذى أتى منه روحه الذى سوف يعود اليه عند الموت . ويشكل أولئك الذين تأتى أرواحهم من نفس المركز التوتمى طائفة يكون واجبها مراعاة قيود معينة بصدد القنص وأكل الحيوانات ، أو النباتات المرتبطة أيضا بالمركز التوتمى ، وتراقب مراعاة الآخرين لها . وتقوم العبادة التوتمية أيضا بأداء احتفالات فى مركز التوتم ، وفى غير ذلك من أماكن ، وذلك بقصد احداث زيادة فى الانواع المرتبطة به . وتعمل هذه العلاقات القائمة بين الانسان وأرواح الموتى ومراكز التوتم وتوتم الحيوانات والنباتات على ربط المجموعة بالبيئة وبحياة الحيوان والنبات اللذين يشاركان فيها مع الانسان ، والتى يعتمدان عليها لاستمرار البقاء ربطا شديدا .

ويزعم دوركايم ومن بعده رادكليف برون على أساس المعلومات المستقاة من استراليا الى حد بعيد أن الاشياء ذات الاهمية لشعب ما كمواد للغذاء كثيرا ما تجد مكانا بطريقة رمزية فى المعتقدات الدينية . وهذا يبدو غالبا أنه صحيح كما هى الحال فى استراليا حيث تكون التواتم دائما تقريبا هى النباتات والحيوانات الرئيسية المستخدمة فى الطعام بين الهنود البويبلو ، حيث تلعب النباتات المنزرعة دورا هائلا فى الرمزية الدينية والعقيدة ، أوبين هنود السهول حيث تلعب الجاموسة دورا كبيرا على نفس المستوى فى الطقس والاحتفال . بيد أن هناك عوامل أخرى . وهكذا نجد أن الياكويز وهم سكان القرى بالمكسيك ليست لديهم احتفالات لها صلة بالمحصولات أو بالحصاد ، وهى عمادهم الاقتصادى الاساسى ، ولكن الحيوان وأرواح الغابة يلعبان دورا كبيرا فى عقيدتهم وفى الاحتفال . والى حد ما فان هذا قد يكون له تفسير سيكولوجى : فالزراعة سهلة بالنسبة للياكويز ونادرا ما تنقص محصولاتهم ، وبالتالى فانهم يخشون الصحارى والغابات ، ويكرهون أن يقضوا بهما ولو ليلة واحدة . وتبعا

لذلك فقد لا يتطلب الضمان العملى للمناشط الزراعية مساندة فى النشاط الدينى الذى يعكس بدلا من ذلك توجساتهم ومخاوفهم من الصحارى والغابات التى تحيط بقراهم •

وكما أشار دوركايم أيضا ، فان الدين يقتضى أيضا التمييز بين فترات الحياة المقدسة والفترات الدنيوية (أو العلمانية بمعنى أصح) فبين الاستراليين نجد أن الدين يلقى انتباها قليلا عندما تجوب الجماعة الآفاق خلال الفصول الخالية من الشعائر الدينية ، سعيا وراء الطعام • وكذلك فان الفصول المقدسة تكون مفعمة بالمناشط الدينية ، وهى أيضا الفترات التى يسمح الحصول خلالها بسهولة على الطعام لمجموعات كبيرة مكونة من عدة مجموعات بالمجتمع بعضها مع بعض •

ولقد استخدم ردفيلد هذا المفهوم فى دراسة متباينة ، مشيرا الى أن ما هو مقدس ينتشر فى كثير من مناشط الحياة بالمجتمعات الصغيرة غير المستنيرة • أما فى المجتمعات الكبيرة ذات التكنولوجيات المتقدمة والتى لديها مجموعة أكبر من المعرفة المنضبطة فان مجال النشاط الذى يعتبر مقدسا يقع فى نطاق أضيق ، وأن مجال النشاط الذى يعد علمانيا يقع فى نطاق أكبر • والنشاط المقدس فى الوحدات الاجتماعية المتمدنة الضخمة بأوروبا الحديثة وأمريكا ما يزال أقل أهمية فى الحياة اليومية ، وحيثما يكن له وجود على الاطلاق ، فانه يقتصر على المناسبات الرسمية والشعائر الخاصة •

والدين يؤدى بعض الوظائف التى تعد على جانب كبير من الاهمية فى تقوية ودعم القيم الثقافية • وعلى الرغم من أن أديانا قليلة يبدو أنها ترتبط بصراحة بالاخلاق والفضيلة ، فمن المحتمل أن يقال بحق أن جميع الاديان أو معظمها تميل — ضمنا على الاقل — الى دعم مستويات معينة

من السلوك محددة ثقافيا وتؤكدها • ونضرب مثلا لذلك بمفهومى المانا والتابو • وكما سبق أن لاحظنا ، فان مجرد احراز المانا وما يتبعها من قوة للتابو ، لا يكفى فى معظم المجتمعات الميلانيزية والبولينزية ، فالحائز على المانا يجب أيضا أن يظهر فى سلوكه الفضائل والقدرات التى تتطلبها وظيفته • وعلى نفس النحو ، فكما لاحظنا بين الشيريكاهوا أباتشى ، فان المتوقع من الشامان أن يستخدم قوته العلوية فى الشفاء ولخير المجتمع المحلى ، والا فينظر اليه كمشعوذ يخشى بأسه ويتجنبه الناس ، وفى الحالات المتطرفة يقومون بقتله •

وللدين وظائف أخرى وقد يبدو ظاهريا فى مجتمعات معينة أنه لا يعير القيم الاخلاقية سوى اهتمام ضئيل ، ولكن هناك حالات قليلة — ان وجدت على الاطلاق — تقف فيها العقائد الدينية فى تعارض مع القيم التى تلقى تأييدا اجتماعيا ، ونستثنى من ذلك ما قد يحدث فى فترات تتسم بالتغير الاجتماعى السريع •

وثمة وظيفة للدين يضطلع بها فى كثير من الاحيان هى الحفاظ على المعرفة ، وهى الحالات التى تتم بصفة رئيسية عن طريق الطقس والاحتفال • فبين كثير من الشعوب غير المستنيرة ، تكون الاحتفالات بمثابة مسرحيات تعيد تمثيل اجراءات هامة من الناحية الثقافية بطريقة رمزيه وبخاصة فى انتاج الطعام • فبين الشعوب المشتغلة بالبستنة قد تؤكد الحلقة الاحتفالية أكثر فأكثر على الخطوات الضرورية للحصول على محصول ناجح • ونفس الشىء ينسحب أيضا على الشعوب المشتغلة بالقنص اذ أنها كثيرا ما تقيم الرقصات التى تقلل فيها حركات الحيوانات الهامة التى تستخدم كطعام كما توضح الاساليب التى يتذرع بها القناص • أما احتفالات النافاجو فانها تعيد تمثيل أساطير الخلق بشكل رمزى ، وكذا الاعمال التى اضطلع بها الآلهة فى خلق

العالم والاشياء التى توجد به • ومع ذلك فان جميع الاجراءات المائلة تؤكد استبقاء الاساليب والاجراءات التى لها قيمة ثقافية على الرغم من أنها قد تنوط تأكيدا كبيرا على ما هو تقليدى ولاتشجع التجديد •

أخيرا فمن الواضح أن الطقوس والاحتفالات فى سيرها جميعا مع التطابقات فى العقيدة تسهم الى حد بعيد فى المشاركة الاجتماعية ، وفى التكافل الاجتماعى • فلقد رأينا مثلا أن طقس بلوغ الفتاة لدى الاباتشى ليس مجرد مناسبة دينية ، بل هو أيضا حادث اجتماعى • فالناس بالمجموعة المحلية — وغالبا أولئك الموجودون بالمجموعات المحلية المجاورة — يأتون بعضهم مع بعض للمشاركة فى نشاط مشترك فى جو مفعم بالانفعال الشديد • وبهذه الطريقة فان الافراد يحددون هويتهم مع الوحدة الاجتماعية ككل ويقوونها ، وبذا فانهم لا يجنون تماسكا اجتماعيا عاليا فحسب ، بل وأيضا طمأنينة فردية أكبر •

وهكذا نرى أن الدين هو فى الاساس استجابة لحاجة الى مفهوم منظم عن الكون والحاجة الى آلية تعمل على التخفيف من أنواع القلق التى يسببها عجز الانسان عن التنبؤ بالاحداث التى لا تتفق ظاهريا مع القوانين الطبيعية وفهمها • ولقد عرفت جميع الشعوب حلا أو آخر لهذه المشكلات بغض النظر عن مدى صحته • وعلى الرغم من أن الحلول تختلف الى أقصى حد تقريبا فى التفاصيل ، فان هناك مفهومات كثيرة واسعة النطاق يؤخذ بها المرة تلو المرة وتنتشر عبر أرجاء واسعة •

ولدى جميع الشعوب مفهوم ما عن القوة العلوية التى ترتبط بالانسان بشكل أو بآخر وتخضع تقريبا لتأثيره وتحكمه • وتختلف أنواع القوة العلوية من مجتمع لمجتمع • والواقع أن الاعتقاد فى قوة علوية غير مشخصة يشيع على نطاق واسع ، كما يتضح بمفهوم المانا • وتشيع أيضا

المفهومات المتعلقة بالكائنات العلوية المشخصة كالآلهة والارواح وأشباح الموتى • وهذه المفهومات لا تستبعد بعضها بعضا ، ذلك أننا كثيرا ما نجدها جميعا فى ثقافة ما من الثقافات • بيد أن هناك اختلافات فى التأكيد • ففى بعض المناطق يسود مفهوم القوة غير المشخصة ، فى حين قد تسود الآلهة أو الارواح أو الاشباح نظاما من العقائد الدينية فى مناطق أخرى •

وتتباين بنفس القدر طرائق التعاقد التأثير والتحكم فى القوى العلوية • ويشكل السحر دائما فنا هاما لتحقيق هذه الغاية عند الشعوب البدائية •و بينما نجد أنه فى السحر تكون القوى العلوية خاضعة لامره الشخص اذا ما حصل على المعرفة المناسبة ، فاننا نجد الطقس والاحتفال ذريعتين يتوسل بوساطتها لتهدئة القوى للعلوية أو تملقها لكى تتحقق معها صداقة مع الانسان • ومن بين الوسائل المستخدمة فى هذه الاغراض نجد الصلوات والتقدمات والاضحيات ، وكذا ترديد الترانيم المقدسة والرقصات والمسرحيات التى تعيد تمثيل أعمال الالهة ، وبذا تقربها من الانسان • ويعتقد بصفة عامة أن بعض الافراد أكثر تأثيرا من غيرهم فى اقامة علاقة بالقوى العلوية • فمن جهة نجد الشامان الذى يكتسب صلاحية بوساطة الهام الهى فى الرؤى والاحلام ، والذى قد يجدد هذا الاتصال فى النوبات والغشيات ، أو بمجرد اعادة تمثيل الخبرة الاصلية فى الشعائر • ومن جهة أخرى مقابلة نجد الكاهن الذى يحظى بالقوة عن طريق التدريب والعضوية فى طائفة من رجال الدين ، والذى يكون بصفة عامة ممارسا لكل الوقت خلافا للشامان الذى يكون متخصصا لبعض الوقت فقط فى المناشط الدينية • ولا يوجد الكهنة غالبا الا فى مجتمعات متقدمة بدرجة كافية فى التكنولوجيا وفى التنظيم الاقتصادى لدعم المنظمات الدينية الناضجة ذات المعابد والطوائف الدينية والتقويمات الاحتفالية المقررة • بيد أن من الواجب أن نلاحظ أنه فى مجتمعات كمجتمع

الزوني ، فان الاختلاف بين الشامانيين وبين الكهنة ليس كبيرا بالقدر المشار اليه قبلا ، ذلك أن الممارس الديني الزوني له نفس وظائف وتدريب الكاهن تقريبا عدا أنه يخدم فقط لبعض الوقت •

ويجب أن نذكر هنا أن العقائد الدينية ، بل وغالبا تفاصيل الطقس والاحتفال أيضا ، تحفظ عادة وتسرد في الاساطير ، وان كنا لم نذكر ذلك في البداية • ففي بعض المناطق مثل بولينزيا نجد أن الميثولوجيا معقدة جدا وتقدم — اذا جاز التعبير — موجزا للآراء حول الكون وهو الذي نجد له تفصيلا كاملا في مجموع المناشط الدينية • ونادرا ما يكون سرد الاساطير نشاطا دينيا في حد ذاته، كما هي حال الطقس أو الاحتفال، ويكون في الغالب جزءا هاما من احتفالات على جانب أكبر من التعقد •

ويبدو أن وظائف الدين وما يرتبط بها من طقس واحتفال تتضمن في كل مكان وظائف سيكولوجية تتعلق بالتخفيف من أنواع القلق والمخاوف وتوفر الفرصة للتفاعل بين الانسان والعالم العلوي • ويوفر الدين غالبا أيضا تفسيرا منظما الى حد بعيد ، لمكانة الانسان في الكون وعلاقاته بالبيئة وبالحيوانات والنباتات وغير ذلك من ظواهر الطبيعة التي تتشكل منها • أخيرا ، فان المناسبات الدينية وبخاصة في حالة الاحتفالات هي أيضا وظائف اجتماعية تساعده على التقدم بالتماسك الاجتماعي وتكافل المجموعة • والواقع أن الفرد المشارك في مثل هذه المناسبات يحظى بمجموعة من الاشباعات الانفعالية التي يعتبر من أهمها اندماجه الكامل في المجموعة وما يترتب على ذلك من تأكيد لطمأنينته •

الباب الخامس

الدين والتنمية الاجتماعية والاقتصادية

الفصل السادس عشر : الاسلام والتنمية الاجتماعية والاقتصادية

الفصل السابع عشر : نظرة خاصـــة الى دور الاسلام فى التنمية فى المجتمع العربى السعودى



الفصل السادس عشر

الاسلام والتنمية الاجتماعية والاقتصادية

١ ــ مقــــدمة

٢ ــ الأحكام والقيم الاسلامية

٣ ــ نظرة الاسلام الى دور الانسان فى التنمية

٤ ــ مظاهر اهتمام الاسلام باستقلال الطاقة الانسانية

٥ ــ النظام الاقتصادى الاسلامى

٦ ــ نظرة الاسلام الى العلم والتعليم

٧ ــ خاتمــــة



الفصل السادس عشر

الاسلام والتنمية الاجتماعية والاقتصادية

– مقـــدمة :

من الضرورى ونحن فى دراســة شاملة عن علم الاجتماع الدينى أن نشير — ولو بشكل اجمالى سريع — الى علاقة الدين الاســلامى بالتنمية الاجتماعية ، ونحاول أن نتبين حقيقة القوة الدافعة التى يمكن أن يزودنا بهــا ديننا لدفع عمليــة التنمية الاجتماعية فى مجتمعاتنا الاســلامية على اختلافها .

وليس فى هــذه الفكرة خروج عن موضوع العلم الذى ندرســه ، ولا عن طبيعة الميــدان الذى نتصدى له ، وهو العلاقة بين الدين والتنمية الاجتماعية . ونحــن نعرف أن ماكس فيبر كان الرائد الأول فى طرق هــذا الموضوع ، حين تناول بشكل مركز وموسع لأول مرة العلاقة بين الدين والاقتصاد فى المجتمــع الغربى ، وفى بعض المجتمعات الأخرى ، ومنها العلاقة بين الدين الاسلامى والتنمية الاقتصادية والاجتماعية فى البلاد التى تدين بالاسلام(١) .

---

(١) عرض تيرنر لدراسات فيبر حول الاسلام فى كتاب مستقل عنوانه « فيبر والاسلام ») أنظر عرضا مفصلا لهذا الكتاب فى المرجع التالى :

الكتاب السنوى لعلم الاجتماع ، العدد الثانى ، اشراف د. محمد الجوهرى ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٨١ ، ص ص ٣٠٥ — ٣٢١ . أعد هذا العرض القيم الدكتور السيد الحسينى ، والكتاب هو :

Turner, B. , weber and Islam. : A Critical Study , Routledge and kegan Paul, London , 1974.

واذا كان لشخص مثل ماكس فيبر ، يبعد عنا اليوم فى الزمان والمكان والانتماء الدينى ، أن يتناول العلاقة بين الدين الاسلامى والنمو الاقتصادى والاجتماعى فانه حرى بنا نحن أبناء هذا الدين أن نتصدى لنتبين هذه العلاقة ، ونكشف عن القوة الدافعة للنمو فى هذا الدين العظيم •

وعملية التنمية الاجتماعية والاقتصادية ليست عملية مادية فقط ، فهى ليست زيادة للموارد الاقتصادية ورفعا لمستوى المعيشة المادى للناس فحسب ، ولكنها علاوة على هذا ، وقبل هذا أيضا ، رفع للمستوى الثقافى والفكرى فى المجتمع • فهى عملية قائمة على جناحين كبيرين أحدهما روحى ، والآخر مادى • ولا يمكن الاعتماد على أحدهما دون الآخر ، أو الاهتمام بواحد منهما دون الثانى • فلا يعقل أن نمنح الناس طاقة روحية هائلة فى معركة حربية ونتركهم فيها بلا سلاح • ولنا فى رسولنا الكريم قدوة حسنة ، الذى كان يعمل بوحى الله ، ويحرص على ابراز دور المعركة التى يخوضها كرسالة دينية الهية سامية ، فى نفس الوقت الذى يعد العدة جيدا للمعركة بالتخطيط الاستراتيجى الحربى والتكتيكى وبتوفير العدة والعتاد •

وفى هذا يؤكد أحد الباحثين العرب على ما نذهب اليه هنا(٢) ، من أن هدف الشريعة الاسلامية — شأنها شأن الشرائع السماوية السابقة — هو اصلاح الفرد فى المجتمع من الناحيتين الروحية والمادية بادئة بالجانب الروحى لتؤهله للجانب المادى •

---

(٢) انظر .
الدكتور مصطفى ابراهيم الزلمى ، الدين والتنمية الاجتماعية ، ورقة مقدمة للمؤتمر الاول لعلماء الاجتماع العرب ، الذى نظمته الجمعية العراقية للعلوم الاجتماعية ، فى بغداد فى الفترة من ٢ — ٦ فبراير ١٩٨٠ ، صفحة ٤ وما بعدها .

ذلك أن المجتمع ينمو ويتطور ويتقدم بقوة دفع هاتين الطاقتين ، الطاقة الروحية والطاقة المادية • وتندرج تحت مفهوم الروحية المبادىء والقيم والخلق والمثل العليا ، كما تنطوى تحت مفهوم المادية جميع الوسائل الملموسة والمحسوسة فى عالم المادة • والطاقة الروحية وحدها تعادل جميع الطاقات المادية التى يستخدمها الانسان لغرض التنمية فى كل مجالات الحياة • فكل غاية مهما كان نوعها وطبيعتها لا يمكن أن تتحقق الا باستخدام طاقة مادية تتناسب مع حجم وأهمية هذه الغاية • وحيث أن المحرك الحقيقى لتشغيل الطاقة المادية البشرية هى الطاقة الروحية ، فليس بمقدور الانسان أن يصل الى النتيجة الايجابية المرضية بالمعنى الصحيح ما لم يجمع بين الطاقتين الروحية والمادية • واذا كانت الأسس المادية لتنظيم الحياة • وتطويرها ضرورية ولازمة ، فان الحوافز الروحية والمعنوية اذا اقترنت بالمادية تصبح قادرة على تطوير المجتمع نحو الأفضل وعلى تحقيق التنمية الاجتماعية والاقتصادية والثقافية •

ومن الواضح أن الطاقة الروحية مصدرها الدين والايمان والعقيدة ، وليس تأثير الدين ودوره فى التنمية الاجتماعية لغزا أو مجرد شعار • بل هو حقيقة ثابتة لها أصولها وركائزها وهى غير خافية على أبناء أمة أخرجت للناس لتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتتولى تبليغ رسالة السماء للأسرة البشرية » (٣) •

واذا كنا فى هذه الدراسة نؤكد على دور الاسلام فى التنمية الاجتماعية الشاملة ، فذلك لأنه عقيدة الغالبية العظمى من أبناء الأمة

---

(٣) د • مصطفى ابراهيم الزلمى ، الدين والتنمية الاجتماعية ، مرجع سابق ، صفحتى ٤ — ٥ •

العربية ، ولأن له معها تجربة تاريخية عريقة ، نقلها فيها من حياة البداوة ومن السبات الحضارى العميق والتمزق والفرقة الى حياة الحضارة والحركة والقيادة والوحدة • وصاغ الاسلام حضارة العرب فى ظل عقيدته وشريعته وأصول حضارته صياغة واضحة ، غدت بفضلها قائدة أعظم تنمية اجتماعية وحضارية فى نواحى الحياة كلها شهدها العصر الوسيط ، وانتهى الى بناء الحضارة العربية الاسلامية التى أدت دورها العظيم فى خدمة الانسانية جمعاء(٤) •

٢ ـ الأحكام والقيم الاسلامية :

ان تأكيدنا على الدور الخطير الذى يمكن أن يلعبه الاسلام فى تحقيق النهضة الاجتماعية المعاصرة فى بلادنا ليس فيه أى تجاوز للحقائق العلمية أو لموضوعية البحث • فالأهداف الاجتماعية والاقتصادية التى حددها الاسلام والقيم السلوكية والأخلاقية التى رسمها ودعا الى تركيزها فى النفوس ، تعتبر أسسا ومنطلقات فاعلة للنهوض بالمجتمع العربى المسلم ودفعه الى طريق التنمية الشامل • وأعنى هنا التنمية بمعناها العلمى الحديث ، من حيث هى عملية تتفاعل فيها عوامل كثيرة ، طبيعية وفنية وسكانية واجتماعية واقتصادية وسياسية وثقافية وأخلاقية ونفسية ••

---

(٤) انظر البحث القيم الذى قدمه الدكتور محسن عبد الحميد بعنوان : «الاسلام والتنمية الاجتماعية» ، بحث مقدم للمؤتمر الاول لعلماء الاجتماع العرب حول الاسس الاجتماعية للتنمية فى الوطن العربى ، الذى نظمته الجمعية العراقية للعلوم الاجتماعية ، والذى عقد فى بغداد فى الفترة من ٢ ــ ٦ فبراير ١٩٨٠ . نقلا من جوستاف لوبون ، حضارة العرب ، الطبعة الاولى ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، بدون تاريخ ، صفحات ٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٧٣ ، ٤٧٧ ، ٤٨٨ ، ٥٠٣ . وكذلك آدم متز ، الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، صفحات متفرقة عديدة .

عوامل موضوعية وذاتية ، عوامل خارجية وداخلية ، عوامل مادية ومعنوية تشكل كلها حصيلة تفاعل حى وخلاق بين المجتمع وبيئته الطبيعية ، وكذلك بين مختلف مجالات الحياة الاجتماعية القائمة .

واذا القينا نظرة على الأحكام التى جاء بها القرآن الكريم ، فسوف نرى أنها تتناول أحكاما اعتقادية وخلقية وعملية سأعرض لها فيما يلى(٥) :

فالأحكام العقائدية تنظم علاقة الانسان بخالقه وتدعو الى معرفة الله وذاته وصفاته وأفعاله . والغاية منها تثبيت العقيدة التى هى قوام الحيــاة الصحيحة للأسرة البشرية والعمــود الفقرى الهيكل المجتمع والعرق النابض فى جسم الفرد والطاقة الكامنة لتنمية المجتمع فى شتى مجالات الحيــاة .

والأحكام الخلقيــة تنظم علاقة الانســان مع نفســه وتدعو الى تهذيب النفوس من الصفات الرذيلة والتحلى بالصــفات الحميدة كالوفاء بالوعد ، والاخلاص فى العمل ، وأداء الأمانة ، وقيام العدل والاحسان والتعاون والتودد والتســاند والتآلف . والغاية منها نشر الفضيلة وابعاد الرذيلة والعمل على ايجاد مجتمع مثالى ومكافحة الجرائم فى المجتمع بطرق وقائية وعن طريق المناعة الروحية .

وتشــمل الأحكام العملية الأحكام الآتية :

١ ــ العبادات : وهى أحكام تنظم علاقة الانسان بربه من الناحية العملية كالصيام والصلاة وغيرهما من الشعائر الدينية التى فيها تهذيب

---

(٥) انظر د . مصطفى ابراهيم الزلمى ، الدين والتنمية الاجتماعيـــة مرجع سابق ، صفحة ٢ وما بعدها .

النفوس وصلاح الفرد وسعادة المجتمع • وتعتبر جميع أنواع العبادات وسائل وقائية لمكافحة الاجرام فى المجتمع • ولذلك نرى أن هذه الشريعة السامية أخذت منذ ميلادها بقاعدة « الوقاية خير من العلاج » • فهى تعتمد فى مكافحة الجريمة على الوسائل الوقائية بنسبة ٩٠٪ ، وعلى الوسائل العلاجية بنسبة ١٠٪ خلافا لما عليه القانون الوضعى •

٢ ــ أحكام الأسرة : وهى أحكام تنظم الحقوق والواجبات الشخصية للانسان من ولادته الى وفاته من رضاع وحضانة وولاية وزواج وطلاق ونفقة ووقف ووصية وكل ما يتعلق بشئون التركة • ففى الشريعة الاسلامية تنظيم دقيق للأسرة لضمان تكافلها وصيانة تماسكها على نحو ينعكس على التكافل فى المجتمع • وقد فاقت الشريعة الاسلامية كل التشريعات الأخرى فى تنظيم الأسرة لأنها الخلية الأولى فى هيكل المجتمع ، ان صحت صح المجتمع ، وان فسدت فسد المجتمع •

٣ ــ أحكام المعاملات المالية : وهى أحكام تنظم علاقات الأفراد الناشئة عن المعاملات فيما بينهم تنظيما بعيدا عن الغش والتدليس والجشع والاحتكار والاثراء على حساب الغير •

٤ ــ أحكام مالية الدولة : وهى تنظم موارد الدولة ومصارفها تنظيما يحقق نظاما ماليا مبنيا على أساس رعاية المصالح العليا •

٥ ــ الأحكام الدستورية : وهى تحدد واجبات السلطة وتنظم العلاقة بين الفرد والسلطة تنظيما مبنيا على أساس الشورى وقاعدة شرعيةالدولة لتحقيق التوازن بين الشعب والسلطة ، وخضوعها للقانون على حد سواء بحيث لا يطغى أحدهما على الآخر •

٦ ــ الأحكام الدولية · هى تنظم العلاقات بين الدولة الاسلامية والدول الأخرى فى حالتى السلم والحرب ، وتنظم معاملة أسرى الحرب ، وعقــد المعاهدات والصلح والهدنة ، واقرار حقوق وواجبات أهل الأديان الأخرى تنظيما مبنيا على الرحمة والمودة والاخوة الانسانية •

٧ ــ أحكام المرافعات : وهى تنظم الاجراءات القضائية بشــكل يحقق العدالة حتى يأخذ كل ذى حق حقه •

٨ ــ أحكام الجنايات والعقوبات : فهى تحدد الجرائم والعقوبات الكبرى ، ثم تترك للعقل البشرى مجال مواجهة الجرائم ووضع العقوبات الأخرى كلما دعت المصلحة العــامة الى ذلك •

وبناء على ذلك فان كل حكم من الاحكام الشرعية شرع لجلب منفعــة للانســان أو رفع مضرة عنه أو رفع حرج عليــه • ففى وجوب الايمان بالله طريق الانقاذ وسمو وتكريم الانســان ، وفى الالتزام بالعبادات وأدائها صفاء النفس ورمز الأخلاق ومنع الانحراف وســبيل التعارف والاهتمام بالمصالح العــامة • وفى أحكام المــالية العامة والخاصــة التعــاون والتضامن والتكافل بين أفراد المجتمع ومحاربة الفقر والأخذ بيد الضعيف وتقوية اقتصاد الأمة •

ومن العقوبات الزاجرة حماية الفرد وراحة المجتمع ووقاية الفضيلة وحفظ الحقوق الأدبية والمــادية • وفى تنظيم الزواج صيانة الأعراض وتقديس روابط الأسرة وبقاء نوع بنى الانســان ، وفى أحكام الأرض توزيع المــال توزيعا عادلا وابعاد اثارة النزاع والأحقاد بين الأقارب •

٣ ـ نظرة الاسلام الى دور الانسان فى التنمية :

اعتبر الاسلام الانسان قيمة حقيقية ، وعاملا من عوامل التغيير والحركة فى الحيـاة ، بما أودع فيه من القدرة العقلية والجسـدية ، والقابلية المستمرة للتكيف • ودليل ذلك أنه جعله مكلفا مسـئولا يستطيع من خلال تلك القدرات أن يحقق خلافة الله على الأرض ، التى خلقت له خلقا فريدا متميزا وهيئت تهيئة متناسقة ، ووضع فيها كل ما يساعده على أداء الأمانة الكبرى فى العيش والحركة والتغيير •

قال تعالى : « واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة(٦) »

وقال : « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا » (٧) •

وقال : « سخر لكم ما فى السموات » (٨) •

وقال : « سخر لكم ما فى الأرض » (٩) •

لقد حمل الانسان هـذه الأمانة الكبرى فى هـذه الأرض ، ولذلك فقد وجب عليه أن يفهم نفسـه فهما دقيقا ، وأن يعلم بأن طاقته العقلية الجبارة هى مدار تكليفه ، لأن مدار الحيـاة وحركتها المنظمة عليـه • ونتيجة لذلك فان عليـه أن ينظر الى ما حوله ليجد آيات الله مبثوثة فى كل ناحية ، وقوانينه ظاهرة على مختلف وجوه الحيـاة والكائنات ،

---

(٦) سورة البقرة ، آية ٢٦ .

(٧) سورة البقرة ، آية ٢٩ .

(٨) سورة لقمان ، آية ٢٠ .

(٩) سورة الحج ، آية ٢٠ .

فتيحرك للاستفادة منها والكشف عنها وتسخيرها لاسعاد نفسه ، بانشاء الحضارة وبناء الحياة ودمج الطاقات المفردة بعضها الى بعض للقيام بذاك التسخير . فعلى ذلك فان الانسان عليه أن يغير ويبدل ويتحرك ويبنى ولا ينتظر المفاجآت الكونية لأنه العامل الرئيس فى التغيير والانتاج المستمر فى الحياة(١٠) .

وقد نبهنا القرآن الكريم الى هذه الحقيقة الاجتماعية بقوله : « ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا مابأنفسهم ، ان الله سميع عليم » (١١) .

ويقول تعالى : «ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم»(١٢)

وضرب المثل بقوله : « وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » (١٣) .

وبما أن هذه الخلافة فى أساسها حركة مستمرة ومواجهة لأقدار الحياة ومشاكلها ، لذلك نبه القرآن الكريم الانسان الى أن السلبية والزهد فى الحياة تناقض تلك الحركة الانسانية الكونية ، من حيث

---

(١٠) د. محسن عبد الحميد ، حركة التغيير الاجتماعى فى القرآن ، الطبعة الاولى ، دار الانوار ، بغداد ، ١٣٩٩هـ — ١٩٧٩م ، صفحة ٩ وما بعدها ؛ وارد فى محسن عبد الحميد ، الاسلام والتنمية الاجتماعية ، مرجع سابق ، صفحة ٤ .

(١١) سورة الانفال ، آية ٥٨ .

(١٢) سورة الرعد آية ١١ .

(١٣) سورة الاسراء ، آية ١٦ .

أنها أساسا تمثل الدور المنوط به على هــذه الأرض • يقول تعــالى فى كتابه الكريم : —

« يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا » (١٤) •

« يا أيها الذين آمنوا انفقوا من طيبات ما كسبتم » (١٥) •

« يا بنى آدم خذوا زينتكم عنــد كل مســجد ، وكلوا واشربوا ولا تسرفوا » (١٦) •

« لا تحرموا طيبات ما أحل الله » (١٧) •

٤ — مظاهر اهتمام الاسلام باستغلال الطاقة الانسانية :

بما أن التنمية عملية اجتماعية متعددة الجوانب كما أوضحنا ، لذلك نجد أن نظرية التنمية الاجتماعية فى الاسلام نظرية متكاملة • فهى تخطط لتفجير طاقات الانســان كلها ، وتوازن بينها موازنة سليمة ، يشترك جميعها دون خلل فى أداء الدور الكامل لتقدم المجتمع الانسانى واقامة حضارته النامية •

---

(١٤) سورة البقرة ، آية ١٦٨ •

(١٥) سورة البقرة ، آية ٢٦٧ •

(١٦) سورة الاعراف ، آية ٣١ •

(١٧) انظر محمد قطب ، فى النفس الانسانية ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، مذكور عند د . محسن عبد الحميد ، الاسلام والتنمية الاجتماعية ، مرجع سابــق صفحة ٧ •

وتنطلق هـذه النظرية من مبـدأ أن تعطيل أية غريزة من غرائز الانسان ومحاولة قتلها ، يؤدى الى احداث فجوة كبيرة فى الحيـاة • ولذلك يمكن القول بأن النظم الاجتماعية الاسلامية على تنوعها واختلافها قد شرعت لاستغلال طاقات الانسـان كلها دون استثناء •

وسنحاول فيما يلى أن نشـير على عجل الى الاستعراض القيم الذى قدمه الدكتور محسن عبد الحميد والذى يوضح دور كل نظام من النظم الاسلامية فى فتح المجال أمام الانسـان لاستغلال طاقاته كلها •

ونبدأ بالكلام عن النظـام العبادى فى الاسـلام • وهو لا يقتصر على الفرائض العبادية المعروفة من صلاة وصوم وحج • فعلى الرغم من أن تلك الفرائض على أكبر جانب من الاهمية ، لانها تشترك فى بنـاء الكيان الانسانى المنضبط المستقيم ، وتشـعره بلذة الفضيلة والطمأنينة ، وتوجه غرائزه الحيوانية وجهـة بناءة ، وتحول بينها وبين الوقوع فى الانحرافات السلوكية والقلق والضياع والاضطراب ، الا أن العبـادة فى الاسـلام لا تقتصر على تلك الفرائض ، بل ان لها مفهوما أشـمل بسع الحيـاة كلها •

فاذا كان المعنى الشرعى الاصطلاحى للعبادة هو الطاعة والخضوع لله سبحانه وتعالى ، فان أى شىء أمر الله الخالق سبحانه بفعله ، فالقيام به طاعة وخضوع وتقرب الى الله(١٨) • ولقد جعل الله الانسـان كما

---

(١٨) يوسف القرضاوى ، العبادة فى الاسلام ، الطبعة الاولى ، بيروت ، ١٣٩٨ هـ — ١٩٧٨م ، صفحة ٢٧ ، نقلا عن المرجع السابق .

ذكرنا خليفة فى الأرض وكلفه بالأمانة الكبرى[١٩] • فأى انسان يتحرك فى أى اتجاه لتحقيق أية مصلحة اجتماعية يعتبر عابدا لله ، مطيعا له ، فى تحقيق هدف من أهداف تلك الخلافة • وعلى هذا فالعامل الذى يعمل بجد اخلاص لزيادة الانتاج الصناعى هو عابد ، والفلاح الذى يزرع الأرض كى يكثر المحصول ويستفيد منه أبناء مجتمعه عابد ، وهكذا المهندس والمدرس والطبيب وكل صاحب مهنة أو حرفة اذا أخلص فى عمله بقصد افادة المجتمع فهو فى الحقيقة مطيع لله بتحقيق قانون من قوانينه •

وهكذا فان كل شىء فى الحياة يتحول الى عبادة ، اذا كان قصد العمل فيه اطاعة الخالق ، وتحقيق أكبر قدر ممكن من المنفعة الذاتية والاجتماعية المشروعة ، على نحو ما بين ذلك بالتفصيل الدكتور يوسف القرضاوى فى كتابه[٢٠] •

واذا راجعنا تاريخ الحضارة الاسلامية فى قرونها الأولى ، فسوف نجد أن الانسان فى ظل هذه المثل العليا الاسلامية قد تحرك لمواجهة

---

(١٩) انظر قوله تعالى :

« انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال ، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها فحملها الانسان ، انه كان ظلوما جهولا » ، سورة الاحزاب ، آية رقم ٧٢ .

(٢٠) يوسف القرضاوى ، العبادة : الاسلام ، مرجع سابق .. وقد أورد عديدا من الآيات القرآنية الكريمة والاحاديث والقصص الاسلامى الذى يوضح ذلك المبدأ العام .

وانظر كذلك د . محمد البهى، الفكر الاسلامى والمجتمع المعاصر، مشكلات الاسرة والتكافل ، الطبعة الاولى ، القاهرة ، بدون تاريخ ، وغيرهما من المراجع الوارده هناك حول تطبيقات وأسانيد هذا المبدأ الاسلامى العام .

الحياة وبنائها • ولذلك نجد الرعيل الأول من المسلمين قد انطلقوا بحماس عظيم ، وتغلغلوا فى كل اتجاه ، وبنوا الحضارة الاسلامية فى فترة زمنية قياسية مسخرين كل ما يملكون من امكانيات متاحة بما يعود عليهم وعلى البشرية جميعا بالخير العميم •

وهكذا اذا أجلنا النظر وأعملنا الفكر فى كل مناحى التنظيم الاسلامى للمجتمع وجدنا ديننا يعمل على اطلاق طاقات الانسان بما يعود عليه بالخير والنجاح فى الدنيا والآخرة • ولو نظرنا فى تشجيع الاسلام للبحث والفكر الذى يفيد المجتمع والمسلمين لوجدناه فى عصوره التاريخية الزاهرة يعترف بحرية الانسان العقيدية والفكرية ويؤكد عليها • ولقد كان لهذه الحرية دور عظيم فى عملية التقدم الحضارى والتنمية الاجتماعية ، بحيث استطاع كل انسان فى المجتمع الاسلامى أن يؤدى دوره دون أى عائق ، ولا شك أن ملايين الكتب والمخطوطات فى شتى فروع العلم والفلسفة والآداب والفنون ، والمنتشرة فى مكتبات الشرق والغرب لدليل واضح على الانجاز الحضارى الاسلامى الذى تم فى ظل تشجيع الاسلام لحركة العلم والحرية الفكرية[٢١] •

٥ — النظام الاقتصادى الاسلامى :

ينطلق النظام الاقتصادى الاسلامى من المقاصد العامة للشريعة الاسلامية ، وهى جلب المصالح الى الناس ودرء المفاسد عنهم ، وترجيح

---

(٢١) يحيلنا الدكتور محمد عبد الحميد الى كتاب الدكتور حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام السياسى ، وآدم متز ، الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، وجوستاف لوبون ، حضارة العرب ، خاصة الفصول الخاصة بالحركة العلمية والادبية والفنية والعلوم الاسلامية .

المصلحة العـامة على المصلحة الخاصـة ، وتحمل أخف الضررين ، ورفع الضرر ، وتقديم الحاجات الضرورية ، وتكريم الانسـان ومنع استغلاله بأى شكل من الأشكال ، ورفع التعسف فى استعمال الحقوق(٢٢) •

وأول مبدأ من مبادىء الاقتصاد الاسلامى ، اقرار الملكية الفردية باعتبارها غريزة ذاتية تدفع الى الجد فى العمل والاستثمار والتنافس الطبيعى الذى يزيد من الدخل القومى عن طريق زيادة الانتاج • وبجانب الملكية الفردية فقد اعترف الاسلام بالملكية العامة وملكية الدولة ، اذا كان فى ذلك صيانة لمصلحة عامة •

أما العملية الانتاجية فان الاسـلام يلتقى فى مبادئه الكبرى مع مقوماتها سواء ما تعلق منها بالأدوات الفنية أو ما اتصل منها بالتنظيم • ذلك أن تكنولوجيا الانتاج تتحـدد بالعلم والمعرفة وبمستوى كل منهما ودرجة ارتقائه فى المجتمع • والاسلام يحض على تحصيل العلم ويحث على ادراك المعـرفة • ومن البديهى أنه لا يوجد تعارض بين العـلم والاسلام ، بل هناك توافق وتلاحم لما فيه خير البشرية • ويترتب على ذلك أن عطاء العلم فى ميادين الآلة واكتشافاته فى ميادين الكهرباء والذرة تتمشى كلها مع روح الاسلام ونصوصه •

أما الجانب المذهبى من الانتاجية فقد خصه الاسلام بأدق تنظيـم ، ويبدو ذلك أوضح ما يكون فى موقفه من العمل ورأس المـال باعتبارهما من أهم قوى الانتاج فى أى تنظيم اقتصادى • أما موقفه من العمـل

---

(٢٢) الدكتور محمد سلام مدكور ، المدخل الى الفقه الاسلامى ، الطبعة الاولى ، القاهرة ، ١٣٨٤ هـ — ١٩٦٤ م . صص ٩٣ — ١٢٦ . انظر محسن عبد الحميد . المرجع السابق، صفحة ١٧ .

نابع من فكرة الاستخلاف فى الأرض ، لأنها لن تتحقق الا بالحركة والتغيير والعمل • ومصداق ذلك قوله تعالى : « ثم جعلناكم خلائف فى الارض من بعدهم لننظر كيف تعملون » (٢٣) •• وقوله جل وعلا : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه » (٢٤) •

ومن هنا نرى بوضوح أن الاسلام جعل العمل هو المعيار الأساسى فى الحيـــاة ، فكل مغنم أو مال لا يكون ناتجا عن جهـــد بشرى فكرى أو عضلى يبذل فهو مرفوض (باستثناء حالات خاصـــة كالارث والهبة ومساعدة غير القادرين على العمل وغير ذلك من الحالات المماثلة) • ذلك لأن الانســـان المستخلف يثبت بعمله حقيقة وجوده وانسانيته •

ان اهتمام الاسلام بخلق المجتمع العامل ينبع أساسا من قانون اقتصـــادى ثابت هو أن الانتاج لا يتوقف على رأس المـــال وحـــده ، بل يعتمد كذلك على العمل الانســـانى • ولذلك يبارك الاســـلام العمل فى كل وقت ولا يجعل العبادات عائقة عن طلب العمل • ويدلنا على ذلك قوله تعالى : « فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من رزق الله » (٢٥) •

والعمل فى عرف المجتمع الاسلامى يعد حقا وواجبا فى آن واحد ، فهو حق للفرد قبل المجتمع ، وواجب عليه أيضا قبل المجتمع • وينبنى على ذلك التزام المجتمع بتوفير العمل لكل قادر ، والتزام كل قادر بتقديم العمل الى المجتمع • فلا مكان فى المجتمع المسلم للعاطل جبرا واختيارا ،

---

(٢٣) سورة يونس ، آية رقم ١٤ •

(٢٤) سورة الملك آية رقم ١٥ •

(٢٥) سورة الجمعة ، آية رقم ١٠ •

لأن كل طاقة انسانية فاعلة لابد أن تكرس لخدمة أغراض الانتاج والتنمية وتوفير أسباب الارتقاء به • واذا لم يتكاتف المجتمع كله فى توفير هذا العمل ، أثمت الجماعة كلها ، لأنها قصرت فى توفير الجو الملائم لكى يظهر كل انسان استعداده وقدارته ، فيحقق بذلك الأمانة التى كلف بها من قبل خالقه •

وهكذا نجد أن نظرية الاسلام التى تعتبر العمل عبادة تعد دافعا قويا يدفع الانسان المسلم الى الاتقان فى عمله والاخلاص فيه • ويعد الفرد مقصرا اذا تقاعس أو تكاسل أو لم يؤد واجبه على الوجه المطلوب • وينتهى هذا الجانب الهام من التوجيه الاسلامى الى زيادة الانتاج فى المجتمع باستمرار ، والارتقاء بمستوى هذا الانتاج ، طالما أن الدافع الى العمل ينبع من أعماق النفوس المؤمنة التى تعتقد بأنها بعملها هذا تتقرب الى الله وتحصل على رضاه وتبتعد عن عقابه •

أما ما يتعلق برأس المال ، فيوضح الدكتور محسن عبد الحميد فى دراسته المشار اليها ، أن الاسلام قد أمر بالمحافظة على رأس المال وانمائه ، ونهى عن اضاعته وتبذيره ، وجعل فيه وفى ثماره حقا لأصحاب الحاجة وحقا للمصلحة العامة • وفى ذلك يقول سبحانه وتعالى : « وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا • ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفورا » (٢٦) وقال تعالى : « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا » (٢٧) •

---

(٢٦) سورة الاسراء آية رقم ٢٧ •

(٢٧) سورة الاسراء آية رقم ٢٩

وينبنى على ذلك أن الاسلام قد وضع الاسس السلوكية التى يتوقف عليها تكوين رأس المال ، فاستوجب الامتناع عن تبذيره بالاستهلاك ، واستلزم ضرورة انمائه بالاستثمار . ولعل كثيرا من مجتمعاتنا العربية والاسلامية تحتاج أشد الاحتياج الى تطبيق هذه النظرة الاسلامية السامية الى رأس المال ، وكذلك بأن تتوقف عن الاندفاع الشديد نحو الاستهلاك ، خاصة الاستهلاك المظهرى الذى لا يستهدف تلبية حاجة أساسية أو اشباع متطلبات ضرورية ، وانما يعمل على التبذير وتبديد الثروة من أجل التفاخر واكتساب احترام الناس بلا أساس ولا سند من جهد أو تفوق حقيقى . ولا أقصد بذلك البلاد الغنية ذات المستويات العالية من الدخول ، ولكن حتى فى البلاد الفقيرة ذات الموارد المحدودة ، ليس فى عالمنا العربى والاسلامى فحسب ، وانما فى كافة بلاد العالم الثالث التى تتلمس لنفسها طريقا للتنمية والتقدم . ففيها نجد القلة التى تحقق شيئا من الثروة تندفع الى الاستهلاك وتبديد هذا الدخل ولا تبقى شيئا للاستثمار يعمل على تراكم الثروة وتنمية البلاد وتحقيق التقدم على المدى الطويل ، ومن أجل خير كافة أبناء مجتمعاتها .

ومجمل القول ان المذهب الاقتصادى الاسلامى يضع فى الاعتبار قانون الحركة والتغيير الذى يعتبر من سنن الحياة ويرتب عليه نتائجه . غير أنه لا ينسب الحركة الى عامل واحد ، ولا يردها الى ما هو مادى بحت ولا ما هو معنوى بحت ، ولكنه يضعها فى اطار ناموس طبيعى من العوامل المادية والمعنوية ، تؤثر كل منها فى الأخرى بقدر سلوك

الانســـان وجهده ، فتتجه بالمجتمع الى الارتقاء أو الى التروى[٢٨] •

٦ ــ نظرة الاسلام الى العلم والتعليم :

من أشـــد الأمور صعوبة أن تنجح التنمية الاجتماعية والاقتصادية بكل أبعادها المتشابكة فى مجتمع غير متعلم ، تسيطر على أبنائه الفوضى العقلية التى تبعده عن التخطيط • فالتعليم هو الذى ييسر لكل فرد فى المجتمـــع التعامل مع النظم البيروقراطية والقواعد التنظيمية الحديثة ، ويجعله قادرا على التعامل مع مستحدثات العصر من الآلات والأدوات ، وييسر له التواصـــل الجيـــد مع أبنـــاء مجتمعه ، وأبنـــاء المجتمعات الانسانية الأخرى التى تعيش معه ، فيستفيد من خبراتها ، وتجعل هذا المجتمع قادرا فى النهاية على تقديم انجازات أصيلة وبارزة للاسهام فى الحضارة العالمية • ونحن نعلم كم ســـاهم المجتمع الاســـلامى الزاهر فى دفع عجلة الحضارة الانســـانية الى الأمام ، فطور العلوم وارتقى بالآداب والفنون ، ونقل المجتمع الاســـلامى ، كما نقل المجتمع البشرى كله خطوة ، بل خطوات جبارة الى الأمام • وأصبحت فترة ازدهار المجتمع الاسلامى نقطة مضيئة فى التاريخ الانســـانى كله ، يذكرها اليوم العالم الغربى ، قبل أن نذكرها نحن أحفاد هؤلاء القادة الاسلاميين العظام •

لذلك نقول ونؤكد ان تطوير المجتمع نحو العلم ونحو التفكير العلمى أمر ضرورى وشرط لازم من شروط التقدم ، لأنه الباب الذى يلج منه المجتمع من البداوة الى الحضارة ، ومن الفوضى الى التخطيط والنظام ،

---

(٢٨) د • محسن عبد الحميد ، المرجع السابق ، نقلا عن الدكتور ابراهيم دسوقى اباظة ، الاقتصاد الاسلامى • مقوماته ومنهاجه ، دار الشعب ، القاهرة ، الطبعة الاولى ، د • ت • ، ص ٤٥ •

وكسب الوقت للوصول الى الانتاج الوفير وبناء الصحة العامة ، والقضاء على الأمية ومحاربة العقلية الخرافية التى لا تهتم بالأسباب ولا تستفيد من قانون العلية فى الوجود لرسم مستقبله الحضارى ٠

واذا كان العلم يعنى اليوم اكتشاف قوانين الحياة والمادة ، فان الاسلام قد دعا الى ذلك بهذا المعنى الخاص ٠ لأن القيام بواجب الخلافة على هذه الأرض ، لا يتم الا من خلال عملية تسخير القوانين المبثوثة فى العالم المحيط بنا ٠ لقد أعطى الله سبحانه وتعالى الانسان الاستعدادات والطاقات والمهارات الكاملة للاستفادة من قوانين الحياة ، فلم يبق الا أن يسخرها ويكشف عن مجاهلها ويخطط الحياة على أساسها ٠

ولقد نبهنا القرآن الكريم الى هذه المعانى فى عشرات من آياته ٠ ولا يمكن أن يشك من يقرأ مثل هذه الآيات فى أن العلم الحديث (الذى يتباهى به الغرب) اينما هو علم قرآنى فى موضوعه ٠ ذلك أن هذه العلوم الطبيعية انما تبحث عن أسرار الظواهر الكونية التى نبه اليها وأمر بالبحث فيها[٢٩] ٠

ان القرآن يفتتح الدعوة الى العلم بمثل قوله : « قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق » [٣٠] وقوله : « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » [٣١] ٠ ولقد دعا الى منهج علمى واضح قبل أربعة عشر قرنا للوصول الى الحقيقة ، وبناه على أسس متينة نجملها فيما يلى :

---

(٢٩) المرجع السابق ، نقلا عن الكتاب التالى :
الاسلام فى عصر العلم ، تأليف الدكتور محمد أحمد الغمراوى، القاهرة ، الطبعة الاولى ، ١٩٧٣ ، صفحة ٢٣ ٠

(٣٠) سورة العنكبوت ، آية رقم ٢٠ ٠

(٣١) سورة يونس ، آية رقم ١٠١ ٠

الأول : يقوم على أساس رفض الظن والتمسك باليقين • فيقول تعالى : « وما يتبع أكثرهم الا ظنا • ان الظن لا يغنى من الحق شيئا ، أن الله عليم بما يفعلون » (٣٢) •

الثانى : منع التقليد الأعمى للسابقين ، والبحث دائما عن الدليل والبرهان عن طريق البحث والنظر • فيقول تعالى : « واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل اللـــه ، قالوا بل نتبع ما ألفينا عليـــه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » (٣٣) •

الثالث : لقـــد قرر القـــرآن الكريم أن الحقائق متوافقة بحيث لا تصطدم حقيقة بحقيقة أخرى ، فيقول تعالى : « ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت » (٣٤) •

الرابع يشمل التدقيق والتركيز فى المشاهدة ، اذ أن القرآن الكريم يدعو الى استعمال الحواس جميعها فى سبيل الوصول الى الحقيقة • وثبت هذا المبدأ فى عشرات من الآيات القرآنية ، نذكر منها على ســبيل المثال قوله تبارك وتعالى : « ولقد بوأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بهـــا ، ولهم أعين لا يبصرون بهـــا ، ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالانعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون »(٣٥)•

---

(٣٢) سورة يونس ، آية رقم ٣٣ •

(٣٣) سورة البقرة ، آية رقم ١٧٠ •

(٣٤) سورة تبارك ، آية رقم ٣ •

(٣٥) سورة الاعراف ، آية رقم ١٧٩ •

ولقد عرضنا هــذه الأسس على أحدث المناهج العلمية فسوف نرى أنها لم تصل الى أكثر مما قوره القرآن الكريم •

فأما بالنسبة الى الأساس الأول ، فان العلم يحاذر كل المحاذرة من أن يجعل يقينا ما ليس بيقينى •

وأما بالنسبة الى الأساس الثانى ، فان العلم يمنع التقليد فى النظر من غير وقوف على الدليل واقتناع به •

وفيما يتعلق بالأساس الثالث فان العلم فى تطبيقه قوانين التفكير المجموعة فى علم المنطق القياسى يتخذ أصلين يبنى عليهما : الأول أنه لا تناقض مطلقا بين الحقائق ، والثانى أصل اطراء الفطرة واستقلالها • فما ثبت أنه حق فى وقت ما سيكون دائما حقا ، أو بعبارة أخرى ان الحق مستقل عن الزمان والمكان •

وبخصوص الأساس الرابع فان المشاهدة الدقيقة بالطريقة الطبيعية والالهية أساس مهم من أسس التقدم العلمى الكبير فى هذا العصر • واذا أدركنا حقيقة مطابقة العلم الحديث فى البحث مع الحقائق القرآنية ، عرفنا سر التقدم الحضارى بعد مجىء الاسلام •

ولذلك نقول ان فهم واستيعاب المنهج العلمى الدقيق ، الذى أرسى أساسه القرآن الكريم ، ينتهى الى بناء العقلية الاجتماعية والحضـارية على أساس من المنهجية العامية والايمان بمبدأ العلــة والتجريبية ، والحيلولة بينها وبين الوقوع فى براثن النظرة الخرافية فى فهم أحداث الوجود ، والتى تقع دائمــا فى تصديق الأشياء دون تطبيق المنهج العلمى السليم • الأمر الذى يلحق الأضرار الفادحة بعملية التنمية الاجتماعية الشــاملة فى مجالات الحياة كلها •

٧ ــ خاتمـــة :

لمـــا كانت التنمية الاجتماعية بمعناها الشامل قد أصبحت هدفا من أهداف المجتمع العربى المسلم ، لأنه طريق تجاوز التراكمات الســلبية المتخلفة التى استحكمت فى مجتمعاتنا منــذ قرون ، وبناء المجتمــع بالحضارى المتقدم بعقلة علمية دقيقة فى العصر الحاضر •

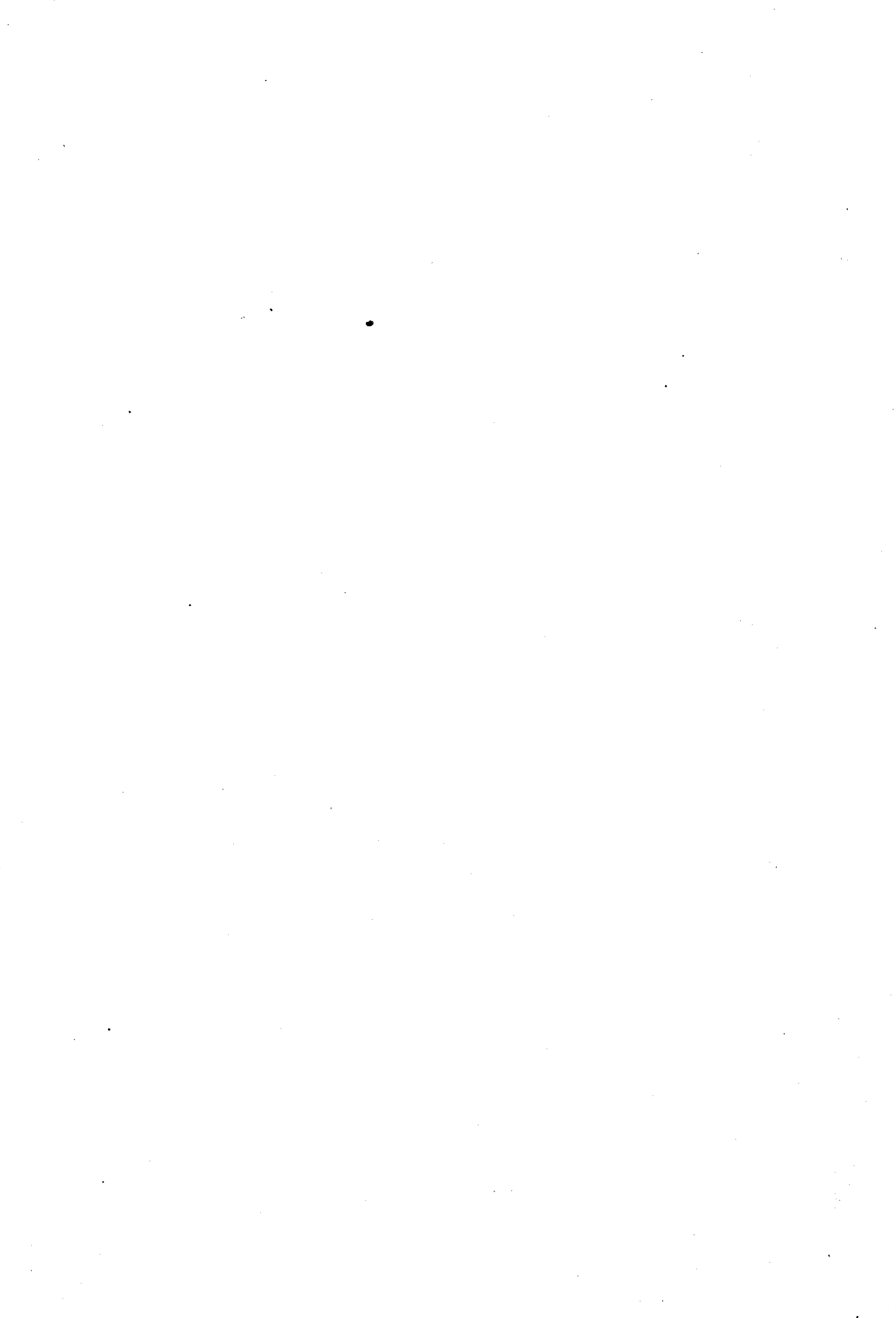
ولمـــا كانت جذور الاســـلام مازالت قوية فى النفوس ، لأنه عقيدة الأمه وخليفتها ورسالتها الحضارية ، وقانونها الروحى والأخلاقى ، فان تربية الأمة فى المجالات كلها ، وعلى مستويات متنوعة تربية ايمانية ، وافهامها بحقائق الاسلام، ومحاولة صقلها بروح حضارته،ومنهجه العلمى وأنظمته الحيوية المتشابكة وقيمه الأخلاقية والنفسية العالية ، لمن شأنها أن تعيد للأمة أصالتها وحركتها ، وتشعل فى نفوس أبنائها روح الجهاد العام فى كل زاوية من زوايا المجتمع لانجاح عملية التنمية الاجتماعية الحضارية ، ، كى تستيقظ الأمة وتسترجع أمجادها وتعيد توازنها ، وتلتفت الى ما حولها فتأخذ من الحركة العلمية العالمية أحسن ما فيها من الخطط والبرامج مما يساعدها على بنـــاء وحدتها الفكرية والحضارية المســتقلة •

ولا شك أنه اذا عرف أبناء أمتنا العربية الاسلامية أن العمل الدائب هو عبادة لله تعالى ، وأنهم مأمورون دينا أن يتحركوا ، وأنهم سيحاسبون اذا فرطوا وقصروا ، لأن رسول الله صلى الله عليه وســلم يقــول فى الحديث الصحيح : « لا تزل قدما عبد يوم القيامة الا ويسأل عن ثلاث : عن عمره فيم أفناه ، وعن ماله مم اكتسبه وفيم أنفقه ، وعن علمه ماذا عمل به » • انهم اذا تربوا على ذلك وعرفوه ، فانهم سوف يندفعــون اندفاعا حماسيا عظيما لاتمام المهمة واعادة البناء الجديد ، من خــلال التنمية الشاملة فى كافة نواحى الحياة •

الفصل السابع عشر

نظرة خاصة الى دور الاســـلام

فى التنمية فى المجتمع العربى السعودى



الفصل السابع عشر

نظرة خاصة الى دور الاســلام

فى التنمية فى المجتمع العربى السعودى

من دراستنا للديانات المختلفة الوضعية منهـا والمنزلة . اتضح ان الدين كظاهرة اجتماعية يؤثر فى المجتمع وفى أنظمته وفى الوقت نفســه ينظمه ويحدد تصرفات أفراده ويضبط سلوكهم ، وبذلك يصبح وســيلة ضابطة من أهم وسائل الضبط الاجتماعى .

غير أن الدين والمجتمع يؤثر كلاهما فى الآخر ويتأثر به ويضفى كلاهما على الآخر أسبابا كثيرة قوية تتفاعل وتمتزج ويعتمد كل منهما على الآخر . ويتوقف عليــه الى أبعد الحدود ولا معنى لدين لا يخاطب المجتمع ويلائمه ويتمشى مع العوامل المؤثرة فى هــذا المجتمع . فالدين لابد وأن يكون صدى لمـا يوجد فى المجتمع من أحاسيس وتأملات وهو مرآة تنعكس فيهـا العادات المختلفــة والتقاليد المتباينة لمجتمــع من المجتمعات . وهو لابد أن يعبر بصورة صادقة عما يسود المجتمع من معايير وقيم . وقد يتناولها بالنقد والتوجيه والتقويم . فيبقى على الصالح منهـا ويرسم الطريق الى حياة أفضل . وينمى الوازع ويرعى الفضيلة الاجتماعيــة .

فالأديان تتطور من حيث فهم الناس لهـا على مر العصور بتطور المجتمع البشرى وارتقاء نماذج التفكير . والمتتبع للأديان يجد أنها كانت تخاطب الناس على قدر تفكيرهم وبالوسيلة المجدية . ونجد أن الأديان كانت تعامل كل مجتمع بما يناسبه تبعا لظروفه الســائدة . والأكثر من ذلك نجد أن الدين كثيرا ما يتشكل نتيجة حتمية لعدة مؤثرات فى مجتمع

ما • فالمجتمعات التى عبدت الشمس أو النار وجدوا أنها مصدر الحياة فى نظرهم • هــذه الأديان البدائية يتمثل فيها التأثر فى المجتمع وعوامله الى أقصى الحدود • وكذلك الشأن بالنسبة للمجتمعات التى عبدت العجل كالمصريين القدماء والهنود ، فقد قدسوا هذا الحيوان أو ذاك لأنهم وجدوا أنه عماد حياتهم ، وعليــه يتوقف سير أمورهم فى أهم مظاهر نشاطهم الاجتماعى • والأديان الوضعية خير دليل على التجاوب الواضح بين المجتمع والعادات الســائدة فيه • فلو أن دينا وضعيا خالف العادات والمؤثرات الموجودة فى المجتمع لكان ذلك أدعى الى انصراف الناس عنه • فنشأة عبادة الاصنام مثلا فى بعض المجتمعات ترجع الى أن محــور العادات الســائدة فى تلك المجتمعات كان التطلع الى آفاق بعيــدة ، فقويت هــذه العادة فى نفوسهم الســاذجة وتواتر العــامة على اتباعها أو حرص الجميع على الاقتداء بها ، اعتقادا منهم بقوتها وسرها • وخشى العقلاء منهم الخروج على معتقدات جمهرة العامة منهم ، وخشى البسطاء على مخالفة أوامر هــذه الأصنام خشية النحس والبلاء كما يتوهمون ، فكان أن تجمعت شيئا فشيئا الآراء حول فكرة واحــدة ، وتلاقت بمرور الزمن هــذه المعتقدات وامتزجت وتفاعلت حتى صارت معتقدات مقدسة اتخذت العبادة الثابتة •

فالمجتمع هو المجال الذى يظهر فيه الدين • ومن أعماق المجتمع يبعث الدين لاصلاح وتطوير قيم ومفاهيم هــذا المجتمع • ولا مجتمع بغير دين ، اذ أنه المنظم والضابط للعلاقة التى تربط أفراد المجتمع الواحــد وتعمل على بقاء هــذا المجتمع وصيانة كيانه وتنسيق العلاقة بين الأفراد من جهة ، والمنظمات والنظم من جهة أخــرى • وعلى ذلك يتأثر الدين بالمجتمع ، فالدين الذى ينشــأ فى الصحارى غير الذى ينشــأ فى المدن لاختلاف المعتقدات • حتى الدين الواحد قد تلتصق به كهانة وأوهــام

وترهات فى مجتمع ما عنه فى مجتمع ثان نتيجة لاختلاف درجات التفكير بين النـاس •

ولئن كان الدين يتأثر بالمجتمع فانه يؤثر فيه أكثر من تأثره به ، بل أن تأثيره فيه أبعد مدى وأشد تغلغلا وأكثر انطباعا • وذلك لأن الدين بعد أن يأخذ منه مظهره الروحي وقوته الالزامية وقبوله الاجتماعى يعود فيؤثر فى المجتمع الذى نشـأ فيه ويكون تأثيره بصورة شاملة ، فيكون تأثيره تغييرا فى التفكير وتحويلا فى شتى نواحى الحيـاة • فهو يصقلها بصورة خاصـة تتمشى مع تعاليمه وتساير روحه • يؤثر الدين فى المجتمع فيرسم الطريق الى حياة مستقلة وينظم العلاقة بين كافة الافـراد • وبالنسبة للأديان السماوية يعتبر الدين شريعة الكون والمشرع هو الخالق • وعنى عن البيان أنه اذا كان الدين من الأديان الوضعية فانه يكون مجالا خصبا للمجتمع يؤثر فيه ويتأثربه أكثرمن أن يتأثر الدين السماوى بالمجتمع • لأن الدين السماوى يستمد سلطانه من مصدر لا يتغير جوهره ولا تتبدل أصـولـه •

فالتأثير المتبادل بين الدين والمجتمع يمكن أن يأخذ صورتين فاما أن الدين هو الذى يؤثر فى المجتمع ويشكله طبقا لعقائده وأفكـاره كما هو الحـال فى الديانات السماوية المنزلة ، واما ان المجتمـع هـو الذى يؤثر فى الـدين فيرسـم لـه حـدوده ويحـدد تركيبـه بـل وصورته أيضا كما يتضح ذلك فى الديانات الوضعية • وفى كلتا الحالتين يوجد تأثير واضح • ولكن المسألة تنحصر فى معرفة الاتجاه الذى يحـدث فيه هذا التأثير وفى كيفية تفسيره • فقد كان فوستال دى كولانج أول من وقف بوضوح على العلاقة بين الدين والنظام الاجتماعى فى كتابه (المدينة العتيقة) • ولكنه يرى أن الدين هو الذى يؤثر فى النظام الاجتماعى ، فقد شكلت عبادة الاسلاف العائلة بطابع خاص ، كما شكلت عبادة الابطال

نظام المدينة • وقد ذهب دوركايم الى عكس هذا الرأى فى كتابيه (تقسيم العمل الاجتماعى والانتحار)فقال ان الافكار الدينية وليدة البيئة الاجتماعية بدلا من أن تكون مصدرا لها • واذا أثرت هذه الافكار بعد نشأتها فى الاسباب التى دعت الى وجودها فليس من الممكن أن يكون هذا التأثير عميقا جدا • ولكن حدث تغير كبير فى تفكير دوركايم فى عام ١٨٩٥ كما يعترف هو بنفسه ، وقد تمهذا التغير عقب قراءته لسميث الذى بين له أن العامل النفسى أهم بكثير من العامل المادى فى تفسير الظواهر الدينية• فكان هذا أساسا لكتابه (الاشكال الاولية للحياة الدينية) • حقا لم يتغير المبدأ الذى بنى عليه دوركايم نظريته : فالدين يظل دائما تعبيرا عن المجتمع فيما يرى ، ولكنه يصبح الآن تعبيرا عن العواطف الاجتماعية التى يفك عقالها بمناسبة الاعياد والطقوس ولم يعد تعبيرا عن النظام الاجتماعى • ولذا نرى لدى بعض أتباع دوركيم ما يشبه أن يكون عودة الى النظرية التى قال بها فوستان دى كولانج • فقد بين هالفاكس العلاقة بين الدين والمجتمع وتأثير العقائد الدينية فى مختلف نماذج النظام الاجتماعى • ولذا نرى لدى بعض أتباع دوركايم ما يشبه أن يكون « ليس المعبود هو الذى يتشكل بصورة المجتمع ، بل هو المجتمع هو الذى يتخذ العبادة نموذجا يحتذيه • ففى الاصل لم يكن هناك وجود مادى لجماعة من الناس فحسب ، بل كانت هناك فكرة أيضا » •

هكذا يتضح تأثير الدين فى المجتمع وأشد ما يكون وضوحا فى تأثير الدين الاسلامى على مختلف نواحى الحياة فى المجتمع العربى السعودى وأنظمته المتباينة والتى تأثر جميعها بالدين • فهناك تأثير فى النظام الاقتصادى بقطاعاته المختلفة ، الزراعة الحج والسياحة ، التجارة ، التصنيع • وقد أشرت فى دراسة سابقة لى الى ما يأمر به الدين ويبيحه وما ينهى عنه ويحرمه فى الانشطة المختلفة فى النسق الاقتصادى

السعودى . الذى أخذ بالاساليب العلمية والتكنولوجية لدفع عجلة التنمية الاقتصادية فى الحدود التى رسمها الدين والتى لا تتعارض مع قواعده الاساسية الضابطة . ولكى يمكن زيادة سرعة التنمية فى المجتمع المدروس أشير الى ما يلى :

ان التنمية نادرا ما تكون عملية منظمة أو مخططا لها بصورة جيدة أو موجهة ، بل أن عملية التنمية تسير بأقصى سرعة عندما يدرك ذوو الكفاءات الفرص المتاحة لهم لاستغلال مواهبهم المبدعة فى مجهودات اقتصادية انمائية تساعد المسئولين على وضع البرامج الاكثر دفعا للتنمية الحيوية المغذية لنفسها . ويتم ذلك بتشجيع الحكومة لاقتصاد يمكن للمبادرات الفردية التنافسية أن تزدهر فيه مع قيام التدابير التشجيعية الحكومية بتوجيه تلك المبادرات التى تسعى الى تحقيق مبادرتها الخاصة نحو العمليات الانتاجية التى تزيد الدخل الوطنى . ولتحقيق ذلك أعرض النقاط التالية :

١ — من المرجح أن تعرض فرص الانماء الصناعى على شكل مشاريع أو مؤسسات معينة أو سيقوم المسئولون بتقييم المنافع والتكاليف لمثل هذه الفرص لا على أساس كل مشروع على حدة ، وانما على أساس القطاع الصناعى ككل والقطاعات الاقتصادية الاخرى . على أن يضم القطاع الصناعى أكثر من مشروع . واذا كانت تنمية قطاع صناعى معين تبشر بتحقيق منافع صافية للمجتمع ، واذا كانت تنمية مثل هذا القطاع تتطلب حوافز تشجيعية لتحسين الجدوى التجارية للاستثمار فيه . وسوف يقوم المسئولون بتقرير مستوى الحوافز التشجيعية اللازمة لجعل المشروع المدار بصورة جيدة مجديا من الناحية التجارية . فهناك معيار اقتصادى هو أثر مشروع ما على العمالة . ان الزيادة فى الدخل الوطنى لا تشبه

زيادة العمالة ، على الرغم من أنهما يسيران جنبا الى جنب • فمثلا يمكن لمشروع ما أن يوفر العمالة فى نفس الوقت الذى ينقص من الدخل الوطنى، وذلك عن طريق زيادة كمية الجهد اللازم للحصول على منتج معين • ويمكن أيضا لمشروع ما أن يزيد الدخل الوطنى باستخدام مصادر معينة بصورة أكثر فعالية عما كانت عليه من قبل بحيث يقتضى الامر يدا عاملة أقل عددا للحصول على انتاج معين •

هناك أيضا معيار آخر قد يكون له تأثير فى بعض المجتمعات وهو أثر المشروع على احتياطى مجتمع معين من العملات الاجنبية • ان الزيادة المضافة الى الدخل الوطنى قد يكون أو لا يكون لها أثر ملائم على ميزان المدفوعات الدولى لمجتمع ما ، وبالتالى على احتياطيه من العملات الاجنبية • فمثلا ان مشروعا يؤمن زيادة للدخل الوطنى قد لا يمكن تحقيقه الا اذا أنفقت عملات أجنبية مقابل الحصول على موارد أجنبية لازمة لتنفيذ المشروع • فاذا لم يساهم المشروع بصورة محسوسة فى انتاج سلع للتصدير أو فى انتاج سلع يستعاض بها عن المستوردات ، فان ميزان المدفوعات سيتأثر بصورة عكسية•ولحسن الحظ لا يعانى المجتمع السعودى مشاكل بالنسبة لميزان مدفوعاته ، وان الدولة ليست بحاجة الى الاستغناء عن مشاريع تزيد الدخل الوطنى بحجة أنها تسبب انتقاص احتياطيها من العملات الاجنبية •

وكنقطة انطلاق يمكن اعتبار تقييم التكاليف والمنافع بالنسبة للدخل الوطنى كمعيار لتحديد الرغبة من وجهة نظر الاقتصاد الوطنى فى انشاء مشاريع صناعية وبرامج انمائية • ان أى مجتمع مهتم بتنمية دخله الى أقصى حد سيختار انشاء تلك الصناعات التى يرتجى منها أعلى نسبة من صافى المنافع أو بصورة أكثر دلالة أعلى نسبة من اجمالى

المنافع بالمقارنة مع التكاليف • وحين تكون هذه الصناعات ليست هى التى سيقع عليها اختيار المستثمرين استنادا الى الارباح المحتملة عندها ، يصبح على المسئولين تأمين الحوافز التشجيعية اللازمة لدفع المستثمرين للقيام بمشاريع نافعة أيا كانت تجارية أم صناعة أم زراعية على صعيد وطنى •

٢ — يقضى مبدأ الاعتماد على المبادرات الفردية التنافسية بوجوب تحمل المبادرين من رجال المال والاعمال بصورة متزايدة المسئولية الرئيسية عن تنفيذ التنمية الصناعية ، على الرغم من أن الحكومة قد تقوم أحيانا بدور المبادر خلال المراحل الاولى من عملية التصنيع •

ولحسن الحظ فان مبدأ المبادرة الفردية فى المجتمع السعودى مبدأ مفهوم ومقبول • فالسعوديون كمنتجين لهم الحق فى استخدام الموارد التى هى تحت تصرفهم بأسلوب يزيد دخلهم الى أقصى حد ، ولهم الحق كمستهلكين فى انفاق دخولهم على السلع والخدمات التى يعتقدون أنها ترضى رغباتهم الى أقصى حد ، فالمستثمرون الافراد من سعوديين وأجانب هم أفضل استعدادا لتحمل المخاطر الاقتصادية للمشاريع الصناعية وادارتها بالفعالية التى تضمن تلبية جميع مستويات الطلب فى الاسواق بأقل التكاليف • وقيام نظام تنافسى فى كل قطاع صناعى تتحدد فيه الاسعار بحرية حسب عوامل السوق يؤدى الى حماية المستهلك عن طريق فرض أسعار منخفضة ونوعيات مرتفعة الجودة من السلع • وفضلا عن ذلك فان المزاحمة التى تتصف بحرية المبادرين فى دخول قطاع صناعى أو الخروج منه تؤدى الى تأمين التوافق بين القدرة الانتاجية والطلب على المنتجات فى قطاع صناعى معين •

غير أنه قد لا يقبل المبادرون الافراد فى المجتمع أو لا يقدرون على القيام ببعض المشاريع الكبيرة المعقدة التى تخدم الاقتصاد الوطنى وتستحق التنفيذ • ففى مثل هذه الحالة قد تقوم الحكومة بدور المبادر الى أن يصبح لدى رجال الاعمال الاستعداد لتحمل مسئولية مثل هذه المشاريع •

٣ — يقتضى الدور الاساسى للحكومة ضرورة قيامها بتوجيه مناشطها الرئيسية الخاصة بالتنمية الصناعية نحو وضع وصيانة الاطار الذى يدفع المبادر الفردى الى انشاء أنواع من الصناعات المفيدة على صعيد وطنى والى التصرف بشكل تراحمى•وان من المهام الرئيسية لوزارة التجارة والصناعة باعتبارها الجهة الحكومية المختصة هى اجراء تقييم للقطاعات الصناعية من ناحية صافى المنافع التى تحققها المملكة ، ومن ثم تحديد مجموعة التدابير التشجيعية التى تؤمن من مردودا عادلا للمستثمرين فى صناعات جيدة الادارة • وفى الوقت ذاته تقود المستثمرين للعمل وفقا للصالح الوطنى • وباختصار فان الحكومة ستكون أكثر فاعلية اذا تمكن مجتمع رجال الاعمال من النظر اليها كمشاور حكيم مستعد لتقديم المشورة المفيدة والارشاد والتوجيه ، وكذلك الدعم والتشجيع الملائمين •

٤ — ان احدى أدوار الوزارة الرئيسية تتمثل فى القيام بتجميع البيانات والمعلومات الصناعية وتحليلها ونشرها على مجتمع رجال الاعمال كالاحصائيات والدراسات الصناعية ، ودراسات الجدوى • فالوزارة بمدها رجال الاعمال بالمعلومات حول القطاعات الانمائية والمشاريع الاكثر جدوى يمكنها أن ترشد المبادرين الافراد الى اتخاذ قرارات تفيدهم وتفيد المجتمع معا • وبنفس الطريقة تكون الوزارة فى وضع قوى للتأثير على رجاله بابعادهم عن دخول القطاعات الصناعية التى لا يستوعب سوقها قدرة انتاجية اضافية •

ان المشورة الادارية والمساعدة الفنية خدمات حيوية أخرى يمكن للوزارة أن تقدمها لرجال الاعمال ، وكثيرا ما يمكن تقديم هذه الخدمات على أفضل وجه عن طريق مؤسسة مرتبطة بالوزارة ، كما حدث حينما عهد مسئولية المساعدات الادارية والفنية الى مركز الابحاث والتنمية الصناعية .

٥ — هناك دور رئيسي لوزارة التجارة والصناعة يمكنها أن تقوم به بالاشتراك مع مصالح حكومية أخرى فى كثير من الاحيان وتقدم بموجبه الحوافز التشجيعية المالية والمادية الى المستثمرين والاداريين الصناعيين التى تدفع المبادرين الى تنفيذ الانشطة الصناعية التى ترى الحكومة أنها متمشية مع الصالح الوطنى . لذلك فانه فى الحالات التى لا تتدخل فيها الحكومة وبالتالى لا تؤدى عوامل السوق الى توجيه رجال الاعمال الى اتخاذ قرارات مرغوب فيها من الناحية الوطنية ، فان دور الحكومة الاكثر عونا يكون فى انفاق الاموال وجمع الضرائب بحسب انماط تقابل الدالات المضللة فى السوق .

٦ — فى المراحل الاولى من التنمية الصناعية حين لا تكون خبرة المبادرين والمهارات الفنية والكفاءات الادارية الصناعية قد تطورت تطورا كاملا يصبح على الحكومة فى كثير من الأحيان أن تقوم بدور الرائد فى تنفيذ مشاريع صناعية كبرى . وينطبق هذا الوضع على المشاريع المتعددة والمعقدة ذات التكنولوجيا المتطورة ، والتى تتطلب استثمارات ضخمة . فمشاريع مصنع الاسمدة ومصنع استخراج الكبريت ومصنع الفولاذ التى تقوم بها المؤسسة العامة للبترول والمعادن ومشروع صوامع الغلال ومطاحن الدقيق ومصانع العلف الذى ترعاه وزارة التجارة والصناعة ، وغيرها من المشاريع التى تتوفر فيها هذه الشروط . ان قيمة هـــذه

المشاريع الاقتصادية والحاجة الاجتماعية الملحة لبعض منها تستبعد تأجيل تنفيذها حتى يأتى وقت يتمكن فيه القطاع الخاص من القيام بها دون مساعدة • ويمكن للحكومة أن تكمل مجهودات رجال الاعمال فى مثل هذه المشاريع لا أن تستثنيهم منها ، أو أن تسعى دوما الى اشراك رأس المال الخاص فى مثل هذه المشاريع عن طريق المساهمة برأس المال • وتجدر الاشارة الى أن شرط التكاليف والمنافع الاقتصادية الوطنية له دلالته النسبة للمشاريع التى تنفذها الحكومة • وذلك على غرار المشاريع التى يقوم بها رجال الاعمال •

وبالاضافة الى هذه المشاريع الكبرى قد تبرز أحيانا مشاريع متوسطة نسبيا تستحق حوافز تشجيعية أكثر من الحوافز المتاحة لهم تجتذب المبادرين أو الكفاءات الادارية المطلوبة • وقد يكون من المفيد فى هذه المشاريع أن تكمل الحكومة مجهودات رجال الاعمال بالقيام بجزء من دور المبادر عن طريق تقديم رأس المال والاشتراك فى الادارة •

٧ — ان الالتزام التام بالنقاط السابقة سيحول تقريبا دون حاجة لغرض قيود على الاسعار أو الاجور أو الكميات من قبل الحكومة ، ذلك لأن القيود قد تعوق تنفيذ مشاريع التنمية الاقتصادية • غير أن الحكومة يمكنها أن تضع القيود لحماية الجمهور من الاستغلال كالاحتكار مثلا بحكم طبيعته حيث تكون كلفة تدعيم عدد من الشركات المتنافسة مرتفعة الى درجة تحول دون القيام بذلك •

وفى العديد من الحالات التى لا تستطيع فيها السوق السعودية أن تتحمل سوى منتج محلى واحد فقط ، فيمكن الاستفادة من منافع

المزاحمة • كما يمكن تجنب القيود بوضع تعريفة جمركية بمستويات تجتذب بعض المستوردات المزاحمة •

٨ — ان المنفعة من استقدام الكفاءات الأجنبية من الخارج التى تجذب معها المعرفة والمهارات التى لا تزال قليلة فى المجتمع أمر معترف به • غير أنه اذا لم توضع قيود على استخدام الأجانب فانه يخشى من جهة أخرى تدفقهم بأعداد كبيرة الى حد يؤدى الى بطالة خطيرة بين صفوف السعوديين ويضعف برامج تدريب العمال فى المجتمع السعودى • ويمكن أن يسمح للكفاءات الادارية والفنية والعمال المهرة من الأجانب دون التقليل من قيمة هــذه المخاوف • فتوفر هــذه الكفاءات المستوردة فى المجتمع سوف يزيد اجمالى الانتاج الوطنى ويوفر الموظفين الذين يمكن استخدامهم بصورة مباشرة أو غير مباشرة لأغراض تدريب السعوديين • ولمــا كان ما يدفع للأجانب من ذوى المهارات العالية من أجور يمثل انفاقا عاليــا لا يستهان به ، فسيكون لدى أصحاب الأعمال حافزا كبيرا لاستبدال الأجانب بمواطنين سعوديين فى أسرع وقت ممكن •

وعلى الرغم من أن رأس المــال فى المملكة ليس نادرا كما هو الحال فى العديد من البلاد النامية ، الا أن المجتمع بحاجة الى رأس مال أجنبى لاعتبارات أخرى • ذلك أن أحــد الأسباب المقنعة لقبول رأس المــال الأجنبى هو أن أعلى الكفاءات الادارية اللازمة لصناعات جديدة لا يمكن الحصول عليهــا فى بعض الأحيان الا اذا كانت مقترنة برأس مال موظف • وربما يكون من مصلحة المجتمع الحصول على قروض ورأس مال أجنبى مصحوبا بكفاءات ادارية وفنية كلما كان بالامكان تأمين هــذه المصادر وبكلفة أقل من القيمة التى تساهم بها فى الانتاج الوطنى • وعلى الحكومة أن تتمسك بالمبدأ الذى تتبعه حاليا من حيث عدم وضع العراقيل أمام خروج رأس المــال والأرباح العائد للمستثمرين •

٩ ـ ان أحد المبادىء الأساسية هو أن المرافق العامة جزء لا غنى عنه من قاعدة تقوم عليهـا القطاعات الصناعية • وان على المسئولين أن يوفروا أجزاء هذه القاعدة ، فبالاضافة الى الموانى والطرق العـامة والميـاه والكهرباء والمواصـلات والتدريب الفنى والمهنى وغير ذلك من العناصر العامة للمرافق الأساسية ، فان توفير المناطق الصناعية يعتبر عنصرا خاصا وعاملا مهما فى مساعدة المشاريع الصناعية الجديدة • وقد لمست وزارة التجـارة والصناعة ومركز الأبحاث والتنمية الصناعية ذلك فأقامت مناطق صناعية فى مراكز متعددة فى المجتمع العربى السعودى •

هكذا يمضى المجتمع السعودى فى طريقه يبنى المصانع ويشق الطرقات وينشىء الجامعات والمعاهد والمدارس ، ويقيم السدود ويوسع الرقعة الزراعية ، وينشط التبادل التجارى ويثبت نقده ويقوى أوضاعه المـالية ويهيىء فرص العمل أمام أفراده فى جميع المناطق فى جو من الاستقرار الاقتصادى والاجتماعى •

هكذا اتضح لنا أن الدين لم يكن عائقا قط وانما هو دافع للعمـل الاجتماعى وتنظيم المجتمع • وبهذا يؤدى دورا وظيفيا هاما فى احداث الضبط الاجتماعى والتطوير والله أدعو أن أكون قد وفقت الى بيان جانب ولو ضئيل من الدور التنموى للدين الاسـلامى فى مجتمعنا العـربى السـعودى •

قائمـــة المراجــــع

أولا : المراجـــع العربيـــة

ثانيـــا : المراجـــع الأجنبية



اولا : المراجـــع العربية

١ ــ القرآن الكريم :

٢ ــ ابراهيم عبد المجيد اللبان وآخرون :

مشكلات فلسفية ــ مكتبة النهضة ــ القاهرة ١٩٥٤م .

٣ ــ ابن الاثير :

الكامل فى التاريخ ــ الجزء الاول ــ المطبعة الازهرية ــ القاهرة ١٣٠١هـ .

٤ ــ ابن حزم الاندلسى :

الفصل فى الملل والاهواء والنحل ومعـــه الملل والنحـــل للشهرستانى ــ جزئين ــ مكتبة محمد صبيح ــ القاهـــرة ــ ١٩٦٤ .

٥ ــ ابن العربى :

احكام القران ــ تحقيق على محمد البيجاوى ــ دار احيـــاء الكتب العربية ــ القاهرة .

ا ــ القسم الاول ١٩٥٧ الطبعة الاولى

ب ــ القسم الثانى ١٩٥٧ الطبعة الاولى

جـ ــ القسم الثالث ١٩٥٨ الطبعة الاولى

د ــ القسم الرابع ١٩٥٩ الطبعة الاولى

٦ ــ ابن قيم الجوزية :

احكام اهل الذمة ــ تحقيق صبحى الصالح ــ مطبعة جامعة دمشق ــ دمشق ــ ١٩٦١ .

٧ — ابن هشام :

سيرة الرسول — تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد — ٤ اجزاء — ٤ مجلدات — القاهرة — ١٩٣٧ .

٨ — ابو الأعلى المودودى :

الحجاب — دار الفكر — بيروت .

٩ — الشيخ أبو بكر جابرالجزائرى :

منهاج المسلم — مطبعة الدعوة — المدينة المنورة ١٣٨٥هـ .

١٠ — ابو حامد محمد الغزالى :

احياء علوم الدين — مصطفى البابى الحلبى — القاهرة — ١٩٣٩ — ٤ أجزاء .

١١ — ابو النصر أحمد الحسينى :

الملكية فى الاسلام — مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — القاهرة — ١٩٥٢ .

١٢ — ابو يعلى :

الاحكام السلطانية — تحقيق محمد حامد الفقى — مطبعة البابى الحلبى — القاهرة — ١٩٣٨ .

١٣ — ابو يوسف :

المكتبة السلفية — القاهرة — ١٩٥٢ — الطبعة الثانية .

١٤ — احمد بن حنبل :

مسند الامام أحمد — القاهرة — ١٨٩٥ .

١٥ — د . احمد ابو اسماعيل :

اصول الاقتصاد — دار النهضة العربية — القاهرة — ١٩٦٣

١٦ — د . أحمد ابو زيد :

البناء الاجتماعى .

ا — انجزء الاول — المفهومات — الدار القوميه للطباعـه والنشر — القاهره ١٩٦٦ .

ب — الجزء الثانى — الانساق — الدار القومية للطباعـة والنشر — القاهرة — ١٩٦٧ .

ج — تايلور — دار المعارف — القاهرة — ١٩٥٧ .

١٧ — أحمد أمين :

قاموس العادات والتقاليد المصرية — مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — القاهرة — ١٩٥٣ — الطبعة الاولى .

١٨ — أحمد حسين :

الاسلام ورسوله بلغة العصر — المجلس الاعلى للشـئون الاسلامية — اقاهرة — ١٣٨٨ .

١٩ — د . احمد الحوفى :

تحت راية الاسلام — المجلس الاعلى للشئون الاسلامية — القاهرة — ١٩٦٥ .

٢٠ — د . احمد الخشاب :

أ — الضبط الاجتماعى — مكتبة القاهرة الحديثة — القاهرة — ١٩٦٨ .

ب — الاجتماع الدينى — مكتبة القاهرة الحديثة — القاهرة — ١٩٦٤ الطبعة الثانية .

ج — دراسات انثروبولوجية — دار المعارف — القاهـرة — ١٩٧٠ .

د — دراسات انثروبولوجية واثنوجرافية — الانجلو المصرية — القاهرة ١٩٥٩ — الطبعة الثانية .

هـ — الارشاد الاجتماعى — الاسس النظرية والتطبيقات العملية — القاهرة الحديثة — القاهرة .

و — الضبط والتنظيم الاجتماعى — القاهرة الحديثة — القاهرة — ١٩٥٩ .

ز — فى التخطيط الاخلاقى — مطبعة الحكومة — بغداد — ١٩٦٦ .

ح — دراسات فى النظم الاجتماعية — مكتبة القاهرة الحديثة — القاهرة ١٩٥٨ .

٢١ — د . احمد شلبى :

مقارنة الاديان :

أ — اليهودية — النهضة المصرية — القاهرة — ١٩٦٦ .

ب — المسيحية — النهضة المصرية — القاهرة — ١٩٦٥ — الطبعةا لثانية .

جـ — الاسلام — النهضة المصرية — القاهرة — ١٩٦٧ — الطبعة الثانية .

د — اديان الهند الكبرى — النهضة المصرية — القاهرة — ١٩٦٦ — الطبعة الثانية .

هـ — السياسة والاقتصاد فى التفكير الاسلامى — النهضة المصرية — القاهرة — ١٩٦٧ — الطبعة الثانية .

٢٢ — ارامكو :

أ — قافلة الزيت — العدد السابع المجلد السابع عشر — اكتوبر — ١٩٦٩ .

ب — قافلة الزيت — العدد السابع المجلد الخامس عشر — ١٩٦٧ .

٢٣ — **استندوف الالمانى:**

ديانة قدماء المصريين — تعريب سليم حسن — مطبعة المعارف — القاهرة — ١٩٢٣ — الطبعة الاولى .

٢٤ — **اسعد طربزونى :**

عمدة الاخبار فى مدينة المختار — مطبعة الصيداوى — دمشق الطبعة الثالثة .

٢٥ — **اميل دوركيم :**

أ — قواعد المنهج فى علم الاجتماع — ترجمة د . محمود قاسم — مكتبة النهضة المصرية — القاهرة — ١٩٦١

ب — علم اجتماع وفلسفة — ترجمة حسن أنيس — الانجلو المصرية — القاهرة — ١٩٦٦ — الطبعة الاولى ..

٢٦ — **انور الجندى :**

الاسلام فى غزوة جديدة للفكر الانسانى — المجلس الاعلى للشئون الاسلامية — القاهرة — ١٩٦٤ .

٢٧ — **البخارى :**

صحيح البخارى — الجزء الاول — المطبعة الخيرية بمصر — القاهرة ١٣٢٠ هـ .

٢٨ — **البلاذرى :**

فتح البلدان — شركة طبع الكتب العربية — القاهرة — ١٩٠١

٢٩ — **د . توفيق الطويل :**

قصة النزاع بين الدين والفلسفة ج / ٢ — مكتبة مصر — القاهرة — ١٩٥٨ .

٣٠ — د . جابر جاد عبد الرحمن :

اقتصاديات التعاون — الجزء الاول — النهضة العربية — القاهرة — ١٩٦٤ .

٣١ — الجامعة العربية :

المؤتمر الحادى عشر للشئون الاجتماعية والعمل (العمالة والتصنيع ودورهما فى التنمية الاجتماعية) القاهرة—١٩٦٧ .

٣٢ — جرجى زيدان :

تاريخ التمدن الاسلامى — دار الهلال — ١٩٥٨ — ٥ أجزاء

٣٣ — جوزيف كاير :

حكمة الاديان — ترجمة حسين الكيلانى — مكتبة الحياة بيروت ١٩٦٤ .

٣٤ — جوستاف لوبون :

أ — روح الاجتماع — ترجمة أحمد فتحى زغلول — المطبعة الرحمانية — القاهره — ١٩٠٩ .

ب — مقدمة الحضارات الاولى — تعريب محمد صادق رستم — القاهرة — ١٣٤١ هـ .

٣٥ — ج — وبيج :

الشعوب البدائية — ترجمة محمود محمد موسى — النهضة المصرية — القاهرة — ١٩٥٧ .

٣٦ — الحافظ أبى الطيب تقى الدين :

شفاء الغرام باخبار البلد الحرام — جزئين — دار احياء الكتب العربية — القاهره — ١٩٥٦ م .

٣٧ — د . حامد عمار :

اسس التخطيط الاجتماعى فى النطاق القومى والمحلى — سرس الليان — ١٩٥٩ .

٣٨ — د . حسن الساعاتى :

علم الاجتماع القانونى — الانجلو المصرية — القاهرة ١٩٦٨ — الطبعة الثالثة .

٣٩ — د . حسن شحاته سعفان :

أ — أسس علم الاجتماع — دار النهضة العربية — القاهرة — ١٩٦٤ — الطبعة السادسة .

ب — الدين والمجتمع — دار النهضة العربية — القاهرة — ١٩٥٧ .

٤٠ — د . حسنين عبد القادر .

أ — الرأى العام والدعاية وحرية الصحافة — دار النهضة العربية — القاهرة — ١٩٦٢ — الطبعة الثانية .

ب — اصول العلاقات العامة — دار النهضة العربية — القاهرة — ١٩٦٢ — الطبعة الثانية .

٤١ — د . حكمت أبو زيد

التكيف الاجتماعى فى الريف المصرى الجديد — الانجلو المصرية — القاهرة — ١٩٥٧ ..

٤٢ — دار الكتب الشرقية :

صحيح الاحاديث النبوية — على السيد سليمان — القاهرة.

٤٣ — دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر :

اليمامة — ١٩٦٨ — الرياض .

٤٤ ــ داود عبد الله كنو :
الدليل التجارى السعودى ــ جدة ــ ١٩٦٧م العدد ٣

٤٥ ــ رابطة العالم الاسلامى :

أ ــ مقررات وتوصيات المؤتمر الاسلامى ــ الدورة الاولى ــ مكة ــ ١٩٦٢ م ــ مطابع دار الاصفهانى جدة .

ب ــ قرار المؤتمر الاسلامى ــ الدورة الثانية ــ مكة ــ ١٩٦٥ ــ مؤسسة مكة للطباعة والاعلام .

٤٦ ــ الرئاسة العامة لمدارس البنات :

ادارة الاحصاء ــ الدليل الاحصائى لتعليم الفتاة السعوديه خلال سبعة أعوام ــ طبع على مطابع دار لبنان للطباعة والنشر ــ بيروت ــ ١٩٦٠ ــ ١٩٦٧ .

٤٧ ــ رجال الاعمال :

بيروت ــ ١٩٦٧ ــ عدد خاص ــ المملكة العربية السعودية .

٤٨ ــ روجيه باستيد :

مبادىء علم الاجتماع الدينى ــ ترجمة د . محمود قاسم ــ الانجلو المصرية ــ القاهرة ــ ١٩٥١ .

٤٩ ــ زكريا ابراهيم :
مشكلة الفلسفة ــ دار القلم ــ القاهرة ــ ١٩٦٢ .

٥٠ ــ سليمان مظهر :

قصة العقائد بين السماء والارض ــ دار النهضة العربية ــ القاهرة ــ ١٩٦٢ .

٥١ ــ د . سليمان نور الدين :

مذكرات فى التحليل الاحصائى ــ دار النهضة العربية ــ القاهرة ــ ١٩٦٢ .

٥٢ — السمهودى المدنى :

خلاصة الوفا باخبار دار المصطفى — دار احياء الكتب العربية — القاهرة — ١٣٦٧ .

٥٣ — سنية قراعة :

الرسالات الكبرى — مكتب الصحافة الدولى — القاهرة ١٩٦٦ .

٥٤ — د . سيد عويس :

ملامح المجتمع المصرى المعاصر — ظاهرة ارسال الرسائل الى ضريح الامام الشافعى—المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية — دار مطابع الشعب — القاهرة — ١٩٦٥ .

٥٥ — العدالة الاجتماعية فى الاسلام :

مطابع دار الغد — بيروت .

٥٦ — د . السيد محمد البدوى :

أ — المدخل فى علم الاجتماع — تأليف رينيه مونييه — مطبعة دار نشر الثقافة — الاسكندرية — ١٩٤٩ .

ب — الاخلاق بين الفلسفة وعلم الاجتماع — دار المعارف— الاسكندرية ١٩٦٧ ..

٥٧ — شركة ارثر دى ليتل :

القواعد التوجيهية لسياسة الانماء الصناعى — المملكة العربية السعودية — ١٩٦٨ ..

٥٨ — د . صبحى الصالح .

أ — النظم الاسلامية ونشأتها وتطورها — دار العلم للملايين — بيروت — ١٩٦٥ .

ب — شرح الشروط العمرية — جامعة دمشق — ١٩٦١ .

٥٩ ـ د . صلاح الدين نامق :

مقدمة فى علم الاقتصاد ـ دار النهضة العربية ـ القاهرة ١٩٦٣ .

٦٠ ـ د. عاطف وصفى :

الانثروبولوجيا الاجتماعية ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٦٧ ـ الطبعة الاولى .

٦١ ـ عباس محمود العقاد :

عبقرية عمر ـ دار الهلال ـ القاهرة .

٦٢ ـ عبد الاحد داود :

الانجيل والصليب ـ ترجمة مسلم ـ عرافى ـ القاهرة ـ ١٣٥١ هـ .

٦٣ ـ د . عبد الحميد لطفى :

علم الاجتماع ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٦٦ ـ الطبعة الثانية .

٦٤ ـ عبد الرحمن بن خلدون :

المقدمة ـ المكتبة التجارية ـ القاهرة .

٦٥ ـ عبد الرحمن الجزيرى :

كتاب الفقه على المذاهب الاربعة ـ قسم المعاملات ـ الجزء الثانى ـ الجزء الثالث ـ المكتبة التجارية ـ القاهرة ـ الطبعة السادسة .

٦٦ ـ عبد الرحمن العيسوى :

لماذا انا مسلم ـ القاهرة ـ ١٩٥٠ .

٦٧ — **عبد العزيز عبد الرحمن آل سعود :**

أنورد المصفى المختار — مطبعة السنة المحمدية — القاهرة — ١٣٦٩هـ .

٦٨ — **د . عبد العزيز عزت .**

أ — الاجتماع التربوى — القاهرة — ١٩٦٠ — الطبعة الثالثة .

ب — السلطة فى المجتمع — القاهرة — ١٩٦٠ .

جـ — الجريمة وعلم الاجتماع — القاهرة — ١٩٥٩ — الطبعة الثالثة .

د — فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع — القاهرة — ١٩٥٦ .

هـ — رأى فى طبيعة المجتمع البشرى — القاهرة — ١٩٦١ — الطبعة الثانية .

و — الاجتماع الصناعى — الجزء الاول — القاهرة — ١٩٦١ — الطبعة الثانية .

ز — اهم نظم الجماعات المتأخرة — مطبعة دار التأليف — القاهرة — ١٩٥٦ — الطبعة الاولى .

ح — فى الاجتماع الاخلاقى ط ٢ — القاهرة الحديثة — القاهرة — ١٩٥٩ .

٦٩ — **د . عبد المنعم شوقى :**

مجتمع المدينة — الاجتماع الحضرى — مكتبة القاهرة الحديثة — القاهرة — ١٩٦٦ .

٧٠ — **عبد العظيم المنذرى :**

الترغيب والترهيب — ادارة الطباعة المنيرية — القاهرة ١٣٢٦ — جزئين .

٧١ ــ عبد الغنى عبد الواحد :

العمدة فى الإحكام ــ المطبعة السلفية ــ القاهرة ــ ١٣٧٦ .

٧٢ ــ عبد القاهر البغدادى :

الفرق بين الفرق ــ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ــ مكتبة محمد صبيح ــ القاهرة .

٧٣ ــ عبد القدوس الانصارى :

أ ــ تاريخ مدينة جدة ــ مطابع الاصفهانى ــ جدة ــ ١٩٦٣

ب ــ المنهل الجزء الحادى عشر المجلد ٢٨ ــ فبراير ــ ١٩٦٨ ــ دار الاصفهانى للطباعة بجدة .

جـ ــ المنهل ــ الجزء الحادى عشر ــ المجلد / ٣٠ ــ السنة ٣٥ ــ ١٩٧٠ .

د ــ آثار المدينة المنورة ــ المكتبة العلمية بالمدينة المنورة ــ ١٣٧٨ ــ الطبة الثانية .

٧٤ ــ عبد الكريم الخطيب :

المسيح فى القرآن والتوراة والانجيل ــ دار الكتب الحديثة ــ القاهرة ــ ١٩٦٦ ــ الطبعة الاولى .

٧٥ ــ عبد الله العنقرى :

الروض المربع ــ الجزء الاول ــ مطبعة السنة المحمدية ــ القاهرة .

٧٦ ــ الشيخ عبد الله المراغى :

الزواج والطلاق فى جميع الاديان ــ المجلس الاعلى للشئون الاسلامية ــ القاهرة ــ ١٩٦٦ م .

٧٧ ـ عبد المغنى المنشاوى :

نفحات الرحمن ـ دار التحرير للطبع والنشر ـ القاهرة ـ ١٩٦٥ .

٧٨ ـ عبد الوهاب أحمد عبد الواسع :

التعليم فى المملكة العربية السعودية ـ دار الكتاب العربى ـ بيروت .

٧٩ ـ عبد الوهاب خلاف :

السياسة الشرعية ـ القاهرة .

٨٠ ـ د . على سامى النشار :

نشأة الدين ـ دار نشر الثقافة بالاسكندرية ـ الاسكندرية ـ ١٩٤٩ .

٨١ ـ د . على عبد الواحد وافى :

أ ـ مقدمة ابن خلدون ـ لجنة البيان العربى ـ القاهره ـ ١٩٥٧ الجزء الاول الطبعة الاولى .

ب ـ مقدمة ابن خلدون ـ لجنة البيان العربى ـ القاهرة ـ ١٩٥٨ الجزء الثانى ـ الطبعة الاولى .

جـ ـ مقدمة ابن خلدون ـ لجنة البيان العربى ـ القاهرة ـ ١٩٧٠ ـ الجزء الثالث ـ الطبعة الاولى .

د ـ مقدمة ابن خلدون ـ لجنة البيان العربى ـ القاهرة ـ ١٩٦٢ الجزء الرابع ـ الطبعة الاولى .

هـ ـ التوتمية ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٥٩ .

و ـ المسئولية والجزاء ـ نهضة مصر ـ القاهرة ـ ١٩٦٣ ـ الطبعة الثالثة .

ز ـ الاسرة والمجتمع ـ نهضة مصر ـ القاهرة ـ ١٩٦٦ ـ الطبعة السادسة .

ح — حقوق الانسان فى الاسلام — نهضة مصر — القاهرة .

ط — قصة الزواج والعزوبة فى العالم — نهضة مصر — القاهرة .

ى — أصول التربية ونظام التعليم — الانجلو المصرية — القاهرة ١٩٥٥ — الطبعة الاولى .

ك — عوامل التربية — الانجلو المصرية — القاهرة — ١٩٥٨ الطبعة الاولى .

ل — مشكلات المجتمع المصرى والعالم العربى — نهضة مصر .

م — عبد الرحمن بن خلدون — حياته وآثاره ومظاهره — وزارة الثقافة والارشاد القومى — القاهرة .

ن — الاسفار المقدسة فى الاديان السابقة للاسلام — نهضة مصر — القاهرة — ١٩٦٤ — الطبعة الاولى .

س — علم الاجتماع — نهضة مصر — القاهرة — ١٩٦٦ .

ع — الهنود الحمر — دار المعارف — القاهرة .

ف — الاقتصاد السياسى — الطبعة الخامسة — القاهرة — ١٣٧١ — ١٩٥٢ .

ص — فصول من آراء المدينة الفاضلة — لجنة البيان العربى — القاهرة ١٩٦١ — الطبعة الثانية .

٨٢ — على محمد حسن العمارى :

القرآن والطبائع النفسية — دار التحرير للطبع والنشر — القاهرة — ١٩٦٦ .

٨٣ — على منصور :

الشريعة الاسلامية والقانون الدولى العام — دار مطابع الشعب — القاهرة — ١٩٦٥ .

٨٤ — عمر النسفى :

العقائد النسفية — القاهرة — ١٩٠١ .

٨٥ —

أ — الغرفة التجارية الصناعية بجدة — التجارة .

ب — الغرفة التجارية الصناعية بالرياض — تجارة الرياض ، العدد ٩١ — ١٩٦٩ .

٨٦ — فتحى عثمان :

مع المسيح فى الاناجيل الاربعة — الدار القومية للطباعة والنشر — القاهرة — ١٩٦٦ — الطبعة الثانية .

٨٧ — الفخر الرازى :

كتاب الاربعين فى أصول الدين — حيدر اباد — ١٣٥٣ .

٨٨ — فوستيل دى كولانج :

المدينة العتيقة — ترجمة عباس بيومى — النهضة المصرية — القاهرة — ١٩٥٠ .

٨٩ — الفيروز ابادى :

القاموس المحيط — الجزء الثالث — شركة فن الطباعة — القاهرة — ١٩١٣ — الطبعة الخامسة .

٩٠ — د . قبارى محمد اسماعيل :

مقدمة فى علم الاجتماع العام — دار الطلبة العرب للطباعة والنشر — بيروت — ١٩٦٨ .

٩١ — الكاسانى :

بدائع الصنائع — الجزء الثانى — القاهرة — ١٣٢٨ .

٩٢ — الكتاب المقدس :

مطبعة عنتر — القاهرة — ١٩٦٦ .

٩٣ — **لويس معلوف :**

المنجد فى اللغة — المطبعه الكاثوليكية — بيروت — ١٩٥٦ .

٩٤ — **ليفى برول**

ا — العقلية البدائية — ترجمة محمد القصاص — مكتبة مصر — القاهرة — .

ب — فلسفة اوجيست كونت — ترجمة د . محمود قاسم ، د . السيد محمد بدوى — مكتبة الانجلو المصرية — القاهرة — ١٩٥٢ .

٩٥ — **ماك ايفر :**

شارل بيج — المجتمع — الترجمة العربية — على أحمد عيسى النهضة المصرية — انقاهرة — ١٩٦١ .

٩٦ — **مؤسسة النقد العربى السعودى :**

التقرير السنوى لعام ١٣٨٧ — ١٣٨٨ — الدمام — مطابع المطوع .

— النشرة الاحصائية — مطابع دار الاصفهانى وشركاه — جدة ١٣٨٩ — ١٩٦٩ .

٩٧ — **المجلس الاعلى للشئون الاسلامية :**

ا — المنتخب من السنة — المجلد الاول — دار التحرير للطبع والنشر — القاهرة — ١٩٦٦ — الطبعة الثانية .

ب — المنتخب من السنة — المجلد السابع — دار التحرير للطبع والنشر — القاهرة ١٩٦٦ .

٩٨ — **محمد بن يوسف أطفيس :**

شرح النيل وشفاء العليل — المطبعة السلفية — القاهرة — ١٣٤٣ .

٩٩ — محمد بن على الشوكانى :

الدرارى المضيئة — (جزآن) دار العصور للطبع والنشر القاهرة — ١٣٤٧ — الطبعة الاولى .

١٠٠— د. محمدالبهى :

محاضرات فى الفكر الاسلامى فى مرحلته الثانية — دار الزينى للطبع والنشر — ١٩٦٢ — الطبعة الرابعة .

١٠١— محمد حامد الفقى :

النفائس — القاهرة — ١٩٥٣ — ط / ٢ .

١٠٢— محمد خيرى محمد على :

أ — توطين الصناعة والرفاهية الاقتصادية والاجتماعية — دار النهضة العربية — القاهرة — ١٩٦٥ .

ب — المدخل الى الرفاهية الاجتماعية — دار النهضة العربية — القاهرة ١٩٦٦ .

١٠٣— د . محمد سلام مدكور :

المدخل للفقه الاسلامى — دار النهضة العربية — القاهرة — ١٩٦٣ — الطبعة الثانية ..

١٠٤— د . محمد عاطف غيث :

أ — التغير الاجتماعى والتخطيط — دار المعارف — الاسكندرية ١٩٦٦ — الطبعة الثانية .

دراسات انسانية واجتماعية — دار المعارف — الاسكندرية — ١٩٦٥ .

ج — المشاكل الاجتماعية والسلوك الانحرافى — دار المعارف — الاسكندرية ١٩٦٥ .

١٠٥— الشيخ محمد عبد الحميد مرداد :

اتحاف المسلمين — مطبعة المدنى — القاهرة ١٩٦٣ ط الثانية.

١٠٦ــ د . محمد عبد الله دراز :

الدين بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الاديان ــ مطبعة السعادة ــ القاهرة ــ ١٩٦٩ .

١٠٧ــ محمد عبد المعز نصر :

فى الدولة والمجتمع ــ مطبعة جامعة الاسكندرية ــ الاسكندرية ١٩٦٢ .

١٠٨ــ محمد عبده :

الاسلام دين العلم والمدنية ــ عرض وتحقيق طاهر الطناحى ــ المجلس الاعلى للشئون الاسلامية ــ القاهرة ــ ١٩٦٤ .

١٠٩ــ محمد لبيب البتنونى :

الرحلة الحجازية ــ القاهرة ــ ١٣٢٩ هـ .

١١٠ــ د . محمد محمود الجوهرى وآخرون :

ميادين علم الاجتماع ــ دار المعارف ــ القاهرة ــ ١٩٧٠ ــ الطبعة الاولى .

١١١ــ د . محمد طلعت عيسى :

أ ــ الشائعات وكيف نواجهها ــ دار مطابع الشعب ــ القاهرة ١٩٦٤ ــ الطبعة الاولى .

ب ــ خدمة الفرد ــ القاهرة الحديثة ــ القاهرة ــ ١٩٦٢ .

جـ ــ تنسيق الخدمات الاجتماعية وادارة المؤسسات ــ مكتبة القاهرة الحديثة ــ القاهرة ــ ١٩٦٢ ــ الطبعة الثالثة .

د ــ خدمة الجماعة ــ القاهرة الحديثة ــ القاهرة ــ ١٩٦٢ ــ الطبعة الاولى .

هـ ــ فن خدمة الفرد ــ القاهرة الحديثة ــ القاهرة ــ ١٩٦٢ ــ الطبعة الاولى .

و — انعلاقا تالعامة والاعلام أصولها وتطبيقاتها — القاهرة الحديثة — القاهرة — ١٩٦٣ — الطبعة الثالثة .

ز — التأمين الاجتماعى فلسفته وتطبيقاته — القاهرة الحديثة — القاهرة — ١٩٦٢ — الطبعة الثانية .

ج — دراسات فى التخطيط الاجتماعى — القاهرة الحديثة — القاهرة — ١٩٦١ .

١١٢— محمود الشرقاوى :

تقويم انهكر الدينى — مكتبة الانجلو المصرية — القاهرة — ١٩٦٠ .

١١٣— محمود بن الشريف :

الاديان فى القرآن — دار المعارف — القاهرة — ١٩٧٠ .

١١٤— د . محيى الدين صابر :

أ — ابحاث فى برامج تنمية المجتمع فى البلاد العربية — سرس الليان — ١٩٦٢ .

ب — التغير الحضارى وتنمية المجنمع — سرس الليان — ١٩٦٢ .

١١٥— المديرية العامة للاذاعة والصحافة والنشر :

السعودية فى عهدها الحاضر — جدة — ١٣٧٦ .

١١٦— مسعود بن عمر التفتازانى :

شرح عقائد النسفى — استانبول — ١٩٢٧ .

١١٧— د . مصطفى الخشاب .

أ — علم الاجتماع ومدارسه — الكتاب الاول — تاريخ التفكير الاجتماعى — وتطوره — مطبعة لجنة البيان العربى — القاهرة — ١٩٥٧ .

ب — علم الاجتماع ومدارسه — الكتاب الثانى — المدخل الى علم الاجتماع — لجنة البيان العربى — القاهرة ١٩٦٢ م

جـ — علم الاجتماع ومدارسه — الكتاب الثالث — المدارس الاجتماعية المعاصرة — الدار القومية للطباعة والنشر — القاهرة — ١٩٦٦ .

د — مقدمة فى دراسة الاجتماع التطبيقى — لجنة البيان العربى — القاهرة .

هـ — دراسات فى الاجتماع العائلى — لجنة البيان العربى — القاهرة ١٩٥٧ — الطبعة الاولى .

و — دراسات فى الاجتماع الاقتصادى — لجنة البيان العربى — القاهرة ١٩٥٧ .

ز — النظريات والمذاهب السياسية — لجنة البيان العربى — القاهرة ١٩٥٧ .

ح — تاريخ الفلسفة والنظريات السياسية — لجنة البيان العربى — القاهرة ١٩٥٣ .

ط — دراسة المجتمع — مكتبة الانجلو — القاهرة — ١٩٦٩ — ١٩٧٠ — الطبعة الثانية .

١١٨— د . مصطفى الرافعى :

الاسلام نظام انسانى — مطابع شركة الاعلانات الشرقية — القاهرة — ١٩٦٤ .

١١٩— د . مصطفى سويف :

مقدمة علم النفس الاجتماعى — مكتبة الانجلو المصرية — القاهرة — ١٩٦٦ .

١٢٠— **مكتب الملحق التجارى بسفارة المملكة العربية السعودية ببيروت :**

السياسة الاقتصادية للمملكة العربية السعودية — بيروت — ١٩٦٧ .

١٢١— **المملكة العربية السعودية :**

أ — اتفاقية التعاون الاقتصادى بين المملكة العربية السعودية وبين الجمهورية العربية السورية — مطبعة الحكومة — ١٣٨٤ هـ .

ب — مشروع اتفاق تجارة واقامة بين حكومة الجمهورية اللبنانية وبين حكومة المملكة العربية السعودية — — مطبعة الحكومة — ١٣٨٥ .

جـ — نظام الاوراق التجارية والمذكرة التفسيرية — مطبعة الجكومة — ١٣٨٤ .

١٢٢— **الماوردى :**

الاحكام السلطانية — مطبعة الوطن بمصر — القاهرة — ١٢٩٨ هـ .

١٢٣— **الموسوعة العربية الميسرة :**

اشراف محمد شفيق غربال — دار القلم — القاهرة ١٩٦٥ .

١٢٤— **مكى الجميل :**

البداوة والبدو فى البلاد العربية — سرس الليان — ١٩٦٢ .

١٢٥— **نور الدين على السمهودى :**

وفاء الوفا باخبار دار المصطفى — تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد — الجـزء الاول والثانى — مطبعة السعادة بمصر — ١٩٥٥ — الطبعة الاولى .

١٢٦ — **هـ — ج ويلز :**

معالم تاريخ الانسانية — ترجمة عبد العزيز جاويد — مطبعة

لجنة التاليف والترجمة — القاهرة — ١٩٥٦ — الجـــزء الثانى — المجلد الاول .

١٢٧ـ وزارة الاعلام بالسعودية :

هذه بلادنا .

١٢٨ـ وزارة البترول والثروة المعدنية بالسعودية :

أ — نظام المؤسسة العامة للبترول والمعادن — مطبعـــة الحكومة — ١٣٨٤ هـ — الطبعة الثانية .

ب — نظام كلية البترول والمعادن — مطبعة الحكومة — ١٣٨٥ هـ — الطبعة الثانية .

١٢٩ـ وزارة التجارة والصناعة السعودية :

أ — نظام حماية وتشجيع الصناعات الوطنية — مطبعـــة الحكومة — ١٣٨٢ الطبعة الاولى .

ب — نظام استثمار رأس المال الاجنبى — مطبعة الحكومة — ١٣٨٦ .

جـ — نظام الشركات — مطبعة الحكومة — ١٣٨٥ — الطبعـــة الاولى .

١٣٠ـ وزارة الدفاع — :

المملكة العربية السعودية — نظام المؤسسة العامة للخطوط الجوية السعودية — مطبعة الحكومة — ١٣٨٥ هـ .

١٣١ـ وزارة العمل والشئون الاجتماعية :

المملكة العربية السعودية — نظام خاص بمؤسسة الضمان الاجتماعى ونظام الضمان الاجتماعى والمذكرة الايضاحيـــة — مطبعة الحكومة — ١٣٨٢ .

١٣٢ — وزارة المالية والاقتصاد الوطنى السعودية :

أ — مصلحة الزكاة والدخل — قوانين وتعليمات الزكاة الشرعية وضريبة الدخل — مطبعة الحكومة — مكة المكرمة — ١٣٧١ ..

ب — التعريفة الجمركية — مطبعة الحكومة — مكة المكرمة — ١٣٨٤ — الطبعة الثانية .

ج — الكتاب الاحصائى السنوى — ١٣٨٦ هـ — ١٩٦٦ م ١٣٨٧٠ — ١٩٦٧ .

د — تعديل قوانين الزكاة الشرعية وضريبة الدخل — مطبعة الحكومة — مكة — ١٣٨١ هـ .

هـ — احصاء التجارة الخارجية لعام ١٣٨٣ — جدة — مطبعة المدينة المنورة .

و — نظام الجمارك — مطبعة الحكومة — ١٣٨١ .

ز — نظام مراقبة البنوك — مطبعة الحكومة — ١٣٨٦ .

١٣٣— وزارة المعارف السعودية :

دليل الاحصاء التعليمى لسنة ١٩٦٧ — ١٩٦٨ مطابع خالد بالرياض .

١٣٤ — يحيى بن آدم — الخراج — :

تحقيق أحمد محمد شاكر — المطبعة السلفية — القاهرة — ١٣٤٧هـ .

١٣٥— يحيى أحمد الدرديرى :

دعوة الاسلام الى العلم والعمل — المطبعة السلفية — القاهرة — ١٣٦٤ ..

١٣٦— د . يحيى هويدى :

مقدمة فى انفلسفة العامة — دار النهضة العربية — القاهرة — ١٩٦٨ — الطبعة الخامسة .

١٣٧— د . يوسف مراد :

مبادىء علم النفس العام — دار المعارف — القاهرة — ١٩٥٧ — الطبعة الثالثة .



ثانيــا : المراجع الاجنبية

REFERENCES

1 — Abd Al Hakim Ghaith — The marching Caravan — Al Madina Almonawara Jeddah, 1967.

2 — A. Franz. La Religion Romaine Antique ed — payot — Paris 1955.

3 — Alfred Kuhn The Study of society — A unified approach, Irwin IIlinois, 1963.

4 — Arthur Hertzberg, Judaism Graziller, New York 1962.

5 — A, Kuhn, The study of society ; Dresey Press — IIlinois 1963.

6 — Bouglé, I'art au Point de vue sociologique dans morale et science Paris 1929.

7 — Bidney D. Theoritical Anthropology (2nd printing) Colombia U.P. 1954.

8 — Boutroux Emile : Science et Religion dans la Philosophie contemporaine 78 Iammarion Paris 1908.

9 — Baruzi Jean, Probleme de L, histoire de la Religion F. Alcan Paris 1935.

10 — Bonpuet A. C., Comparative Religion. short outine, London, 1953 penguin book 4th Ed.

11 — Cooley — C. U.
Human nature and social order, Schovkan Books New York 1964.

12 — Cartwright D. Public opinion polls and democratic Leadership — J. Soc. Issues - Nork, 1946.

13 — Cooley R.H. Social Process — McGraw Hill, N.Y. 1918.

14 — C. A. Burland, The Magical Arts, A Short history Cox, & Wyman L td London, 1966.

15 — Capart Jean . Le Totêmisme - Paris 1905.

16 — Charles, Picard, Des Religions de I'Afrique Antique Paris, Plon 1954.

17 — Chacoin, Evolution de idées Religieuse, Paris 1913.

18 — CH. Gide, Principles of political economics. - G.G. Harrap London 1930.

19 — Dowd, Jerme, Control in Societies, D. Appleton Century Company - New York. London, 1936.

20 — Ellwood, C.H., The Psychology of Human Society , An Introduction to Sociological theory, D. Appleton London 1931.

21 — E. Durkheim, Les Formes elementaires de la vie religieuse F. Alcan paris, 1921.

22 — E. Sapir, Encyclopaedia of social science, New York, 1935.

23 — F. James, Les origines de la Famille et du clan, Traduit Francaise P. G. euthner Paris 1932.

B) Taboo and the perils of the soul-MacMillan-London, 1949.

C) The golden Bough, A study in Magic and Religion. MacMillan- London 1927.

D) Totemism, MacMillan - Co - it - inc - Edinburgh, 1887.

24 — George Brantl, Catholicism, B. George, New York 1962.

25 — George Gurvich, La sociologie Au XXE siècle P.U.F. Paris, 1949.

26 — Guyau, Irreligion de l'avenir - Paris , 1880.

27 — G. Richard, La Sociologie générale - Ed. Octave, Doin Fils Paris 1912.

28 — Hitti Philip. K., History of Arabs - Macmillan London, 1950 .

29 — Hoebl, E. Man in the primitive world, New York, 1956.

30 — Hogbin, H. Law and order in Polynesia, New York, 1934.

31 — Holbwachs Maurice, Morphologie Social collection, Armand Colin, Paris, 1946.

32 — J. B. Kelly, Eastern Arabian, Frontiers, Faber & Faber - London, 1964.

33 — John Alden Williams, Islam, B. George, New York, 1962.

34 — Khuda Bakhsh, An Introduction to the Islamic civilisation 2nd Edi. M. Ashraf Lahor, 1943.

35 — K. S. Crichwell, Saudi Arabia, with an account of the development of its natural resource, third Edition princton University Press New Jersy, 1958.

36 — La grande encyclopidie Tome: septième, onzième, Douzième, Vingtiéme, vingthuitéme, Trent huitiéme. Paris.

37 — Leslie Dunston, Protestantism B. George, N.Y. 1962.

38 — Leroy C.A., La Religion des primitives, G. Beauchesne Paris. 1825.

39 — Louis Renou - Hinduism - George Braziller - New York, 1962.

40 — Lumley F. E. Principles of sociology McGrow Hill New York 1935.

41 — Max Weber, the sociology of Religion, Methuen and Co. London. 1966.

24 — Michael Argyle, Religious behavicur, Routledge & Kegan Paul London 3rd Ed. 1965.

43 — Micklen Nathanial, Religion, London Oxford University, 1948.

44 — Morris Ginsberg, the psychology of society London University Paper Backs, 19640

45 — Murdock, G., Social Structure, The Processing of Anthropologic Materials in Anthropology to day , Chicago 1950.

46 — Ogburn & Nimkoff, A Hand Book of Sociology Kegan Paul - London, 1964.

47 — P. Sorokin, Les Theories sociologiques, Traduit Francaise Payot - Paris, 1938.

48 — Rad. Brawn - A. R. , Primitive law in Encyclopeadia of Social Sciences Vol IX - New York, 1933.

49 — Rad . Brawn, Structure and function in primitive society, London, 1952.

50 — Regionald Moulding in news times Busines 9/5/1967. opportunities await British Trade.

51 — R. H. Tawney , Religion and the Rise of capitalism penguin book, London 1966.

52 — Richard A. Gard Buddhism, New York, 1962.

53 — Ross E.A., Social control A survey of the foundation of order, MacMillan company, New York, London 1920.

54 — Salomon Reinach · Histoire générale des religions Paris, 1903.

55 — Segarstedt Torgny T. social control as sociological concept Alquist & uppsal, 1948.

56 — Sprott, W.J. Law and opinion in England, Mettwen & Co. Ltd London, 36, Essex street, 1926.

57 — Sumner W. G., Folkways A study of the sociological importance of usages, Manners, Customs and Morals. Ginn & Co. New York, 1934.

58 — Talcott Parsons - Social sructure and Personality - Collier MacMillan - London , 1964 .

59 — The wisdom of confocieous, Modern liberary , New York, 1930.

60 — Wallis Wilson, Religion in Primitive society, New York, 1939.



سلسلة : دراسات فى المجتمع العربى السعودى

صدر منها :

١ — علم الاجتماع المعاصر :

تأليف الدكتور عبد الله الخريجى ، الطبعة الاولى ، القاهرة ، ١٣٩٧ هـ — ١٩٧٧م .

٢ — مقدمة فى علم السكان :

تأليف الدكتور عبد الله الخريجى والدكتور محمد الجوهرى ، **الجزء الاول ،** الطبعة الثانية ، ١٣٩٩ هـ — ١٩٧٩م .

٣ — مقدمة فى علم السكان :

تأليف الدكتور عبد الله الخريجى والدكتور محمد الجوهرى ، **الجزء الثانى** عن الهجرة ، الطبعة الاولى ، ١٣٩٩هـ — ١٩٧٩م .

٤ — طرق البحث الاجتماعى :

تأليف الدكتور محمد الجوهرى والدكتـور عبد الله الخريجى، **الطبعة الثانية** ، ١٣٩٩هـ — ١٩٧٩ م

٥ — الضبط الاجتماعى :

تأليف الدكتور عبد الله الخريجى ، **الطبعة الثانية** ، ١٤٠٢ هـ — ١٩٨٢م .

٦ — **علم الاجتماع الاقتصادى :**
تأليف الدكتور عبد الله الخريجى ، **الطبعة الثانية** ، ١٤٠٣ هـ — ١٩٨٣ م .

٧ — **بعض تجارب التنمية فى الوطن العربى :**
دراسة لعمليات التهجير والتوطين ،
تأليف الدكتور عبد الله الخريجى ، **الطبعة الاولى** ..١٤٠٠هـ — ١٩٨٠م .

٨ — **علم الاجتماع العائلى :**
مع دراسة للاسرة فى الاسلام . تأليف الدكتور عبد الله الخريجى ، **الطبعة الاولى** ، ١٤٠١هـ — ١٩٨١م .

٩ — **علم الاجتماع الدينى :**
تأليف الدكتور عبد الله الخريجى ، **الطبعة الاولى** ، ١٤٠٢ هـ — ١٩٨٢م .

١٠— **نظم المجتمع الاسلامى :**
مع التطبيق على المجتمع العربى السعودى ،
تأليف الدكتور عبد الله الخريجى ، **الطبعة الاولى** ، ١٤٠٣ هـ — ١٩٨٣م .

١١ — **رواد النظرية الاجتماعية :**
تأليف الدكتور محمد الجوهرى والدكتور عبد الله الخريجى ، **الطبعة الاولى** ، القاهرة ١٤٠٣ هـ — ١٩٨٣م .

١٢ — **التغير الاجتماعى والثقافى :**
تأليف الدكتور عبد الله الخريجى ، **الطبعة الاولى** : ١٤٠٣ هـ — ١٩٨٣م .

كتب تحت الطبع ·

١٣ — المجتمع العربى السعودى :

تأليف الدكتور عبد الله الخريجى

تطلب جميع الكتب من ملتزم التوزيع

رامتان — جـــدة

المملكة العربيـــة السعودية

ص.ب رقم ٨٩٥٠